

المركز القومي للترجمة

3333

ليف غوميليوف

تاريخ روسيا

من القبيلة إلى الأمة

ترجمة:
عاطف معتمد
سعد سيد خلف
وائل فهيم

تاريخ روسيا

من القبيلة إلى الأمة

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: كرمة سامى

- العدد: 3333
- تاريخ روسيا: من القبيلة إلى الأمة
- ليف غوميليوف
- عاطف معتمد، وسعد سيد خلف، ووائل فهيم
- عاطف معتمد
- الطبعة الأولى 2021
- التصحيح اللغوى: محمود حنفى، ومبروك يونس
- المشرف على الإنتاج: حسن كامل

هذه ترجمة كتاب:

От Руси До России

Лев Гумилёв

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ روسيا

من القبيلة إلى الأمة

تأليف: ليف غوميليوف

ترجمة: عاطف معتمد

سعد سيد خلف

وائل فهيم

تقديم: عاطف معتمد

2021

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

غوميليوف ، ليف
تاريخ روسيا من القبيلة إلى الأمة / تأليف: ليف غوميليف ؛ ترجمة: عاطف معتمد، سعد سيد خلف ، وائل فهيم، تقديم : عاطف معتمد
القاهرة – المركز القومي للترجمة ، ٢٠٢١
٥٦٤ ص ،٢٤ سم
١ – روسيا – تاريخ
(أ) معتمد ، عاطف (مترجم ، مقدم)
(ب) خلف ، سعد سيد (مترجم مشارك)
(جـ) فهيم ، وائل (مترجم مشارك)
(د) العنوان ٩٤٧

رقم الإيداع: ٢٥٣٥٣ / ٢٠٢١
الترقيم الدولي: I.S.B.N - 978 - 977- 92 - 2015 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة الترجمة

بقلم : عاطف معتمد

العنوان الأصلي لهذا الكتاب هو "من روس إلى روسيا" وقد عدلناه إلى "تاريخ روسيا" ثم ذيلناه بعنوان فرعي هو "من القبيلة إلى الأمة". وأود هنا أن أمهد للقارئ الكريم بعدد من النقاط تقرب إليه هدف هذا الكتاب ومنهجه. ودعوني أضع ذلك في ست نقاط رئيسة.

أولاً: القبيلة

على الرغم من مكانتها كقوة عظمى في فترات طويلة أو قوة إقليمية كبيرة تشارك في صنع القرار العالمي، فإن روسيا التي نعرفها اليوم بهذا القدر وتلك المكانة لم تكن في الأصل سوى مجموعة من القبائل البدائية التي عاشت حياة متخلفة بائسة في شرق أوروبا واحترفت القنص والصيد والإغارة وقطع الطريق. كانت هذه القبائل تحمل اسم "روس" وعرفت في بعض المصادر الأجنبية خارج روسيا باسم "روث" وحمل المنتمي لهذه القبائل اسم "روثيني" أو "روسي".

وإذا كان العالم قد سمع بالروس بوصفهم قوة مؤثرة في التاريخ منذ القرن السادس عشر أي أن عمر روسيا كلاعب في التاريخ لا يزيد عن خمسة قرون، فإنها عاشت حياتها قبل ذلك التاريخ وبصفة خاصة منذ القرن السابع الميلادي في مكانة ثانوية تتأثر بالقوى المحيطة بها وتخضع لها أو تعمل لحسابها.

وحين نقول "تعمل لحسابها" فإننا لا نقع في أي تجاوز بوصفها بالمرتزقة أو الأجيرة، فهذه كانت كلمات المؤلف نفسه حين استخدمها لضرب أمثلة عدة عن الدور الذي لعبته القبائل الروسية للقيام بحملات عسكرية مدفوعة الأجر لصالح القوى المجاورة ومن بينها مملكة الخزر التي توسطت الموقع الجغرافي بين بحر قزوين (بحر الخزر) والبحر الأسود.

كانت هذه القبائل في الأصل جزءا من مجموعة عرقية أكبر تحمل اسم "سلاف Slav" والتي انتشرت في كل المنطقة الفاصلة/الواصلة بين آسيا وأوروبا من بحر البلطيق في الشمال وحتى البحر الأسود في الجنوب.

وقد أشارت عديد من المصادر التاريخية العربية إلى هذه الشعوب السلافية باسم "الصقالبة" وهو مسمى يبدو أنه محرف عن النطق اليوناني "صكيلاب" الذي هو بدوره تنويع على مسمى " سلاف Slav" .

ومن بين كل العناصر السلافية (الصقلبية) تمكنت قبائل "روس" من الانتشار والتماسك وبناء وحدة سياسية.

الحقيقة أن الروس اعترافا منهم ببدائية حياتهم وضعف قدرهم– وانقسامهم على أنفسهم – استعانوا بشعوب أكثر قوة وتنظيما وطلبوا منهم أن "يحكموهم" وهو نمط فريد في القبول الطوعي بتسليم الإدارة والسلطة إلى من هم أكثر قدرة على ذلك من غير أبناء الوطن.

على هذا النحو وصل في عام ٨٦٢ م من شبه جزيرة إسكندناوة القائد روريك ومعه أفواج من القبائل الفارانجية (من الفايكنج) واتخذوا من مدينة "نوفغورود" مركزا ليحكموا منه الإقليم الذي تنتشر فيه القبائل السلافية.

كان الفارانجيون "برابرة" ومحاربين أشداء أجراء أسسوا في "نوفغورود" – وهي مدينة شمالية غير بعيدة عن بحر البلطيق – نظاما للقبائل الروسية ثم سرعان ما نقلوها في مطلع القرن العاشر إلى مدينة أفضل في الطبيعة والمناخ وتوسط الموقع الجغرافي هي "كييف" على نهر الدنيبر.

وسيطلق المؤرخون على تاريخ القبائل السلافية حول كييف مسمى عصر "روس كييف" وستصبح تلك المدينة "أم المدائن" في شرق أوروبا، وفيما بين القرنين العاشر والحادي عشر سيستمر صعود "روس كييف" قويا لقرنين من الزمن قبل أن ينقل الأمراء الروس الموقع إلى موسكو ويعرف تاريخ روسيا مرحلة أو عصر جديد يسمى "روسيا الموسكوفية" بداية من القرن الثالث عشر.

جدير بالذكر أن كييف لم تتأسس من العدم، فالأرجح أنها كانت في الأصل محطة أسسها أمراء دولة الخزر (تلك التي امتدت فيما بين البحر الأسود وبحر قزوين وبلغت ذروة اتساعها في القرن الثامن الميلادي) واتخذ الخزر من كييف نقطة تجميع الجزية على نهر الدنيبر.

سيظل الروس أسرى لهيمنة الخزر إلى أن يتمكنوا من إنزال هزيمة بهم والتحرر من نفوذهم في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ليصبح الطريق ممهدا أمام القبائل الروسية إلى محور بحر قزوين الذي كانت إمبراطورية الخزر قد أغلقته عبر قرون.

ثانيا: الدولة

شهدت المراحل التي ستمر بها القبائل الروسية منذ القرن العاشر الميلادي لبناء دولة فصولا قاسية كي تجد لنفسها مكانا بين الأمم المجاورة.

كان أهم الأمم المجاورة ممثلا في العالم الإسلامي (وعاصمته بغداد) والعالم المسيحي ممثلا في بيزنطة وعاصمتها تسارغراد (مدينة القيصر) المشهورة لاحقا باسم القسطنطينية.

يأخذنا الكتاب في رحلة شائقة لمسيرة قيام الدولة في روسيا. هذه القيامة جاءت وسط تحديات بالغة الصعوبة وتكاد تقترب من المعجزة وسط العمالقة الذين أحاطوا بالقبائل الروسية من كل مكان.

فمن الشمال كانت هناك قوة أكبر ممثلة في السويد وليتوانيا وبولندا، ومن الغرب كان هناك بروسيا ومن الجنوب الإمبراطورية البيزنطية ومن الشرق مملكة الخزر ثم الإمبراطورية المغولية، ومن وراء كل ذلك العالم الإسلامي الذي تمكن من الوصول إلى مشارف الأراضي التي ينتشر فيها الروس في البحر الأسود والقوقاز ووسط آسيا.

ثالثا: التاريخ

صحيح أن هذا الكتاب عن التاريخ، لكنه ليس تاريخ الملوك والأمراء والمعارك فحسب بل هو بالدقة تاريخ "الأعراق" وهو ما يعطي الكتاب مزايا عديدة كما يضعه أيضا في خضم عدة تحديات.

فمن حيث المزايا يتناول الكتاب سلسلة شاملة من أسماء الشعوب والقبائل التي ساهمت في تكوين روسيا كدولة وشعب وحضارة. هذا الحصر الشامل لكل شاردة وواردة في تاريخ روسيا منذ أن كانت قبائل هائمة على وجهها حتى بلوغها مصاف دولة قوية على الساحة الدولية سيرهق من جانب آخر القارئ غير المعني بالتاريخ "الوطني".

التاريخ الوطني هو ذلك التاريخ الذي يضعه مؤلف ويقرؤه أبناء وطن واحد ولذلك تكثر في عبارات مؤلف هذا الكتاب صفة الانتساب فنقرأ دوما "وطننا" و"شعبنا" و"أمتنا" و"أرضنا". وهو ما دعاني في بعض الأحيان إلى تغيير طفيف في هذه العبارات لتناسب القارئ العربي لتصبح "الشعب الروسي" و"الوطن الروسي" و"التاريخ الروسي".

هذا النوع من التاريخ "الوطني" مفيد جدا لأبناء روسيا ولكنه قد يبدو ثقيلا على القارئ خارج هذا الوطن الروسي. وستبدو الأسماء ثقيلة وربما مرهقة والتفاصيل كثيرة بالنسبة للقارئ العربي.

لكن هل لدينا خيار؟ هل يمكن التعامل مع روسيا التي تعد قوة دولية ولاعبًا أساسيًا في التاريخ المعاصر ومسيرة الإنسانية من خلال عناوين الأخبار فحسب؟ متى نعرف تاريخ وحضارة هذا الشعب؟ هل إذا عرفنا مسيرة تاريخه ومركب أعراقه ساعدنا ذلك في علاقات متبادلة قائمة على النور والوعي والإدراك وليس فقط على معالم القشرة الخارجية.

دعونا نعترف من البداية أن الروس يعرفون عن عالمنا العربي أضعاف ما نعرفه عنه. جاء ذلك بحكم نشاط جمعيات الاستشراق وجهود المستعربين الروس والاهتمام ببلادنا لغة وثقافة واقتصادا. في المقابل فإننا لا نعرف عنهم ولا نترجم لهم بالقدر الكاف.

هذا الكتاب يقدم صفحة بالغة الأهمية للقارئ العربي ولصانع القرار ولكل مهتم بالمراكز الحضارية والسياسية في خريطة العالم المعاصر.

وأنصح القارئ الكريم بأن يضع هذا الكتاب إلى جوار كتاب آخر ترجمناه أيضا للمركز القومي للترجمة بعنوان "جغرافية السياسة في روسيا"

ومؤلفه الجغرافي والسياسي ألكسندر دوجين. ومن حسن الحظ أنني شكلت فريقا واحدا للعمل على ترجمة الكتابين وهو ما يفيد القارئ العربي في فهم أوسع لصفحتين من صفحات تاريخ روسيا وحضارتها ودورها السياسي.

وقد وقع الاختيار على الكتابين بالتنسيق مع المركز القومي للترجمة خلال فترة عملي مستشارا ثقافيا لمصر في روسيا ضمن مجموعة من الكتب التي كنا نأمل أن تمد جسورا ثقافية بين الثقافتين.

رابعا: المؤلف وأطروحته

مؤلف هذا الكتاب لم يجمع مادته من المراجع في غرفة مكيفة مغلقة (أو بالأحرى في غرفة مغلقة أمام المدفأة في شتاء روسيا البارد) بل كان صانعا للمعرفة ومنبعا أوليا للمعلومة وراسما لمسار الفكرة والخريطة.

منذ أن كنت طالبا للدكتوراه في كلية الجغرافيا في جامعة سان بطرسبرغ في نهاية تسعينيات القرن العشرين وكان اسم "ليف غوميليوف" يتردد رمزا للجغرافي/المؤرخ الذي اشترك في بعثات للكشف الجغرافي والأثري في جنوب البلاد وبلغت كتبه اثنى عشر كتابا وأكثر من مئتي بحث ودراسة ومقال.

غوميليوف لم يكن عالما قريبا من الدولة أو على الأقل محايدا تجاه سياستها بل كان معارضا في كثير من الأحيان، وهو ما انتهى به إلى السجن عدة مرات في ريعان شبابه (انظر سيرته الذاتية في نهاية الكتاب).

علاوة على المعلومات التي يتحفنا بها والخرائط التي يزودنا بها يصيغ لنا المؤلف أطروحته التي اشتهر بها في علم الجغرافيا التاريخية والتي يمكن

أن نسميها أطروحة "الشغف الخلاق في الفضاء الأوراسي". تقوم هذه الأطروحة على عمودين:

الباسيونارنست وهي كلمة روسية تقابل كلمة "باشن Passion " في اللغات اللاتينية وتعني "الشغف". هذا الشغف يتجاوز مستوى الفرد إلى الشعب والمجموع السكاني ويؤدي تراكمه إلى "دفعة" أو "دفقة" أو "اندفاعة" من الحركة تخلق واقعا جديدا على الأرض. أي أننا أمام "شغف خلاق" ينقل شعوبا لم يكن لها وجود من قبل إلى ساحة الضوء والمكانة البارزة في مسيرة التاريخ.

الفضاء الأوراسي. ويقصد به تلك المنطقة الانتقالية بين قارتي أوربا وآسيا والتي تمثلها حاليا دول أوكرانيا وبيلاروسيا ودول بحر البلطيق فضلا عن عدد من دول حوض البحر الأسود. كلمة أوراسيا مؤلفة من مقطعين "أوربا" و"آسيا" وهذا لا يعني أن الفضاء الجغرافي هو مجموع القارتين بل المنطقة المتداخلة بين القارتين والجمع بينهما هو جمع بين بيئات متنوعة من الغابات والسهوب والجبال والجليد والمستنقعات والأنهار والبحار والبحيرات. هذا التنوع البيئي استلزم تنوعا في نشاط القبائل والشعوب ومحاور تركزها وتحركها وانعكس بالتالي على نشاطها الاقتصادي.

على هذا النحو فإن غوميليوف كان يتناول في كتابه تاريخ روسيا من حيث أنه في الحقيقة تاريخا للشغف الخلاق للشعوب الأورآسيوية.

لا يوقف المؤلف قصة الشغف الخلاق على أسلاف الروس من القبائل السلافية التي سيطرت على شرق أوروبا بل يعود إلى ما قبل هذا التاريخ بأكثر من ألف عام متتبعا الفصول المتلاحقة من دفقات ودفعات الشغف الخلاق التي انتشرت في آسيا وأوروبا أو في "أوراسيا" بمعنى أشمل وأكثر اندماجا.

يأخذنا المؤلف مع رحلة شعوب "الخون" وأحفادهم من "الهون" الذين انتشروا من أقصى الشرق الآسيوي ووصلوا إلى القارة الأوروبية رابطين وموحدين ومهيمنين على الفضاء الأوراسي. وفعل المؤلف الشيء نفسه متتبعا مسيرة القوط، والبچناك والبولغار والقبائل التي انضوت تحت حكم اليهود الخزر وموجات الزحف المغولي.

هذا الكتاب أيضا من الكتب النادرة التي تؤصل لجذور علاقة اليهود والروس منذ القرن العاشر الميلادي وتدخلهم في شؤون روسيا خارجيا وداخليا.

رابعا: المغول في روسيا.. ثنائية النعمة والنقمة

كان سقوط كييف في عام ١٢٤٠ في يد المغول مرحلة جديدة لما ستعرفه روسيا فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر. لكن على خلاف ما تبناه بعض المؤرخين في روسيا من أن غزو المغول كان نقمة وإذلالا للقبائل الروسية وأخذها إلى مصاف التخلف ينتمي مؤلف كتابنا الحالي ليف غوميليوف إلى الرواد الذين قبلوا تعبير "لولا المغول لما قامت روسيا" والذي صكه المفكر الروسي سافيتسكي (في عام ١٩٢٢) معتبرا أنه بفضل "القبيلة الذهبية" التترية اكتسبت روسيا استقلالها الجيوسياسي وحافظت على استقلالها الروحي من عدوانية العالم الروماني الجرماني الغربي المسيحي المتغطرس.

ينتمي غوميليوف إلى تأثير سافيتسكي وغيره من العلماء ممن يردون الاعتبار للتأثير الآسيوي المغولي والتتري والتوركي باعتباره مفهوما حضاريا وجيوسياسيا مميزا عن التأثير الأوربي في الغرب. في هذا السياق

استفاد الروس من النظام الإداري الذي جلبه المغول من حضارات الشرق خاصة الحضارتين الصينية والإسلامية (سيما الحضارة الفارسية).

وخلاصة أطروحة العامل المغولي المؤثر في تاريخ روسيا تقوم على معاكسة المقولات السابقة عن الإذلال المغولي لتطرح محله فرضية سافيتسكي وغيره من أن روسيا هي وريثة الخانات المغولية العظمى، ومكملة إنجازات جنكيز خان وتيمورلانك، وهي بهذه الشكل موحدة الفضاء الأوراسي معا.

تبنى غوميليوف في هذا الكتاب وفي غيره من أعماله السابقة رد الاعتبار للمكون الآسيوي وإسهامه في تكوين الدولة الروسية من خلال التعاطف تجاه الثقافات البدوية في أوراسيا، وفي مؤلفاته السابقة على هذا الكتاب تبنى غوميليوف مصطلح عصر "الفتوحات المغولية"، رافضا وصفها بـ "النير المغولي"، معتبرا أنه بفضل "القبيلة الذهبية" والمبادئ الاجتماعية لقانون "ياسا" الذي وضعه جنكيز خان تشرب الروس العظماء تقاليد البناء الإمبراطوري وحافظوا على الهوية الأرثوذكسية، ما مكنهم بعد ذلك من بناء إمبراطورية عالمية.

خامسا: الدين .. روحانيته واستغلاله البراغماتي

الدين لوحة مهمة من لوحات تاريخ روسيا منذ أن كانت قبائل تعبد الأوثان. أزمة هذه القبائل أنها كانت تعبد أوثانا تتطلب تضحيات وقرابين بشرية دموية مما جعل الكثيرين يخشون هذه الآلهة ولا يحبونها. وحينما حاولت القبائل أن توحد نفسها في القرنين الثامن والتاسع وجدت أزمة تبعثر

الانتماء على أوثان وآلهة متنوعة. من هنا كان لابد من البحث عن دين يوحد هذه القبائل المبعثرة في كيان واحد. يأخذنا المؤلف إلى حيرة الأمراء الروس في البداية تجاه الديانات التوحيدية الثلاث (اليهودية – المسيحية – الإسلام).

لأسباب مختلفة سنعرفها من الكتاب وصفحاته الجادة اختار الزعماء الروس منذ مطلع القرن الحادي عشر المسيحية دينا للقبائل الروسية الوثنية وفرضوه عليهم ووقعت حالات صدام عنيفة بين أتباع الأوثان وأتباع الديانة الجديدة حتى انتصرت الدولة في فرض دينها الجديد وتغيرت مسيرة الدولة ومحاور تحالفاتها ولم تحقق فقط أهدافا روحية لشعبوها بل أهدافا سياسية وإدارية في المقام الأول.

سادسا: ثنائية الشرق والغرب

التعبير الأوراسي الذي ينضوي على بعض غموض لمن لا يعرفون تفاصيل خريطة أوراسيا يمكن التعبير عنه بشكل مبسط بأن روسيا تقدم نفسها على المسرح الدولي باعتبارها حضارة "شرقية/غربية" أي تجمع بين خصال الشرق الآسيوي وسمات الغرب الأوروبي.

هذا الجمع يقدم أزمة وفرصة في الوقت نفسه. فهو أزمة حين تحاول روسيا ضم هذا التنوع الكبير المتشابك والمعقد في تفاصيل حضاراته الفرعية وتنوعات لغته وثقافته داخل حدود بيت واحد كبير اسمه البيت الروسي (وفي تسمية البيت بالـــ"روسي" إغفال لهوية أسماء عشرات الأعراق الأخرى المضطرة لأن تنسب نفسها إلى الهوية الروسية).

أما الفرصة فكامنة في هذا الثراء الطبيعي للأرض التي ضمتها روسيا بالتوسع والحرب على حساب هذه الأعراق وما تحويه هذه الأرض من معادن وخيرات فضلا عما يعيش عليها من شعوب وحضارات متنوعة تثري الحضارة الروسية وتدعمهما وترفدها بروافد إبداعية لا نهاية لها وتجعل منها ما يسميه مؤلف هذا الكتاب "شعبا فائقا" أو ما يقوله حرفيا في مسمى "السوبر إثنوس" أي "العرق السوبر".

الكتاب الذي بين أيدينا هو مرجع أساس تعرفه الأوساط الثقافية والعلمية والأكاديمية في روسيا باعتباره من أشهر كتب التاريخ والحضارة. وإضافته للمكتبة العربية أمر مهم ومفيد، مع التسليم طبعا بأننا نتوقع من القارئ العربي صبرا على أسماء الأماكن الكثيرة وأسماء الأمراء والملوك والشخصيات التي يحفل بها الكتاب والتي تشبه بعضها بعضا وتختلط أحيانا على العين غير المدربة.

ونظرا للإطناب الذي يعتور بعض فقرات الكتاب، فقد سمح المراجع لنفسه بالتخفف من بعضها أو دمجها في فقرات أخرى أو إحالتها إلى هوامش ختامية، وقد تم ذلك في أضيق الحدود الممكنة، كما قام المراجع بتعديل بعض العناوين الفرعية في فهرس المحتويات كي تناسب الذائقة العربية.

وأود هنا أن أوضح أنني أعددت مجموعة مؤلفة من ٢٥ خريطة كان لابد منها لمساعدة القارئ العربي على تتبع رحلة الكتاب. وقد وضعت هذه الخرائط في ملحق خاص في نهاية الترجمة كي يعود إليه القارئ بيسر كلما احتاج أن يتأكد من موقع مكان أو معركة أو حركة شعوب.

وإضافة إلى الجهد الذي بذله فريق الترجمة في هذا العمل، فإنني أود أن أشكر اثنين من الباحثين الشباب ساعداني في إتمام عملية تجهيز الكتاب في نسخته العربية ورسم ملحق الخرائط وهما الشابان الواعدان "محمود ربيع" و"محمد وحيد" من خريجي قسم الجغرافيا جامعة القاهرة عام ٢٠١٩.

تمهيد

لماذا تشهد روسيا اليوم تزايدا غير مسبوق في الاهتمام بالتاريخ؟ هل لاحظتم كيف تتنامى إلى مسامعنا مقولة أن التخبط في مشاكل الحياة المعاصرة يدفع الناس للبحث في التاريخ بحثا عن سبيل خروج من معضلات الحاضر؟

يلفت انتابهنا أيضا أن الاهتمام بالتاريخ يؤشر على شيء آخر، إذ إن الناس في بلادنا يبدو وكأنهم يرون "التاريخ" و"الحاضر" خطين مختلفين لا يلتقيان. بل في كثير من الأحيان يصطدم التاريخ والحاضر حين يقول بعضهم: "لا يعنينا سوى الحاضر، نحتاج إلى معرفة اليوم ولا حاجة لنا بالأمس!" ومثل هذه الأفكار نسمعها على السواء في النقاش الأكاديمي، أو في حفلة شاي، أو في زحمة سوق شعبي.

في الواقع، هناك بعض الأسباب الوجيهة لمقابلة العصر الحاضر بالتاريخ، فكلمة "التاريخ" ذاتها تعني "ما وقع سابقًا"، "ليس اليوم"، وبالتالي، لا يمكن تخيل علم التاريخ دون مراعاة التغييرات التي تفصل "الأمس" عن "اليوم".

ربما يكون عدد وحجم هذه التغيرات ضئيلاً، لكن لا يوجد التاريخ خارج إطارها. أما الحديث عن "العصر"، على العكس من ذلك، فنقصد به نظام العلاقات المتبادلة المألوفة التي تبدو لنا مستقرة داخل البلاد وخارجها. هذا المألوف والاعتيادي – غير القابل للتغير – عادة ما يتم مقابلته بالتاريخ،

أي بالأمر غير الواضح وغير الملموس وبالتالي غير المفهوم. وبعد ذلك يصبح كل شيء بسيطا: إذا كنا لا نستطيع من وجهة النظر المعاصرة شرح وتفسير تصرفات وأفعال الشخصيات التاريخية، فإن هذا يعني أن هذه الشخصيات لم تكن متعلمة، وكان لديها العديد من القوالب والأفكار المسبقة، وعموما كانت تعيش دون الاستفادة بفوائد التقدم العلمي والتكنولوجي. وهو أمر يعبر عن بؤسها!

والواقع أن أغلبنا لا يدرك أن الماضي ذاته كان بمثابة "حاضر" في عصره. ومن ثم، فإن الثبات الظاهر للحاضر ليس سوى خداع، وهو نفسه لا يختلف في حد ذاته عن التاريخ. فكل الحاضر الممدوح ليس سوى لحظة عابرة سرعان ما ستصبح أثرا من الماضي. هل نظن أن استعادة صباح هذا النهار الذي انقضى أسهل من استعادة حقبة الحروب البونيقية أو الحملات النابليونية؟

ومن المفارقة، كما قد يبدو، أن الحاضر من المتخيلات، بينما التاريخ حقائق دامغة تحققت. يتميز التاريخ بتغير الحقب، تلك الحقب المميزة لفجائية انهيار توازن الشعوب والدول: فالقبائل الصغيرة تقوم بحملات وغزوات كبيرة، والإمبراطوريات القوية تصبح لا حول لها ولا قوة. وثقافة تحل محل أخرى، وآلهة الأمس تغدو أصناما عديمة القيمة. ولملاحقة تصنيف ترتيب كل هذا تعمل أجيال متتابعة من علماء التاريخ.

التاريخ إذن هو تغير مستمر، هو إعادة هيكلة سرمدية لما يبدو في الظاهر أنه استقرار. فعند البحث في كل لحظة من اللحظات في منطقة ما من المناطق، سوف نرى صورة فوتوغرافية لنظام مستقر نسبيا من أشياء مترابطة من الناحية الجغرافية (مشهد الأرض)، والسياسة الاجتماعية (الدول)

والاقتصادية والعرقية. ولكن ما إن نتحرر من دراسة كل حالة على حدة، ونعتني بعدة حالات معا – أي ندرس العملية المستمرة المتصلة – تتغير الصورة، وتبدو وكأنها لغز من ألغاز الأطفال، وليست خطوط خرائط صارمة ذات نقوش صامتة.

دعونا على سبيل المثال نلقي نظرة على أوراسيا في بداية القرن الأول الميلادي، حين احتلت الإمبراطورية الرومانية أقصى الحدود الغربية للقارة الأوراسية العظيمة. فهذه الدولة والقوة الكبرى، التي انبثقت من بلدة صغيرة، أسستها قبيلة اللاتين في القرن الثامن قبل الميلاد، استوعبت في داخلها العديد من الشعوب. وقد اندمج عضويا في بنية الإمبراطورية المثقفون الهيلينيون الذين ظلوا بشكل عام رعايا موالين لفترة طويلة. في حين كان الوضع مختلفا مع الألمان، الذين عاشوا وراء نهر الراين ، إذ بدأ الرومان، على العكس، في قتال الألمان. وبالرغم من وصول الزعيمين المنتصرين "جرمانيكوس" وإمبراطور المستقبل "تيبيريوس" على رأس الفيالق إلى نهر إلبه، فإنه وبحلول منتصف القرن الأول الميلادي تخلى الرومان عن فكرة غزو الألمان.

إلى الشرق من الألمان عاشت القبائل السلافية التي أعطاها الرومان نفس الوصف الذي أطلقوه على الألمان ألا وهو "البرابرة"، ولكن في الواقع كان السلاف شعبًا مختلفًا لا يجمعه بالألمان أي تشابه.

وإذا اتجهنا أكثر شرقا، في سهوب البحر الأسود وكازاخستان الممتدة بلا حدود، فسوف نجد في ذاك الوقت شعبًا بالكاد يشبه الأوروبيين، وهو السارمات. أما على الحدود مع الصين، في إقليم منغوليا الحالية، فقد كان يتنقل شعب الهون الرحل.

ومثلما احتلت الأطراف الغربية لأوراسيا قوة مهيمنة هم الرومان احتلت قوة كبرى الأطراف الشرقية لأوراسيا ممثلة في إمبراطورية هان في الصين. لقد اعتبر الصينيون أنفسهم – مثلهم مثل الرومان – شعبا مثقفًا متحضرًا يعيش محاطا بقبائل "بربرية". لم يتلق الرومان والصينيون مرة واحدة أو صادفوا بعضهم البعض، وإن لم يمنع أنه ربما جرت بعض اتصالات بينهم. فالخيط الرفيع الرابط بين الإمبراطوريتين، غير المرئي ولكن المتين، كان طريق الحرير العظيم. فعبره تدفق الحرير الصيني إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط ليستبدل بالذهب والسلع الفاخرة.

ومع ذلك لم يلتق الصينيون والرومان على طريق الحرير العظيم، لأن لا هؤلاء ولا أولئك كانوا يسيرون القوافل. بل كان يسير بالقوافل شعب وسيط هو "الصُوغديان" من شعوب آسيا الوسطى، فضلا عن اليهود الذين أتقنوا التجارة الدولية ذاك الحين. تحت قيادة الصُوغديان واليهود عبرت القوافل مساحات شاسعة من القارة. وعلى حدودها ومشارفها، في القلاع الرومانية وعلى سور الصين العظيم، وقف الحراس ليلا ونهارا على حراسة أمن وسلام الإمبراطوريتين "المتحضرتين".

دعونا هنا نسأل سؤالاً بسيطًا: ما الذي منع هذا النظام الذي تم إرساؤه للعلاقات من البقاء إلى عصرنا هذا؟ لماذا لا نرى اليوم لا الرومان ولا طريق الحرير العظيم؟ والجواب ببساطة: لأنه مع نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلاديين تغير الوضع تماما: لقد بدأ عديد من شعوب تلك المنطقة في التحرك والانتقال.

في وادي نهر فيستولا بدأت الهجرة الكبرى للشعوب من سكان اسكندنافيا، وهو ما أصبح سببا لهلاك الإمبراطورية الرومانية الموحدة. في

ذات الوقت بدأت حركة السلاف الذين غادروا الأراضي الواقعة بين نهري فيستولا وتيسا وتوزعوا وانتشروا لاحقا في الامتداد من بحر البلطيق في الشمال إلى البحر الأدرياتي والبلقان في الجنوب، ومن نهر إلبه في الغرب إلى نهر الدنيبر في الشرق.

بدأت قبيلة الداتشي- التي كانت تشغل أراضي رومانيا في الوقت الحاضر - الحرب ضد روما، واحتاجت الإمبراطورية ٢٠ عاما من النضال لكي تتمكن قوات البحر المتوسط بأكملها - والتي توحدت تحت قيادة القائد العسكري العبقري الإمبراطور تراجان - من هزيمة هذا الشعب.

وقد نشأت من المجتمعات المسيحية التي تشكلت في سوريا وفلسطين في ذلك الوقت عرقية جديدة وهي "عرقية أتباع المسيح". واستطاع حاملو التعاليم التي كانت مضطهدة في يوم من الأيام ليس فقط الحفاظ عليها فحسب، بل وأيضاً جعلها أيديولوجية رسمية في أحد أجزاء الإمبراطورية المنهارة. وهكذا في مقابل الإمبراطورية الرومانية الغربية المحتضرة نشأت قوة مسيحية جديدة ممثلة في بيزنطة.

في فلسطين نفسها نشأ مركز مقاومة ضد الحكم الروماني. فشعب اليهود الصغير تعرض بعد انتفاضتين لقمع وحشي على يد الرومان فاضطر لمغادرة وطنه التاريخي. غير أن ظهور الشتات اليهودي والتبشير بالمسيحية انقلب وتحول بالنسبة للرومان إلى عملية تقوية وتعزيز لوضع الأديان الشرقية في قلب الإمبراطورية وما يتبعها من أقاليم ومقاطعات.

لقد أصبح الشرقان الأدنى والأقصى في ذلك الوقت مصدرا للمصائب والعلل بالنسبة لروما. فقد وجد فرع من الهون - ممن تركوا سهوب منغوليا عبر هجرة غير مسبوقة - أنفسهم في أوروبا. وفي القرن الرابع الميلادي

تمكن أحفاد الهون من سحق مملكة القوط، بل وكادوا يدمرون الإمبراطورية الرومانية بأسرها.

وهكذا، إذا حاولنا تخيل أوراسيا في القرنين الخامس والسادس، فسوف نرى صورة جد مختلفة عن تلك التي كانت قائمة في القرن الأول. فالإمبراطوريات الجديدة قامت على تخوم ومشارف القارة، وباتت شعوب مختلفة تتجول في فضاءات السهوب العظيمة.

يتكون تاريخ البشرية بأكمله من سلسلة من مثل هذه التغيرات. والسؤال هنا: هل من قانون يحكم تغير الإمبراطوريات والممالك والعقائد والتقاليد؟ هل تتسق تلك التغيرات في قانون ونمط داخلي؟ أم يتحرك كل ذلك في فوضى يصعب توصيفها؟

منذ زمن بعيد والناس يبحثون عن إجابة، رغبةً في فهم جذور تاريخهم. بالطبع جاءت الإجابات مختلفة ومتنوعة، لأن التاريخ متعدد الأوجه: فهو يمكن أن يكون تاريخاً من التكوينات الاجتماعية والاقتصادية أو التاريخ العسكري، أي وصف للحملات والمعارك، أو أنه تاريخ التكنولوجيا أو الثقافة، تاريخ الأدب أو الدين. فكل هذه هي تخصصات مختلفة تتعلق بالتاريخ. ولأن بعض المؤرخين المنتمين للمدرسة القانونية درسوا التشريعات والقوانين الإنسانية ومبادئ الحكم. بينما البعض الآخر كانوا مؤرخين ماركسيين فقد نظروا إلى التاريخ من خلال منظور تطور القوى المنتجة، في حين أن فريقا ثالثا تعاطى مع ذلك من وجهة نظر علم النفس الفردي...إلخ

هل يمكن تخيل التاريخ البشري كتاريخ للشعوب؟ دعونا نحاول أن ننطلق من حقيقة أن الفضاء المكاني داخل حدود كوكب الأرض ليس متجانسًا على الإطلاق. والفضاء المكاني أو المكان هو بالذات الملمح الأولى الذي به

تتميز الأحداث التاريخية. فحتى الإنسان البدائي كان يعرف حدود موطنه، وهو ما يقصد به الفضاء الجغرافي الذي كان يوفر له الغذاء والمكان الذي يعيش فيه هو مع عائلته وقبيلته.

أما الملمح الثاني، فهو الزمان. فكل حدث تاريخي لا يحدث في مكان ما فحسب، بل وفي توقيت زمني أيضا. وقد كان البشر البدائيون أنفسهم على وعي تام، ليس فقط بـــ "مكانهم"، بل أيضًا بحقيقة أن لديهم آباء وأجدادًا ولديهم أبناء وأحفاد. لذلك، فكما توجد في المكان إحداثيات مكانية توجد في التاريخ إحداثيات زمنية أيضاً.

لكن لدينا في التاريخ ملمح آخر لا يقل أهمية. وإذا كان من الناحية الجغرافية ينبغي النظر إلى البشرية جمعاء كـــ "غلاف بشري"، أي إحدى أغلفة الأرض المرتبطة بكينونة الإنسان العاقل *Homo sapiens*. فبقاء البشرية في حدود هذا النوع امتلكت خاصية رائعة، إذ إنها باتت عبارة عن فسيفساء تتألف من ممثلي شعوب مختلفة، أو بلغة العصر "مجموعات عرقية".

يتشكل التاريخ إذن ضمن إطار المجموعات العرقية في اتصالها مع بعضها البعض، فكل حقيقة تاريخية هي ثروة من حياة شعب معين. ووجود هذه الوحدات المتكاملة، أي المجموعات العرقية، في المجال الحيوي للأرض يشكل المعلمة الثالثة التي تميز العملية التاريخية. وتعد المجموعات العرقية القائمة والموجودة في المكان والزمان بمثابة الشخصيات الفاعلة في مسرح التاريخ. وفيما يلي عند حديثنا عن المجموعات العرقية سوف يكون قصدنا هو مجموعة الناس التي تميز نفسها في مقابل جميع المجموعات الأخرى المماثلة، وذلك ليس على أساس حسابات واعية، ولكن انطلاقا من شعور التكامل، شعور لا واعي بالتعاطف المتبادل والمشاركة بين هؤلاء الناس، هذا

الشعور مؤلف من صيغة تقابل ومعارضة تقوم على ثنائية "نحن" في مقابل "هم"، "ناسنا" أو جماعتنا" في مقابل "الأغيار".

وكان ينبغي على كل مجموعة في هذا النوع لكي تستطيع العيش على الأرض أن تتكيف وتتناغم مع ظروف مشهد الأرض الطبيعي الذي يجب أن تعيش فيه. ومن صلات المجموعة العرقية مع الطبيعة المحيطة تتولد علاقات الترابط المكاني فيما بين المجموعات العرقية. لكن بطبيعة الحال كان بإمكان أعضاء المجموعة العرقية التكيف مع هذا المشهد الطبيعي فقط عبر تغيير سلوكهم، وتعلم ما القواعد المحددة للسلوك، أي الصور والقوالب النمطية. وبدورها فإن القوالب النمطية المكتسبة (التقاليد التاريخية) تصنع الفارق الرئيس بين أفراد مجموعة عرقية وأخرى.

ولوصف تقاليدهم التاريخية يحتاج أفراد المجموعة العرقية إلى نظام مرجعي لقياس الزمن. وأسهل طريقة لذلك هي الدورات الزمنية. تظهر الملاحظات البسيطة أن النهار والليل يشكلان دورة متكررة تكوِّن اليوم. وبالمثل، فإن الفصول، بالتناوب، تشكل دورة أكبر وهي السنة. وبسبب هذه البساطة والوضوح، فإن أول نظام قياس للوقت عرفه الإنسان، وظل يستخدم حتى الآن هو نظام الحساب بالدورات الزمنية. ولعلنا نلاحظ أن فكرة دوران الزمن ترتبط مع أصل الكلمة الروسية "فريميا، ومعناها الوقت" التي لها ذات الجذر الذي لفعل "فيرتيت، ومعناه دار- تحول" ولكلمة "فيريتينو، ومعناها خشبة المغزل أو عمود الدوران").

في الشرق، على سبيل المثال، تم اختراع نظام لحساب الزمن، يطلق فيه على كل ١٢ عاما اسم عنصر من عناصر الحياة الأربعة، وكان يتم تصويره بلون معين (الأبيض للمعادن، الأسود للتراب، الأحمر للنار، الأزرق

والأخضر للنباتات). ولكن بما أن المجموعة العرقية تدوم وتعيش لفترة طويلة جدا، فلم تكن فترة الدورة السنوية أو حتى الدورة الإثنتي عشرة سنوية كافية في كثير من الأحيان بالنسبة للشعوب الشرقية لوصف الأحداث المخزنة في ذاكرة الناس.

في البحث عن مخرج من هذا الطريق المسدود، بدأ الناس في استخدام قياس الزمن الخطي، حيث يبدأ حساب التسلسل الزمني من لحظة معينة في الماضي التاريخي. بالنسبة إلى الرومان القدماء كانت هذه اللحظة المفترضة هي تاريخ تأسيس روما، وبالنسبة إلى الهيلينيين عام أول أولمبياد. بينما يبدأ المسلمون حساب التسلسل الزمني بداية من هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة. أما الكرونولوجيا المسيحية، التي نستخدمها، فتحسب من ميلاد المسيح. وفيما يتعلق بالقياس الخطي للزمن، فيمكننا فقط أن نقول إنه يؤكد – على عكس نظام الدورات الزمنية – على عدم رجعة الزمن.

في الشرق كانت هناك طريقة أخرى لإدراك الوقت وحسابه. وأورد لذلك مثالا. وقعت أميرة من سلالة "تشينغ" الصينية الجنوبية في أسر سلالة "صوي" الشمالية. وأدخلت هذه الأميرة في حريم الخان التركي فاتخذها زوجة لأنه كان يرغب في أن يكون مرتبطا بعلاقة مصاهرة مع الأسرة الإمبراطورية الصينية. كانت الأميرة تشعر بالملل في السهوب ما دفعها لتأليف القصائد. وتقول في واحدة من أشعارها:

ها الانكسار يعقب المجد والشرف،

وكأن نواميس الدنيا دوائر على ماء

يموت الألق ويفنى الجلال،

ويساوي الزمن بطيحة ماء آسن وبرج سماوي سامق
لا الثروة ولا الترف ولا الوفرة،
تعوض ساعة راحة بال وصفاء رائق
من قال إن كأس النبيذ تدوم لذته؟
كيف وأصوات العود تسمع تارة وتخبو تارة أخرى؟
وا غربتاه !، كريمةُ مُلكٍ كنتُ من قبلِ،
والآن أهيم مع الرعاة في البيد
أجول بلا مأوى وحيدة في ليلٍ،
ترافقني موجات من يأس ومن أمل
إن التقلب سمة الأرض من قِدَمٍ،
أبصر تراه عيناك في كل منقلب
أنشودة صدحت بها الأصوات من دهر:
لا راحة لقلب شرده الترحال والسفر.

هنا ينظر إلى تدفق الزمن ومروره كحركة متذبذبة، ويتم تخصيص فترات زمنية معينة بحسب تشبعها بالأحداث. في الوقت نفسه، يتم إنشاء "مواقع" منفصلة كبيرة من الوقت. وصفها الصينيون بكلمة سهلة واحدة وهي "تقلبات". كل "تقلب" يحدث في لحظة معينة من الزمن التاريخي وبعد أن يبدأ لا يصل إلى نهايته لا محالة ليحل محله "تقلب" آخر. ويساعد هذا الإحساس بتقارب تقلبات الزمن في تسجيل وفهم مسار الأحداث التاريخية وترابطها واتساقها.

وبالتالي، فإن الوقت المتقطع ينطبق بالتساوي على تاريخ البشرية، وعلى تاريخ الطبيعة. فالجيولوجيا التاريخية الموصوفة جيدًا تعتمد على العصور والفترات التي يكون في كل منها للمحيط الحيوي للأرض طابع خاص. هذا إما عصر فحمي "رطب" مع وفرة كبيرة من البرمائيات، أو "جاف" من العصر البرمي مع وجود الزواحف الكبيرة التي عاشت بالقرب من المياه. في ثلاث فترات من الدهر الوسيط وهي الترياسي والجوراسي والكريتاسي، في كل مرة كان هناك مجموعات نباتية جديدة وحيوانات جديدة. ثم عاد العصر الجليدي ليحل من جديد محل العالم الحيواني والنباتي للأرض.

قبل هذا العصر، عاش في أفريقيا الأسترالوبيثكس الذي يشبه إلى حد ما الإنسان المعاصر. بعد العصر الجليدي ظهر إنسان نياندرتال برأس ضخم وجذع قوي وجسم ممتلئ. وفي ظل ظروف غير معروفة اختفى إنسان نياندرتال وحل محله إنسان النوع المعاصر، أي الإنسان العاقل. وقد عثر في فلسطين على آثار مادية لصدام بين هذين النوعين من الناس: الإنسان العاقل وإنسان نياندرتال. وفي مغارة السخول وطابون على جبل الكرمل تم العثور على بقايا هجينة من هذين النوعين. من الصعب تخيل ظروف ظهور هذا الهجين، خاصة إذا اعتبرنا أن إنسان نياندرتال كان من أكلة لحوم البشر. على أية حال، اتضح أن هذا النوع المختلط الجديد لم يكن قابلا للحياة والاستمرار.

وهكذا، اختفى انسان نياندرتال البدائي، وفي وقتنا الحاضر الأرض يسكنها البشر (الإنسان العاقل المعاصر)، وعلى الرغم من أنهم من خمسة أعراق مختلفة، ولكنهم ينتمون إلى نفس النوع البيولوجي. ولذلك، لدينا الحق في اعتبار أنه لا توجد صلة واتصال مباشر بين إنسان نياندرتال والإنسان

المعاصر. ولكن بذات الدرجة مثلما لا توجد صلة تجمع صيادي كرومانيون الذين كانوا يصطادون الماموث مع السلتيين القدماء، أو تربط بين الرومان والرومانيين، أو بين الهون والمجريين.

في تاريخ الجماعات العرقية (الشعوب) – كما في تاريخ الأجناس – نصطدم بحقيقة أنه من وقت لآخر في أجزاء معينة من الأرض يحدث انقطاع مطلق في التسلسل، وذلك عندما تختفي المجموعات العرقية القديمة وتظهر أخرى جديدة. فالفلسطينيون والكلدان والمقدونيون والأتروريون ينتمون إلى العصور القديمة. فلم يعد لهم وجود الآن(*)، ولكن في وقت ما أيضا لم يكن هناك وجود للإنجليز والفرنسيين والإسبان والسويديين. وهكذا، يتضح أن التاريخ العرقي يتكون من "بدايات" و"نهايات".

لكن السؤال هو من أين ولماذا تظهر هذه المجتمعات الجديدة، وتبدأ فجأة في فصل نفسها عن جيرانها على نحو ما يقول البعض "حسناً نحن نعرفكم: أنتم ألمان، أما نحن ففرنسيون!"؟ من المفهوم أن كل جماعة عرقية لها جد، وليس جَدًّا واحدا فقط، بل عدة أجداد. على سبيل المثال، جاء أسلاف الروس من الروس القدماء والمهاجرين من ليتوانيا والقبيلة الذهبية والقبائل الفينوأوغرية المحلية. غير أن تحديد الجد لا يعالج بالكامل مشكلة تكوين المجموعة العرقية الجديدة. فالأسلاف موجودون دائما، أما المجموعات العرقية فتتشكل سواء في الزمان أو في المكان. وعلى الرغم من أنه قد يبدو أن هذا السؤال لا جواب له، ولكن لنتذكر أنه قبل مائة عام لم يكن هناك

(*) خلافا لما يقوله المؤلف فإنه من الجلي أن الشعب الفلسطيني ما زال موجـودا علـى ترابه إلى اليوم. (المترجم)

إجابة بذات الدقة على السؤال المطروح عن أصل الأنواع على النحو الذي قدمته نظرية داروين.

في القرن الماضي، في عصر التطور السريع لنظرية التطور، قبل وبعد داروين على حد سواء، كان الاعتقاد هو أن بعض الأجناس والجماعات العرقية تشكلت نتيجة صراع من أجل البقاء. بينما اليوم، قليلون هم من يقبلون بهذه النظرية، وذلك لأن الكثير من الحقائق تصب في مصلحة مفهوم ونظرية الطفرات الجينية. ووفقا لها، تنشأ كل أنواع جديدة نتيجة للطفرة الجينية، أي نتيجة تغير مفاجئ في جينات الكائنات الحية، ويأتي هذا التغيير تحت تأثير الظروف الخارجية في مكان معين في وقت معين. وبطبيعة الحال، فإن وجود الطفرات لا يلغي عملية التطور الداخلية للأنواع: فإذا أدت المؤشرات التي تظهر إلى ازدياد قابلية الأنواع للحياة، فهي تتكاثر وتتثبت في النسل لفترة طويلة جدا. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فإن الانقراض يكون مصير حامليها بعد بضعة أجيال.

نظرية الطفرة الجينية للأنواع تتسق بشكل جيد مع الحقائق المعروفة للتاريخ العرقي. ولنتذكر المثال السابق ذكره بشأن الهجرة في القرنين الأول والثاني للميلاد. فقد كانت الحركة القوية للمجموعات العرقية الجديدة قصيرة نسبيا وفي النطاق الضيق الممتد من جنوب السويد إلى الحبشة. ولكن مع ذلك هذه الحركة تحديدا هي التي دمرت روما وغيرت الخريطة العرقية لكامل حوض البحر المتوسط الأوروبي.

ونتيجة لذلك، يمكننا أيضًا بشكل افتراضي الربط بين بداية التكوين الإثني وآلية الطفرة الجينية، والتي تظهر نتيجة لها ما تعرف بـــ "الهزة" العرقية التي تؤدي بعد ذلك إلى تكوين عرقيات جديدة. ترتبط عملية التكوّن

الإثني بعلامة جينية محددة لدرجة كبيرة. وهنا نقوم نحن بإدخال وتقديم محدد جديد من محددات التاريخ العرقي وهو مفهوم "الشغف الخلاق" (باسيونارنوست "passionarnost"). والشغف الخلاق علامة ومؤشر ينبثق من الطفرة الجينية (دافع خلاق) ويولد داخل مجموعة معينة من الأشخاص الذين لديهم رغبة متزايدة في الفعل والتأثير. وسوف نسمي هؤلاء الناس بذوي الشغف الخلاق (أصحاب الهمم العالية).

يسعى أصحاب الشغف الخلاق لتغيير العالم والبيئة المحيطة ولديهم القدرة على فعل ذلك. إنهم أولئك الذين يقومون بالحملات البعيدة، التي يعود منها قليلون. إنهم من يقاتلون من أجل غزو وإخضاع الشعوب التي تحيط بمجموعتهم العرقية أو بالمقابل، يقاتلون لصد الغزاة. لمثل هذا النشاط هناك حاجة لقدرة متزايدة على التحمل، إذ يرتبط أي مجهود للكائن الحي بإنفاق نوع معين من الطاقة. وهذا النوع من الطاقة اكتشفه ووصفه ابن وطننا العظيم الأكاديمي ف. إ. فيرنادسكي، وقد أطلق عليه اسم الطاقة الحيوية (البيوكيميائية) في المادة الحية للمحيط الحيوي (البيوسفير).

إن آلية التواصل بين الشغف الخلاق والسلوك بسيطة للغاية. عادة ما يكون لدى الناس، كما لدى الكائنات الحية، ذاك القدر من الطاقة اللازمة للحفاظ على الحياة. إذا كان الجسم البشري قادرًا على "استيعاب" الطاقة من البيئة المحيطة بمعدل أكثر من اللازم، فإن الشخص يقوم ببناء وتشكيل علاقاته مع الناس واتصالاته التي تمكنه من استخدام هذه الطاقة في أي من المجالات أو الاتجاهات التي يختارها. وهذا معناه أنه من الممكن إنشاء نظام ديني جديد أو ابتكار نظرية علمية: بناء الأهرامات أو برج إيفل، وهلم جرا. وفي هذه الحالة لا يكتفي أصحاب الشغف الخلاق بدور المنفذين الفعليين،

ولكن أيضا يضطلعون بدور المنظمين. فباستثمارهم لطاقتهم الزائدة في تنظيم وقيادة أفراد القبيلة في جميع مستويات التسلسل الهرمي الاجتماعي، هم أيضا يقومون، وإن بصعوبة، بتطوير أنماط جديدة من السلوك، يقومون بفرضها على الآخرين وبالتالي يخلقون نظاما إثنيا جديدا، مجموعة عرقية جديدة، يراها التاريخ ويذكرها.

لكن مستوى الشغف الخلاق في المجموعة العرقية لا يبقى دون تغيير. إذ تمر المجموعة العرقية، بعد نشأتها، عبر سلسلة من مراحل التطور التي يمكن تشبيهها بمراحل التطور العمري للإنسان. فالمرحلة الأولى هي مرحلة صعود الشغف الخلاق للمجموعة العرقية الناجمة عن دفعة الشغف المنبثقة. ومن المهم أن نلاحظ هنا أن العرقيات القديمة التي على أساسها تنشأ المجموعات والأعراق الجديدة، ترتبط ببعضها كنظام معقد البناء. فمن بين مجموعات إثنية فرعية غير شبيهة في بعض الأحيان تنشأ وحدة طاقة خلاقة متكاملة ومتلاحمة تقوم عبر التوسع بإخضاع الشعوب القريبة إقليميًا. هكذا تنشأ المجموعة العرقية. والمجموعة المكونة من عدة إثنيات في منطقة واحدة تشكل مجموعة إثنية "سوبر" أو عرقا أسمى وأعلى "سوبر إثنوس superethnos ". فبيزنطة كانت بمثابة إثنية سوبر superethnos ظهر نتيجة للدفعة الخلاقة التي حدثت في القرن الأول الميلادي، وكانت تتألف من اليونانيين والمصريين والسوريين والجورجيين والأرمن والسلاف، واستمرت حتى القرن الخامس عشر).

بصفة عامة تتسم مدة حياة المجموعة العرقية بالتساوي وتبلغ من لحظة الدفعة الخلاقة وحتى الانهيار نحو ١٥٠٠ عام، إلا في الحالات التي ينتهك فيها العدوان الأجنبي المسار الطبيعي للتكوين الإثني.

أما بلوغ أعلى ارتفاع للطاقة الخلاقة (ذروة التكوين الإثني) فيثير في الناس الرغبة في عدم إنشاء الوحدة، وإنما "ليكونوا أنفسهم على طبيعتهم"، أي بعدم الخضوع لقوانين العامة، والاعتبار والاعتداد فقط بالطبيعة الخاصة. عادة، كما ثبت في التاريخ تكون هذه المرحلة مصحوبة بتنافسات وتناحرات داخلية ومجازر، تؤدي إلى تعطيل مسار التكوين الإثني لفترة من الزمن.

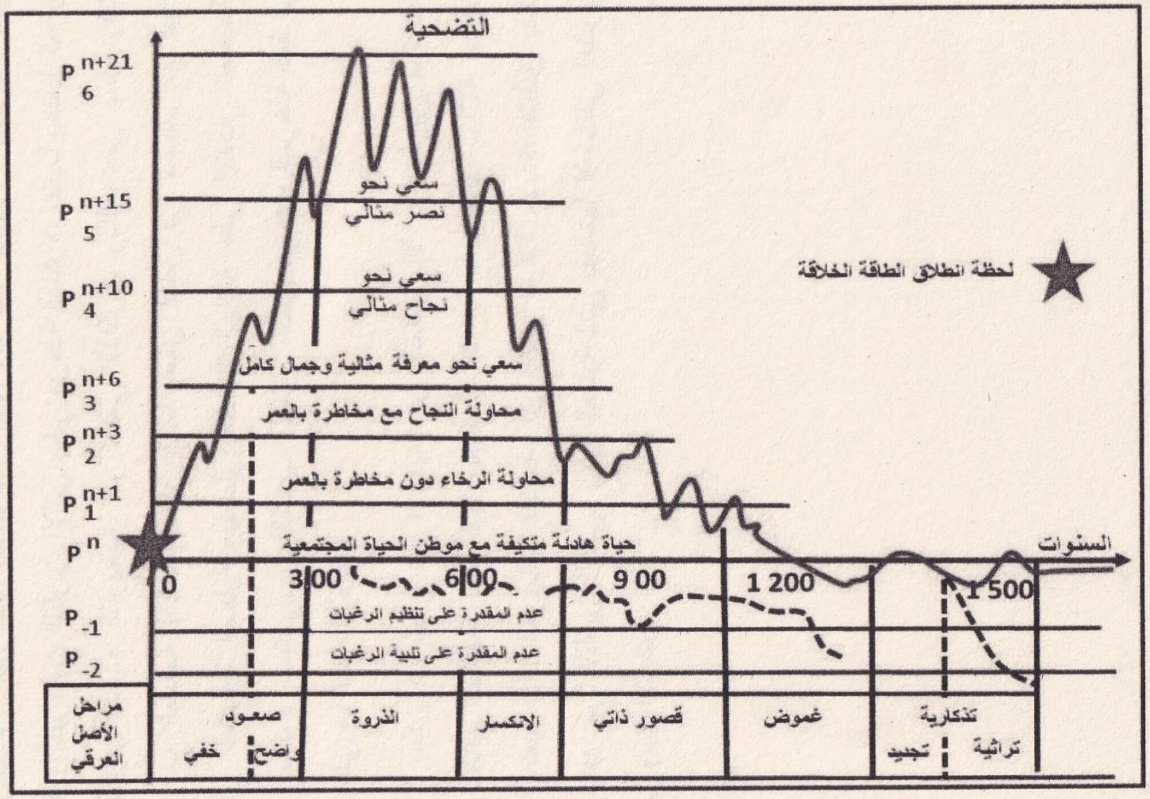
بالتدريج، نتيجة للمجازر، تنخفض شحنة الشغف الخلاق للمجموعة العرقية، لأن الناس يبيدون بعضهم بعضا جسديا. وتندلع الحروب الأهلية، وسنطلق على هذه المرحلة مرحلة الانهيار. وهي كقاعدة عامة تكون مصحوبة بتبديد ضخم للطاقة يتبلور في المعالم الثقافية والفنية. لكن الازدهار الخارجي للثقافة يتوافق مع انخفاض الشغف الخلاق وليس صعوده. تنتهي هذه المرحلة عادة بسفك الدماء. ثم يقوم النظام بطرد الطاقة الخلاقة المفرطة، ويتم استعادة التوازن الظاهري في المجتمع.

تبدأ المجموعة العرقية في العيش وفق مبدأ "القصور الذاتي"، وذلك بفضل القيم الموروثة.. وتعود من جديد التبعية المتبادلة بين الناس لبعضهم البعض، ويحدث تكون الدول الكبيرة، وإنشاء وتراكم الثروة المادية.

يأخذ الشغف الخلاق في الانحسار تدريجيا. عندما تصبح الطاقة في النظام قليلة، فالموقع الرائد في المجتمع تشغله المستويات المتدنية من الشغف الخلاق، أي الأشخاص منخفضو الهمة. وهم لا يسعون فقط إلى تدمير طاقة أصحاب الشغف الخلاق بل إلى تدمير الناس المتجانسين المحبين للعمل بهمة وجدية. هنا تحل مرحلة من التعتيم، تصبح فيها عمليات الاضمحلال في النظام العرقي الاجتماعي واقعة لا محالة. في كل مكان يسود أناس كسولون بالغو الأنانية يحتكمون إلى مطامع نفسية استهلاكية. وبعد أن يأكل قليلو

الهمة ويشربون كل القيّم المحفوظة والموروثة منذ العصور البطولية، تأتي المرحلة الأخيرة من التكوين الإثني وهي مرحلة الذاكرة، عندما يحتفظ العرق فقط بذكرى تقاليده التاريخية. ثم تختفي الذاكرة: وذلك حين يحل وقت التوازن مع الطبيعة (الاستتباب)، عندما يعيش الناس في انسجام مع البيئة والمناظر الطبيعية المحلية ويفضلون الحياة الهادئة على الأفكار العظيمة. ويكفي المستوى المتدني من "الشغف الخلاق" للناس في هذه المرحلة فقط في الحفاظ على ما أنشأه الأجداد.

لا يمكن أن تبزغ دورة جديدة من التطور إلا عن طريق قوة دفع جديدة للطاقة الخلاقة، تنشأ فيها مجموعة بشرية ذات طاقة خلاقة جديدة. لكنها لا تعيد بناء العرقيات القديمة، بل تخلق عرقية جديدة، فتطلق بذلك مجالا جديدا من التكوين الإثني، وهي العملية التي بفضلها لا تختفي البشرية من على وجه الأرض.



التغير في مستوى الجهد في الشغف الخلاق لنظرية العرق الفائق

وتفسير الرموز على المحور الرأسي لمراحل تطور الشغف الخلاق هي على النحو التالي:

P^k_i = مستوى الجهد في الشغف الخلاق للنظام. ينبغي النظر إلى الخصائص النوعية لهذا المستوى (كالتضحية، إلخ) كنوع من "تقييم" متوسط لممثلي المجموعة العرقية. في نفس الوقت، هناك أشخاص في المجموعة العرقية لديهم خصائص أخرى موضحة في الشكل، لكنَّ نوعا واحدا من الناس هو السائد؛

i = مؤشر لمستوى الجهد في الشغف الخلاق للنظام يتوافق مع حتمية معينة للسلوك؛

i=2,-1,..6؛ عندما يكون **i = 0** يتطابق مستوى الجهد في الشغف الخلاق للنظام مع التوازن؛

k = عدد العرقيات الفرعية التي تشكل النظام عند مستوى معين من الجهد في الطاقة الخلاقة؛

k = n + 1، **n + 2**، **n + 21 ...** ، حيث **n** هو العدد الأولي للعرقيات الفرعية في النظام.

ملاحظة: يعتبر هذا المنحنى تعميما لأربعين منحنى فردية من التكوين الإثني، التي قمنا برسمها وبنائها لمختلف المجموعات العرقية. ويشير الخط المتقطع إلى سقوط الشغف الخلاق دون مستوى التوازن، الذي يأتي نتيجة النزوح العرقي (أو العدوان الخارجي).

القسم الأول

الفضاء الجغرافي الذي ظهرت فيه روس





الفصل الأول

السلاف ومن جاورهم

- موطن السلاف
- القوط
- الهون
- ميلاد دولة كييف

نجح الإنسان في تعمير الأرض بأنشطة حرفية واقتصادية متغايرة من موقع بيئي لآخر. فإذا كانت بعض الشعوب قد اتخذت من الجبال سكنا وموئلا، اختارت شعوب أخرى السهوب والغابات موطنا، بينما استوطن فريق ثالث شواطئ البحار وسواحل المحيطات. خلق الإنسان في كل موقع بيئي من هذه المواقع ثقافات متمايزة وثيقة الصلة بمشهد الأرض من حوله.

انخرط سكان الغابات في الصيد لجمع الفراء وبيعه أو مقايضته بسلع أخرى بما يفتقرون إليه. كان الفراء سلعتهم المميزة الرائجة التي لم تتوفر حتى عند شعوب الحضارات القديمة مثل مصر التي عانت حرا قائظا. بل إنه رغم البرودة النسبية التي تعيشها أوروبا الغربية فإن حيوانات الفراء (مثل بن عرس) كانت جد نادرة، وكان الفراء المجموع بعد صيدها يكفي بالكاد لعباءات الملوك والأباطرة. وعلى جبهة البيئة الآسيوية في الناحية الأخرى، لم تعرف شعوب السهوب الفراء وحيوانات الغابة، إذ كانت حرفتهم تربية الأغنام في مراعٍ مستوية ممتدة بلا انقطاع.

كان لدى أهل السهوب فائض في إنتاج الحليب واللحوم، وأبدعوا في صنع أجبان غير قابلة للتلف طيبة المذاق. كان الزبائن هم سكان الغابات، الذين بدورهم صنعوا عربات خشبية يمكن لسكان السهوب استخدامها في الحركة والتنقل. والأهم من ذلك أن سكان الغابات كانوا ينتجون القطران الذي بدونه لم يكن لعجلات عربات سكان السهوب أن تدور.

وإذا انتقلنا جنوبا، وجدنا فائضا لدى سكان ساحل البحر المتوسط من الأسماك الرائعة والزيتون الوفير. بينما عمل سكان سفوح الجبال في جنوب أوروبا (بما في الأپنين والبرانس) في رعي الماعز. كان لكل شعب طريقته الخاصة في ممارسة الأعمال التجارية والتدبير الاقتصادي وطريقته الخاصة في الحفاظ على الحياة.

يتبدى لنا إذًا أنه كي ندرس تاريخ الشعوب لابد أن نبدأ بوصف طبيعة ومناخ المناطق التي يعيشون فيها. وحري بنا أن نلتفت هنا إلى الأقاليم المناخية التي تصف المناطق الجغرافية في قارة أوروبا. فهذه القارة مقسمة بحدود مناخية تتفق في يناير مع خط درجة حرارة الصفر المئوي والذي يمتد من الشمال للجنوب مارا من شمال القارة الأوروبية (بحر البلطيق) مرورا بكل من بيلاروس وأوكرانيا ووصولا في الجنوب إلى البحر الأسود وإلى الشرق من هذه الحدود يهبط متوسط درجة الحرارة في يناير إلى ما دون الصفر فالشتاء بارد بل وصقيع جاف في أغلب الأحوال بينما إلى الغرب يكون فصل الشتاء دافئا رطبا، حيث يكسو الأرض الطين وينتشر في الجو الضباب.

موطن السلاف

دعونا نتذكر هنا جهود العالم الأكاديمي الكبير شخامتوف، الذي بدأ الدراسة العملية للمخطوطات والسجلات الروسية بحثا عن واستكشافا لتاريخ اللغة الروسية ولهجاتها. وصل شخامتوف إلى استنتاج مفاده أن السلاف القدماء ظهروا عند الروافد العليا لنهر فيستولا وعلى ضفاف نهر تيسا وعلى سفوح جبال الكاربات: أي في أراضي شرق المجر وجنوب بولندا في وقتنا هذا.

وهكذا يتضح أن أجدادنا السلاف تركوا بصماتهم وأثرهم في التاريخ على الحدود الفاصلة بين منطقتين مناخيتين (منطقة أوروبا الغربية الرطبة، ومنطقة أوروبا الشرقية الجافة ذات المناخ القاري)، وهذه هي المنطقة التي تثير اهتمامنا بشكل خاص في الكتاب الحالي.

القــوط

خلال فترة الهجرة الكبرى للشعوب تحرك السلاف شمالا حتى شواطئ بحر البلطيق، وجنوبا نحو كل من البحر الأدرياتي وبحر إيجه. وكان موقعهم الجغرافي محاطا بكل من:

١. القبائل الجرمانية من الغرب

٢. وفي الشمال الشرقي على سواحل البحر البلطي تركزت شعوب البلطيق: من الليتوانيين، اللاتفيين، البروسيين، الليفونيين. وهي شعوب قديمة جدا كانت قد استقرت هنا بعد ذوبان الجليد وانحساره[١].

٣. وإلى الشمال الشرقي من سكان البلطيق عاشت القبائل الفنلندية التي كان هناك العديد منها مثل: سومي والإستون والتشود "بيض العيون" (هكذا كان اسم إحدى هذه القبائل في روس القديمة).

٤. وفي جوار ذلك عاشت قبائل "زاريانس" و"تشود زافلوتسكايا" وشعوب أخرى وخلق كثير.

كان كل شيء، كما سبق القول، مستقرًا تماما حتى القرن الثاني الميلادي عندما بدأت الهجرة الكبرى للشعوب نتيجة لدفعة من الطاقة الخلاقة. وبدأت هذه الدفعة على النحو التالي:

انطلقت من شواطئ جنوب السويد، التي كانت تسمى آنذاك "قوطيا"(٢)، ثلاثة أسراب قوطية تقل محاربين شجعان من القوط الشرقيين والقوط الغربيين والغبيديين. بلغت أسراب القوط البحر الأسود مارة بمصب نهر فيستولا وحوض الدنيبر. وهناك قام القوط – وهم شعب اعتاد الملاحة – ببناء القوارب وأبحروا لغزو "هيلاس" (اليونان).

وباحتلالهم المدن اليونانية أعمل القوط النهب والسلب وأخذوا السكان أسرى وسبايا. كانت اليونان في ذلك الوقت تابعة للإمبراطورية الرومانية التي كان على رأسها آنذاك الإمبراطور داكيوس وهو قائد عسكري فذ ومحارب شجاع (ومشهور في المراجع التاريخية باضطهاده الرهيب للمسيحيين).

خرج داكيوس لمواجهة القوط وقت عبورهم نهر الدانوب وقد عاثوا في أراضي الإمبراطورية الرومانية الشرقية فسادا. كانت فرق المشاة الرومانية رائعة التدريب ويحمل جنودها السيوف القصيرة الأكثر راحة في المعركة مقارنة بتلك الطويلة. اصطدمت هذه الفرق مع القوط الذين كانوا يرتدون ملابس مصنوعة من جلود الحيوانات ومسلحين بالحراب الطويلة.

وعلى الرغم مما كان يبدو أن القوط ليس لديهم أدنى فرصة للنصر، فإن المفاجأة التي أبهرت معاصري ذلك العهد كانت في تحطم الجيش الروماني على أيديهم عن بكرة أبيه في عام ٢٥١ م بل ولقي الإمبراطور داكيوس حتفه في رحى المعركة.

تحقق النصر للقوط بفضل مناورتهم مستدرجين الجيش الروماني إلى مستنقع غاصت فيه أقدام الجنود الرومان في الوحل ثم فقدت هذه الجحافل قدرتها على المناورة وصاروا لقمة سائغة أمام حراب وسهام ونصال القوط.

هكذا بات القوط أسيادا في مصب نهر الدانوب (حيث استقر القوط الغربيون) وفي ترانسيلفانيا المعاصرة (حيث استقر الغبديون).

وإلى الشرق من ذلك، بين نهري الدون ودنيستر، سادت قبائل القوط الشرقية. وكان ملكهم إرماناريك (القرن الرابع الميلادي) مقاتلا شرسا وشجاعا، أخضع لسلطانه أوروبا الشرقية كلها تقريبا: بما في ذلك أراضي موردوفيا ومري، والروافد العليا لنهر الفولغا، ومنطقة حوض الدنيبر بأكملها تقريبا، فضلا عن كل السهوب إلى شبه جزيرة القرم، علاوة على القرم نفسها.

لكن عجلة السنين دارت، وجاء وقت بعد ذلك النصر باتت فيه دولة القوط الجبارة عرضة للفناء، وهي قاعدة شهيرة عرفها تاريخ البشرية خاصة بسبب النزاع الداخلي والخيانة بين صناع القرار. ذات يوم انشق هاربا عن الزعيم القوطي إرماناريك أحد زعماء قبيلة روسيمون. وبدوره أمر الملك الكهل ردا على الخيانة والانشقاق أن تقطع أوصال زوجة ذلك الزعيم سحلا بالخيول البرية. اشتعل الغضب في شقيقين لتلك المرأة المقتولة وعزموا على الثأر لها. وأثناء حفل استقبال ملكي، اقتربا من إرماناريك، واستلا سيفيهما من تحت الملابس وطعناه.

في تلك الأثناء كان هناك عدو رهيب يقترب آتيا من الشرق: الهون.

الخون والهون

كان الخون أسلافًا للهون[٣] وظهروا كشعب صغير على المسرح السياسي في القرن الرابع قبل الميلاد في أراضي منغوليا. في القرن الثالث قبل الميلاد مر الخون بأوقات عصيبة، حيث قام بدو "زيانبي" بالضغط عليهم من ناحية الشرق، في حين واجهوا من الغرب ضغطا من قبائل "صوغديا"،

الذين سماهم الصينيون "يوجي". كما لم تفلح محاولات الخون الرامية للاستفادة من الصراع الصيني الداخلي.

كانت الصين آنئذٍ تسير في عملية توحيد معروفة في التأريخ الصيني باسم "حقبة الممالك المتحاربة" أو "حرب الممالك". والتي بختامها لم يبق من الممالك السبعة سوى مملكة واحدة، بينما هلك خلالها ثلثي سكان البلاد. وكان من الأفضل للخون عدم التورط مع الصينيين، الذين لم يحتفظوا عادة بأسرى بل كانوا يقتلونهم مباشرة.

ولأن الخون كانوا حلفاء الطرف المهزوم في الصين، اضطروا لدفع الجزية للجيران الشرقيين والغربيين على السواء، بل وتنازل حاكمهم عن السهول الجنوبية الخصبة للصين. وهنا بدأت تتشكل بينهم موجة من الشغف الخلاق (باسيونارنست) التي شكلت هذه المجموعة العرقية لدى الخون.

من بين أبرز أمراء الخون يذكر التاريخ قائدا فريدا تروى عنه أساطير عدة اسمه "موديه"(٤). أصبح موديه ملكا على الخون في عام ٢٠٩ ق.م واتفق على السلام مع صوغديا، ولكن على الجبهة الشرقية من أرض الخون طالبه البدو الذين كانوا يلقبون بـــ "دونغ هو" بدفع جزية لكنه جهز أتباعه وقبائله ولقنهم هزيمة قاسية بفضل الطاعة العمياء لمحاربيه(٥).

كان موديه قد خاض حربا ضد الصين. لم تكن هذه الحرب على ما يبدو ضرورية. فقد عاش البدو في السهوب بينما سكن الصينيون الجنوب خلف سورهم العظيم في وادي رطب موسمي دافئ. لكن كان لدى الخون أسبابهم لمهاجمة الصين.

أحاط جيش "موديه" بمقدمة جيش الصينيين، الذين كان بينهم الإمبراطور "ليو بانغ" نفسه. أطلق الخون سهامهم طوال الوقت على الجيش الصيني، ولم يمنحوه وقتا لالتقاط الأنفاس. فطلب الإمبراطور الصيني السلام فوافق موديه[٦] ووقع مع هذا الإمبراطور - مؤسس أسرة هان - معاهدة "سلام وقرابة" (عام ١٩٨ ق.م). وهو ما كان يعني أن كلا الطرفين سيعيشان دون التعدي على أرض الطرف الآخر. اعتاد الخون على التنقل في السهوب، ولم يزعجهم البرد. أما الصينيون فقد أحبوا المناخ المعتدل في وادي هوانغ هو، ولم يخرجوا إلى السهوب على الإطلاق.

في هذا الوقت، تعلم الصينيون كيفية إنتاج الحرير وتم الاتفاق على أن يمد الخون الصينيين بالخيول، مقابل أن يدفع الصينيون الحرير في المقابل. كانت هناك حاجة شديدة إلى الحرير في تلك الأيام لدى الشعوب المستقرة ولدى البدو. كان الناس يعانون عذابا جراء الطفيليات والحشرات، التي كان الخلاص منها فقط بارتداء الملابس الحريرية. وكانت إذا حصلت أمرأه من الخون على قميص من الحرير، لم تعد مضطرة للهرش طيلة الوقت.

بمساعدة تجار صوغديا (جيران الخون من الغرب) اشترى الرومان الحرير الصيني. فقد كانت لديهم نفس المشكلة. لم يكن هناك منظفات مثل الصابون في ذلك الوقت، وكان الرومان يفركون أجسامهم بالزيت، ثم كانوا يقومون بكشطه بالكاشطات المزيلة للوسخ، ثم بعد ذلك كانوا يغتسلون في حمَّام ساخن. لكن على الرغم من ذلك، كانت الطفيليات المزعجة تعاود الظهور من جديد. كانت الرومانيات الجميلات الفاتنات المغريات ذوات النفوذ يطلبن الملابس الحريرية من أزواجهن ومن المعجبين. لقد كانت هذه الألبسة باهظة الثمن، قيمتها تقريبا مثل الذهب.

يبدو أن الحرير صار لعنة، إذ أنفق الرومان الكثير من المال على شرائه من التجار الوسطاء في إيران وسوريا، وقدموه هدايا لزوجاتهم وعشيقاتهم. ولم يدفعوا رواتب الجنود. وبسبب عدم دفع الرواتب، تمرد الجنود، ولقي الأباطرة والنبلاء حتفهم في لهيب التمرد، واستمرت هذه السياسة الرهيبة لمدة مائتي عام (ما بين القرنين الأول والثالث) وانتهت بتدمير روما.

تسبب الحرير في إرباك الوضع في الصين أيضا. فقد حصل الصينيون مقابل الحرير على الخيول من سكان السهوب، أو على السلع الفاخرة من البحر الأبيض المتوسط. فوجد المرجان والطلاء الأرجواني والمجوهرات طريقهم إلى النبلاء الذين كانوا يأخذون الحرير من الفلاحين. أراد الجميع الحصول على أكبر قدر ممكن من هذه السلعة الثمينة وبيعها لتقديم مقابلها لنيل رضا زوجاتهم وبناتهم. وبطبيعة الحال، طور الصينيون نظامًا تم فيه كل شيء وفقا لما نسميه اليوم "المحسوبية". بدأت كل زوجات وجواري الإمبراطور في الدفع بأقاربهن إلى مناصب الحكام والقادة. وبمجرد حصول هؤلاء الأقارب على صلاحيات إدارة منطقة شرعوا على الفور في الضغط على الفلاحين للحصول على المال لتقديمه رشى لتحقيق النفوذ الأعلى.

بطبيعة الحال، لم يكن لجرائمهم أن تبقى خفية على الحكومة: لقد كان الصينيون في كل الأوقات يكتبون وشايات ضد بعضهم البعض، فقد كان الكثير منهم يجيد القراءة والكتابة. لذلك من وقت لآخر كان يتم إعدام ولاة الأمصار. لكن أولئك باستشعارهم اقتراب المصير المحتوم، دفنوا الكنوز في الأرض وأخبروا أماكنها لأبنائهم. ولأن الحكومة تعرف جيدا عادات مواطنيها فقد أخذت في تنفيذ الإعدام ليس فقط في حق المجرم، بل وعائلته بأكملها.

وبهذا الشكل كانت التجارة في الحرير كارثية ووبالا لكل من الإمبراطوريتين الرومانية والصينية. وفي الوقت نفسه، استمرت المواجهات بين الخون والصين. وعلى الرغم من أن تعداد الصينيين كان يقدر بـــ ٥٠ مليون نسمة، في حين أن جميع الخون كانوا حوالي ثلاثمائة ألف، فإن الصراع، الذي كانت تقف وراءه حاجة البدو إلى الحرير والطحين والأدوات الحديدية، كان على قدم المساواة.

كانت خيول الصينيين أسوأ بكثير من خيول سكان السهوب. غالبًا ما انتهت الحملات العسكرية إلى سهول الخون بهلاك فصائل الفرسان الصينية. عندما بلغ الصينيون أنه في آسيا الوسطى توجد "أفراس سماوية"، أي خيول أصيلة، شبيهة الخيول العربية، أرسلوا إلى هناك حملة عسكرية. بعد أن حاصر الصينيون مدينة جويشان (منطقة فرغانة المعاصرة)، طالب الصينيون بتسليمهم أفضل الأفراس. نزل المحاصرون على رغبة الصينيين الذين بدأوا بمجرد عودتهم بالغنيمة بتربية سلالة جديدة. وبعد أن نجحوا في هذه المسألة، بدأوا في شن غارات ناجحة على الهون. وعلاوة على ذلك، تمكنوا من إقناع جيرانهم البدو من الشرق والشمال والغرب بمهاجمة الخون.

في عام ٩٣ ق.م خسر "شانيو" الملك الخوني المعركة الحاسمة، وفر إلى الغرب، حيث اختفى دون أن يترك أثرا. وسقطت دولة الخون. وسكنت بعض قبائلها في سهول جنوب سيبيريا، في حين انتقل آخرون إلى الصين، فقد حل الجفاف في ذلك الوقت في السهوب العظمى. كما بدأت في الاتساع صحراء جوبي في شمال الصين، وأصبح الخون قادرين على التحرك في الحقول الصينية الجرداء المصابة بالجفاف، التي تشكلت فيها السهوب الجافة الجميلة المحببة إلى قلوبهم. اتجه جزء آخر من الخون إلى آسيا الوسطى،

حيث وصلوا إلى منطقة الأنهار السبعة (منطقة ألما آتا المعاصرة). وهنا استقر الخون "خائرو القوى". أما أكثرهم بؤسا فاتجهوا إلى الغرب. مروا عبر كازاخستان بأكملها وفي الخمسينيات من القرن الثاني وصلوا إلى ضفاف نهر الفولغا، بعدما فقدوا جزءًا كبيرا من النساء، اللاتي لم يحتملن جسديا عناء هذا الانتقال وهذه الرحلة، بل ولم يحتملها منهم سوى الرجال الأقوياء.

استقر الخون بسرعة في الأماكن الجديدة المناسبة للرعي وتربية الماشية، حيث لم يتعرض لهم أحد. بينما حصلوا على النساء عن طريق الهجمات التي نفذوها على قبائل الآلان، وباتحادهم وعقدهم صلات قرابة مع شعب الفوغول (الغائب عن ذاكرة التاريخ) أنشأ الخون مجموعة عرقية جديدة اسمها "الهون الغربيون" الذين كانوا أيضا قليلي الشبه بالخون الآسيويين القدماء، هؤلاء الهون الغربيون (للتبسيط سنطلق عليهم لفظ الهون) أشعلوا حربًا ضد القوط.

في البداية أكمل الهون هزيمة شعوب الآلان، بعدما استنفدوا قوتهم بحروب لا نهاية لها. ثم توسعت دولة الهون واحتلت المساحات الواقعة بين نهري الأورال (يايك) والدون. حاول القوط صدهم عند خط الدون، لكن خارت قواهم جراء الصراع المرهق مع السلاف. وحين عبر الهون مضيق كيرِتش والقرم وبيريكوب ووصلوا إلى مؤخرة القوط، لاذ أولئك بالفرار. استسلم القوط الشرقيون إلى الهون وانضموا إليهم، بينما دخل القوط الغربيون الذين عبروا نهر الدانوب إلى الإمبراطورية الرومانية.

أطلق سقوط دولة القوط العنان للسلاف وأتيحت لهم حرية الحركة. ولكن ظلت حاضرة ذكرى هيمنة القوط السابقة في السهوب الروسية الجنوبية (عندما أسروا الزعيم السلافي "بوجا" وصلبوه مع سبعين رجلا من حاشيته).

أما القوط الذين اختبأوا في بيزنطة. فاعتنقوا المسيحية وفقا للطقوس الأريوسية[٧]، في حين كانت الأرثوذكسية النيقوسية هي الغالبة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ولذلك لم يلتئم شمل الطرفين أو يجمعهما وفاق. طالب الرومان القوط الذين يعبرون نهر الدانوب بأن يسلموا أسلحتهم فوافقوا مرغمين. لكن ما إن تجاوز موظفو الإمبراطورية حدودهم وشرعوا في سلب القوط ممتلكاتهم وطلب الرشى منهم، بل الاستيلاء على الزوجات والأطفال والممتلكات، انتفض القوط بما تبقى معهم من أسلحة مخبأة وأشعلوا تمردا. في عام ٣٧٨ بالقرب من أدريانبول دخل المتمردون معركة ضد الرومان وتمكنوا من هزيمتهم بل وتمكنوا من قتل الإمبراطور فالنس، ثم اقتربوا من أسوار القسطنطينية. وَرغم أن المدينة كانت محصنة بشكل جيد، فقد كان لدى القوط كل الفرص لاحتلال المدينة. غير أن الرومان ساعدتهم حادثة غريبة.

كان الجيش الروماني يضم فصيلة من الفرسان العرب. ممن أحاطوا بالمشاة القوط. وحين تخلف واحد من القوط، لحق به الفارس العربي وضربه بالرمح فأسقطه أرضا، ثم قفز من فوق حصانه وقطع رقبة العدو وأخذ يشرب من دمه، ثم رفع رأسه وصرخ صرخة وحش. ظن القوط المرعوبون أن هذا العربي مستذئب. فانسحبوا وتراجعوا عن القسطنطينية وانطلقوا لنهب مقدونيا واليونان. لم يكن من السهل على ثيودوسيوس الكبير أن يتصدى لهم.

دعونا نتوقف هنا تاركين القوط ليصفوا حسابتهم مع الإمبراطورية الرومانية ولنعود إلى أوروبا الشرقية، إلى السلاف والروس[٨].

لقد شارك السلاف في الحرب الهونية القوطية، وبطبيعة الحال، كانوا إلى جانب الهون. لكن لسوء حظ كل من الهون والسلاف أصيب القائد العظيم أتيلا الهوني بمرض في عام ٤٥٣ مات على إثره. وخلف من بعده سبعين ابناً وأرملة شابة. وهنا طرحت مسألة الوريث: ادعى كل أبناء أتيلا الحق في عرش والدهم، وأعطت القبائل التي أخضعها "أتيلا" تأييدها لأمراء مختلفين. كان معظم الهون إلى صف الزعيم إيلاك، بينما وقف ضده الغبديون والقوط الشرقيون. في معركة نيداو (الاسم السلافي لهذا النهر هو نيدافا) هزم الغبديون الهون وقُتل إيلاك (سنة ٤٥٤م). أدت محاولات الهون لمحاربة البيزنطيين إلى هزيمتهم في أدنى نهر الدانوب. وفي الشرق، في منطقة الفولغا، لقي الهون الهزيمة (عام ٤٦٣م) وخضعوا لسلطان الساراغور. هرب جزء من الهون الذين بقوا على قيد الحياة عائدين إلى جبال ألطاي، وفر آخرون إلى الفولغا، حيث اختلطوا مع السكان الأصليين، مشكلين بذلك شعب تشوفاش. وهكذا بقي مسرح الأحداث فارغاً.

ميلاد دولة كييف

فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين تحققت نجاحات كبيرة على يد الشعب السلافي القوي النشط؛ إذ تضاعف عدد السكان بفضل تشجيع الزواج والإنجاب فضلا عن الإنجاب من المحظيات السبايا. انتشر السلاف في كل اتجاه في شرق أوروبا، عرفوا في الشمال باسم "فينيد" (لا تزال هذه الكلمة محفوظة باللغة الإستونية) وفي الجنوب باسم "سكيلاف" وفي الشرق باسم "آنتي"(٩).

بحلول القرن السادس، كان السلاف المنتشرون في كل اتجاه قد استولوا على "فولين" والسهوب الجنوبية وصولا إلى البحر الأسود (حيث وجدوا قبائل "التفيرتسي" و"الأوليتشي"). واحتل السلاف كذلك حوض نهر بريبيات، حيث استقرت قبائل "الدرفليان"، كما استولوا على جنوب ما نسميه اليوم بيلاروسيا، حيث استقرت قبيلة "دريغوفيتشيه" (من كلمة "درياغفة" أي مستنقع). وفي الجزء الشمالي من بيلاروسيا استقر السلاف الغربيون أو قبائل "الفينيديا". بالإضافة إلى ذلك، في القرنين السابع أو الثامن، انتشرت قبيلتان آخريان من القبائل السلافية الغربية وهما "الراديميتشي" و"الفياتيتشي" إلى الجنوب والشرق وصولا إلى سوجا وأودية أنهار كل من الدنيبر، أوكا، والفولغا، وهناك اندمجوا مع القبائل الفينوأوغرية المحلية.

لقد كانت جيرة الروس القدماء كارثية على السلاف، إذ لم يتوقف الروس عن شن الهجمات والغارات والقرصنة على هؤلاء الجيران. حين هزم الروس من القوط فر جزء منهم إلى الشرق وجزء إلى الجنوب عند منابع نهر الدانوب، ومن هناك انتشروا في جنوب شرق أوروبا حتى حدود ما نعتبره اليوم النمسا [١٠]، حيث وقعوا في تبعية الهيروليين وأودواسير (لا يعنينا مصير هذا الفرع). أما الجزء الآخر من الروس الذين اتجهوا إلى الشرق، فقد احتل ثلاث مدن، أصبحت فيما بعد بمثابة قاعدة الانطلاق لحملاتهم العسكرية وغزواتهم. كانت هذه المدن الثلاث هي كويابا (كييف)، أرزانيا (بيلوأوزيرو؟) وستارايا روسيا (روسيا القديمة). قام الروس هناك بنهب جيرانهم، فقتلوا الرجال، وباعوا الأطفال والنساء الأسرى والسبايا تجار الرقيق.

استقر السلاف في مجموعات صغيرة في القرى، كان من الصعب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الروس الذين تبين أنهم لصوص مرعبون. كان كل شيء ثمين وذي قيمة يصبح مطمعا وغنيمة للروس. وكانت الأشياء الثمينة في ذلك الحين هي الفراء والعسل والشمع والأطفال. استمر الصراع غير المتكافئ لفترة طويلة وانتهى لصالح الروس، وذلك عندما وصل روريك إلى السلطة.

سيرة روريك ليست سهلة. فمن حيث "المهنة" كان "فارانجيا" وهي كلمة تعني محارب مأجور أو مرتزق. ومن حيث الأصل هو روسي لديه صلات مع شعب جنوب بحر البلطيق. وهناك زعم بأنه قبل أن يصل إلى الروس كان قد مر بالدنمارك حيث التقى بملك الفرنجة "شارل الأصلع". وبعد ذلك، في عام ٨٦٢ م عاد إلى نوفغورود، حيث استولى على السلطة بمساعدة أحد وجهاء "روس" كان يحمل اسم غوستوميسل[١١].

سرعان ما اندلع في نوفغورود ضد روريك تمرد ترأسه "فاديم الشجاع" (فاديم خرابري). لكن روريك قتل فاديم وتمكن مرة أخرى من إخضاع نوفغورود والمناطق المحيطة بها مثل: لادوغا، بيلوأوزيرو وإزبورسك[١٢].

وفقا لمخطوطة "سجل الأيام الماضية" توفي روريك في عام ٨٧٩ وترك ابنه "إيغور" وهو بعد طفل صغير (إيغور نفسها كلمة تعني في اللغة الإسكندنافية "الصغير"). ولأن إيغور كان غير مؤهل للحكم استلم السلطة قائد عسكري يدعى "هيلجي" أو "أوليغ". كلمة "هيلجي" لم تكن حتى اسم القائد، بل لقب اسكندنافي، والذي كان يعني في الوقت ذاته "الساحر" و"الزعيم العسكري".

توجه أوليغ مع الجنود عبر الطريق العظيم من "الفارانجية إلى الإغريق": أي من نوفغورود إلى الجنوب على طول نهر لوفات، حيث استراحوا، ثم واصلوا المسير على طول نهر دنيبر وفي الطريق استولوا على سمولينسك. اقترب القائدان الفارانجيان أوليغ والشبل إيغور من كييف. في ذلك الوقت كان يقيم في كييف السلاف وكانت معهم فرقة عسكرية روسية صغيرة بقيادة أسكولد. باستخدام الحيلة استدعى أوليغ أسكولد وزعيم السلاف إلى ضفة دنيبر وهناك قتلهما غدرا. بعد ذلك استسلم أهل كييف دون أية مقاومة للحكام الجدد. حدث هذا في عام ٨٨٢م، بينما استولى أوليغ على مدينة بسكوف وفي عام ٨٨٣م أعلن خطبة الفتى الصغير إيغور على أولغا البسكوفية. وأولغا هي الاسم المؤنث من أوليغ. وهنا نحن، على الأغلب، نواجه من جديد لقب وليس اسما خاصا بالشخص، دون معرفة الاسم الحقيقي لهذه الشخصية التاريخية. على الأرجح، كانت أولغا، مثلها مثل إيغور، طفلة أثناء هذه الخطوبة.

بحلول القرن التاسع أدى انقسام الوحدة السلافية إلى خلق شعوب جديدة لم تكن موجودة من قبل. فمن خلال اختلاط السلاف مع شعب "إليريا" ظهر الصرب والكروات، وفي تراقيا أدى اختلاط السلاف مع البدو الرحل الوافدين إلى وضع أساس العرق البلغاري. بينما اخترقت بعض القبائل السلافية اليونان ومقدونيا، ووصلت إلى منطقة بولوبونيز التي أطلقوا عليها اسم موريا (من كلمة "موريا وتعني البحر"). لقد أدى تزايد الشغف الخلاق لدى السلاف إلى دفعهم للانتشار في جميع أنحاء أوروبا.

الهوامش

(١) كانت الرقعة الجغرافية التي تشغلها هذه الشعوب تمتد من الموقع الذي تشغله حاليا مدينة بينزا وصولا إلى الموقع الذي تشغله حاليا مدينة شتشيتسين.

(٢) يوجد في جنوب السويد إقليم ما زال يعرف إلى اليوم باسم جوتلاند Gutland (المترجم).

(٣) رغم أن الخون أقدم من الهون فإن بعض الكتاب ينظر إليهما كشعب واحد (المترجم).

(٤) لم يكن موديه محبوبا لوالده. فقد كان لدى والده الملك (مثل جميع الهون وكل البدو) عدة زوجات، وكان مغرمًا جدًا بزوجته الشابة وولده منها. قرر الملك إرسال موديه غير المحبوب إلى السوجديين، الذين طالبوا برهينة من الهون. بعد ذلك، خطط الملك لشن هجوم على السجديين، لكي يدفعهم لقتل ابنه. لكن الابن النبيه خمّن نوايا والده، وعندما بدأ الأب بشن الهجوم، قتل الأمير الابن حارسه وهرب. وقد شكل هروبه انطباعا كبيرا لدى المحاربين الهون لدرجة أنهم اتفقوا في الرأي بأن موديه يستحق ما هو أفضل من هذا المصير. وهكذا كان على الأب أن يضع الابن غير المحبوب على رأس أحد أمصار الدولة. بدأ موديه في تدريب وإعداد المحاربين. كما بدأ في استخدام أسهم ذات صفير (تم صنع ثقوب في طرفها، وعندما كان يتم إطلاقها، كان يصدر عنها صفير، يعطى إشارة). وفي أحد الأيام، أمر الجنود بمراقبة الهدف الذي سيطلق عليه سهمه، وأن يطلقوا سهامهم من أقواسهم في نفس الاتجاه. أصدر الأمر وفجأة أطلق السهم في اتجاه ... فرسه المفضل. اندهش الجميع: "لماذا يقتل حيوانًا جميلاً كهذا؟"، وهنا أصدر أمرا بقطع رؤوس من ترددوا ولم يطلقوا سهامهم. ثم أطلق موديه سهمه على صقره المحبوب. وأولئك الذين لم يطلقوا السهام على الطائر البرئ قطعت رؤوسهم أيضا. ثم أطلق السهم على زوجته المحبوبة. والذين لم يستطيعوا الإقدام على ذلك باتوا مقطوعي الرأس. وبعد ذلك، أثناء الصيد، التقى موديه بوالده الملك، و ... أطلق السهم عليه، فما لبثت جثة الأب إلا أن تحولت إلى ما يشبه القنفذ، بعد إطلاق محاربي موديه سهامهم عليه. فهذه المرة لم يخاطر أحد بعدم إطلاق السهم.

(٥) في البداية أرادوا الحصول على أفضل الخيول (ألف حصان فائقة السرعة تسمى "لي". ردا على ذلك قال بعض الهون: "لا يمكن إعطاء الخيول". "لا يجب أن تقاتل بسبب الخيول" لم يوافقهم موديه الرأي، وكالعادة أمر بقطع رؤوس أولئك الذين لم يرغبوا في التخلي عن خيولهم. ثم طلب "دونغ هو" من الهون النساء الجميلات، بما في ذلك زوجة الملك. أولئك الذين قالوا: "كيف يمكنك أن نعطهم زوجاتنا!" قطع رؤوسهم قائلاً: "حياتنا ووجود الدولة أغلى من النساء". وأخيرا، طلبوه بقطعة من الأرض الفارغة، التي كانت بمثابة حدود بينهم وبين الهون. كانت عبارة عن صحراء في شرق منغوليا، واعتبر البعض أن: "هذه الأرض ليست ضرورية، لأننا لا نعيش عليها". لكن موديه قال: "الأرض هي أساس الدولة. لا يمكن أن نعطى الأرض! "وقطع رؤوسهم. بعد ذلك" ثم أمر الجنود بالتحرك في حملة للسير على الفور ضد "دونغ هو" وهزمهم.

(٦) عرض بعض المقربين من موديه فكرة قتل العدو، ولكن موديه رد عليهم: "أيها الحمقى، لماذا يجب أن نقتل هذا الملك الصيني، إذا قتلناه، فسوف يختارون إمبراطورا جديدا. دعوه يعيش، فالقوى الرئيسية للصينيين لا تزال في المؤخرة، لم نقاتل معهم بعد".

(٧) الآريوسية مذهب مسيحي لم يعد له وجود في الوقت الراهن، تنسب إلى آريوس (ما بين ٢٥٠م إلى ٣٣٦ م) أحد كهنة الإسكندرية وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث الأقدس ببعضها البعض. (المترجم)

(٨) هناك فرضيات مختلفة حول أصل الروس، حيث أطلق عليهم في اللغات المختلفة أسماء مختلفة مثل: روثيني، روسي، روغي. ويميل المؤلف لاعتبارهم قبيلة من الجرمان القدماء.

(٩) أثبت المؤرخ الأوكراني برايتشيفسكي أن الكلمة اليونانية "أنتي" لها نفس معنى الكلمة السلافية "بوليانه". كما حفظت الكلمة المؤنثة "بوليانيتسا" بمعنى "البطلة القوية". لكن كلمة "بوليانه" بالمعنى المماثل لا تستخدم اليوم، لأن الكلمة التركية "البطل القوي" قد أخرجتها من الاستخدام.

(١٠) في جنوب شرق أوروبا في النطاق الذي يعرف اليوم باسم "اليوغوسلاف" أي السلاف الجنوبيين. (المترجم)

(١١) من غير الواضح ما إذا كانت كلمة "غوستوميسل" تعني اسما للرجل أم أنها صفة معناها المفكر المتعاطف مع "الضيوف" و"الغرباء".

(١٢) هناك أسطورة حول الأشقاء روريك وسينيوس وتريفور تقول إن روريك وأقاربه (*sine hus*) والفرقة العسكرية (*thru voring*) وزعوا أنفسهم على النحو التالي: أنزل روريك الجنود في إزبورسك، وأرسل أقاربه بعيدا إلى بيلوأوزيرو، أما هو نفسه فدخل لادوغا، والتي كانت قرية فارنجية، ومكث في نوفْغورود. وقد تمكن من إنشاء دولته القوية عن طريق إخضاع السلاف والفنلنديين في الأراضي المحيطة.



الفصل الثاني

السلاف وأعداؤهم عند مصب الفولغا

- اليهود يأتون إلى الخزر من الجنوب
- السلطة والمال
- الروس السلاف وبيزنطة
- انتصار سفياتوسلاف

تماست مع دولة كييف في أوروبا الشرقية مملكة الخزر القوية. كان الخزر شعبا رائعا آنذاك. استقرت مستوطناتهم عند منابع نهر تيريك وعند شواطئ بحر قزوين (الخزر). في ذلك الوقت، كان مستوى المياه في بحر قزوين عند منسوب ٣٦ مترا، أي أدنى بثمانية أمتار عن منسوبه الحالي. ولهذا السبب كانت دلتا نهر الفولغا أكبر وأوسع وامتدت إلى شبه جزيرة بوزاتشي (التي كانت تعد امتدادا لأرض مانغشلاق). لقد كانت بحق الأراضي المنخفضة أو "هولندا بحر قزوين" التي تفيض بالثروة السمكية وخيرات البحر.

الخزر قبيلة قوقازية كانت تعيش في إقليم داغستان المعاصرة. كان من حظ مؤلف هذه السطور العثور على هياكلهم العظمية عند المجرى الأدنى لنهر الفولغا، وهي هياكل يبدو أنها كانت تعود لصغار في السن، إذ كان لم يتجاوز طول الهيكل العظمي ١,٦ مترا، والعظام نفسها صغيرة وهشة. ولا يزال هذا النوع الأنثروبولوجي موجود بين شعب القوزاق على نهر تيريك. تقبع الآن آثار إقامة الخزر عند بحر قزوين تحت مياه البحر التي طغت عليها، ولم يبق اليوم حاضرا من نشاطهم القديم سوى شجيرات العنب الدغستاني التي أحضرها الخزر من القوقاز وزرعوها هنا في دلتا نهر الفولغا.

كان أعداء خزر حوض بحر قزوين هم سكان السهوب من قبائل "بورطاس" و"بلغار"[١]. لم يكن لدى الشعب الخزري سلطة دولة. ولم نعثر على آثار لغوية معبرة عنه إلا في قليل من الكلمات تحملها قلعة "صاركل"

وهي كلمة خزرية تعني "البيت الأبيض". ولا توجد هذه الكلمة في أي من اللغات التوركية أو الفينو- أوغرية أو السلافية.

تعرض الخزر في القرنين السابع والثامن لهجوم من قبل العرب الذين جاءوا عبر القوقاز. وفي هذه الحرب تلقى العرب مساعدة من التورك الذين كانوا محاربين شجعان. كان الفرسان التورك أول من أتقن سلاحا ماضيا هو السيف. وكان لذلك أسبابه، فقد خاض التورك حروبًا متكررة مع الصين، حيث كانت مقاليد الحكم في يد أسرة تانغ.

حكمت أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧) الصين بموهبة ونجاح. كان الأرز في ظل حكام تانغ أرخص من أي وقت مضى. كما تواصل الصينيون بنشاط مع "الغرب": أي مع التورك وصوغديا والتبت، بل وحتى مع العرب. كان ممثلو سلالة تانغ يحلمون بإنشاء إمبراطورية آسيوية شاسعة مترامية الأطراف، من شأنها أن تشمل ليس فقط السهول الوسيطة (الصين الحالية)، ولكن أيضا سهوب منغوليا وغابات منشوريا وواحات صوغديا. تمخض صراع أسرة تانغ من أجل فرض السلطة الإمبراطورية على آسيا عن الانتصار على التورك في منتصف القرن السابع.

هرب ممثل السلالة التركية المهزومة إلى الخزر. استقبله الخزر وجعلوه خانا لهم. كان الخان التوركي مرضيا للخزر. إذ كان يرتحل مع حاشيته في منطقة الفولغا الأدنى، بين مدينتي فولغوغراد واستراخان المعاصرتين، وفي فصل الربيع كان ينتقل إلى تيريك، بينما كان يقضي الصيف بين تيريك وكوبان والدون، ومع عودة الطقس البارد كان يعود إلى الفولغا.

لم يكن الخزر مجبرين على تحمل نفقات خانهم. فهو لم يطالبهم بدفع الضرائب، بل اكتفى بما يحصله خلال ترحاله البدوي. واكتفى الخان والنخبة

العسكرية التي جاءت بالهدايا التي كانت الرعية تقدمها لهم ولم يفرضوا نظاما للجبايات ولم يمارسوا التجارة. استقر الأمر للخانات والبكوات التورك في قيادتهم للخزر، الذين باتوا غير مقاتلين تماما بحلول ذلك الوقت. تولى التورك تنظيم عملية الدفاع عن الخزر وحمايتهم من العرب.

وكان العرب، يتقدمون من أذربيجان عبر دِربَنْد إلى تيريك والفولغا. قام التورك، الشعب المحارب، بحماية الخزر من أعدائهم وأنشأوا معهم دولة صغيرة في منطقة بحر قزوين. وقد شهدت هذه الدولة الخزرية التوركية بزوغ شعب آخر بتقاليد مغايرة وثقافة مختلفة.

عند دراسة تاريخ الشعوب المختلفة تقابلنا صعوبات بحثية أهمها تباين هجرة السكان. يحدث أن يهاجر الناس إلى أراض أجنبية ويتأقلمون بشكل جيد معها، على نحو ما انتشر السلاف في المناطق الممتدة من نهر فيستولا إلى شواطئ بحر البلطيق والبحر الأدرياتي وبحر إيجه. لقد كان شعبا شابا وقويا ونشطا للغاية. في حين اختفت شعوب أخرى هاجرت إلى مناطق ذات مناخ وظروف طبيعية غير معتادة بالنسبة لهم. إما انقرضوا أو ذابوا بالاختلاط مع السكان المحليين. وهكذا في جنوب فرنسا وإسبانيا وشمال أفريقيا انتهت المصائر التاريخية للوندال والسفار والقوط.

لكن في حالة الخزر لدينا شكل آخر من الهجرة: أي أن تقوم مجموعة من التجار أو فصيلة من الفاتحين بإنشاء مستعمراتها الخاصة في أرض أجنبية. بهذه الطريقة استعمرت بريطانيا الهند. فهم كسبوا المال هناك، لكن لم يصبحوا بأي حال من الأحوال هنودا، ثم عادوا إلى إنجلترا. وكذلك لم يتحول الفرنسيون في مستعمراتهم الأفريقية إلى زنوج. فبعد العمل وأداء الخدمة في أفريقيا، كانوا يعودون إلى باريس.

في القرن الثاني في إيران، ظهر اليهود بعد الهزيمة التي لحقت بهم على يد الرومان في الأحداث التي عرفت باسم "الحروب اليهودية". رحب الفرس باليهود أعداء روما (وأعدائهم) وأعادوا توطينهم في عدد من المدن. وهكذا، تم إنشاء المستعمرات اليهودية في مدينتي أصفهان وشيراز وفي إقليمي أرمينيا وأذربيجان.

بمرور قرن من الزمن، أي في القرن الخامس، وقعت في بلاد فارس أحداث درامية. فخلال فترة حكم الشاه كواذ (قباد بن فيروز) تزعم وزيره "مزدك" حركة سميت اشتقاقا من اسمه "المزدكية". كان مزدك سياسيًا ماهرا وأثناء مجاعة جديدة حلت بالبلاد طرح برنامجًا بسيطًا لمكافحة الأزمة. كان جوهره على النحو التالي: في العالم هناك الخير والشر. فالخير هو العقل، والشر كل ما هو شهواني وغريزي. ومن الواضح أنه من غير المعقول وجود أغنياء وفقراء، عندما يملك البعض الحريم ومئات الخيول الأصيلة والأسلحة باهظة الثمن، ويقضون الوقت في الاحتفالات والصيد، بينما يتضور آخرون جوعًا. لذلك، سيكون من العدل إعدام أولئك الذين لديهم الكثير من الممتلكات، وتوزيع خيرهم وحريمهم على الفقراء.

شرع مزدك في تنفيذ هذا البرنامج، لكن كان عدد الفقراء كبيرًا جدا، ولم يصل خير الأثرياء إلى الجميع، بل اقتصر على أنصار مزدك المقربين فقط. لقد كان بوسع الفرس افتداءً لحياتهم الموافقة على التخلي عن أراضيهم وأسلحتهم وخيولهم، لكنهم كانوا يشعرون بالأسف بشأن زوجاتهم. وأعربوا عن عدم رضاهم، فكان الجزاء على ذلك الإعدام. بل قبض المزدكيين على الشاه نفسه. لكنه تمكن من الهرب إلى الهياطلة في السهوب وعاد مع جيشهم. بينما قام ابنه كسرى (خوسروف) النشط، بتعبئة قبائل الساكا الرُحل في السهوب. وهب الجميع من غير الراضين عن مزدك وأتباعه، ومعهم أعداد

كبيرة من أبناء الذين أعدموا. وفي ٥٢٩ استولى كسرى على السلطة، وتم إعدام مزدك وسحق أنصاره. حيث صدر الأمر بدفنهم أحياء في الأرض بوضع عمودي على أن تكون رؤوسهم إلى الأسفل.

وهنا قد يطرح سؤال وما علاقة هذا كله باليهود؟ ونقول علاقة أكثر من مباشرة. فاليهود شاركوا بدور نشط في هذه الأحداث. لقد كان البعض منهم من مؤيدي الشاه كسرى، في حين كان البعض الآخر من أنصار مزدك. بعد انتصار كسرى فر الناجون (من الفرس واليهود) إلى أذربيجان. استقر اليهود الهاربون في شمال دربند في السهول الواسعة بين تيريك وسولاك. وفي ذات الأثناء استقبلت بيزنطة اليهود الذين كانوا معارضين للمزدكيين وفروا من إيران خلال فترة انتصار مزدك. وقد قبلهم الإغريق، لكن من دون أي حماسة. وهكذا تم إنشاء فرعين لليهود، وهما اللذان ذكرناهما آنفا بالفعل.

اليهود، الذين وجدوا أنفسهم في القوقاز، نسوا كتبهم التراثية، بل وتقاليد اليهودية وطقوسها. ومع نسيانهم لكل شيء، تذكروا فقط تحريم العمل في يوم السبت. فهم احترفوا رعي الماشية وزرعوا الأرض وأقاموا علاقات صداقة مع الخزر جيرانهم الشماليين. وقد أعاد للحياة تقاليد اليهودية بين إخوانه من أهل القبائل واحد من قادتها كان يدعى بولان (ومعنى اسمه باللغة التركية "الموس" وهو حيوان بري). في ٧٣٠ اتخذ لنفسه اسم سابريـــال واستقدم اليهود مدرسي الشريعة الدينية.

في هذه الأثناء خاضت بيزنطة صراعا يائسا ضد العرب. وكان ينبغي على اليهود الذين وجدوا الخلاص في بيزنطة مساعدة البيزنطيين. لكن مساعدتهم كانت في الواقع خيانة لا مساعدة. فبعد اتفاقهم مع العرب سرًا، فتحوا أبواب المدن ليلاً وأدخلوا الجنود العرب. وهؤلاء بدورهم ذبحوا الرجال وباعوا النساء والأطفال رقيقا. وقام اليهود الذين اشتروا هذا الرقيق

بثمن بخس بإعادة بيعه بفائدة كبيرة. هذا الأمر لم يكن يعجب الإغريق. لكنهم قرروا ألا يكتسبوا أعداء جددًا، فاكتفوا بمطالبة اليهود بالمغادرة. وبهذا الشكل ظهرت في أراضي الخزر المجموعة أو الفرع الثاني من اليهود، أي يهود بيزنطة.

وقد لاقت الدولة الواقعة شمالي نهر تيريك إعجاب الوافدين الجدد. فالمروج المكسوة بالعشب الأخضر كانت مراعي جميلة. وفي روافد نهر الفولغا كانت تسبح أسماك بديعة. فضلا عن مرور طرق التجارة. كما كانت القبائل المجاورة مسالمة وغير عدوانية. وباستغلالهم لمعرفتهم القراءة والكتابة، بدأ اليهود في تطوير وإتقان أشغال وأعمال ليست مألوفة بالنسبة للسكان المحليين: فأصبحت الدبلوماسية والتجارة والتعليم في أيديهم.

في بداية القرن التاسع أضاف السكان اليهود إلى قوتهم الاقتصادية والفكرية السلطة السياسية كذلك. فالحكيم عوبديا الذي تقول عنه الوثائق القديمة إنه "كان يخشى الله، ويحب القانون"، نفذ انقلابا واستولى على السلطة، وقام بطرد الأتراك الذين شكلوا عصب جيش مملكة الخزر. في الوقت نفسه اعتمد عوبديا على فرق المرتزقة من البچناك والأوغوز، في حين قاتل الخزر ذوو الأصول التركية فترة طويلة ضد الغزاة، ولكنهم هزموا وقتل جزء منهم، بينما انسحب الجزء الآخر إلى هنغاريا.

كان يفترض أن يحدث اختلاط الخزر مع اليهود. لكن هذا لم يقع. ووفقا للحكمة اليهودية القديمة، "لا يمكن للمرء أن يكتشف أي أثر للطيور في الجو، وللثعبان على الصخرة، وللرجل في المرأة"، لذلك كان يعتبر كل أبناء النساء اليهوديات يهودا بغض النظر عمن كان والدهم. أما بالنسبة للخزر، مثلهم في ذلك مثل جميع الشعوب الأوراسية، كان يتم تحديد النسب عن

طريق الأب. وهكذا لم تسمح هذه التقاليد المتناقضة بحدوث المزج بين الشعبين (المجموعتين العرقيتين)، كما تعزز الاختلاف والفارق بين الشعبين لأن أبناء اليهوديات وأبناء الخزريات كانوا يتعلمون بطرق مختلفة. فالمعلم الحاخام لم يكن يقبل في المدرسة طفلا إن لم يكن يهوديا، أي إذا كانت أمه خزرية أو بچنكية. وكان على والد هذا الطفل أن يقوم بنفسه على تعليمه، وبالطبع كان هذا التعليم أسوأ من التعليم في المدرسة اليهودية (الخدير). وهكذا تشكلت صورتان نمطيتان متمايزتان في السلوك. وقد حدد هذا الاختلاف المصائر المختلفة للشعبين: اليهود والخزر.

السلطة والمال

بحلول القرن التاسع اندمج اليهود، على عكس الخزر، بنشاط في نظام التجارة الدولية الذي كان قائما آنذاك. فقد كانت ملكية القوافل التي تسير من الصين إلى الغرب في ذلك الزمن تعود بشكل رئيسي إلى اليهود. وكانت التجارة مع الصين في القرنين الثامن والتاسع هي العمل الأكثر ربحا. فقد سمحت أسرة تانغ – في محاولة لملء خزينة الدولة التي فرغت بسبب الإنفاق على الجيش الكبير – سمحت بخروج الحرير من البلاد. ولأجل الحرير تحديدا سارت القوافل اليهودية إلى الصين. وكان الطريق يمر عبر سهوب الأويغور، ثم عبر بلاد السبعة أنهار، بالقرب من بحيرة بلخاش إلى بحر آرال، ثم إلى مدينة أورجينتش. كان عبور هضبة "استجورت" أمرا صعبا للغاية. بعد ذلك كانت القوافل تعبر نهر يايك ومنه تصل إلى نهر الفولغا.

في هذه المنطقة كانت ينتظر المسافرين المتعبين الراحة والطعام الوفير والترفيه. تمثلت مظاهر الاستمتاع الكبرى للقوافل في أسماك الفولغا الرائعة

والفواكه والحليب والنبيذ، والموسيقيين والجميلات. وهكذا تراكم لدى التجار اليهود، الذين كانوا يديرون اقتصاد منطقة الفولغا، الكنوز والحرير والعبيد. بعد ذلك كانت القوافل تنطلق إلى أبعد من ذلك لتصل إلى أوروبا الغربية، خاصة في أقاليم: بافاريا، لانغدوك، بروفانس، ثم بعد عبورها لجبال البرانس كانت تنهي شوطا طويلا عند السلاطين المسلمين في قرطبة والأندلس.

أنشأ التجار الذين يجهزون ويسيَّرون القوافل – واليهود من بينهم جنبا إلى جنب مع الصوغديين – مستعمرات لهم في الصين. إحدى هذه المستعمرات كانت في شمال غرب الصين في مدينة تشانغآن، والأخرى كانت في الجنوب الشرقي في مدينة كانتون.

كان عبء السياسة الاقتصادية للإمبراطورية الصينية كله يقع على كاهل الفلاحين، فالموظفون الحكوميون كانوا يجمعون الحرير منهم. ونتيجة لذلك اندلعت هناك انتفاضة فلاحية قادها هوانغ تشاو (٨٧٤-٩٠١). فقد استغل الاستياء العام، وكذلك حقيقة أن الحكومة الإمبراطورية ضعفت بسبب الهزائم العسكرية المتعاقبة.

بما أن التمرد كان موجها ضد هيمنة الأجانب، فقد اتهمت حكومة تانغ بدعم التجارة مع الأجانب. استولى المتمردون على "كانتون"، حيث تم ذبح جميع السكان الوافدين. ثم مروا بالبلاد كلها إلى تشانغآن، بل واستولوا على هذه المدينة ذات السكان المختلطين. لكن سكان المدينة المدافعين عن زوجاتهم وأطفالهم تمكنوا من طرد المتمردين. في غضون ذلك طلبت حكومة تانغ المساعدة من قبيلتين: التبتيين وأتراك الشاتو. قام زعيم الشاتو، الملقب بالتنين الأعور، على رأس جيش مكون من أربعة آلاف من الفرسان، وفرقة مماثلة من التبتيين بنحر جيش المتمردين البالغ عدده مائتي ألف. قتل هوانغ

تشاو، ولم ينج سوى القلة التي استطاعت الهرب: فالشاتو لم يكونوا يأخذون رهائن. وهكذا انتصرت الحكومة، لكن ثمن ذلك كان تقويض الاقتصاد الصيني بسبب التمرد. فقد قتل العديد من الفلاحين. ولم يعد هناك شيء للتصدير، لأنه لم يكن هناك أحد لإنتاج الحرير ولرعاية أشجار التوت. وبهذا انسحبت الصين من التجارة العالمية.

الكارثة التي حلت على طريق قوافل الحرير من الصين إلى إسبانيا أثرت بالطبع على مملكة الخزر. لكن التجار الخزر النشيطين بقيادة حاكمهم الذي كان يحمل لقب "بك" أو "مالك"، تمكنوا من العثور على مخرج. فقد تحركت فرقهم إلى الشمال. وفي طريق صعودهم بنهر الفولغا هزم جنود مملكة الخزر وأخضعوا لسلطانهم بلغاريا الكامية (بلغاريا الفولغا). إلى الشمال كانت تمتد أراض لا نهاية لها وكانت تسمى في القصص النرويجية باسم بيارميا، وفي المخطوطات الروسية باسم بيرم العظمى. وهنا تحديدا قام التجار الراخدونيت (بمعنى "الذين يعرفون الطريق") بإقامة مستوطناتهم التجارية أو ما يعرف باسم "فاكتوريا".

قدمت غابات بيارميا الفراء الثمين من حيوانات السمور والدلق وابن عرس. بل وعلاوة على ذلك شرع الراخدونيت في تجارة بيع الأطفال. وانطلقت من جديد القبائل التي تحمل الفراء إلى سادات العرب، كما كانت تضم العبيد من الذكور والإناث لحريم الحكام المسلمين. وكان سلاطين وأمراء الخلافة في بغداد يقدرون العبيد المحاربين "الصقالبة" أكثر من تقديرهم لفصائل المرتزقة من البدو الأحرار.

عوض هذا النوع من النشاط مملكة الخزر عن انخفاض التبادل التجاري مع الصين. لكن وقعت مصيبة أخرى. ففي القرن التاسع بدأت تنهار دولة

الخلافة في بغداد. فمركزها بغداد أصبح مثل العنكبوت الذي امتص وابتلع خيرات الأمصار الضخمة التابعة له، ولم يقدم لها شيئا في المقابل. فانفصلت إسبانيا، ثم المغرب والجزائر وتونس. وانفصلت مصر ووسط آسيا وشرق إيران. أخيرا، استقلت منطقة ديلم التي ينبغي وصفها بمزيد من التفصيل.

بين الساحل الجنوبي لبحر قزوين والمرتفعات الإيرانية ترتفع سلسلة جبال إلبروز الشاهقة صعبة المنال. وعلى الشريط الساحلي الضيق كانت تعيش هناك ثلاثة شعوب قديمة جدا. كانت تسمى أراضيهم ديلم (في الجنوب الغربي) وطبرستان (في الجنوب)، بينما كانت تقع في الشرق جرجان أو "بلد الذئاب" (من الكلمة الفارسية "جورجن" أي الذئب). كان سكان هذه الأماكن محاربين أشداء. لكنهم ليسوا من أتباع الإسلام، وهو ما أعاقهم عن إخضاع جيرانهم المسلمين الذين قاوموا "الكفار" بشراسة، حينها اعتنق حاكم ديلم وشعبه الإسلام على المذهب الشيعي. ولم يترتب على ذلك شيء يلزم زعيم الديلميين الذي لم يكن يفقه كثيرا الفروق بين المِلَل والنِحَل، بل كان ينظر إلى نفسه على أنه وريث ملوك فارس القديمة، بل ومنح نفسه لقب شاهنشاه أي ملك الملوك. بعد ذلك استولى محاربو ديلم في الشمال على الأراضي الممتدة من أذربيجان إلى ديربنت، وفي الجنوب على بلاد فارس الغربية، وفي عام ٩٤٥ احتلوا بغداد. وهكذا تم قمع الطريق الملائم والسهل الممتد من نهر الفولغا إلى بغداد على طول ساحل بحر قزوين: فالديلميون لم يسمحوا لأحد بالمرور.

لجأت حكومة الخزر اليهودية، التي أطاحت بالنبلاء العسكريين الترك، إلى خدمات المقاتلين من جرجان. لقد سبق أن قلنا أن الجرجانيين كانوا محاربين أقوياء وشجعان. بالإضافة إلى ذلك كانوا يحاربون لمصلحة التجار الخزر مقابل ثمن باهظ جدا.

بعد انتهاء الخدمة، أو بالأحرى بعد الانتهاء من فترة القتال المحددة كان يعود من يتبقى من هؤلاء المقاتلين على قيد الحياة إلى ديارهم أثرياء. كان حكام الخزر تجارًا بالمعنى الحرفي إذ اشتروا الانتصارات، وفقط الانتصارات. فإذا هُزم الجنود، وهو ما كان يحدث في بعض الأحيان، كان يتم إعدامهم. حقق الجرجانيون الشجعان النصر لليهود الخزر على الأوجوز عند نهر يايك، وعلى البلغار عند كاما، وعلى البورطاس عند نهر ساكمار، وعلى السيفيريين (السابير) عند نهر دونتس. غير أن هؤلاء الجرجان أصحاب الانتصارات رفضوا القتال ضد أبناء دينهم المسلمين من أهل الديلم. وحينها قام اليهود الخزر، وهم شعب واسع الحنكة، بدعوة واستقدام الروس القدماء لمحاربة المسلمين.

تم التعاقد مع الروس على نفس الشروط التي كانت مع الجرجان: أجور عالية مقابل انتصارات إلزامية. وقد أتقن الروس صناعة السفن والملاحة في بحر البلطيق. انطلق جيش المرتزقة من الروس بنهر الفولغا، وبنى السفن في بحر قزوين ثم شن غارات بحرية على أراضي بلاد فارس. في الحملة الأولى نهبوا جزيرة أبيسكون. وقعت المواجهة بين الروس والديلم خلال الحملة الثانية في عام ٩١٣م وصد الديلميون الهجوم، وحتى لا يضطر الروس للعودة من دون ربح، هاجموا بلدة جانجا المسلمة في جنوب أذربيجان. حينها سمح حاكم الخزر لحراسه – الجرجان- بالانتقام لأبناء ملتهم. قاومت فرقة المقاتلين الروس المنهكة لأيام قليلة، لكنها تلقت الهزيمة من المسلمين. والقلة القليلة الناجية من الذين فروا منهم تمت إبادتهم عند نهر الفولغا على يد بدو البورطاس الرحل. هكذا كان الهلاك هو نهاية حملة الفرقة الروسية عام ٩١٣م.

يمتلئ العقدين التاليين من تاريخ الخزر بصراعات صغيرة مع السلاف وإمارة كييف الوليدة التي كانت قد أنشئت بالفعل في ذلك الوقت. كان حصن صاركل الذي بني في عام ٨٣٤م على ضفة نهر الفولغا هو معقل الخزر الحصين في الغرب.

في ٩٣٩م وقع حدث بالغ الأهمية. فقد استولى القائد الروسي، الأمير إيغور، على مدينة سامكيرتس التي تعود إلى الخزر (تحمل الآن اسم تامان) وتقع على ضفاف مضيق كيرتش. جاء رد حاكم الخزر على الضربة بضربة مقابلة: فقد سعت لقتال الروس فرقة الحرس الملكي المسلمة تحت قيادة اليهودي "المبجل بيساح". تمكن بيساح من تحرير سامكيرتس، ثم عبر مضيق كيرِتش ومر على طول الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم (٩٤٠م) ليبيد السكان المسيحيين. نجا فقط أولئك الذين فروا إلى خيرسون المنيعة. وبعد عبوره "بيريكوب" وصل بيساح إلى كييف وفرض الجزية على الإمارة الروسية. وفي ذلك الوقت سلم الروس سيوفهم للخزر، كما هو مذكور في مخطوطة "سجل الأيام الماضية".

تؤكد "حكاية جزية الخزر" على الفارق بين تسلح الروس والسلاف والشعوب الآسيوية. فالسيف الثقيل كان سلاحا مألوفا بالنسبة للمحاربين الاسكندناف والسلاف. أما الآسيويون فلطالما فضّلوا السيوف الخفيفة. فهم بداية من سن السادسة كانوا يتعلمون الذبح والقطع "مع الجذب والشد"، وهكذا كان السيف الخفيف في يد الفتى البالغ منهم رهيبا أكثر من السيف الثقيل الكبير.

لكن دعونا نعود إلى الروس والخزر. في عام ٩٤٣ أرسل الخزر مرة أخرى جيشا من الروس، الذين كانوا مدينين لهم بالجزية بالفعل، إلى بحر قزوين لمحاربة الديلميين. استولى الروس عند منابع نهر كورا على حصن

بردا. أشد من السيوف والسهام الرهيبة للديلميين جاء مرض الزحار (الديزنتاريا) الذي تفجر في معسكر الروس. فشقوا طريقهم إلى قواربهم وأبحروا. لكن، على ما يبدو، لم يعد منهم أحد إلى روس، حيث لم تأت المخطوطات الروسية على ذكر ولو عبارة واحدة حول هذه الحملة.

في القرنين التاسع والعاشر، وبفضل التجارة الواسعة للعبيد والفراء والحرير تحولت مملكة الخزر – التي كان يتألف سكانها من خليط من السكان الأصليين واليهود الوافدين–إلى واحدة من أغنى دول أوراسيا في ذلك الوقت.

الروس السلاف وبيزنطة

نمت الدولة السلافية الروسية الناشئة مع مركزها في كييف بسرعة وبدأت في التوسع إلى شواطئ البحر الأسود. في هذه الحركة واجه السلاف الروس عدوا هائلا كان ممثلا في الدولة البيزنطية التي كانت قائمة في نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر.

وبالحديث عن العلاقات بين كييف وبيزنطة في القرن العاشر يجب ملاحظة الظروف التالية:

أولا، تغيرت الظروف المناخية الطبيعية لحياة شعوب أوراسيا بشكل كبير، وعلى وجه الخصوص سكان المنطقة الشمالية للبحر الأسود. فقد حل جفاف جديد، هاجر بسببه جزء من البچناك من آسيا الوسطى إلى منابع نهر الدنيبر. وفي بحثهم عن حلفاء أقام البچناك اتصالات مع بيزنطة وأصبحوا أصدقاء موثوق بهم، أما المجريون – وهم أعداء لكل من بيزنطة والبچناك – فقد كانوا حلفاء السلاف والروس وكانوا يدعمونهم بقدر استطاعتهم.

ثانيا، نقلت أحداث حروب السلاف الروس مع بيزنطة في السجلات البيزنطية والمخطوطات الروسية بتحريفات وتشوهات كبيرة جدا. فبدلاً من سرد صادق للأحداث نجد أساطير كتبها المؤرخون لصالح "الزعماء" وفقا للوضع السياسي القائم.

وتعتبر "الأسطورة التاريخية" نموذجا مميزا للمخطوطة الروسية الشهيرة "سجل الأيام الماضية" لمؤلفها "نِستور". عاش "إينوك نِستور" في دير "كييف بيتشيرسك لافرا"، المركز الثقافي لتلك المدينة، حيث سادت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر مشاعر قوية مناهضة لبيزنطة. تبدى ذلك العداء في نقل نِستور لتاريخ حملة روسية - تحت قيادة أسكولد - على مدينة قيصر (تسارغراد). استمرت حالة العداء والصدام مدة ٤٧ سنة (أي من عام ٨٦٠ إلى عام ٩٠٧)، وحدد نِستور أن الحملة العسكرية كانت بقيادة أوليغ.

بهذا الشكل يظهر وكأن مآثر روس القديمة في الحرب مع بيزنطة كان أصحابها هم الفارانجيون. وعلاوة على ذلك، إذا قرأنا بعناية رواية نِستور، يمكن أن نرى أنه خلال الفترة من ٨٨٢ إلى ٨٨٥ حقق أوليغ انتصارات على جميع القبائل السلافية، بما في ذلك الخزر الذين كانوا يدفون الضرائب. غير أن نِستور لم يذكر كلمة واحدة لا عن رد فعل الخزر على انتصار أوليغ ولا عن الخزر أنفسهم، أخذا في الاعتبار أن فترة الصمت في هذه الرواية عن شؤون الخزر تمتد لما لا يقل عن ٨٠ عاما. من الواضح أن مؤلف المخطوطة قرر عن عمد التزام الصمت عن بعض الأحداث.

أُجبرت بيزنطة على محاربة تحالف المجريين والسلاف الروس. وأول من استفاد من الموقف كان القراصنة العرب. والوضع الأكثر خطورة الذي تعرضت له ممتلكات بيزنطية كانت تلك الواقعة في شرق البحر المتوسط. فقد استولى القراصنة العرب والبربر القادمون من إسبانيا على جزيرة كريت

وذبحوا جميع السكان المسيحيين هناك. واستولى العرب من سوريا ومصر على جزر بحر إيجه: ليمنوس ورودس وناكسوس وغيرها.

وأخيرًا، في عام ٩٠٤م، تمكن القرصان العربي أسد الطرابلسي (ليو تريبوليتان) من مهاجمة سالونيك (ثيسالونيكي) ونهب ضواحي ثاني أكبر مدينة في الإمبراطورية البيزنطية. حاول هذا القرصان الهجوم حتى على القسطنطينية، ولكن بسبب افتقاره للقوة الكافية طلب المساعدة ممن هم ليسوا أقل منه لصوصية، أي إلى الروس (الدروميتيين).

بالتدريج حظى لقب "دروميتيون" (من كلمة "دروموس" اليونانية ومعناها العدو) بأهمية متزايدة في الغارات التي كان يقوم بشنها المرتزقة من نهر دنيبر. وقعت أول غارة روسية على القسطنطينية في عام ٨٦٠م، حينها واجه اليونانيون العدو وهم يحملون أيقونة السيدة العذراء أوديغتريا، وكانت أسوار المدينة منيعة، فانسحب الروس عن العاصمة وفضلوا توقيع اتفاق سلام مربح بالنسبة لهم. وهكذا كانت بداية حروب السلافيين الروس مع بيزنطة، والتي استمرت حتى نهاية القرن العاشر الميلادي.

تلبية لنداء أسد الطرابلسي "ليو تريبوليتان" انطلقت من جديد سفن ومراكب الروس (الدروميتيين) من عند منابع أنهار دنيبر ودنيستر وبوغا الجنوبي. وتجمع أسطولهم بالقرب من شواطئ مضيق البوسفور، حيث كان في انتظارهم سرب السفن اليونانية بقيادة "يوحنا رادين". وفي هذه الموقعة أُحرقت معظم السفن الروسية بالنيران اليونانية. (ونحن ما زلنا لا نعرف حتى الآن ما هو التركيب الكيميائي لهذا السلاح الرهيب الذي كان لدى البيزنطيين. ويمكننا التخمين فقط أنه كان يعتمد على النفط). واستطاعت الفصيلة الوحيدة الناجية أن تنطلق تحت قيادة قائدها هيلغا للاختباء في مصب

نهر الدنيبر. وبعد هذا النجاح، تمكن اليونانيون بسهولة من صد هجوم العرب بقيادة أسد الطرابلسي.

ولنحاول أن نتخيل ما الذي كان بوسعنا فعله إذا كنا مكان الروس الدروميتيين. فقد انتهت حملتهم على القسطنطينية بهزيمة رهيبة، ومات الجزء الأكبر من رفاق السلاح في ألسنة ولهيب "النار اليونانية". ومن هبط على الشاطئ وقع في الأسر وأصبحوا عبيدا، ولم يكن هناك حديث بالطبع عن أي غنائم. وتفاقمت العداوة بين الروس وبيزنطة. كما كان من الواضح أنه كان من المستحيل محاربة عدو قوي بدون دعم إضافي، ولذا بدأ الروس في البحث عن حلفاء. وهؤلاء الحلفاء كانوا الخزر.

كانت الحكومة اليهودية لمملكة الخزر معادية لبيزنطة المسيحية. استخدم الخزر، كما بتنا نعرف، القوات الروسية في حملات قزوين، وبالطبع في الحروب ضد اليونانيين. كما شنت حملة كبيرة ضد الروم في عام ٩٤١. ومرة أخرى أحرق الأسطول البيزنطي "بالنار اليونانية" سفن السلاف والروس. لكن حكومة الخزر كانت راضية بمثل هذه النتيجة: فقد كانت القوات البيزنطية في البحر الأسود مقيدة بهذا الصراع. وبما أن اليونانيين كانوا مضطرين للقتال ضد المسلمين في آسيا الصغرى، فقد جعل ذلك من مملكة الخزر قوة مهيمنة في أوروبا الشرقية. وتمكنت الإمبراطورية الخزرية من فرض الضرائب على السلاف والمردوف والمير وبلغار كاما. وكان هؤلاء الأخيرون (البلغار) يعولون على مساعدة المسلمين لهم، واعتنق جزء من البلغار الإسلام (٩٢٢). لكن الخلافة المتهاوية في بغداد – حصن المحمديين – لم تكن قادرة حتى على مساعدة نفسها فتركت أبناء الملة البعيدين دون عون.

انتصار سفياتوسلاف

في أوائل القرن العاشر فشلت أيضا كييف في مقاومة إمبراطورية الخزر. ونحن نتذكر أن محاولة الروس تثبيت وجودهم على سواحل بحر آزوف (البحر الأسود) أثارت حملة مضادة للقائد بيساح ووضعت كييف في موقف التابع المجبر على دفع الضرائب للتجار الراخدونيين.

وحين حاول إيغور جمع الضرائب من السلاف لدفعها للخزر، ثار الناس عليه وقتلوه مع زوجته (٩٤٤م). فأصبحت مقاومة الخزر، وليس الحرب مع بيزنطة، المشكلة الرئيسية بالنسبة لكييف. ولهذا السبب سعت الأميرة أولغا، التي كانت تحكم كوصية على ابنها القاصر سفياتوسلاف، لتحصل على حليف قوي ممثل في اليونانيين: فذهبت إلى القسطنطينية، حيث جرى تعميدها، واختارت لنفسها عرّابا هو الإمبراطور قسطنطين بورفروجنيتش الذي كان مفتونا بها وأراد اتخاذها زوجة(٢).

صارت الأجواء جاهزة ليشن سفياتوسلاف (الأمير الشاب الذي تبين أنه قائد نشط) حملة ضد الخزر. بدأت الحملة في صيف عام ٩٦٤. لم يجرؤ سفياتوسلاف على الانطلاق من كييف إلى الفولغا مباشرة عبر السهوب. فهذه كانت مغامرة خطيرة، لأن قبيلة السفيريان (الشماليين) الذين قطنوا على هذا الطريق بين تشرنيغوف وكورسك، كانوا من مؤيدي الخزر. أبحر الروس مصعدين في أعالي نهر دنيبر ثم سحبوا على البر سفنهم حتى بلغوا نهر أوكا. وعبر نهري أوكا والفولغا وصل سفياتوسلاف إلى إتل (إيتليا) عاصمة مملكة الخزر.

أما حلفاء سفياتوسلاف في حملة أعوام ٩٦٤-٩٦٥ فكانوا قبائل توركية من البچناك والأوغوز. وكان البچناك (وهم من مؤيدي بيزنطة

وأعداء طبيعيين لإمبراطورية الخزر) قد جاءوا لمساعدة سفياتوسلاف من الغرب. على الأرجح مر طريقهم عبر قرية كالاشينسكايا الحالية، حيث يقترب نهر الدون من نهر الفولغا بشدة. أما الأوغوز فجاءوا من نهر ياك بعد أن عبروا السهول الشاسعة لحوض بحر قزوين، والمغطاة بالكثبان الرملية هلالية الشكل. وبعدها التقى الحلفاء بأمان في "إتل" مع وصول قوارب الروس عبر النهر.

كانت عاصمة إمبراطورية الخزر تقع على جزيرة ضخمة (يبلغ عرضها ١٩ كم) تشكلت نتيجة رواسب ألقاها فرعا نهر الفولغا: أي مجرى الفولغا (من الغرب) ومجرى أختوبا (من الشرق). كان أختوبا في تلك الأيام نهرا مليئا بالمياه مثل نهر الفولغا نفسه. وكان الكنيس وقصر القيصر في المدينة مشيدان من الحجارة، وكانت فيها المنازل الخشبية الثرية المملوكة للرخدونيين، كما كان هناك أيضا مسجد حجري، وذلك لأنهم كانوا متسامحين مع المسلمين.

قطع جنود سفياتوسلاف جميع الطرق المؤدية إلى إتل. لكن سكانها ربما كانوا على علم باقتراب الروس، ففر معظم السكان الخزر الأصليين إلى دلتا نهر الفولغا. كانت دلتا الفولغا قلعة طبيعية، كان بوسع السكان المحليين فقط فهم متاهة القنوات المتفرعة عنه. وفي فصل الصيف كان باستطاعة سحب البعوض اللاذعة، التي كانت تظهر مع غروب الشمس، أن تهزم وتقضي على أقوى جيش. أما في فصل الشتاء، فكان الفولغا يمتلئ بالجليد، وتصبح دلتا مستحيلة المنال بالنسبة للقوارب. وكانت جزر الدلتا مغطاة بتلال ضخمة من الرمل قد يصل ارتفاعها لمنزل من أربعة طوابق. وقد وفرت هذه التلال المأوى للخزر الأصليين.

أما السكان اليهود فكانوا في وضع مختلف. فلم يكن هناك من داع أو سبب منطقي بالنسبة للتجار اليهود وأقاربهم من دراسة قنوات نهر الفولغا: فهم لأجل ذلك صنعوا احتكارهم للتجارة الخارجية والربا للعيش في بيئة طبيعية مريحة، أي بيئة المدينة. وكان اليهود غرباء على السكان الأصليين، أي الخزر، الذين كانوا يستغلونهم. بطبيعة الحال، لم يكن يروق للخزر هؤلاء السادة والحكام، لذا لم يكن لديهم أي نية لإنقاذهم.

في المدينة المحاصرة، لم يكن لليهود أي مكان يركضون ويفرون إليه، لذا خرجوا ليحاربوا سفياتوسلاف ولقوا هزيمة ساحقة. وفر الناجون منهم عبر الأراضي "السوداء"[٣] إلى تيريك واختبأوا في داغستان.

وصل سفياتوسلاف إلى تيرك أيضا. كانت هناك ثاني مدينة كبيرة لليهود الخزر وهي مدينة سميندير[٤]. وفي المدينة والمنطقة المحيطة بها كان هناك أربعة آلاف مزرعة من مزارع الكروم. كان في سميندير قلعة رباعية الزوايا، لكنها لم تنقذ المدينة. فقد تمكن سفياتوسلاف من هزيمة سميندير وصادر الخيول والثيران والعربات من السكان، ثم انتقل عبر نهر دون إلى روس. وفي طريق العودة إلى الديار استولى على حصن آخر للخزر وهو قلعة ساركل التي كانت تقع بالقرب من قرية سيمليناسكايا الحالية.

تم تشييد ساركل من قبل البيزنطيين خلال فترة صداقتهم القصيرة مع مملكة الخزر، وقد تم إنشاؤها بواسطة المهندس المعماري اليوناني بيترون. وفي ساركل واجه سفياتوسلاف حامية مكونة من البدو الرحل المرتزقة. فانتصر الأمير ودمر القلعة، ثم تم تغيير اسم المدينة إلى البرج الأبيض (بيلايا فيجا). ولاحقا استقر فيها السكان القادمون من أرض تشرنيغوف. وبسقوط ساركل في يده انتهت حملة سفياتوسلاف المؤزرة بالنصر ضد إمبراطوية الخزر.

ونتيجة لحملة أعوام ٩٦٤-٩٦٥ حصل سفياتوسلاف على إعفاء من دفع ضرائب ليهود الخزر في كل من الفولغا والحوض الأوسط لنهر تيريك وجزء من الدون الأوسط، لكن لم تعالج جميع المهام السياسية العسكرية. ففي كوبان وفي شمال شبه جزيرة القرم وفي تموتاراكان كان السكان اليهود تحت اسم الخزر لا يزالون يحتفظون بمواقعهم المهيمنة ويحافظون على النفوذ المالي. ومع ذلك، كان الإنجاز الرئيسي للحملة دون شك هو استعادة روس الكييفية لاستقلالها.

الهوامش

(١) خضعت هذه القبائل لنفوذ التورك في القرن السادس، غير أنه في النزاع العائلي الذي اشتعل بين التورك اعتمد فرع منهم على البلغار بينما اعتمد الآخر على الخزر. وانتصر الفرع التوركي الذي كان الخزر متحالفين معه. هرب البلغار إلى شعبتين: شعبة اتجهت إلى سهوب منطقة وسط الفولغا، وهناك أسسوا مدينة بولغار الكبرى. الشعبة الأخرى اتجهت – تحت قيادة الخان أسباروخ - إلى حوض الدانوب في جنوب شرق أوروبا، حيث اختلطوا مع القبائل السلافية الجنوبية واضعين الأساس لشعب جديد وهو شعب بلغاريا.

(٢) هنا نحن نصطدم مرة أخرى مع ارتباك واضح في الترتيب الزمني من قبل "نِستور" ومؤرخين آخرين. فوفقا لمخطوطة نوفغورود رقم١ ولدت أولغا في عام ٨٩٣، وذهبت إلى القسطنطينية في عام ٩٥٥م، ما يعني أن عمرها في ذلك الوقت كان ٦٢ عاما، ونِستور يؤكد لنا أن قسطنطين كان مفتونا بأولغا لدرجة أنه رغب في أن يتزوجها. برأينا، تمت رحلة أولغا إلى بيزنطة ومعموديتها في تاريخ سابق بـــ ١٠ سنوات تقريبا عن التاريخ المذكور أعلاه، أي في عام ٩٤٦م.

(٣) سميت الأرض بـــ "السوداء" شمال تيريك، لأنه بسبب الشتاء قليلة الثلوج في هذه المنطقة كانت الرياح القوية ترفع بسهولة الغبار المحمل بالثلج، وهكذا كانت تنشأ العواصف الثلجية "السوداء".

(٤) في الوقت الحالي يشغل مكان المدينة الفضاء الممتد بين قريتي شيرفلينايا وغريبنسكايا، وقد وصفه تولستوي في رواية "القوزاق".

الفصل الثالث

روسيا تعتنق المسيحية

- مواجهة بيزنطة
- الشقاق الوثني المسيحي بين الروس والسلاف
- الأخ يعادي أخيه
- الصدام بين السلاف والبلغار
- من الوثنية إلى المسيحية.. طريق جديد

مواجهة بيزنطة

لم يكن لنتائج حملة ٩٦٤-٩٦٥م التي شنها الروس على بيزنطة إلا أن تساهم في رفع هيبة روس في نظر الحليف البيزنطي الذي حاول بعدها بكل طريقة جذب سفياتوسلاف إلى معالجة مشاكل السياسة الخارجية للإمبراطورية. كانت الحكومة البيزنطية بحاجة إلى رجل للتفاوض مع سفياتوسلاف. وقع الاختيار على الدبلوماسي البيزنطي كالوكير، ابن الإستراتيجوس (الحاكم العسكري) لمقاطعة خيرسونسوس. كان كالوكير رجلاً نشطًا طموحًا، يعرف لغة السلاف وأخلاقهم بشكل جيد، لأنه التقى بهم في خيرسونسوس، ولكونه ضابطًا بيزنطيًا فقد حارب كتفًا إلى كتف بجانب السلاف الروس ضد المسلمين في سوريا.

في كييف، أبرم كالوكير اتفاقا مربحًا للإمبراطورية البيزنطية، تعهد الروس بموجبه بإجبار المملكة البلغارية على الخضوع. لم يكتف السفير الطموح بذلك بل كان يحلم سرا بالتاج الإمبراطوري، ومن ثم سعى إلى مضاعفة الاعتماد على جيش الروس تمهيدا للإطاحة بالإمبراطور العجوز "نقفور الثاني فوكاس" والاستيلاء على السلطة في القسطنطينية.

تنفيذا للاتفاق بشأن القضاء على بلغاريا هبط الروس عند مصب نهر الدانوب وهزموا القيصر بطرس البلغاري واستولوا على بلغاريا. توفي بطرس بعد ذلك بقليل، وتم إرسال الأمراء المأسورين إلى بيزنطة. بدأت خطط كالوكير تتحقق: أصبح سفياتوسلاف أمير السلاف الروس صديقا له. غير بعيد عن القسطنطينية وقفت الفرق العسكرية الروسية متأهبة، كما جاء الحلفاء البجناك إليها.

وفي القسطنطينية نفسها كان الوضع مواتيا لكالوكير. كان العجوز "نقفور الثاني فوكاس"- القائد والإداري العظيم - يعاني انصراف قلوب الناس عنه. دعم فوكاس الرهبان من جبل آثوس، مؤيدا بذلك رجال الدين الفقراء ضد الأديرة والأساقفة الأثرياء.

كان الإمبراطور نقفور قد قلص العوائد المالية للكنيسة من أجل توجيهها للإنفاق العسكري، وهو ما تسبب في عداوة بطاركة الكنيسة له. بالإضافة إلى ذلك رفع الضرائب على الحرفيين والصيادين، ومع زيادة الضرائب على الأسعار كان سكان الحضر يتذمرون. لم يكن نقفور فوكاس يحظى سوى بدعم المحاربين الحدوديين (الأوكرانيين) لكنهم كانوا بعيدين عن العاصمة في اللحظة الحاسمة. وطامة المصائب بالنسبة لفوكاس أنه صار عجوزا دميم الوجه فسلمت زوجته الأصغر سنا - الإمبراطورة ثيافانو - قلبها إلى يوحنا تزيميسكيس الوسيم.

نضجت المؤامرة، اخترق المتآمرون القصر بمساعدة الإمبراطورة وقتلوا الإمبراطور العجوز بلا رحمة (٩٦٩م). لكن بمجرد أن أصبح إمبراطورًا، قام تزيميسكيس بنفي شركائه في المؤامرة - الإمبراطورة ثيافانو والقتلة المباشرين - إلى جزر بحر إيجه.

ولسوء حظ كالوكير، الذي تم الكشف عن خطته أثناء حياة فوكاس، كان تزيميسكيس قائدا ماهرا ونشطا. فأطلق فاسيليوس الجديد على سفيتاسلاف وكالوكير القوات الممتازة التي أنشأها سلفه. بالإضافة إلى ذلك، كان فوكاس نفسه قبل مقتله قد أرسل الأوامر ليقوم حلفاء بيزنطة من البچناك من الضفة اليسرى بمهاجمة كييف. لذلك، اضطر سفياتوسلاف إلى مغادرة بلغاريا والاندفاع عائدا إلى روسيا لإنقاذ عاصمته وأمه الطاعنة في السن وأبنائه. لكن عندما وصل إلى كييف، كانت الحرب قد انتهت بالفعل دون أن

تبدأ. فقد نجحت قوات بريتيتش – الآتية من الشمال – في إيقاف قوات البچناك. تبادل خان البچناك مع بريتيتش الأسلحة وبعد أن عقد معه السلام، غادر إلى سهوب دنيبر.

وجد سفياتوسلاف، الذي ترك كل شيء في بلغاريا، أنه في كييف لم يكن على الإطلاق في وسط حاشيته وشعبه، فقد قوي عود الجماعة المسيحية هناك واشتد، ولم يعد يروقها الأمير الوثني. ولم يحبذ سفياتوسلاف المسيحيين، بل إنه "لم يكن يحب الجلوس في كييف". يجب أن نذكر هنا أن الفكرة التي ظهرت لدى سفياتوسلاف بضرورة إقامة عاصمة جديدة على مشارف أرضه لم تكن سخيفة. فنفس الفكرة ستدفع لاحقا بطرس الأكبر، الذي أنشأ بطرسبورج، حيث تركزت الحياة الصاخبة للمجتمع الجديد. ومثلما لم يرغب السويديون في أن تكون عاصمة بطرس مجاورة لهم، لم يرغب اليونانيون في جيرة قريبة مع سفياتوسلاف المحارب.

طلبت أولغا من ابنها ألا يتركها. لكن الأميرة العجوز توفيت سريعا، وسارع سفياتوسلاف بالعودة الى بلغاريا، لكنه حين وصل كان الوضع قد تغير إلى ما لا يُشتهي.

فقد وصل البيزنطيون إلى سهول شمال بلغاريا واستولوا على مدينة بريسلاف. وسرعان ما انتقل البلغاريون إلى صف اليونانيين: فقد خيب الروس آمالهم بسبب عنفهم وقسوتهم. وانطلقت فرقة الروس التي تمكنت من مغادرة بريسلاف مع كالوكير إلى مدينة بيرياسلافيتس على نهر الدانوب. أما مصير كالوكير فيما بعد فغير معروف لنا. تخلى البچناك أيضا عن سفيتاسلاف. وهكذا وجد القائد الذي تركه الحلفاء نفسه على رأس فرقة عسكرية صغيرة في مواجهة كل من القوات البيزنطية وبلغاريا المتمردة.

في ربيع عام ٩٧١م وبعد أن أوقف الإمبراطور تزيميسكيس المفاوضات الخاطئة مع سفياتوسلاف، شن هجوما اقترب من بيرياسلافيتس برفقة أفضل قوات الإمبراطورية البيزنطية. في الوقت نفسه دخل سرب يوناني من ٣٠٠ سفينة نهر الدانوب. سقطت بيرياسلافيتس بعد هجوم لمدة ثلاثة أيام، وجاء الفصل الأخير من المأساة. لم يستطع الروس القتال "في الميدان المفتوح" بسبب غياب الفرسان وحبسوا أنفسهم في مدينة دوروستول. حاصر اليونانيون هذه القلعة الصغيرة من جميع الجهات. لم يستسلم الروس وقاتلوا ببطولة وبسالة: هاجموا البيزنطيين وهم مشاة على الأقدام، وفقط أنقذت ضربات الفرسان تزيميسكيس من الهزيمة. وطوال الليل بعد هذه المعركة، عندما لم يتبق جندي واحد دون إصابة من الفرقة الروسية، اشتعلت النيران في الحصن. وعلى ضفاف نهر الدانوب قدم الروس الأضاحي من الأطفال الرضع والديكة تضرعا إلى آلهتهم لكي تمنحهم النصر.

وقعت خسائر كبيرة على كلا الجانبين وانتشرت المجاعة في المعسكر الروسي مما دفع الطرفين المتحاربين إلى المفاوضات. في منتصف نهر الدانوب التقت السفينة الرائعة لإمبراطور الروم والقارب البسيط الذي كان أحد المجدفين فيه هو الأمير سفياتوسلاف. ولم يكن الزعيم الروسي بقميصه الأبيض البالغ ركبتيه يختلف في المظهر عن أي محارب بسيط حليق الرأس بخصلة شعر طويلة تتدلى خلف رأسه وشارب منخفض للأسفل وقرط في الأذن، ما جعل منظره يبدو شرقيا تماما.

لم يكن اليونانيون بحاجة إلى مقتل سفياتوسلاف وفرقته العسكرية. فسمحوا لهم بالانسحاب. وقدم سفياتوسلاف مقابل ذلك وعدا بالتخلي عن بلغاريا. انطلقت القوارب الروسية – بعد السماح لها من جانب السرب اليوناني – عبر مصب نهر الدانوب إلى البحر الأسود ووصلت إلى جزيرة بيريزان (في العصور القديمة كانت تسمى جزيرة بويان) عند مصب نهر دنيستر.

الأحداث التالية على ذلك تبدو غريبة نوعا ما. لم يذهب سفياتوسلاف إلى العاصمة كييف، لكنه وضع جيشه المرهق والمنهك بالجروح والمصاعب والتنقل في بيريزان. وبعد فترة قصيرة جدا اتضح وجود نقص كبير في الطعام. وكان من الواضح أنه من الضروري التحرك على طول وديان النهر إلى كييف. هكذا تصرف بالفعل أحد قواد الأمير واسمه سفينيلد. فقد ترك سفياتوسلاف، وغادر مع جزء من المحاربين حيث تحرك عبر المستنقعات الجنوبية إلى أن وصل كييف. والسؤال هنا: ما الذي جعل سفياتوسلاف يبقي في جزيرة "بيريزان" ويقضي شتاءً مؤلمًا جائعًا عام ٩٧٢/٩٧١م؟ يستبعد أن يكون السبب هو الخوف من الاصطدام مع البچناك. فتجربة سفينيلد لعبور نهر الدون تمت دون صعوبات، والأهم من ذلك أن البچناك كانوا دون غيرهم يبيعون للروس المواد الغذائية، لذلك كان هناك نوع من العلاقة بين سفياتوسلاف والبدو البچناك.

الاحتمال الأرجح، أن السبب كان يكمن في حدوث انقسام في صفوف قوات سفياتوسلاف في بيريزان. حيث وضع الروس الوثنيون تهمة الهزيمة في عنق الروس المسيحيين الذين كانوا جزءا من الجيش الروسي. وبدورهم أرجع الوثنيون الهزيمة إلى غضب آلهتهم الكبرى: بيرون وفولوس، وشهدت الجزيرة لذلك مشاهد دموية مروعة. فقد تم تعذيب وقتل جميع المحاربين المسيحيين ولم يبق سوى الوثنيين، وكان من بين القتلى "يوليب" وهو أحد أقارب سفياتوسلاف.

علمت كييف بهذه الأحداث الدموية في بيريزان. وهكذا، فهم المسيحيون في كييف، والذين كانوا يشكلون طائفة ومجتمعًا كبيرًا ومؤثرًا، ما ينتظرهم عندما يعود سفياتوسلاف مع محاربيه الشرسين إلى عاصمته من جديد.

لكن كيف تطورت الأحداث فيما بعد؟ تشير المصادر إلى أنه في ربيع عام ٩٧٢ توجه الروس من بيريزان إلى كييف. لكن لعلة ما لم يختاروا

للعودة الطريق الجنوبي الضيق والهادئ، بل منحدرات الدنيبر، حيث كان في انتظار الروس عند جنادل ومنحدرات دنيبر المشؤومة قبائل البچناك من الضفة اليسرى. وفي معركة بسيطة تم تحطيم فرقة سفياتوسلاف العسكرية عن بكرة أبيها، وحصل خان البچناك لنفسه على وعاء مصنوع من جمجمة الأمير الروسي سفياتوسلاف.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: من الذي نبه البدو إلى أن سفياتوسلاف مع جيشه المنهك من الجوع والمرض كان يسير بمحاذاة نهر دنيبر؟ كان يمكن أن يتم ذلك من قبل شخص لديه وقت كافٍ، وكانت له أعين في بيريزان، وكان على إطلاع بظروف الحياة في الجزيرة، والأهم من ذلك، لم يكن يريد حقًا أن يأتي هذا الجيش إلى كييف.

يعتقد مؤرخو القرن الماضي أن البيزنطيين هم من أرسلوا البچناك إلى سفياتوسلاف، ولكن لهذا كانوا بحاجة إلى الإبحار عبر البحر الأسود بأكمله لإخطار مجلس الإمبراطور (سينكليت)، ثم العودة بقرار المجلس مرة أخرى للوصول إلى الضفة اليسرى من دنيبر عبر البحر الأسود، ثم العثور على البچناك في السهوب الهائلة وتسليمهم الهدايا المستحقة لإقناع سكان السهوب بذلك.

يمكننا أن نفترض أن تزيميسكيس تمكن بأعجوبة من إيجاد الوقت الكاف للحصول على معلومات حول جيش سفياتوسلاف، ومن ثم الاتصال بالبچناك. ولكن لو كان فاسيليوس أراد إبادة روس، لكان من الممكن أن يجعل هذا الأمر أكثر سهولة، أي كان بإمكانه استخدام "النيران اليونانية" لإحراق القوارب غير المحصنة للروس عندما كانوا لا يزالون في نهر الدانوب.

الأرجح أن المسيحيين في كييف برئاسة الابن الأكبر لسفياتوسلاف ياروبولك كانوا هم المعنيون والمهتمون حقًا بقتل الأمير وقواته. فهذا الابن الأكبر تحديدا كان يعلم جيدا بما كان يحدث في بيريزان، وقد يكون قد عقد

اتفاقًا مع البچناك على ذلك. ولنتذكر هنا أنه في وقت مبكر من عام ٩٦٩، وقع تآخي القائد العسكري بريتيتش مع خان البچناك، وبالتالي، يمكننا أن نفترض أن الذنب على مقتل سفياتوسلاف وهلاك جيشه لا يقع على عاتق مسيحيي القسطنطينية، ولكن على ضمير مسيحيي كييف.

الشقاق الوثني المسيحي بين الروس والسلاف

بمقتل الأمير الوثني سفياتوسلاف بدأت روس الكييفية تتحول إلى بلد هادئ غير مزعج، حيث اكتسبت التعاليم المسيحية المزيد من المؤيدين.

دعونا نتفكر قليلا: هل أضيرت روس من هذا أم استفادت؟ فلو كان انتصر سفياتوسلاف، لكان قد حول كييف إلى قاعدة لانطلاق الغارات اللصوصية إلى شيء يشبه جزيرة روجا البلطيقية (روغن حاليًا). كانت الجزيرة وكرا للقراصنة السلاف الذين كانوا يتعبدون إلى الإله سفياتوفيت، وكانوا يروعون التجار الألمان والدنماركيين. وقد قاتل القراصنة مع الجميع حولها وتم القضاء عليهم في نهاية المطاف. نفس المصير كان ينتظر دولة سفياتوسلاف، الذي كان من شأنه أن يدخل في عداوة مع القبائل المثقلة بالضرائب، ومع المسيحيين الذين كان يعدمهم عادة. نتيجة لذلك كله لم يكن لأمير كييف أي أصدقاء.

بعد مقتل سفياتوسلاف، ضعف الحزب العسكري الوثني في كييف. بدأت السلطة والنفوذ بالانتقال إلى المسيحيين، وهو ما كان سببا في هجرة الفصيل الوثني من الروس من دولة كييف. ولم يكن الخروج من أوروبا الشرقية صعبًا بالنسبة لهم، وذلك لأنه منذ القرن التاسع كان الروس سريعي الحركة وعدوانيين. وهكذا، في عام ٨٤٤ كتب مؤلف عربي يقول: "تزل الروس لعنة الله عليهم الأندلس وحاولوا شق طريقهم إلى إشبيلية".

صدت القوات المسلمة الضربة وألقت الأعداء في البحر. يتضح من هذا أن الروس كانوا يعرفون الطريق إلى الغرب جيدا. لذا اتجهوا إلى هناك حالما أجبرهم الوضع في كييف على ذلك، فقد كان طريقهم يمر عبر الروم والأندلس. وكانت "الروم" أي بيزنطة، بحاجة ماسة للغاية إلى محاربين لقتال المسلمين. وكان المرتزقة الروس تنتظرهم معركة مع قوات الخلافة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية.

أولئك الذين ذهبوا إلى الأندلس، أي إسبانيا، كانوا على معرفة جيدة بسيوف وسهام البربر وفضلوا مهاجمة غاليسيا المسيحية (مقاطعة في إسبانيا). وكانت أولى "مآثرهم" نهب الساحل وحرق الأديرة وقتل القساوسة. احتدم الصراع ثلاث سنوات في هذه الأرض. لقد تدهورت حالة هذه المنطقة إلى درجة بالغة السوء. وفي ختام المطاف تمكن الدوق "غونزالو سانشيز" من تجميع القوات وهزيمة الغزاة. ركب الروس السفن، وأبحروا بعيدا، ولم يعرف لهم أثر أو يسمع عنهم خبر بعد ذلك.

وبما أننا الآن نعرف الجغرافيا أفضل من الناس في القرن العاشر، بإمكاننا أن نفترض أين ذهب الروس. من غير المحتمل أن يكونوا شنوا حملة في الجنوب، لأن الولاة المسلمين كانوا يعرفون جيدا كيف يصدون الغارات، وكان الروس أيضا يعرفون ذلك جيدا. أما الطريق إلى الشمال، فكان يمر عبر خليج الباسك، أحد أكثر المناطق المضطربة في المحيط الأطلسي، حيث من الخطورة بمكان المرور عبره حتى يومنا هذا. لذلك يبقى الاحتمال الأغلب هو الطريق إلى الغرب، وعلى ما يبدو، أنه نفس الطريق الذي سلكه الفايكنج للوصول إلى أمريكا. لكننا لا نعرف شيئًا عن وجود أية آثار للروس في هذه القارة. لذلك على الأرجح، تقبع بقايا هذه القبيلة العنيفة الآن في قاع المحيط الأطلسي. وبهلاك هذا الفصيل من الروس طويت تماما صفحة التاريخ التي تحكي عن العلاقات بين السلاف والروس القدماء.

ننوه إلى أنه في القرنين التاسع كان في بعض الأحيان يحيك هذان الشعبان العداء لبعضهما البعض، وفي أحيان أخرى كانت اتصالاتهم وثيقة. كان الاتصال بين السلافيين والروس من السمات المميزة لكييف، حيث كانت الغلبة "للروس أنصار النزعة السلافية". وهناك تحديدا تشكلت المجموعة العرقية الروسية السلافية. لقد كان التقارب بين الروس والسلاف إلى هذه الدرجة، بحيث أعطى الروس للسلافيين كلاً من أسمائهم وأمرائهم.

أصبحت أرض البوليان تعرف باسم روس. غير أن الصراع القديم بين السلافين والروس جرى استبداله بآخر، ليس أقل دموية وتعقيدا.

الأخ يعادي أخاه

صار ياروبولك – ابن الأمير الوثني المقتول سفياتوسلاف – زعيما على كييف ورئيسا على الجماعة المسيحية فيها بعد وفاة الأميرة أولغا، وقد عقد ياروبولك المعاهدات مع القسطنطينية والبچناك. في الشمال، في نوڤغورود، واجهت المسيحية عبادة الإله بيرون الاسكندنافي البلطيقي (واسمه بيركوناس باللغة الليتوانية)، وهو إله الدين الوثني المتجدد. وعلى الرغم من أن كييف ظلت مدينة وثنية، فإن عبادة "بيرون" التي جُلبت من شواطئ بحر البلطيق لم تلق قبول أهل كييف على الإطلاق[١].

مثل جميع الآلهة التي استوجبت التوقير والتقديس طالبت آلهة السلاف عبَّادها الإجلال، لكن دون أن تصل إلى التضحية البشرية. أما عبادة الإله بيرون فكانت مختلفة، إنه إله الحرب والرعد، الذي بقدومه صارت الأرض ملطخة بدماء الضحايا. تصاعدت كراهية أهل كييف لعبادة ولعشاق بيرون. فحالات تقديم الضحايا البشرية دفعت بالكثير لقبول التعميد المسيحي، فلم يكن

يرغب أحد أن يجد نفسه في ختام المطاف يقدم نفسه أو ابنه قربانا. كان هذا الأمر يهدد الجميع، فالكهنة بعد أن يختاروا الأضحية البشرية لا يترددون أو يسوفون أو يستشيرون في قتلها.

في مثل هذه الحالة الحادة، كان الصدام حتميا. بدأ صـــراع ياروبولـــك الطويل والعنيف ضد أنصار بيرون بقيـــادة فلاديميـــر الأخ غيـــر الـــشقيق لياروبولك[٢].

يصف مؤلف المخطوطة جميع الأحداث اللاحقة على أنها أفعال الأمراء. لكننا نعرف أنه في الواقع كان الأمراء صغارا جدا في السن. فقد كان فلاديمير والابن الثالث لسفياتوسلاف، أوليغ، يبلغان من العمر ١٥ عامًا تقريبًا، وكان ياروبولك أكبر بقليل. ولم يكن بوسع هؤلاء الفتيان تنفيذ سياسة مستقلة. لقد كان يقف خلفهم عدد من الرجال ذوي الخبرة والنفوذ، الذين يعتمدون على سكان أراضي بعينها. هذا هو تحديدا السبب في أن الصراع السياسي التالي مثير للاهتمام وضروري لموضوعنا.

وهكذا، فإن انتصار البجناك على سفياتوسلاف، والذي أتى بياروبولك إلى السلطة، وحَّد لفترة ما روس القديمة. فقد خضعت كل الأراضي الروسية السلافية تقريبا على امتداد دنيبر ونوفغورود في الشمال لياروبولك. وقد تمكن بغزوة قصيرة إلى أوفروتش التخلص من أخيه الأصغر أوليغ، أمير الدريفليانيين (٩٧٧)، وأخضعت أراضيه لحكم كييف.

أما فلاديمير الذي كان قد نفي مع عمه دوبريني إلى نوفغورود من قبل سفياتوسلاف، فقد هرب إلى السويد بعد وفاة أوليغ وذلك بسبب خوفه من أخيه الأكبر. وبهذا يبدو أن الوحدة المرغوبة للبلد قد تحققت. لكن تبين أنها هشة، لأن السلاف الروس أصحاب الشغف الخلاق في ذلك الوقت كانوا مشبعين برغبة في النضال من أجل عقائدهم.

عاد فلاديمير إلى نوفغورود مناصرا لآلهة البلطيق "الشريرة". وقاد جيشا من الفارانجيين والنوفغوروديين وهاجم في بداية الأمر بولوتسك، وقتل أميرها روغفولود وضم أراضي بولوتسك إلى نوفغورود. ثم تلا ذلك بالاستيلاء على سمولينسك. وفي عام ٩٨٠ ومن خلال الطريق العظيم "من الفارنجيين إلى الإغريق" اقترب فلاديمير من كييف.

كان هناك بعض الخونة في الحاشية المحيطة بياروبولك. ومن الواضح أنه لم يكن يروق الجميع. لقد وضع القائد العسكري "بلود" – بنصائحه الزائفة – الأمير في موقف صعب للغاية: فحاصره فلاديمير في حصن رودنا. وبدأ الجوع يدب بين صفوف المحاصرين. فنصح بلود هذا ياروبولك بالخروج من الحصن والتفاوض مع شقيقه على عقد السلام. وقرّروا أن يجتمعوا في الخيمة بين الخندق وخيام المحاربين المحاصرين.

عندما دخل ياروبولك الخيمة طعنه اثنان من الفارنجية المختبئين هناك بالسيوف. وهكذا حقق الحزب الوثني فوزا كاملا. ومع ذلك، رأى فلاديمير، وكان رجلا حاذقا– رغم قسوته وانعدام احترامه للمبادئ – أن عبادة بيرون لا تحظى بشعبية في الجنوب.

لقد كان الفصيل صاحب الشغف الخلاق (الأكثر نشاطا) من شعب كييف قد قبل المعمودية بالفعل. وبالطبع كان فلاديمير يتابع عن كثب المشاعر العامة في العاصمة، لأنه لم يكن بوسعه أن يتجاهلها، خاصة بعد أن وقع خلاف على الغنائم بينه وبين فرقته الفارنجية[٣].

الصدام بين السلاف والبلغار[٤]

جمعت السياسة الخارجية لفلاديمير في ثمانينيات القرن العاشر ما بين النجاحات والفشل. ففي الشمال الشرقي مع روس كانت هناك مملكة البلغار

الفولغية القوية المجاورة، والتي اعتنقت واحدة من الديانات العالمية وهي الإسلام. وكانت بلغاريا الفولغا تحدها مباشرة اثنتان من إمارات-المدن وهما "موروم" و"سوزدال"[٥].

لم تكلل بالنجاح محاولة كييف لضم بلغار الكبرى القائمة على ضفاف نهر الفولغا (ليس بعيدا عن كازان الحالية)[٦].

أما على الجبهة الجنوبية الغربية فقد خاض فلاديمير صراعا جديدا ضد بيزنطة وبالتحديد في حملة (خيرسون) التي كانت لها عواقب وخيمة. ففي نهاية القرن العاشر كانت نصف أراضي بلغاريا تحت الاحتلال البيزنطي وفي ظل هذا الاحتلال قبلت بلغاريا المذهب الأرثوذكسي، الذي اعتمد في عام ٨٦٥، لكنهم ابتعدوا دينيا عن بيزنطة فيما يخص العقيدة، وظهرت بينهم حركة دينية مهرطقة تزعمها كاهن اسمه بوغوميل.

كانت تعاليم البوغوميليين المهرطقة، والتي سميت باسم مؤسسها، نظامًا هداما مثلها مثل. البليغيين الفرنسيين، والمانويين المقدونيين، والبيلكانيين البيزنطيين، والقرامطة والإسماعيليين في العالم الإسلامي. وكما نرى، فإن هذه التعاليم المهرطقة طغت على كل من أوروبا الكاثوليكية والعالم الإسلامي وبيزنطة. ومع ذلك، تمكن اليونانيون فقط من التعامل مع أنصار الشر الميتافيزيقي. بعد تدمير حصن "تفريكي" الذي يمثل معقل البيلكانيين، تمكن البيزنطيون في القرن التاسع من السيطرة على المانويين المقدونيين. وقبل أن تنقض عليهم بيزنطة سار البوغوميليون إلى روس، التي كانت تشتاق إلى المسيحية. وعلى ما يبدو فإنه تحت تأثيرهم قام فلاديمير بتجهيز الحملة السخيفة ضد مدينة خيرسون.

كانت "خيرسون" (وتنطق باللغة اليونانية خيرسونيس) الواقعة غير بعيد عن سيفاستوبول المعاصرة تمتلك تحصينات ممتازة أنقذت عدد غير قليل من

المسيحيين خلال حملة بيساح. لم يتمكن فلاديمير من الاستيلاء علــى هــذه المدينة سوى بالخيانة(٧). لكن فلاديمير فشل في البقاء في شبه جزيرة القـــرم. فقــد تـــزوج مـــن أميـــرة يونانيـــة وأعـــاد خيرســـون إلـــى البيـــزنطيين، ثم انسحب.

من الوثنية إلى المسيحية.. طريق جديد

وصم فلاديمير نفسه بقتل أخيه روغفولود (أمير بولوتسك الذي ذكرناه من قبل) دون أن يقترف ذنبا أو يقاتل ضده، بل واغتصب فلاديمير ابنة روغفولود "روجيندا" حتى إنها حاولت قتل فلاديمير انتقامًا لموت والدها وإخوتها. لقد قتل فلاديمير أخاه غدرا. هو أيضا قام بخيانة رفاقه الفارنجيين. لقد ارتكب هذا الأمير – بشهادة المخطوطات – من الخطايا ما يكفي. ولصقت بسمعته كمحارب مغامرة خيرسون. وبهذا، هل يمكن القول إن سيرته وذكراه المباركة، التي حفظها الأحفاد حتى يومنا هذا، تبدو غير مستحقة؟

لا! فالذاكرة التاريخية تربط صورة فلاديمير ليس بصفاته الشخصية ونجاحاته السياسية، ولكن بأفعاله الأكثر أهمية، مثل اختيار العقيدة، التي رعت حياة الناس. في الواقع، من خلال بسط سلطته على جميع الأراضي الروسية السلافية تقريبا، كان على فلاديمير أن يلتزم بما يسمى – كما يقولون اليوم – البرنامج السياسي "الوطني الجامع"، الذي انعكس، وفقا لظروف ذلك الوقت، في الشكل الديني.

كانت الخيارات الدينية حاضرة أمام روس تلك الفترة، خاصة الكاثوليكية والإسلام، وهما من المنظومات الإيمانية السماوية، أي تلك الأديان التي كان لها تأثير كبير على الوضع في أوروبا الشرقية في القرن العاشر. كان من

المفترض أن يتصور "الباحثون عن الدين" في روسيا الاختلافات بين هذه الديانات الرئيسية. هذا الأمر ليس من المستغرب: فالتجار والمحاربون من كييف كانوا يوجدون بشكل متصل في القسطنطينية، وقاتلوا في كريت وفي آسيا الصغرى، وكانوا يتداولون التجارة مع المصريين والسوريين، كما كانوا يذهبون إلى بلغار الفولغا وخوارزم. وكان اعتناق دين معين سيؤدي تلقائيًا إلى توجيه البوصلة تجاه مجموعات محددة داخل البلد. لذلك، لا يمكن وصف "اختيار العقيدة" الذي كان على الأمير فلاديمير عمله بأنه كان اختيارا سهلا. فهذه المعضلة كان لها بعد دولي كذلك بسبب الاتصالات العرقية المتينة.

وكانت في الوقت السابق على تعميد روسيا قد نمت وتزايدت مؤشرات خطيرة على الانشقاق القادم في العالم المسيحي الموحد. وهنا، فإن أساس الخلافات الأيديولوجية يكمن أيضًا في عمليات طبيعية وموضوعية للتكوينات العرقية. فقد كانت الوحدة العرقية العليا في أوروبا الغربية، والتي كانت تشهد مرحلة صعود الطاقة الخلاقة، كانت تشعر بتميزها عن غيرها من العرقيات الرئيسية بشكل حاد وكست هذا التميز برداء التفوق الكنسي، واصفة نفسها فقط بـــ "العالم المسيحي". وهنا بدأ الصراع بين الأرثوذكسية والكاثوليكية ينتقل من دائرة الخلافات اللاهوتية إلى مجال السياسة.

حقق الإمبراطور الألماني "أوتو الثاني" في الاجتماع الإمبراطوري عام ٩٨٣ في فيرونا هدفه باستصدار قرار بشأن الحرب ضد "اليونانيين والساراسين (مصطلح كان يطلق على العرب أو كل من يدين بالإسلام)". إن مثل هذه المساواة بين المسيحيين الأرثوذكس والمسلمين لم تعد تسمح بالحديث عن وحدة كنيسة المسيح، وجعلت من تهديد الهجمة الكاثوليكية على الشرق، بما في ذلك على روس واقعية جدا. في روس تم فهم هذا جيدا، لأنه حتى قبل اجتماع فيرونا، حارب الملك البولندي الكاثوليكي ميشكو الأول ضد

أمير كييف بسبب غاليسيا، في حين حارب أوتو الأول المذكور عاليه ضد السلاف الغربيين على ضفاف نهر إلبه (لابه).

إن ظروف "اختيار الدين" من قبل فلاديمير معروفة على نطاق واسع وهي مذكورة في "سجل الأيام الغابرة". تقول رواية نِستور إن الأمير كان يريد أن يفهم العقائد والأديان المختلفة، فأرسل مبعوثيه إلى الأراضي المجاورة لهذا الغرض، ثم استقبل ممثلين لجميع التعاليم الدينية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت. ولا يعنينا هنا السؤال عن التفاصيل، لأن سرد الدافع وراء قراره بالتعميد وفقا للطقس اليوناني الذي أقره فلاديمير هو الأكثر أهمية.

بالحديث عن الدوافع سنأخذ في الاعتبار أنه بالإضافة إلى العقائد، في أي دين هناك عادات يتم نقلها تقليديا من جيل إلى جيل. في بعض الأحيان تعني هذه العادات والعرف بالنسبة إلى المتحولين الجدد أكثر من الكتب المقدسة نفسها، خاصة إذا كانت هذه الكتب مكتوبة بلغة غير مفهومة. فالقرآن مثلا مكتوب باللغة العربية، ولذا هو غير مفهوم بالنسبة للسلاف. وعادات المسلمين، مثل عدم شرب الخمر، وعدم أكل لحم الخنزير بسيطة، لكنها كانت غير مقبولة للسلاف. ولماذا؟ لأنه وفقا للعرف الروسي كان الأمير يتقاسم المائدة مع فرقته العسكرية. هذه الطقوس الإلزامية كانت تثبت وتدعم صداقة الأمير مع المحاربين، وماذا يمكن أن يكون أكثر أهمية بالنسبة للأمير من ذلك؟ كان هناك ظرف آخر أقل أهمية، ولكن مهم جدا.

لقد اعتاد السلاف والروس على المشروبات المسكرة، حيث إن النبيذ والبيرة كان يريحان من تعب الحملات العسكرية، لكن الطقوس الصارمة الأعياد (حفلات الشراب والطعام) لم تكن تسمح بالوصول إلى مرحلة "العراك في حال الثمالة". بالطبع، العرب ذاتهم بعد أن تحولوا إلى الإسلام لم يتوقفوا عن شرب الخمر، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك في دائرة ضيقة

من الأقارب والأصدقاء، بينما كانوا يظهرون في الأماكن العامة في حالة وعي وإفاقة. ولم تكن لديهم طقوس مثل هذه الأعياد الروسية والصور النمطية الملازمة لها من السلوك. ونتيجة لذلك رفض فلاديمير قبول ما عرضه عليه الدعاة المسلمون بكلماته الشهيرة المعروفة: "في روس المرح يعني الشراب ..."

أما أسباب رفض فلاديمير للألمان الكاثوليك فكانت أكثر تعقيدا، وكلماته في هذا الشأن غير واضحة: "عودوا من حيث أتيتم، لأن آباءنا لم يقبلوا هذا". وهنا دعونا نحاول معرفة ما لم "يقبله الآباء" بالضبط. في منتصف القرن العاشر وصل الأسقف أدلبرت إلى روس في مهمة لمعمودية الأميرة أولغا وشعب كييف. فشل أدلبرت في المهمة، ولكن "ليس بسبب إهماله".

من المعروف أنه في القرون الوسطى كان يعتلي العرش البابوي بابوات خطاءون في بعض الأحيان. في عام ٩٥٥ اعتلى العرش البابوي شاب يبلغ من العمر ستة عشر عاما كان اسمه البابا يوحنا الثاني عشر. أصبح الفاتيكان وكرا للعاهرات. ولو كان البابا صيادًا أو لاعبًا (للقمار) أو زيرا للنساء أو سكيرًا فقط، لكانت تلك نصف المصيبة. لكن رئيس الكهنة الرومان كان يقيم الأعياد ويقدم فيها الهدايا تكريمًا للآلهة الوثنية القديمة، بل كان يشرب في صحة الشيطان. بطبيعة الحال، وصلت أخبار مثل هذه "المآثر" إلى روس. لذا لا يمكن أن تكون الموافقة الزمنية للتجاوزات في روما وطرد أدلبرت من كييف مجرد مصادفة. لذلك يجوز القول إن تقليد رفض العقيدة اللاتينية والخيار الواعي لليونانية يعود حقًا إلى أسلاف فلاديمير الذين كانوا يعتلون العرش الأميري: الأميرة أولغا وحفيدها ياروبولك.

أما قصة قدوم يهود الخزر على فلاديمير، فهي مثال على الخيال الأدبي الواضح لنِستور. حيث يزعم أن اليهود اعترفوا لفلاديمير: "لقد منحت

أرضنا للمسيحيين". لكن في الواقع في القرن العاشر كانت فلسطين في أيدي المسلمين. لقد قام مؤلف المخطوطة بخلط التواريخ. من الجدير بالذكر أن فلاديمير، بحسب الوقائع، لم يخاطب اليهود، لكنه استقبلهم فقط من أجل طردهم لاحقا. ونتيجة لذلك، تسجل مخطوطة نِستور آخر محاولة من جانب يهود الخزر لاستمالة أمير كييف، والتي قاموا بها عندما لم يعد لمملكة الخزر وجود. ونتيجة هذه المحاولة معروفة جيدا: لأن فلاديمير كان حاذقًا.

كانت الآثار السياسية العسكرية لاختيار الدين كبيرة جدًا. لم يمنح هذا الاختيار فلاديمير حليفًا قويًا فقط، ممثلا في بيزنطة، ولكنه أيضًا أصلح علاقته مع سكان عاصمته. أظهرت نوفْغورود وتشرنيغوف بعض المقاومة للمعمودية في البداية، لأنهما كانتا تفضلان الوثنية. لكنَّ الوثنيين في نوفْغورود خضعوا بالقوة العسكرية، وبعد فترة من الزمن اعتنقت تشيرنيغوف وسمولينسك المسيحية أيضًا. الآن لم يتبق أمام أمير كييف سوى مشاكل السياسة الخارجية فقط لمعالجتها.

كانت السيادة في السهوب الممتدة بين روسيا والبحر الأسود للبجناك. وكان البجناك تحديدا، الذين حققوا الثراء بفضل التجارة مع خيرسون وبيزنطة، هم من واجهوا وعارضوا الأمير فلاديمير. نحن نعرف فقط نتيجة الاصطدام الذي على الأرجح أدى إلى حرب كبيرة. كان على فلاديمير أن يحيط أراضيه بحاجز، وأن يضع "حراسًا"، وأن يتخلى أيضًا عن الهيمنة في السهول الروسية الجنوبية ويتخلى عن حيازة منفذ على البحر الأسود.

في القرن العاشر، كان البچناك – أعداء كل من الروس وبيزنطة – لا يزالون وثنيين. وفي القرن الحادي عشر اعتنقت هذه القبيلة الإسلام. كان التحول إلى المحمدانية (الإسلام) مصحوبًا بحرب وفتنة داخلية. تم تعميد جزء من البدو، لكن الغالبية بعد أن تحولوا إلى الإسلام بدأوا العداء مع

اليونانيين. التحول إلى الإسلام والحرب مع بيزنطة والاضطرابات الداخلية التي أتت على قوى البدو بحلول نهاية الثلث الأول من القرن الحادي عشر أنقذت روسيا من تهديد البچناك.

لكن ماذا حدث في روس؟ إذا أمعنا النظر سنرى كيف أن الكنيسة الأرثوذكسية نشرت نفوذها بشكل تدريجي، وبنت الكنائس والأديرة، وعلمت الناس محو الأمية والرسم. فقط في روستوف (في أرض ميريا) تم الحفاظ على مجتمعين حضريين لفترة طويلة: المسيحي والوثني. في أحد طرفي المدينة كانت هناك كنيسة أرثوذكسية، وفي الطرف الآخر كان هناك معبد الإله كيرميت معبود سكان ميريا. في الوقت نفسه، تعايش المسيحيون والوثنيون بشكل سلمي تمامًا، وبعد أن قتل الميرينيون مبشرين مزعجين شديدي الإلحاح، تم تركهم في حالهم تماما دون تعرض لهم.

وهكذا، سلك فلاديمير المسار الذي رسمته الأميرة أولغا "أكثر الناس حكمة"، التي اختارت الأرثوذكسية. وبالسير على هذا الطريق، وإسقاط ظلم رأس المال التجاري للرخدونيين، وصلت روس إلى مرحلة التعميد في عام ٩٨٨. لقد كانت قوة الوعظ الأرثوذكسي تكمن في الاعتدال السياسي للإمبراطورية البيزنطية، في إخلاص بطاركة القسطنطينية، وفي سحر الليتورجية (الصلاة الكنسية) اليونانية.

أرادت بيزنطة من روس الصداقة ووقف الغارات عديمة المعنى على ساحل البحر الأسود. لم يقم علماء اللاهوت اليونانيون بخلط الوعظ الأرثوذكسي بتعقيدات السياسية الماكرة. كان من المهم أيضا أن الأرثوذكسية لم تبشر بفكرة " القضاء والقدر". وبالتالي، وقعت مسؤولية الخطايا، التي يرتكبها الشخص بإرادته، على هذا الخاطئ نفسه. كان هذا مفهوما ومقبولا بالنسبة للوثنيين. لم يكن تبني المعايير الأخلاقية المسيحية يمثل قهرا

نفسيًا بالنسبة للمتحولين الجدد، الذين اعتادوا على المعارضة البديهية بين الخير والشر.

كانت حكمة المسيحية في عام ٩٨٨ بمثابة حرب ضد المعبود بيرون وضد الرغبة في التربح، التي كانت بمثابة الإله الحقيقي للرخدونيين. لقد منح التعميد المسيحي لأجدادنا الروس أعلى مراتب الحرية، وهي حرية الاختيار بين الخير والشر، وانتصار الأرثوذكسية أهدى روس ألف سنة من التاريخ.

الهوامش

(١) كان الأكاديمي ب. أ. ريباكوف يعتقد عن حق أن بيرون لم يكن إلهًا سلافيًا. فقد كان السلاف يؤمنون بـــ "خورس" ومعناه الشمس (في اللغة الفارسية خورشيد)، وكانوا يعبدون الإله الأنثى موكوش، ودوجبوج السماوي، والإله الوحش فولوس.

(٢) كان ياروبولك على ما يبدو ابنا لمحظية من محظيات سفياتوسلاف واسمها مالوشا.

(٣) لم يرغب فلاديمير أن يدفع للفارينجيين المال الذي غنموه خلال هذه الحملة العسكرية. وبمساعدة من أهل كييف تم جمع الفارنجيين على ضفة دنيبر، ظاهريا لدفع الرواتب، لكن ما حدث فعلا كان وضعهم في قوارب دون مجاديف ودفعهم بعيدًا عن الساحل، ثم قالوا لهم: "اسبحوا في النهر إلى الأسفل إلى القسطنطينية وهناك ستجنون الكثير من المال، لكن لا تعودوا إلينا". ولكن فلاديمير قام في الوقت نفسه بإرسال رسله إلى القسطنطينية، حيث حذروا اليونانيين من الثقة في الفارانجيين، لأن إلههم بيرون ليس "شريرا" فحسب، بل مخادع أيضا. نصح فلاديمير اليونانيين باستقبال الفارنجيين، ولكن ليقوموا بتقسيمهم وإرسالهم في مجموعات صغيرة إلى حاميات مختلفة، بحيث لا يستطيع الفارنجييون تشكيل أي خطر بما أنهم محاطون بالمحاربين المحليين.

(٤) رغم أن التركيب العرقي واحد بين بلغار نهر الفولغا وبلغار جنوب شرق أوروبا فإن الأصل لبلغار نهر الفولغا الذين هاجرت منهم شعبة وشكلت لاحقا دولة بلغاريا في جنوب شرق أوروبا. (المترجم)

(٥) في أثناء النزاعات الحدودية التي لم تتوقف كانت اليد العليا تارة للبلغار، الذين تمكنوا من الاستيلاء على موروم، وأخرى للسلاف، الذين كانوا يحتلون مخيمات البلغار. ونتيجة للصراع المستمر على الحدود، وقع الاختلاط والتزاوج بين السلاف وبلغار الفولغا (وهم أحد أسلاف تتار كازان الحديثة). فالبلغار الذين هاجموا القرى الروسية كانوا يقتلون الرجال ويسبون النساء والأطفال. ثم كان المسلمون يقومون ببيع الأطفال في سوق الرقيق، واتخذوا النساء محظيات لهم. وهكذا نتج عن الزواج المختلط الكثير من أسماء "مراد" و"فاطمة". ولكن بعد ذلك تعرضت القرى البلغارية لهجوم من جانب

السوزداليين والموروميين. حيث كانوا يجعلون من الأطفال الأسرى عمالا عندهم، بينما كانوا يتخذون البلغاريات المأسورات زوجات لهم. وعن هذه الزيجات ولد الكثير من فسيسلاف وليوبافي. وهكذا، لم يكن الفرق بين المجموعتين العرقيتين أنثروبولوجيًا، ولا عنصريًا، بل ولا اقتصاديًا حتى، لأن الأنظمة الاقتصادية في بلغاريا الفولغا وشمال شرق روسيا كانت متشابهة جدًا. لكن هذه الاختلافات كانت دينية. غير أن التعصب الديني الإسلامي لم يكن قد ساد في بلغاريا الفولغا بعد، ولم تكن العقيدة (الإيمان) سوى مؤشر على الفروق بين بلغار الفولغا والسلاف.

(٦) وفي حديثه إلى الحملة غير الناجحة لفلاديمير ودوبريني (عام ٩٨٥)، قدم كاتب مخطوطة "سجل الأيام الماضية" عبارات زهيدة مفادها أنه لا ينبغي أن نجبي الضرائب من أولئك الذين يرتدون الأحذية، ولكن من الضروري البحث عن صانع الأحذية. وبهذا يتضح أن نشاط فلاديمير في هذا الاتجاه لم يكن ناجحا. لكنه نجح في عملية أخرى. فقط في مذكرات يوحنا منيخ توجد إشارة إلى الاستيلاء على تموتاراكان، حيث كان لا تزال هناك آثار من اليهود الخزر. ولكن حتى في هذا المؤلف كانت ثمة جملة واحدة فقط تتحدث عن الحملة التي سارت خلالها القوات الروسية من كييف عبر شمال القوقاز على طول نهر تيريك إلى بحر قزوين (عام ٩٨٦). أصبحت تموتاراكان واحدة من المدن الروسية وأصبحت من إقطاعيات مستيسلاف ابن فلاديمير. أجلسوا مستيسلاف على العرش الأميري في تموتاراكان وهو ابن ست سنوات. وهكذا، هنا كما في حالة ياروبولك فلاديمير وأوليغ، كان الاسم الأميري يستخدم من قبل المؤرخين ليس كاسم المتحكم الحقيقي في مصائر الناس، ولكن فقط كعلامة ورمز تدل على وجود جماعة من القوى السياسية. ومن المثير للفضول أن المؤرخ الفرنسي أوغستان تييري في مقالاته في أوائل العصور الوسطى يذكر الشيء نفسه بالنسبة لملوك الفرنجة. فعندما خرج الجزء الغربي من إمبراطورية شارلمان المشرفة على الانهيار (فرنسا الحالية) للقتال من أجل شارل الأصلع، لم يكن لدى الفرنسيين أي فكرة عمن يكون هذا الرجل. لكنهم قاتلوا بشجاعة كبيرة من أجل المبادئ التي صيغت تحت الشعار العام لخدمة شارل الأصلع. وبنفس الطريقة، اعتقد الألمان الذين قاتلوا من أجل مصالحهم الخاصة، أنهم كانوا يناضلون من أجل لودفيش الجرماني.

(٨) تختلف الروايات في ذلك فهناك من يرجع ذلك إلى أحد الكهنة ويدعى أناستاس بينما ترى مصادر أخرى أن الخائن هو الفارانجي "جيدبيرن". كان الخائن قد أرسل برسالة إلى معسكر الروس مربوطة في سهم. وأبلغت الرسالة أين تمر الأنابيب التي تتدفق عبرها مياه الشرب إلى المدينة المحاصرة. فقام فلاديمير بتحطيم هذا الأنبوب المائي، وأجبر العطش أهل المدينة على الاستسلام.

الفصل الرابع

عبث الأقدار..أبناء فلاديمير

- نوفغورود والأمير ياروسلاف
- جبهة البحر الأسود: تموتاراكان
- الوضع بعد التسوية
- الموقف تجاه بيزنطة
- الوضع في بولوتسك
- من اليتيم في روس ؟!

عشية وفاته في عام ١٠١٥م، ترك فلاديمير لأبنائه مشكلة حادة تتمثل في إدارة الأراضي التي كان يبسط سيطرته عليها. كانت قواته العسكرية كافية لكسب بعض الانتصارات، لكنها لم تكن كافية لإبقاء جميع أراضي دولة كييف في حالة من الخضوع التام.

فمدن مثل نوفغورود، بولوتسك، تشيرفلينايا روس، بل وحتى روس الشمالية الشرقية كلها حاولت طوال الوقت الانفصال عن كييف. وكان إرسال القادة العسكريين في كل مرة لتهدئتهم مخاطرة غير محمودة العواقب. لأن أي قائد عسكري كان بإمكانه التحول إلى منافس على العرش الأميري المحلي والانفصال بالتواطؤ مع الذين يتعاطفون معه. لذلك نشأ في عهد فلاديمير – وتعزز لاحقا تحت حكم ابنه ياروسلاف – نظام توزيع الإقطاعيات على الأقارب المقربين، والذين كانوا عادة هم الأبناء.

كان أمير كييف العظيم فلاديمير له من الأبناء اثنا عشر. سنذكر فقط أولئك الذين شاركوا في الأحداث اللاحقة، وهم:

– ياروسلاف، بن فلاديمير من زوجته "روجنيدا". وكان أميرا على نوفغورود واعتمد على سكانها في توطيد ركنه.

– مستيسلاف، بن فلاديمير من "روجنيدا" أيضا[١] وكان أميرا على تموتاراكان وتحصن بأهلها.

– الابنان "بوريس" و"جليب" وكانا أقرب الأبناء لفلاديمير، وأنجبهما من زوجته البلغارية.

- سفياتوبولك، وهو الابن البكر والوريث الشرعي لفلاديمير، ومع ذلك لم يكن أباه يحبه أو يقبله[٢]. سعى سفياتوبولك بنشاط لإقامة اتصالات مع كل من البچناك والبولنديين. لذلك ربما كان هو أول روسي "تغريبي"[٣].

لم تكن الوحدة قائمة في مزاج سكان كييف. فكان من بين سكان المدينة أنصار لسفياتوبولك، وأنصار لياروسلاف وأنصار لميستسلاف. وكان المؤيدون المتحمسون لأحد الأمراء ألد أعداء البقية المؤيدة للآخرين[٤]. وكانت ملامح الانهيار حاضرة وبدأت الحرب فعلا.

نوڤغورود والأمير ياروسلاف

يجب القول إن نوڤغورود كانت مدينة غنية وكان مواطنوها محاربين أشداء. ومع ذلك، قام ياروسلاف (بسبب عدم ثقته بهم) باستقدام المرتزقة في فرقة عسكرية من الفارانجيين.

أرهب الفارانجيون سكان نوڤغورود وتحرشوا بنسائهم. وفي عراك وراء عراك حدث في إحدى المرات أن قتل سكان نوڤغورود عددا من الاسكندنافيين خوفا من غضب الأمير. أرسل سكان البلدة إلى ياروسلاف وفدا من البرلمانيين وعرضوا عليه فدية عن القتلى، لكن الأمير أعطى أمرا للفارانجيين بقتل السفراء، ردا على ذلك تمردت المدينة. وفي تلك اللحظة وصل رسول من كييف عبر فولخوف من جانب بحيرة "إلمين" بأخبار تفيد بموت فلاديمير[٥].

فهم ياروسلاف أن مصيره محددًا سلفًا. بعد أن فقد والده وأخوته، كان الأمير تحت تهديد الموت على أيدي القتلة التابعين لسفياتوبولك. بالإضافة إلى

ذلك، كان في وضع حاد التوتر، بعد أن تشاجر مع سكان نوڤغورود. قرر ياروسلاف الهرب إلى السويد. واكتشف هنا أن سكان نوڤغورود ليسوا محاربين مسلحين فحسب، بل هم أيضا عمليون وحاسمون. أرسلوا مرة أخرى سفراء إلى الأمير، وقالوا له: "أيها الأمير! ليس بإمكاننا رد الموتى إلى الحياة ــ لكن لابد أن نذهب لأخذ عرش كييف!". لم يكن تصرف سكان نوڤغورود في هذه الحالة يدل على النبل بقدر ما كان دليلا على التخطيط السليم، ذلك لأن نوڤغورود كانت مضطرة على الدوام لإرسال ضرائب كبيرة لكييف كل عام. ولذلك، كان من الطبيعي أن يسعى سكان نوڤغورود التخلص من هذه الضرائب المرهقة.

عندما بدأ جيش نوڤغورود بقيادة ياروسلاف ينحدر عبر الدنيبر تجاه كييف خرج سفياتوبولك لمواجهته مع جيش من كييف وبدعم من فصائل البچناك. وعندما التقى الجيشان بالقرب من بلدة ليوبيك (١٠١٦م) كان ذلك في أواخر الخريف. وقد تجلى النقص الكامل في القدرات العسكرية لدى سفياتوبولك في حقيقة أنه وضع فصائل قوات كييف والبچناك على الجهتين المتقابلتين من البحيرة المتجمدة. فهاجم ياروسلاف جيش كييف تحديدا وقهره. في حين لم يتمكن البچناك من الانضمام إلى المعركة لأنه كان يفصلهم عن قوات كييف مسطح من الأرض المتجمدة. ذهب النصر إلى ياروسلاف، وهرب سفياتوبولك إلى بولندا.

دخل النوڤغوروديون المنتصرون كييف وأحرقوا الكنيسة، وفق ما كتب مؤلف المخطوطة. نستنتج من هذا أن الأساس الأيديولوجي لأعمال ياروسلاف اقتصر في برنامجه على استعادة الوثنية. لكن تنصير كييف كان قويا جدا. ولم يرغب أحد في إعادة عبادة بيرون. ولهذا شعر ياروسلاف بانعدام الأمن في العاصمة.

في عام ١٠١٨م تصاعدت الخلافات بين أحزاب الوثنيين والمسيحيين. استفاد من هذا الملك البولندي بوليسلاف الشجاع وسفيتوبولك الهارب. تحرك الجيش البولندي إلى كييف لتحرير المسيحيين من سلطة الوثنيين الأشرار.

التقى بوليسلاف وياروسلاف عند نهر بوك. واقتسمت قوات الأعداء النهر. وفقا لتقاليد تلك الأزمان، صرخ البولنديون والروس بالإهانات على بعضهم البعض عبر النهر. وعندما صاح نوفغورودي بارع أنه سيخترق خاصرة بوليسلاف السمينة، فإن الملك البولندي، الرجل السمين بالفعل، كان مستاء بشكل لا يوصف. هرع الملك الذي ثارت كرامته مخترقا بحصانه صفحة النهر، لم يترك الفرسان البولنديون مليكهم فانطلقوا خلفه وسحقوا النوفغودوديين عن بكرة أبيهم.

لاذت سرية ياروسلاف بالفرار، بينما ذبح الفرسان البولنديون الفارين. اتجه ياروسلاف مع أربعة من رفقته إلى كييف. لكن لم يكن هناك أمل في شعب كييف، وكان البولنديون وأنصار سفياتوبولك يقتربون أكثر فأكثر. وصل ياروسلاف إلى نوفغورود وبدأ مرة أخرى في بناء المراكب للهرب إلى السويد. ومرة أخرى تم إيقاف الأمير من قبل شعب نوفغورود، إذ قاموا "بتقطيع" المراكب، ووعدوه بجمع الأموال والقوات لشن حملة جديدة ضد كييف.

في غضون ذلك احتل البولنديون كييف، وجلس سفياتوبولك مجددا على "عرش كييف الذهبي". وجرى تسكين المقاتلين الأجانب في منازل أهل كييف والقرى المحيطة بها. وعلى الفور بدأت الصراعات مع السكان المحليين. في بضع ليالٍ تم ذبح العديد من البولنديين. اتضح أن الناس يمكن أن يفعلوا أكثر بكثير من الأمير وعساكره. لقد كانت قوة الشعب عظيمة. أدرك بوليسلاف هذا الأمر تمامًا وخرج بمقاتليه إلى بولندا، وترك سفياتوبولك في كييف.

تحرك ياروسلاف مع النوڤغوروديين، أو بالأحرى تحرك النوڤغوروديون ومعهم ياروسلاف مرة أخرى تجاه كييف. واصطدموا بسفياتوبولك، الذي كان تعويله قليلا على سكان كييف، خاصة بعد قصة البولنديين، فدعا مرة أخرى البچناك للمساعدة. لم يساعده البچناك، وهرب سفياتوبولك (الذي كان يطلق عليه اسم "اللامع") إلى الغرب وسرعان ما لقي حتفه، بدعوى مرارة الندم على قتل أخويه البريئين بوريس وجليب.

أصبح ياروسلاف رئيسا لكل روس، باستثناء الضفة اليسرى لنهر الدنيبر والأطراف الجنوبية الشرقية البعيدة في تموتاراكان.

في هذه الأحداث يجذب انتباهنا شيئان. أولاً، لم يكن السلاف (البولنديون والروس) يفهمون بعضهم البعض تقريبا، خاصة إذا كانوا يتحدثون بسرعة. لكن في ذلك الوقت كانت اللغتان قريبتين جدا إلى تلك الدرجة أن السباب الطائر عبر النهر كان مفهوما لكلا الجانبين. نعم فُقدت فكرة الوحدة السلافية بالفعل، ولكن استمر الحفاظ على التقارب اللغوي كآثار للوحدة السلافية السابقة خلال القرنين السادس والثامن.

الحقيقة الثانية المهمة التي نراها هي أن كييف قد أعربت بحزم عن موقفها السلبي تجاه النزعة التغريبية والاتصالات الوثيقة مع أوروبا الغربية. والحقيقة هي أنه على الرغم من وجود اختلافات عرقية بين سكان نوڤغورود وبولوتسك وروستوف وسمولنسك وغاليتش وتشرنيغوف بشكل عام، فإن روس القديمة كانت مجتمعًا واحدًا مقارنة بمثلها من المجموعات العرقية الكبيرة السائدة. كانت هذه المجموعات، على سبيل المثال، من سكان أوروبا الغربية الكاثوليكية أو سكان الدول الإسلامية.

في القرن الحادي عشر أصبحت بولندا قريبة من الغرب الكاثوليكي. ومرت حدود هاتين الثقافتين المختلفتين عبر الشعوب السلافية. هذه الحقيقة

مهمة بالنسبة لنا لأنه على مـــدى التـــاريخ التالي في روس القديمة، وبعد ذلك في روسيا، كان هناك صراع مستمر بين اتجاهين سياسيين: "تغريبي" (مؤيد لأوروبا) وآخر "مرتبط بالأرض" تجلى في ســعيه للحفاظ على التقاليد. كانت مظاهر مثل هذا الســعي واضحـــة في مقـــاومة سكان كييف لقوات بوليسلاف المحتـــلة، ورد الفعل الســلبي لكييف على ميـــول سفياتوبولك التغريبية.

جبهة البحر الأسود: تموتاراكان(٦)

لكن ماذا حدث في تموتاراكان، حيث تركنا بن فلاديمير الصبي الصغير مستيسلاف البالغ من العمر ست سنوات؟ مثل أي طفل كان يلعب على شاطئ البحر بالأحجار الملونة، ويلتقي بأقرانه ويبني معهم صداقات. كان أصدقاء الطفولة والمراهقة من اليهود الذين استقروا في تموتاراكان بعد انهيار إمبراطورية الخزر وأصبح يطلق على الباقين منهم الخزر. كان يهود الخزر قابضين بقوة بأيديهم على كامل التجارة في منطقة شمال شرق حوض البحر الأسود.

كان الخصم الرئيسي لجماعة يهود الخزر في تموتاراكان هو قبيلة كاسوغ الشركسية. في عام ١٠٢٢ التقت القوات العسكرية لأمير تموتاراكان وقوات زعيم الكاسوغ ريديدو. قرر قادة الجيشين بحكمة تجنبا لسفك الدماء أن يتم تحديد الفائز في مبارزة شخصية. تمكن مستيسلاف – الذي أصبح في ذلك الوقت محاربًا عظيمًا – من هزيمة ريديدو وذبحه أمام جيشه، لكنه كان رحيما مع المهزومين: فأطلق سراح الأسرى وزوج ابنته لابن زعيم الكاسوغ الذي قتله. وبهذا الشكل أسس مستيسلاف لاتصالات وعلاقات جيدة مع الشركس. بعد ذلك وبطريقه سلمية بنى علاقات طيبة مع سكان سهوب

أوسيتيا من شعب ياس. ونتيجة لذلك، تعزز جيش الأمير بانضمام مقاتلي الكاسوغ والياس.

ولأن تموتاراكان كانت بلدة جنوبية بعيدة عن كييف، لم ينس مستيسلاف أبدا أنه كان ابن الأمير الروسي العظيم فلاديمير. جمع مستيسلاف رجال السهوب، من ياسوفيين وكاسوغ، ودعا قبيلة السفيريان، الذين عاشوا في أرض سيفيرسكي الواقعة شرق تشرنيغوف، وفي عام ١٠٢٣ بعدما ضم هذه القوات إلى جيش يهود الخزر من تموتاراكان انطلق طالبا "عرش كييف الذهبي".

تم اختيار التوقيت المريح. كان ياروسلاف في شمال دولته(٧). وتشير الوقائع إلى أن مستيسلاف قد اقترب من كييف، لكن شعب كييف رفض بشكل قاطع أن يسمح لجيش تموتاراكان بالدخول إلى المدينة وذلك لأن ذكرى جرائم القائد بيساح والضرائب التي كان يجمعها الخزر من روس كانت لا تزال حية في أذهانهم(٨). ونتيجة لذلك بقي الأمير المنتصر مع قوة صغيرة من يهود الخزر وطلب ياروسلاف المهزوم السلام. وهكذا، اعتلى ياروسلاف عرش كييف من جديد، وبقيت تموتاراكان البعيدة وأرض سفيرسكايا (تشيرنيغوف) تابعة لمستيسلاف. وأصبح الأخوان يحكمان في روس في سلام ووئام.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا نجح اليهود في إخضاع إمبراطورية الخزر وسلالة خانات آشين التوركية، ولماذا فشلت محاولاتهم تجاه روس وأمراء سلالة روريك؟ من المعروف بالنسبة لنا تقوى مستيسلاف: من الواضح أن الأمير لم يسمح بأن تكون لديه زوجة غير مسيحية مرت بطقوس المعمودية، وبالتالي فإن نسله لم يكن من شأنه أن يتحول إلى اليهودية.

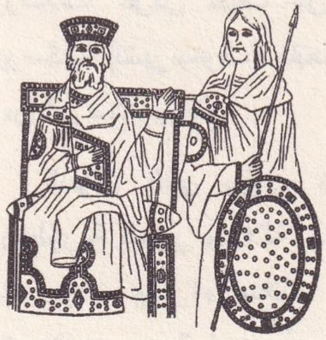
بعد عقد السلام مع شقيقه، عاش مستيسلاف بشكل رئيسي في ممتلكاته بتشرنيغوف. توفي الأمير في عام ١٠٣٦، ولم يترك أي وريث وبالتالي لم تحدث أية منافسات مع كييف لاحقا.

الوضع بعد التسوية

بناء على ما سبق تولى ياروسلاف السلطة على كامل أرض روس بعد أن تحققت وحدة الدولة على النحو التالي:

– اتفاق بين نوفغورود – الجمهورية السلافية المستقلة – و"كييف" بمجتمعها المسيحي المتنفذ والمؤثر الذي يضم تشرنيغوف[٩] وهي مدينة غنية وسكانها محاربون أشداء.

– انضمام مدينة روستوف بالفعل إلى روس الكييفية وفق حل وسط يقوم على أساس اعتراف بعض مناطق روس بالسلطة السيادية لأمير كييف العظيم، وهو حل جلب السلام الذي طال انتظاره للدولة. وكان هذا أعظم إنجازات ياروسلاف الملقب بالحكيم.



لسوء الحظ، فإن أي حل وسط عادة يكون مناسبا لبعض الوقت، ولا يمكنه ضمان المستقبل المأمول للدولة. هذا المستقبل يعتمد إلى حد كبير على الاختيار الصحيح للأصدقاء. حافظ ياروسلاف على العلاقات مع الفارانجيين وكان مستعدا للصداقة مع بولندا، لكن للأسف لم يكن هو ولا حاشيته يحملان مشاعر طيبة تجاه بيزنطة.

الموقف تجاه بيزنطة

كان تدهور العلاقات بين كييف والقسطنطينية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الحادي عشر قد وقع على خلفية تفاقم حاد للتناقضات بين الشرق الأرثوذكسي والغرب الكاثوليكي. طالب بابا روما بالاعتراف به رئيسا للكنيسة المسيحية، في حين أن بطريرك القسطنطينية ميخائيل كيراليري كان مصرا على أن الكنيسة اليونانية ليست أدنى من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. اعتمد البابا على دعم أوروبا الغربية: ألمانيا وفرنسا والممالك الإسبانية والمدينة الجمهورية "جنوة".

من جانبها سعت بيزنطة للحصول على المساعدة من بلغاريا التي احتلتها وصربيا التي انضمت طواعية إليها. وبلغت المواجهة الدينية بين روما والقسطنطينية ذروتها في الانقسام النهائي للكنيسة المسيحية إلى الكنيسة الغربية (الكاثوليكية الرومانية) والشرقية (الأرثوذكسية اليونانية) في عام ١٠٥٤.

في هذه الأثناء، تحولت مشاعر ياروسلاف وحاشيته المعادية لليونان – والتي نجمت إلى حد كبير عن الرغبة في تحرير العاصمة كييف من وصاية بطريرك القسطنطينية – إلى حملة عسكرية فاشلة[١٠].

كان لهذا الفشل أثره في إجبار ياروسلاف على إيقاف سياسته الخارجية النشطة الموجهة ضد اليونانيين.

ظلت دائرة ياروسلاف تضم ثلاثة أحزاب:

– الأول ذو طابع تغريبي[١١]

– الثاني ذو توجه قومي واعتبر أن روس يمكن أن تتنافس مع أي تحالفات للقوى الغربية[١٢].

– أما الثالث فكان يسعى من أجل السلام والصداقة مع بيزنطة[١٣]

في ذلك الوقت، حدثت تغييرات كبيرة ليس فقط في أوروبا الغربية وبيزنطة، ولكن أيضا في السهوب الكبرى. فقد نجح "التبشير" الإسلامي الذي اخترق سهوب بدو البچناك في القرن التاسع فعلها. صحيح أنه قد واجه التبشير المسيحي، لكن مؤيدي المسيحية هزموا من قبل البچناك، الذين فضلت أغلبيتهم اعتناق الإسلام. ونتيجة لذلك، أصبح البچناك ألد أعداء جميع البلدان المسيحية.

في عام ١٠٣٦ في وقت غياب ياروسلاف أغار البنجناك على كييف. بعد أن وصل ياروسلاف في الوقت المناسب مع الفارانجيين والنوڤغوروديين الذين قاموا بتزويد الجيش بأهالي كييف، خاضوا معركة ضد البچناك في موقع "آيا صوفيا" الحالية. كانت المعركة شرسة وصعبة. تحمل ياروسلاف بالكاد حتى المساء، لكن هزيمة البچناك كانت ساحقة، ولم تعد هذه القبيلة تزعج روس. "إن بقية منهم لا تزال تجري هنا وهناك إلى يومنا هذا" حسبما يذكر نِستور آنذاك في مخطوطته.

في ذلك الوقت، عانت بيزنطة من إخفاقات شديدة في الصراع ضد شعب التركمان السلاجقة أقارب البچناك. ينتمي كل من البچناك والسلاجقة إلى نفس الفرع من شعوب أتراك الأوغوز. ساهم وعي القرابة والعقيدة الواحدة للقبيلتين (فالسلاجقة اعتنقوا الإسلام أيضًا) في توحيدهما معا خصومًا مخيفين لليونانيين. استولى السلاجقة على بعض أملاك الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى، بل ووصولا في بعض الأحيان إلى مدينة "نيقيا" ومضيق البوسفور، في حين كان البچناك يضيقون الخناق على اليونانيين من ناحية شبه جزيرة البلقان. منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر صار الغزو الكامل للسلاجقة التركمان لآسيا الصغرى تهديدًا حقيقيًا للإمبراطورية البيزنطية.

في الفترة نفسها، ظهر الكومان في المشهد التاريخي لأوروبا الشرقية. بحلول منتصف القرن الحادي عشر كانوا قد استولوا تقريبا على كامل أراضي كازاخستان الحديثة، وعبروا المجرى الأسفل من نهر الفولغا وظهروا في سهوب روس الجنوبية. بدأ الناس في روس "ذوي العيون الزرقاء والشعر الأشقر يطلقون على الكومان اسم بولوفتسي (من كلمة "بولوفا" والتي تعني القشة المقطوعة، ذات اللون الأصفر الباهت). كان للكومان عدو لدود قديم وهم البچناك، واحتد "الثأر السهوبي" بينهما في القرن الحادي عشر – متخذا من العقيدة وقودا هذه المرة، إذ اعتنق البچناك الإسلام، بينما بقي الكومان على معتقدات أسلافهم الوثنية.

بعد وفاة ياروسلاف الحكيم، حاول الأمير فسيفولد إقامة اتصالات مع الكومان، ولكن دون جدوى. انتهت الاشتباكات المستمرة للروس والكومان (البولوفتس) بقيام الكومان في سبتمبر ١٠٦٨ بالتحرك في حملة كبيرة على الأرض الروسية. التقى أبناء ياروسلاف الثلاثة إيزياسلاف وسفياتوسلاف وفسيفولد بالبدو على نهر ألتا. لكن المعركة انتهت بفشل الروس[١٤].

انهزم أبناء ياروسلاف. فهرب إيزياسلاف إلى كييف، حيث طلب منه سكان كييف الأسلحة والخيول لمحاربة الكومان مرة أخرى. لكن الأمير لم يجرؤ على إعطاء الناس سلاحًا: فقد كان إيزياسلاف التغريبي يعرف عدم شعبيته بشكل جيد. كانت كييف غاضبة، وهرب الأمير المعظم إلى بولندا آخذًا ابنه مستيسلاف معه.

بعد أقل من شهرين من تلك الهزيمة أعاد الروس الكرة وفي الأول من نوفمبر من نفس عام ١٠٦٨، أنزل الأمير سفياتوسلاف ياروسلافيتش أمير تشرنيغوف – الذي لم يكن لديه سوى ٣٠٠٠ من المحاربين الروس فقط –هزيمة ساحقة بجيش يقدر بـــ ١٢٠٠٠ من الكومان في معركة على نهر سنوف.

لقد اتضح أن الكومان ناجحون فقط في الغارات القصيرة ومواجهات الفرسان والخيول، لكن الصراع مع المدن الروسية والمشاة الروس كان فوق طاقتهم. ولذلك، وبعد هزيمتهم لم يعد الكومان يمثلون خطرا على وجود روس.

في تحول غريب للأقدار، اتضح لاحقا أن الكومان هم منقذو بيزنطة. فحين تعرضت الإمبراطورية لتضييق الخناق عليها من جانب البچناك في كل من أوروبا وآسيا طلبت المساعدة من الكومان. شن الكومان في شبه جزيرة البلقان هجمات على البچناك وبحلول عام ١٠٩١، انتهى وجود البچناك في البلقان ووقعت فلولهم في الأسر.

تصرف البيزنطيون وحلفاؤهم في الأسرى بشكل متباين، اليونانيون قضوا تماما على أولئك الذين وقعوا في أيديهم، بينما ضم الكومان الباقين إلى جيشهم الخاص. ومن بقايا البچناك ظهر شعب الأوغوز الباقي حتى الوقت الحاضر.

الوضع في بولوتسك

في السنوات المليئة بالحروب مع الكومان والصراعات الأميرية أظهر فسيسلاف أمير بولوتسك – حفيد إيزياسلاف ابن فلاديمير – شجاعة وإقداما. ويعتبر مصير وأعمال فسيسلاف من بولوتسك مثيرة للاهتمام. لم تنس بولوتسك ذكرى هزيمتها على يد فلاديمير في عام ٩٨٠، عندما قتل فلاديمير أخاه روغفولود وأبناءه واغتصب ابنته روغنيدا.

ونظرا لطريقة الانتقام من العائلة الأميرية، يمكن للمرء أن يتصور كيف تصرف النوفغوروديون والفارانجيون في المدينة التي تم الاستيلاء عليها. عندما اعتلى عرش بولوتسك فسيسلاف سليل روغنيدا رحب به سكان بولوتسك وناصروه في الحرب ضد بسكوف، ثم بعد ذلك ضد نوفغورود.

استولى فسيسلاف على نوفغورود ونهبها في عام ١٠٦٧، ولكن سرعان ما هزمه الياروسلافيون في معركة على نهر نيميج ووقع فسيسلاف في الأسر(١٥).

لكن فسيسلاف لم يبق في الأسر فترة طويلة، إذ بمجرد أن اكتشف سكان كييف أن إيزياسلاف بعد أن خسر المعركة ضد الكومان عند نهر ألتا يرفض تقديم الأسلحة والخيول لشعب كييف أعلنوا التمرد عليه. حطّم سكان كييف السرداب المحبوس فيه فسيسلاف وأعلنوه أميرا عليهم.

في غضون ذلك حصل إيزياسلاف وابنه مستيسلاف على دعم من الملك البولندي. في عام ١٠٦٩ تحرك الجيش البولندي نحو كييف. لم يكن لدى فسيسلاف، جيش يواجه به البولنديين فلم يحاول حتى أن يخوض قتالا فترك كييف وهرب إلى موطنه بولوتسك.

دخل مستيسلاف كييف وبدأ في تنفيذ أفعال انتقامية قاسية ضد سكان المدينة. أجبرت عمليات الإعدام والتعذيب شعب كييف على مخاطبة حفيدين آخرين من أحفاد ياروسلاف لتقديم الحماية.

بعد وساطات كبيرة أوقف مستيسلاف سفك الدماء في كييف. توقفت عمليات الإعدام، وتخلص سكان كييف من القوات البولندية بوسيلة كان تم تجريبها من قبل وقت سفياتوبولك الملعون: مذابح المحاربين البولنديين الذين تم تسكينهم في المدينة. عاد البولنديون إلى وطنهم، وبقيت إمارة كييف لإيزياسلاف. ولكن في عام ١٠٧٣ تم طرد الأمير غير المحبوب من شعبه في كييف، الذين دخلوا هذه المرة في تحالف مع شقيقيَّ إيزياسلاف: سفياتوسلاف وفسيفولود. هرب إيزياسلاف مرة أخرى إلى الغرب. في بولندا سُلب الأمير الهارب ولم تعد إليه أغراضه الثمينة إلا بعد تدخل البابا.

في هذا الوقت جلس على عرش كييف الابن الثاني لياروسلاف الحكيم الأمير سفياتوسلاف من تشرنيغوف، وكان مدعوما بالكامل من قبل الابن الثالث لياروسلاف "فسيفولد".

كان سفياتوسلاف ذكيا قوي الإرادة وقائدا عظيما. في الوقت نفسه، سعى إلى الاتصال مع الكومان الذين استقروا في سهوب جنوب روس ولم يذهب على الإطلاق إلى الغرب. يمكن تسمية موقفه بـــ "القومي".

لسوء الحظ، عادة ما يخاطر القوميون ذوو الأفق الضيق بالبقاء دون دعم خارجي. لذلك لم يتمكن سفياتوسلاف من إقامة سلام حقيقي مع الكومان (البولوفتسي)، ولا إعادة العلاقات مع بيزنطة.

في هذه الأثناء، عاد جزء من السكان داخل البلاد إلى الوثنية. فالسلاف، مثل جيرانهم الأتراك والفنلنديين الأوغريين، آمنوا بوجود "الغول"، أي أرواح الموتى، وأرواح الطبيعة: التي تمثل الغابات، والماء، وحتى الأرواح المنزلية أيضا. من الخطأ أن نطلق على مثل هذه المعتقدات صفة الدين. إنها بالأحرى "تاريخ طبيعي" يتوافق مع مستوى المعرفة في ذلك الوقت. وهذه الخرافات كلها مجتمعة مثلت نوعا من النظرة الاعتقادية إلى العالم، ولكن من المستحيل اعتبارها عبادة دينية حقيقية، كما أنه من المستحيل تشبيه هوية الروح المنزلية مع الإله الخالق. ومن المثير للاهتمام أن هذه المعتقدات الوثنية قد تكيفت بشكل جيد واستمرت في التوافق مع المسيحية ومع الإسلام، وفي عصرنا هذا حتى مع الإلحاد "العلمي". في البداية، سميت هذه الظاهرة بالاعتقاد المزدوج، ثم بدأ الحديث عن الخرافات، لكن الاسم لا يغير من الجوهر شيئا.

ذكرت مخطوطة "سجل الأيام الغابرة" أيضا اندلاع موجة التعصب الوثني عام ١٠٧١م، حيث ظهر طائفة أتباع "فولخوف" في أرض روستوف، والذين كانوا في فترات قلة المحاصيل يجدون بنجاح "المذنبين" في حدوث الجوع. ضحايا الفولخوفيين كانوا عادة من النساء، من الواضح أنهن كن من النساء الفلاحات الأثرياء. وكان الفولخوفيون يسرقون الحبوب من النسوة التعيسات ويذهبون إلى الفقراء ويقولون لهم "إن المرأة تخفي طعامكم". كانت حركة الفولخوفيين المتعصبين تقتل النساء وتستولي في ذات الوقت على مناطق جديدة أكثر فأكثر.

في منطقة البحيرة البيضاء اشتبك الوثنيون المتشددون مع "يان" القائد العسكري التابع لسفياتوسلاف. وكان يان هذا هو ابن الحاكم العسكري فيشاتا، الذي سار في حملة فاشلة على تسارغراد (عاصمة القيصر البيزنطي) في عام ١٠٤٣م. ومن سوء طالع أتباع فولخوف أن "يان" كان رجلا لا يعرف الخوف أو الرحمة. فبعد أن فرّق الحشد المتمرّد بعدد قليل من المحاربين، أجبر "يان" أهل البحيرة البيضاء على تسليم المحرضين الفولخوفيين. وتنقل المخطوطة الحوار الذي دار بين يان وفولخوف. هؤلاء أصروا على التمسك بمعتقداتهم، وفقط بعد "الإيحاءات" اعترفوا أمام يان بشكل مخيف قائلين "هكذا تخبرنا الآلهة: أننا لن نسلم من يديك". وقد وافق يان على قولهم مباشرة وسلم القتلة الفولخوفيين إلى أقارب الضحايا. والتهم الدب ليلا الفولخوفيين المعلقين على الأشجار، وكان الدب هو الوحش الذي يلقى من الوثنيين احترامًا جليلاً. وقعت بعد أحداث تصدت له روس وقمعت الوثنية[١٦].

في ديسمبر ١٠٧٦م توفي الأمير سفياتوسلاف. حدث هذا فجأة بسبب تفشي وباء "الجرب" الذي أدى إلى موت الأمير وهو بعد دون سن الخمسين مما أفضى إلى الإخلال بالتوازن القائم في روس.

مَن اليتيم في روس ؟!

وفقا لقانون ياروسلاف الحكيم، لم يكن للابن أن يخلف أبيه على العرش، ومن ثم فإنه بعد وفاة الأمير المعظم صار الحكم ليس للابن بل إلى الأخ التالي من حيث السن. وكان القانون يقول إنه إذا انتهى جيل الأخوة، ورث العرش ابن الأخ الأكبر، وبعد وفاته ابن الأخ التالي، وهكذا.

عندما توفي سفياتوسلاف ياروسلافيتش، الذي ترك خمسة من الأبناء، طرح السؤال التالي: هل يمكن اعتباره أميرا معظما شرعيا لكييف أم أنه المغتصب الذي استولى على عرش كييف خلال حياة أخيه الأكبر إيزياسلاف؟

لقد اعتمد مصير أبناء سفياتوسلاف أيضًا على حل هذه المسألة، لأنه في روسيا القديمة كان هناك عرف قاسٍ جدًا. فالناس المذنبون بأي شيء ولو ذنب هين كانوا "يُطردون من الحياة"، أي يتم حرمانهم من حقهم في الانخراط في الأعمال التي تتكسب منها العائلة رزقها. كانت هناك ثلاث فئات من هؤلاء الناس: ابن الكاهن الذي لم يتعلم القراءة والكتابة، والتاجر المدين، والفلاح المفارق لعشيرته.

كان هذا إلى حد ما عادلا. فابن الكاهن كان له أن يرث خدمة رعية أبيه، ولكن من أجل التفاني في الرتبة كان من الضروري معرفة القراءة والقدرة على تأدية الصلاة الكنسية (الليتورجية). وإذا تقاعس ابن الكاهن عن تعلم القراءة يكون الطرد مصيره. كما كان يتم اعتبار التاجر الذي لم يسدد ديونه مذنبا فالعرف يقول: "أخذتَ دينا – رده". وسواء تمت سرقة القافلة، أو إذا كانت العاصفة قد أغرقت القوارب المحملة بالبضائع، أو أن التاجر أهدر أموال الناس، كان كل هذا يعتبر سببا غير وجيه ويكون العقاب والطرد

مصيره. وبنفس الطريقة، لم تكن العشائر تقبل الفلاح الذي تخلى عن "عشيرته" وغادر أقاربه وجيرانه إلا بعد أن يقفوا على أسباب نفيه.

لكن كان هناك أيضا فئة رابعة من الفئات المنبوذة في روس، والتي لم تكن بأي حال مذنبة في سوء طالعها. "والرابع المنبوذ: هو الأمير (إذا) تيتم". وفقًا لهذا المبدأ، فإن الأمير الذي تيتم قبل أن يتمكن والده من اعتلاء العرش المعظم، حُرم إلى الأبد من جميع حقوق الملكية لميراث الأسلاف. وبالتالي، بالنسبة لأبناء سفياتوسلاف في الوضع الحالي، كان الاختيار صعبًا: فهم إما حصلوا على الحق في أن يأخذوا بدورهم حكم كييف العظيم، أو تحولوا إلى أمراء منبوذين.

مثل هذا المنبوذ بعد وفاة والده فياتشيسلاف أصبح "بوريس"، حفيد ياروسلاف الحكيم الذي كان يجلس خلال حياة والده على عرش سمولينسك. نفس الشيء حدث مع دافيد إيغوريفيتش، ابن الابن الأصغر لياروسلاف الحكيم إيغور، الذي لم يعش حتى يحل دوره لاعتلاء عرش كييف.

بطبيعة الحال، سعى الأمراء المنبوذون إلى الحصول على موطئ قدم على أي من العروش الروسية. فكان المكان الوحيد الممكن هو تموتاراكان البعيدة. وهناك تحديدا اندلع صراع مستمر بين المنبوذين، الذين تمت دعوتهم من قبل يهود الخزر بتموتاراكان وأبناء سفياتوسلاف، الذين فقدوا حكم تشرنيغوف الذي كان لوالدهم واستغلوا اتصالاتهم مع قبائل ياس وكاسوغ وبولوفتسي (الكومان). سعى أبناء سفياتوسلافيتش لإرجاع عرش تشرنيغوف الذي كان لوالدهم، والذي ثبت أقدامه فيه في البداية فسيفولد، ثم ابنه فلاديمير مونوماخ من بعده.

وفي عام ١٠٧٨م تحرك أوليغ وروماند سفياتوسلافيش مع بوريس فياتشلافيتش إلى روس من تموتاراكان من أجل الحصول على إقطاعياتهم بحد السيف. وخرج لمواجهتهم الأمران الكبيران إيزياسلاف وفسيفولد. في معركة رهيبة في المجرى الأدنى لنهر النيفا قرب تشرنيغوف قُــتل الأمير إيزياسلاف، الرجل الطاعن في السن الذي عاش حياة مليئة بلحظات الصعود والهبوط. كما قُــتل الشاب بوريس فياتشيسلافيتش الذي أُلقي به في المقصلة من أجل إقطاعية والده. وقد فاز بالنصر الأمراء الكبار. أصبح فسيفولد الأمير الأكبر الذي جعل من توديع شقيقه إيزياسلاف احتفالا. وهكذا صعد فسيفولد على العرش المعظم محل سفياتوسلاف.

كان مصير أبناء سفياتوسلاف الناجين حزينًا: فقد قُتل رومان بن سفياتوسلاف عام ١٠٧٩م في مناطق بدو البولوفتس، أما أوليغ الذي وصل إلى تموتاراكان، فقد أسره الخزر. مصير أوليغ هذا يثير دهشتنا بتفرده. فقد قام الخزر بتسليم أوليغ إلى اليونانيين. ويبدو أن الأمير عاش في القسطنطينية أسيرا مكرما. لكن الحياة غير النشطة، إلى جانب كونها خالية من أية آفاق للمستقبل، لم يكن لها أن تثقل أوليغ الشاب النشط.

ومع ذلك دارت عجلة الحظ مع أوليغ، إذ تغير فجأة كل شيء نتيجة الحادث الذي وقع في القصر الإمبراطوري، عندما قرر المرتزقة الروس، بعد أن شربوا النبيذ، أن يقوموا بانقلاب وهاجموا غرفة النوم الإمبراطوري. هذه المحاولة المخمورة لم تكن ناجحة. فقد تصدى المحاربون اليونانيون للهجوم ودفعوا المرتزقة إلى أحد مباني القصر. بعد الاستفاقة أخذوا في طلب الصفح وعُفِي عنهم. وتم إبعادهم عن العاصمة إلى قوات الحدود، حيث حاربوا ضد السلاجقة. وهكذا تم تصفية الحرس الروسي في قصر فاسيليوس واستبداله بالمحاربين الأنجلوساكسون.

بعد التمرد الأحمق للفـــارانجيين السكارى تم نقل أوليغ سفياتوسلاف باعتباره روسيًّا إلى جزيرة رودس. وهناك تزوج من ابنة أحد الأرستقراطيين اليونانيين وهي ثيوفانيا موزالون، وبعد عامين حصل على إذن للعودة إلى تموتاراكان، حيث عزز مكانتهما المنبوذان المدعومان من الخزر: دافيد إيغورفيتش وفولودار.

في عام ١٠٨٣م اقتربت السفينة البيزنطية التي تقل أوليغ وزوجته الشابة من مرسى تموتاراكان. نزل أوليغ إلى الشاطئ، وحدثت مذبحة في تموتاراكان. تم القضاء على يهود الخزر، أعداء أوليغ القدامى، وتم طرد الأمراء دافيد وفولودار. من الواضح أن أوليغ لم يكن يستطع التعامل مع الجالية اليهودية في تموتاراكان بمفرده. لكن من يستطيع دعم الأمير الجديد ويقوم بتنفيذ هذا الإعدام القاسي؟ من الواضح أن ذلك كان بوسع السكان الأصليين فقط من الياسي والكاسوغ، وربما الكومان أيضا، هم من يستطيعون فعل ذلك. مكث أوليغ في تموتاراكان لبعض الوقت محافظا على العلاقات مع بيزنطة، وفي عام ١٠٩٤م بعد أن سلم المدينة إلى ألكسيوس الأول كومنين، توجه إلى روس على رأس جيش. وقد أخذ الكومان حلفاءً له، وقام بطرد ابن عمه فلاديمير ابن فسيفولدو مونوماخ من تشرنيغوف واستلم الإمارة في مدينة والده.

الهـوامـش

(١) رأينا في الفصل الثالث أنها هي نفسها زوجة "روغفولود" (أمير بولوتسك) شقيق فلاديمير وكان فلاديمير قد قتله وأخذ زوجته. (المترجم)

(٢) كان يطلق على سفياتوبولك هذا لقب "ابن الأبوين"، وذلك لأن فلاديمير كان قد تزوج من أمه اليونانية التي كانت حاملا فيه من الأمير ياروبولك الذي قتله فلاديمير أيضا.

(٣) كان سفياتوبولك قد اختار أسقف كولوبيرزسكي الألماني راينبيرن كأب روحي له، الذي انتهى بشكل مأسوي بالنسبة لهما هما الاثنين. فقد ألقى فلاديمير بكل من الألماني والأمير في السجن، ولم يخرج هذا الأسقف أبدا بعد ذلك.

(٤) فعندما توفي فلاديمير، تخلي الأنصار عن ابنه المحبوب بوريس الذي بعثه والده لمواجهة البچناك. فقد تركه الجيش وقفل عائدا إلى كييف. وبقي بوريس مع عدد قليل من الأصدقاء عاجزين. بعد وفاة الأمير حرر الغوغاء سفياتوبولك من السجن وأعلنوه "أميرا كبيرا". أما بالنسبة إلى نوڤغورود، فقبل وفاته بقليل كان فلاديمير قد قام بجمع الجنود لإعادة أهل نوڤغورود وابنه ياروسلاف إلى الطاعة.

(٥) تضمنت الأخبار أيضا أن سفياتوبولك قد استولى على السلطة. وأن الأمير الجديد قتل بوريس الأعزل، وقتل الصبي جليب. وأن الأشخاص الذين أرسلهم سفياتوبولك قد وصلوا إلى سفياتوسلاف دريفليانسكي ابن فلاديمير من زوجته "تشيخين" وقتلوه، بينما كان يحاول الفرار إلى موطن أمه.

(٦) موقع استراتيجي في جنوب "روسيا كييف" في المنطقة التي تمثلها حاليا شبه الجزيرة الفاصلة بين بحر آزوف والبحر الأسود ولا يفصلها عن شبه جزيرة القرم سوى مضيق "كيرتش" . (المترجم)

(٧) حيث اضطر في البداية إلى صد هجوم أمير بولوتسك برياتشسلاف على نوڤغورود، ثم بعد ذلك تهدئة حركة الفولخوفيين التي أحيت التضحية بالبشر تقربا للآلهة الوثنية.

(٨) اشتبكت قوات مستيسلاف مع الفارانجيين الموالين لياروسلاف الذي عاد من الشمال في معركة لاتفن (١٠٢٤). يتحدث مؤلف المخطوطة عن العواصف الرعدية التي هبت ليلة المعركة. قاتل المحاربون في ضوء البرق. قاومت قوات السفيريانيين الذين هم حلفاء مستيسلاف الفارنجيين. وفي اللحظة الحاسمة، عندما كان الطرفان قد

أنهكتهما المعركة دفع مستيسلاف بفرسانه المكونين من الياسيين والكاسوغ للهجوم على جيش الفارانجيين. دب الارتباك في صفوف الفارنجيين وفروا، وكان النصر حليفا لأمير تموتاراكان. وباستعراضه في الصباح لساحة المعركة أعرب مستيسلاف عن مشاعره بصراحة شديدة. ودخلت العبارة التي قالها في سجل المخطوطة: "من ذا الذي لا يرضى بذلك؟ (كيف لا يمكن الفرح؟) هنا يرقد سفيريانيون، ها هنا هو فارانجي، أما جيشي فسليم معافى" من الواضح أن حلفاء مستيسلاف السفيريانيين والياسيين والكاسوغ كانوا مستاءين لشعورهم بالإهانة.

(٩) منطقة في أوكرانيا حاليا تقع شمال شرق مدينة كييف. (المترجم)

(١٠) في عام ١٠٤٣م تحرك الأسطول الروسي بقيادة نجل ياروسلاف فلاديمير والقائد العسكري فيشاتا تجاه القسطنطينية. ويخبرنا مؤلف المخطوطة أن "عاصفة كبرى" كسرت سفن الروس. ولكن ربما كانت "النار اليونانية" سبب هلاك الأسطول الروسي مرة أخرى. على أية حال، فإن الروس الذين فروا إلى الساحل تعرضوا للضرب والأسر على أيدي البيزنطيين. تمكن فلاديمير مع جزء من الجيش من العودة إلى روس، بينما وقع القائد العسكري فيشاتا في الأسر وأطلق اليونانيون سراحه فقط بعد ثلاث سنوات. قام البيزنطيون بسلب أبصار الأسرى الروس.

(١١) ترأس هذا التيار إيزياسلاف ياروسلافيتش (كان اسمه لدى المعمودية دميتري، وهو الابن الأكبر للأمير العظيم).

(١٢) وترأسه سفياتوسلاف ياروسلافيتش (كان يحكم في تشرنيغوف)،

(١٣) ويقوده فسيفولد (كان أميرا على بيرياسلافل، وهو الابن الثالث لياروسلاف). بعد وفاة ياروسلاف في عام ١٠٥٤ استلم إيزياسلاف الحكم في كييف.

(١٤) كما قال الشاعر:

مع انبثاق الفجر على الكومان
أغار الأمير إيزياسلاف،
مهيبا وغاضبا؛
شاهرا سيفه بكلتا يديه عاليا،
متشبها بالقديس جيورجي؛
ولكن بحلول الليل،
قاد حصانه بعيدا عن القتال؛
هرع الأمير الجريح عبر الميدان،

برأس متدلٍ إلى الوراء.

(١٥) تم أسر الأمير وحبسه في كييف في سرداب خشبي تحت الأرض بدون نوافذ وأبواب، حيث تم إنزال السجين من أعلى باستخدام الحبال وبنفس الطريقة كان يقدم له الطعام. كان هذا النوع من السجن يعتبر قاسيا للغاية.

(١٦) ظهر في أرض نوڤغورود ساحر لم يكن معروفا. أعلن نفسه كاهنا، وحرَّض الناس على الثورة ضد الكنيسة ووعد بمعجزة غير مسبوقة. سكان البحيرة البيضاء الوثنيين قاومهم وأدبهم ابن سفياتوسلاف الأمير جليب. ثم خبأ فأسا تحت عباءته، والتفت إلى الساحر يسأل عما إذا كان يعرف المستقبل. فكان الجواب: "أنا أعرف كل شيء"، فسأله الأمير: "هل تعرف ماذا سيحدث لك اليوم؟"، فرد الساحر متنبئًا "سأصنع معجزات عظيمة". فأخرج جليب الفأس وقطع رأس الساحر، وبذلك أثبت أن هذا النبي كان عديم الفائدة. "انفض الناس إلى حال سبيلهم"، وهذا ما تخبرنا به المخطوطة. وبهذه الطريقة تمكنت السلطات بأعمالها القوية من قمع إحياء الوثنية في شمال روس.



الفصل الخامس

هل يمكن توحيد المبعثر وتجميع المفكك؟

- روس تبحث عن حليف: بيزنطة أم أوروبا؟
- اليهود يفدون إلى كييف!
- الأب وابنه
- بداية النهاية

روس تبحث عن حليف: بيزنطة أم أوروبا؟

بعد أن صار الأمير المعظم لفترة قصيرة نجح فيسفولد في توحيد الجزء الأكبر من أراضي روس تحت حكمه، وزرع أبناءه في مدن محددة. ثم خفت الشغف البيزنطي بفسيفولد، ولم يكن هذا مفاجئاً. ففي النصف الثاني من القرن الحادي عشر فقدت بيزنطة معظم آسيا الصغرى، وتدهور اقتصاد الإمبراطورية بسبب الحكم الفاسد للإمبراطورة "زوي" فضلا عما أصاب البلاد من اضطرابات داخلية خلال الفترة ١٠٦٨-١٠٧١.

لم تستعد بيزنطة استقرار النظام النسبي سوى في عام ١٠٨١ عندما أصبح "ألكسيوس كومنين" زعيما، قبل ذلك التاريخ لم يكن باستطاعة أمير كييف التعويل على دعم القوة البيزنطية الضعيفة.

في رحلة البحث عن حليف بدأ فسيفولود – كما فعل أخوه الأكبر – في التطلع إلى الغرب، غير أن أوروبا الغربية في ذلك الوقت كانت تبدو في حالة بائسة، فقد شهد العالم المسيحي تراخي الشغف الخلاق لشعوب أوروبا الغربية ودخولها مرحلة التفوق العرقي الاستعلائي.

على سبيل المثال بدأ الإقطاعيون الألمان في الاستيلاء على الأراضي السلافية الحدودية وتحويل السلاف إلى "أقنان" معدومي الحقوق، أي عبيد. أما السلاف الغربيون الذين كانوا يقطنون حول نهر إلبه، فقاوموا الضغط الجرماني بكل قوتهم، لكن القوى كانت غير متكافئة.

كان سوء موقف السلافيين يكمن في أنهم لا ينتمون إلى "العالم المسيحي"، أي أنهم لم يكونوا بالنسبة للجرمان "غرباء" فحسب بل يمثلون عرقية العوام وجزءًا من بلد محتل ذليل.

بالطبع، قام أباطرة الجرمان أيضا بقمع الفلاحين الجرمان. لكن بمستويات مختلفة. على سبيل المثال، عندما كان الدوق السكسوني الذي أصبح زعيما للإمبراطورية الرومانية المقدسة يعاقب "الساكسون" فقد كان ينظر إليهم باعتبارهم خانعين وجبت عليهم الطاعة، أما البرغنديون والفرانكونيون والبافاريون، فكان الدوق يعاملهم بقسوة أكثر، في حين كان التصرف مع السلاف (أو العرب أو الهنغاريين) يتم بشكل غير إنساني مهين.

بالإضافة إلى ذلك، انقسم جميع الإقطاعيين في أوروبا في القرون الوسطى إلى فصيلين رئيسيين:

– فصيل تقوده الكنيسة، والتي كرست لنفسها تحصيل العُشر والاحتفاظ بالسلطة العليا في أمور الحكم. وقد حصل أنصار هذا الفصيل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على المصطلح الإيطالي "الفولفيون" نسبة إلى اسم فلف، وهم دوقات ساكسونيا وبافاريا، الذين قاتلوا ضد سلالة هوهنشتاوفن الإمبراطورية.

– فصيل يتبع الأباطرة ويطلق عليه اسم "الغيبيلينيون".

كان كل من الفصيلين يعتبر نفسه بشكل رسمي كاثوليكيا، ولم يزعج الموقف الفعلي تجاه الدين أحدًا. لم يكن الفرق بين الفويلفيين والغيبيلينيين في المعتقدات الدينية، ولكن اختلفت برامجهم لتنظيم شؤون الحياة.[١]

وصل الصراع بين الباباوات والأباطرة إلى ذروته في نهاية سبعينيات القرن الحادي عشر في ظل النزاع بين البابا جريجوري السابع والإمبراطور هنري الرابع من السلالة الفرانكونية. وبما أن البابا بقي على رأس الكنيسة، بدأت تنتشر على نطاق واسع بين الإقطاعيين طقوس غير نظامية مناهضة ومضادة للكنيسة، مثل عبادة الشيطان.

لم يكن الإمبراطور نفسه استثناء منها، إذ إنه كان عضوا في طائفة نيكوليتانس[٢]. على الرغم من أن هذه الطقوس كانت تعتبر سرية، فإن الكثيرين قد عرفوا عن صلوات "القداس الأسود"، بل والأدهى من ذلك أن هذا لم يسبب صدمة لدى الأوروبيين الغربيين.

مع الإمبراطور هنري الرابع تحديدا عقد أمير كييف فسيفولد تحالفاً، وبذلك انضم إلى الفصيل الأوروبي المناصر للأباطرة لا البابوات. واستكمل هذا الاتحاد بواسطة المصاهرة العائلية بزواج الإمبراطور هنري من "يوبراكسيا" ابنة الأمير الكبير فسيفولد. حتى أصبحت الأميرة الروسية الإمبراطورة الألمانية وحملت لقب "أديلايد".

كان هنري رجلاً بلا أحكام مسبقة وأشرك زوجته في صلوات "القداس الأسود" لكي يتم تقديم العشاء التجديفي على جسدها العاري. غير أن ما كان يبدو للجرمانيات أو البورغنديات أو الإيطاليات بالغ الإغراء، كان بالنسبة للمرأة الروسية مثيرا للاشمئزاز، وهربت الزوجة من زوجها إلى خصيمته، الكونتيسة ماتيلدا. فقامت ماتيلدا بتهريبها إلى روما، فاستقبلها البابا، وبعد منحها الغفران من الخطيئة القسرية أعاد هذه التعيسة إلى روس. بعد أن عادت الأميرة إلى بيت أبيها أتيحت لها كل الفرص لإعادة ترتيب حياتها، لكنها ذهبت إلى دير قرب تشيرنيغوف، حيث قضت أيامها القليلة الباقية. على ما يبدو كانت انطباعاتها مثيرة للاشمئزاز لدرجة أن الحياة فقدت معناها

بالنسبة لها. وهذا مثال على الفرق بين سلوك الأوروبيين الغربيين والروس. وهكذا باءت محاولة فسيفولد التقارب مع الغرب بالفشل.

انتقل للكنيسة الروسية الصراع بين المؤيدين لليونان والمؤيدين للغرب. فقد مال قادة الكنيسة الملتفون حول المطران إلى اليونانيين وبيزنطة، خاصة وأن المطران كان عادة يونانيا. وقد واجه هؤلاء رجال الدين الروس الذين اعتنقوا الرهبنة في دير يسمى "يشيرسك لافرا" في كييف.

لم تكن هناك وحدة في روس أيضًا فيما يتعلق بالجيران سكان السهوب. فقد جاور دولة كييف شعبان من البدو الرحل وهما أتراك الأوغوز والكومان (البولوفتسي)، الذين كانوا في حالة عداء وحرب مميتة ضد بعضهم البعض. الروس الذين اختاروا الأتراك الأوغوز حلفاء – وهو ما فعله أمراء فولين وكييف في القرن الثاني عشر – أصبحوا على الفور خصوما للكومان. وبالتالي، فإن أولئك الذين اعتمدوا على الكومان (كما فعل أهل تشرنيغوف أتباع أوليغ في وقت لاحق) تحولوا إلى أعداء للأتراك الأوغوز.

كان الوضع شديد التعقيد. إذ قام فسيفولد (لعدم رؤيته فرصة لفرض النظام في الإقطاعيات) بتسليم سلم المبادرة والسلطة الفعلية لابنه فلاديمير مونوماخ، الذي كان يحكم في تشرنيغوف. توفي الأمير الأكبر نفسه عام ١٠٩٣، وذلك بعد أن عاش "أحزانًا عظيمة" في سنوات عمره الأخيرة.

اليهود يفدون إلى كييف!

بعد وفاة الأمير الأكبر فسيفولد، وفقا لنظام خلافة العرش، اعتلى عرش كييف المعظم سفياتوبولك الثاني إيزياسلافيتش، أكبر الأحياء من نسل ياروسلاف، والذي حكم قبل ذلك الوقت مدينة توروف الصغيرة. أما ابن

الراحل فسيفولود فلاديمير مونوماخ، والذي طرده أوليغ من تشرنيغوف، فقد انتقل إلى بيرياسلاف.

لم يكن وضع الأمير الكبير سفياتوبولك سهلا. إذ لم يكن النهج السياسي لأبيه يلقى ترحيبا كثيرا لا في كييف ولا في جميع أنحاء روسيا. فقد كانت مفاوضات إيزياسلاف ياروسلافيتش مع بابا روما - في النصف الثاني من القرن الحادي عشر- غير سارة وغير مقبولة بالنسبة لغالبية الروس الأرثوذكس. وبعد أن أصبح سفياتوبولك أميرا أكبر لم يكرر مثل هذه المحاولات وحاول تغيير حاشيته المحيطة به[٣].

ومن أجل توفير المال لخزينة إمارته لجأ سفياتوبولك لحيلة بسيطة، دعا خلالها اليهود المرابين للقدوم من ألمانيا. وحصل هؤلاء المرابون على حق الإقامة في كييف وإمكانية بناء كنيس، فضلا عن الحرية في المعاملات المالية. بفضل خبرتهم وتضامنهم، سرعان ما استولى اليهود القادمون من الغرب إلى كييف على معظم زبائن تجار كييف الذين لم يعروفوا الربا من قبل. ومع ذلك، لم يقتصر المرابون اليهود على هذا النشاط، بل قاموا بإقراض المال إلى الأمير الأكبر نفسه وفي المقابل طلبوا لأنفسهم إمكانية تحقيق أقصى ربح ممكن. كانت المؤسسة التجارية الأكثر ربحًا في ذلك الوقت هي تجارة الرقيق. بطبيعة الحال، دفع المقرضون اليهود سفياتوبولك لشن حملات عسكرية كان الغرض منها استجلاب عبيد يقوم الأمير الكبير ببيعهم ويسدد بهم ديونه إلى المرابين.

ولم يكن أحد بمقدوره معارضة سفياتوبولك سوى أبناء سفياتوسلاف، لكنهم كانوا في تشيرنيغوف، وحيث إن الناس في كييف "لم يرغبوا" أن يحكمهم أهل تشرنيغوف، لم يكن أمام أبناء سفياتوسلاف أي فرصة. وبالمثل

بقي ابن فيسفولود، فلاديمير مونوماخ، في بيرياسلاف ولم يتمكن من التعدي على حقوق أخيه الأكبر، بل خضع لإرادته، وذلك لأنه دخل في اتحاد سياسي معه. وقرر سفياتوبولك بدء الحرب.

لم يكن بإمكان أمير كييف شن حرب لجمع العبيد إلا بمساعدة الكومان. ويبدو أنه استهدف جمع العبيد من أرض الكومان ومن بينهم[٤].

بدأت الحرب ضد الكومان وبعد عدة معارك فاشلة، بدأ سفياتوبولك الثاني ومعه فلاديمير مونوماخ ودافيد – الشقيق الأكبر لأوليغ سفياتوسلاف – في مهاجمة معسكرات الكومان في محاولة لنقل ثقل العمليات العسكرية إلى سهوب الكومان. اضطر الكومان إلى الدفاع عن الأكواخ المعدة لقضاء الشتاء حيث كانت النساء والأطفال. لم تتمكن فرق الثيران التي كانت تنقل عائلات وأواني البدو الرحل – والتي كانت تتحرك بسرعة حوالي ٤ كم/ساعة – من الهروب من فرق الفرسان الروسي. ووجد الكومان أنفسهم مضطرين لا محالة لخوض معركة فرضت عليهم رغم أنهم لم يكونوا يمثلون أي تهديد في نهاية القرن الحادي عشر ومطلع الثاني عشر لدولة روس الكييفية. في هذا الوقت كانت روس تعاني التدني الأخلاقي على صعد مختلفة[٥].

من السهل أن نخمن أن السياسة التي اتبعتها سفياتوبولك الثاني كانت بعيدة عن المصالح الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والثقافية لروس. فقد شنت الحرب مع الكومان بسبب الرغبة في أسر أكبر عدد ممكن من الرقيق وبيعهم في أسواق العبيد. بطبيعة الحال، كان الناس في كييف غير راضين للغاية عن سياسة سفياتوبولك، ولكن كان لديه جيش قوي إلى حد ما، وكان قادته من تلك النخبة الجديدة الشابة. كان التمرد في مثل هذه الظروف يشكل مخاطرة كبيرة بالنسبة للمواطنين. لكن الموت هو نهاية كل البشر. في عام

١١١٣ توفي سفياتوبولك، وحينها انفجرت المشاعر الشعبية المكبوتة. فسلبت منازل العديد من النبلاء (البويار) ونُهبت المحلات التجارية لليهود المرابين. كانت هذه هي أول مذبحة لليهود في كييف. فقد اقتص سكان كييف من التجار اليهود وأنصارهم على نطاق شعبي حقا. لم يبارك الجميع في المدينة على الأعمال العشوائية لسكان كييف التي اندلعت بشكل عفوي. أدرك البويار الأغنياء أن النار قد تطالهم لذلك أرسلوا تجمعًا يرأسه المطران الأكبر إلى فلاديمير مونوماخ، الحاكم القوي ذائع الصيت بين الشعب.

الأب وابنه

جاء فلاديمير في قوة عسكرية صغيرة، ولم يظهر له سكان كييف أي مقاومة، بل على العكس اعترفوا به أميرا معظما لكييف. طالب مونوماخ بوقف تقتيل اليهود، ووعد سكان كييف بأن يقرر الأمراء مسألة الجالية اليهودية. وفي المؤتمر الأميري الذي عقد في منطقة فيدوبيتشي وحلت القضية إذ صرح فلاديمير مونوماخ أنه لن يصادر الممتلكات اليهودية، رغم حصولهم عليها بطرق غير شريفة. احتفظ اليهود بالحق في كل شيء اكتسبوه في روس. لكنهم حُرموا من حق الإقامة هناك، وبهذا حرم من حماية القانون أولئك الذين أتوا تسللا وسرا. طُلب من جميع اليهود العودة فورًا إلى المكان الذي جاءوا منه، حيث تم تخصيص القافلة الضرورية لإجلائهم. بعد الأحداث المعادية لليهود عام ١١١٣ اختفت النزعة التغريبية في روس حتى القرن الثالث عشر، وبات التنافس محصورا بين فصيلين فقط، هما المناصر لبيزنطة والفصيل الروسي.

بدرجة لا تقل فاعلية عالج مونوماخ مشكلة الكومان. فاستطاعت الفصائل العسكرية الروسية (بعد أن خسرت بعض الصدامات الفردية) تحقيق النصر بسهولة في الحرب ضد هذا العدو بطيء الحركة. كانت الحملة الحاسمة عام ١١١١ روسية بالكامل. عند نهر دونيتس تكبد البدو الهزيمة، وفي عام ١١١٦ تمكن ياروبولك ابن فلاديمير مونوماخ من إنزال هزيمة ساحقة بالكومان عند نهر الدون. وفي عام ١١٢٠ لم يعثر ياروبولك هذا نفسه على أثر للكومان على نهر الدون، فقد سرح البدو في عمق السهوب.

نتيجة لهذه الحملات تم إخضاع البدو الغربيين القاطنين بين الدون والكاربات. وأصبح الكومان، الذين عاشوا على هذه الأرض، جزءًا من روس على أساس مبدأ الحكم الذاتي، وبما أنهم لم يعتنقوا المسيحية (غير معمدين)، فقد أُطلق عليهم مصطلح "الباجاني" (اشتقاقا من الكلمة اللاتين paganus ومعناها "الوثني"). وعلى النقيض منهم، فإن الكومان الذين عاشوا خارج حوض نهر الدون، على نهر الفولغا وفي كوبان، كان يطلق عليهم اسم "المتوحشين". كان الكومان "المتوحشون" عادة حلفاء لزعماء إمارة "روستوف-سوزدال"، بينما قام أعداؤهم أتراك الأوغوز- الذين كانوا يعيشون على الحدود الجنوبية لفولين - بتقديم الدعم لأمراء فولين وكييف.

وهكذا، تمكن فلاديمير مونوماخ خلال سنوات حكمه العظيم (١١٢٥-١١١٣) من معالجة كلتا المسألتين: مسألة الكومان ومسألة اليهود، عبر إرساء نظام نسبي في روس. وبعد موته لم يكن قد خلف وراءه لابنه مستيسلاف الكبير سوى مشكلة إمارة بولوتسك. كان مستيسلاف مثل والده رجلاً موهوبًا استولى على بولوتسك ونفى حكامها إلى بيزنطة، وضم أراضي الإمارة إلى السيادة الروسية. كانت هذه الفترة التي تم فيها توحيد عموم روس (أي جميع السلاف الشرقيين).

ورغم الفترة القصيرة التي حكم فيها مستيسلاف العظيم، (١١١٣-١١٢٥) فإنه يحظى باحترام وتقدير بالغ ما دفع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى تطويبه[٦].

بداية النهاية

بعد وفاة مستيسلاف بدأت دولة كييف تتفكك بسرعة، وبشكل تلقائي؛ إذ انفصلت أولا بولوتسك، حيث وفد إليها في عام وفاة مستيسلاف الكبير الأمراء البولوتسكيون قادمين من بيزنطة. وتم استقبالهم من قبل المواطنين، وعادت بولوتسك إلى الاستقلال. ثم في ١١٣٥ انفصلت نوفغورود. توقفت "جمهورية" نوفغورود عن إرسال الأموال إلى كييف.

في كييف حكم لبعض الوقت (حتى ١١٣٩) شقيق مستيسلاف ياروبولك. لكنه توفي وترك العرش لأخيه فياتشيسلاف. وهنا تدخلت تشيرنيغوف في مسألة تحديد مصير عرش كييف المعظم. هجم فسيفولود ابن أوليغ على كييف، فطرد فياتشيسلاف وجلس هو على عرش كييف، وأعلن نفسه أميرا أكبر. فثار ضده مناصرو مونوماخ الذين كانوا يلقون دعم فولين. حاول إيزاسلاف، ابن أخ فياتشيسلاف، أن يعيد كييف إلى سلطة أحفاد مونوماخ، لكن فسيفولود، الأمير البارع والماهر والقاسي، حافظ على سلطته على العرش العظيم حتى وفاته (١١٤٦).

كان شقيقه إيغور أقل حظًا منه، فهو رجل لم يسبق له مثيل في قلة الحيلة والمهارة. ففي خلال أقل من شهر من حكمه نجح في بث النفور والكراهية بين أهل كييف ضده، وعندما جاء إزياسلاف مستيسلافيتش حفيد

مونوماخ من فولين مع فصيلة من الأتراك تخلت قوات كييف عن الأمير إيغور. بعد أن عانى من الهزيمة تحت أسوار العاصمة حاول الهرب، ولكن حصانه علق في مستنقع بالقرب من نهر ليبيد. تم أسر إيغور وسجن في سرداب، حيث مكث فيه حتى تمكن شقيقه الثالث سفياتوسلاف أوليغوفيتش من تجميع القوات في تشرنيغوف لتحرير المخلوع إيغور، الذي تحول في الأسر إلى الرهبنة. لكن كراهية شعب كييف، الذين رأوا في إيغور عدوا لهم، كانت أيضا خطرا على الراهب. فأرسل إيزياسلاف فرقة لإخراج إيغور من السجن ونقله إلى كنيسة القديسة صوفيا، ووفر له الحرم الكنسي الحماية (كانت الكنيسة تتمتع بحق منح اللجوء). لكن سكان كييف في ساحة الكاتدرائية استطاعوا أخذه من الحراس وداسوه بالأقدام، ثم ألقوا الجثة في مكانها دون دفن (١١٤٧).

اندلعت حرب طاحنة بين مدينتي تشرنيغوف وكييف. في هذا الوقت انفصلت إمارة "روستوف سوزدال" وأصبحت مستقلة تماما بحكم الأمر الواقع وكان يحكم الإمارة ابن مونوماخ يوري دولغوروكي، الرئيس الشرعي للفرع الكبير من نسل مونوماخ. أما إيزياسلاف المحبب لأهل كييف، فكان ينتمي إلى الفرع الأصغر من نسل مونوماخ. نرى هنا أنه ربما ليس هناك من داع لتعداد جميع المواجهات التي لا نهاية لها. يكفي أن نلاحظ أن دولغوروكي توفي مسموما (١١٥٧). وورث الابن أندريه يوريفيتش بوغوليوبسكي (الذي عاش في قرية بوغوليوبوفو ومن هنا جاء هذا اللقب) إمارة أبيه "روستوف سوزدال".

وهكذا نرى أن تصادم أبناء مونوماخ مع أحفاده ليس من أجل الحياة، بل صراع على الموت. كان نزاع أمراء روستوف–سوزدال يوري

دولغوروكي وأندريه بوغوليوبسكي مع أمراء فولين إيزاسلاف مستسلفيتش ومستيسلاف ورومان على عرش كييف، بالطبع، كان صراعًا بين الأعمام مع أبناء الأشقاء(٧).

في نهاية المطاف انفصلت أراضي شمال شرق روس والأراضي الجنوبية الغربية (فولين وكييفشينا وغاليسيا). أصبحت إمارة تشرنيغوف دولة مستقلة، حيث حكم أحفاد أوليغ ودافيد. كما انفصلت أراضي سمولينسك وتوروفو- بينسكايا. وحصلت نوفغورود على الاستقلال التام. ولم يجد الكومان – ممن تم غزوهم وإخضاعهم – أنفسهم مضطرين حتى لانتهاك التزاماتهم: فقد حافظوا على نظام الحكم الذاتي، الذي لم يفكر الأمراء الروس حتى في التعدي عليه.

إن تفكك الدولة الروسية يعكس تفكك النظام العرقي الذي حدث، فعلى الرغم من أنه في جميع الإمارات كان لا يزال الروس يعيشون وظلوا جميعهم أرثوذوكس، فإنه قد تم تدمير الشعور بالوحدة العرقية بينهم.

ومن الأمثلة الواضحة على فقدان التكامل العرقي كان تصرف الأمير أندريه بوغوليوبسكي. ففي عام ١١٦٩ بعد أن استولى على كييف سلم أندريه المدينة ليعمل فيها الجنود السلب والنهب لمدة ثلاثة أيام. قبل ذلك الحين كانت العادة جرت في روس على القيام بذلك فقط في المدن الأجنبية الغريبة. ولما لم تمتد هذه الممارسة أبدًا إلى المدن الروسية في ظل الصراعات والفتن الروسية الداخلية التي شهدتها الأراضي الروسية.

يوضح أمر أندريه بوغوليوبسكي أنه بالنسبة له ولجيشه في عام ١١٦٩ كانت كييف غريبة عنه مثل أي حصن أو قلعة ألمانية أو بولندية.

على هذا النحو دخلت روسيا القديمة في نهاية القرن الثاني عشر مرحلة جديدة من التكوين العرقي، وهي مرحلة الاندثار. فقد بدأ الشغف الخلاق للروس يتراجع باطراد، وبالتالي أدى تنوع المناظر الطبيعية والتقاليد والاختلافات في السلوك إلى انتصار اتجاهات الطرد المركزي. وبحكم هذا الظرف تحولت روس إلى إقطاعيات وإمارات منفصلة تتوافق مع المعتقدات العرقية لمختلف المجموعات العرقية والمجموعات العرقية الفرعية. وهذه الأخيرة كانت شديدة التنوع، لذلك كان هناك في أراضي سمولينسك مثلا حوالي عشر إقطاعيات ميراثية. وقد لوحظ الشيء نفسه في أراضي إمارتي روستوف–سوزدال وتشرنيغوف. بل وفي أراضي غاليتسيا كانت هناك منطقة لا يحكمها أتباع روريك، بل أحفاد القادة السلاف القدماء، أمراء بولوخوف.

وظلت قبائل البلطيق والأوغرية الفنلندية الوثنية مثل ياتفاغي، ليتوانيا، جمُود، إستونيا، موردوفيا، تشيريميسي، زيرياني، زافولوتس تشود، ظلت خارج نطاق الدولة الروسية. هكذا دخلت الدولة القرن الثالث عشر، قرن هلاكها المأساوي.

الهوامش

(١) كان رؤية الغويلفيين والغيبيلينيين تجاه الطبيعة متباينة أيضًا. تكمن المسألة في أن صفوف الغويلفيين كانت تتعزز بانضمام الناس الذين كانوا يعيشون على أراضيهم الطبيعية والذين تكيفوا مع المناظر الطبيعية المحيطة. لذلك تعاملوا مع الطبيعة المحلية بشكل إيجابي. أما معظم الغيبلينيين فتألفوا من الإقطاعيين المتحمسين للغاية، الذين سعوا إلى الشهرة والانتصارات والفتوحات في الأراضي البعيدة، حيث كانوا يعيشون على حساب السكان المهزومين. لذلك بقي كل من الناس والطبيعة "غرباء" بالنسبة لهم، وأصبحت الرغبة في الحصول على أكبر دخل ممكن "هي المألوف بالنسبة لهم". وبالتالي، ساد النفي في نظرة الغيبلينيين للبيئة المحيطة. لم تبطئ نظرة الغيبلينيين السلبية إلى العالم من إظهار نفسها في الموقف المتطرف.

(٢) النكليكيون واحدة من العديد من الطوائف المناهضة للنظام في العصور الوسطى التي اتبعت عبادة الشيطان. (المترجم)

(٣) مثلما فعل فسيفولد في حينه – عندما تخلى عن فرقته القديمة – قرَّب سفياتوبولك أيضًا أشخاصًا جددًا تمامًا ليصبحوا حاشيته. يصف مؤلف المخطوطة هؤلاء بأنهم "متميزين"، أي شباب، لكنه لا يعني هنا بهذا الوصف العمر، بل النمط السلوكي. بدلاً من "الحرس القديم"، أي رفاق السلاح وأصدقاء الياروسلافيتشيين، تجمع أناس جدد حول عرش كييف. وهم كانوا مساعدين يعتمد عليهم للأمير الأكبر، ولكن بشرط أن تكون خدمتهم مدفوعة الأجر بشكل جيد. لم يعد مرافقو سفياتوبولك حراسًا غير مهتمين بالأرض الروسية، بل كانوا حاشية من الجشعين عديمي الضمير تمامًا. ومع تزايد اعتماد الأمير عليها وثقته فيها، صارت حاجته للمال أكبر وأكبر.

(٤) يجب القول إن الكومان كانوا محرومين من القدرة على المناورة، والتي تنسب تقليديا إلى البدو. مثل جميع بدو السهوب، كانوا منخرطين في تربية الماشية. ولكن بالنسبة لفصول الشتاء في السهوب الروسية الجنوبية، التي كانت تتميز بالثلوج الكثيفة، حيث يتجاوز سمك الغطاء الثلجي في بعض الأحيان. نصف المتر، في مثل هذه الظروف لا يمكن للماشية أن تجد الكلأ. وفي موسم الثلوج وجد الكومان (البولوفتسيون) أنفسهم

حتما مقيدين بمناطق قضاء الشتاء، وفي الصيف بمناطق حصاد المرعى. حتى مع الإعداد الجيد لعبور فصل الشتاء كانت ماشية الكومان في فصل الشتاء تعاني النحول. كما عانت الخيول أيضا وهو ما أثر على القوة العسكرية لهذا التحالف القبلي.

(٥) من أمثلة ذلك ما حدث في عام ١٠٩٧ حين تم عقد المؤتمر الأميري في ليوبيتش الذي كان بداية لشكل سياسي جديد من وجود الدولة. هناك تقرر أن "كل مسؤول عن منطقته". وهكذا بدأت روسيا تتحول إلى اتحاد كونفدرالي لدول مستقلة. وقد أقسم الأمراء على الالتزام الصارم بما تم إعلانه وقبّلوا الصليب تأمينا وتأكيدا على ذلك. ولكن بمجرد انتهاء المؤتمر قام أحد الأمراء وهو دافيد إيغوريفيتش، بإذن من سفياتوبولك الثاني، بخطف الأمير فاسيلكو التيريبوفلسكي على أراضي كييف وأمر بسلب بصره. لم يسمع شيء من هذا القبيل في روس حتى ذلك الحين. أغضب هذا الحادث كل شخص سمع به، ولكن مع ذلك بقي سفياتوبولك الأمير المعظم، وفقط في ١١٠٠ تم "نفي" دافيد ليحكم في بوجسك. لكن ماذا عن موقف الكنيسة الأرثوذكسية؟ أدانت بالطبع هذا العمل من وجهة النظر المسيحية، لكن ليس أكثر من ذلك. فلم يكن هناك وحدة في الكنيسة أيضا. كما نتذكر، فإن "البيزنطيين"، الذين شكلوا الدائرة المحيطة بالمطران، كانوا في حالة عداء مع المجتمع الرهباني لدير "بيتشيرسك لافرا" في كييف.

ولعل هذا مثال يوضح تعقيد العلاقات بين فصائل الكنيسة والأمير المعظم وأصدقائه الغربيين. ففي هذا الدير تروى قصة عن راهب اسمه يفستراتي بيع رقيقا في شبه جزيرة القرم إلى تاجر يهودي. وطلب هذا اليهودي من الراهب الخروج من المسيحية وقام بتعذيبه، ولما لم يتمكن من كسر عزيمة راهب بمثل يفستراتي تعود الصوم والجوع، قام اليهودي بصلبه. توفي الراهب وسرت شائعة ما جرى في جميع أنحاء شبه جزيرة القرم ووصلت إلى القسطنطينية. لم يغفر الجريمة إمبراطور بيزنطة "أليكسي كومنين" (أليكسوس الأول كومنين) ففتك بالجالية اليهودية في شبه جزيرة القرم.

بالطبع، لم يكن أخوة دير لافرا جاهلين بما يفعله التاجر اليهودي مع الراهب الذي خرج من ديرهم. ومع ذلك لم يمنع هذا الإخوة من أن يكون لهم وللمرابين اليهود راعي واحد وهو الأمير سفياتوبولك الثاني. ليس من قبيل الصدفة أنه في مخطوطة "سير السنوات الماضية"، التي كتبها "نستور" في هذا الدير، سكت مؤلف المخطوطة عن ذكر العديد من صفات سفياتوبوبك السيئة إرضاء لحامي الدير وراعيه. فقد أعرب

نِستور – المؤرخ الأول في الأرض الروسية – عن امتعاضه من سفياتوبولك بحذر شديد، مشيرا فقط إلى أن سفياتوبوبك صادر صناعات الملح من الرهبان، والتي كانت واحدة من أكثر الصناعات ربحية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، على الرغم من أن الرهبان عانوا أكثر من مرة بسبب سياسة سفياتوبوبك.
يشير نِستور نفسه إلى أنه في مايو ١٠٩٥ قام الخان الكوماني بويانك الذي كان حليفا لأمراء تشرنيغوف وخصما لسفياتوبوبك بالإغارة على كييف. واستولى الكومان على دير كييف- بيتشيرسك لافرا، وقاموا بأعمال السلب والنهب وقتل الرهبان. وكالعادة قام الرجل بنقل كل من أسروه في كييف إلى شبه جزيرة القرم وبيعه لتجار الرقيق المحليين.

(٦) درجة من درجات بلوغ مرحلة القداسة يمنحها البابا لمن أتى بالمعجزات من الصالحين (المترجم).

(٧) ولكن التعامل مع النزاع على أنه خلاف عائلي أمر خاطئ. في الواقع، وفقا لسلوك ذلك الوقت، كتب المؤرخون في هذا الصدد من قبيل: "ذهب الأمير"، "قرر الأمير"، " أنجز الأمير"، بغض النظر عما إذا كان الأمير عمره ست سنوات أو ثلاثة وثلاثين سنة أو في الثمانين من العمر. من الواضح أنه لا يمكن وصف الأمر على هذا النحو. وكما ذكرنا من قبل، فإن الجماعات العسكرية السياسية التي وقفت وراء الأمراء كانت تتصارع أيضا فيما بينها تعبيرا عن مصالح مختلف أراضي الدولة الروسية المنهارة. هذه العملية، التي أطلقتها قرارات مؤتمر ليوبيتش للأمراء (١٠٩٧) أصبحت بعد ٧٠ سنة حتمية ولا يمكن وقفها أو تلافيها، وأضحت دولة كييف مع بداية القرن الثالث عشر مقسمة إلى عدة دول مستقلة.

القسم الثاني

الإمبراطورية المغولية

أحداث ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر



الفصل الأول

ميلاد الإمبراطورية المغولية..السهوب العظمى

- السهوب الآسيوية
- جنكيز خان
- جنكيز يبني دولته

يعتبر القرن الثالث عشر، بلا شك، أكثر القرون تعقيدا في التاريخ الروسي. فلم تخلق أي حقبة أخرى أساطير تاريخية أكثر من حقبة القرن الأخير من عمر دولة روس الكييفية. وهناك أسباب وجيهة لذلك: فالتكوين العرقي لروس، دخل في نهاية القرن الثاني عشر في مرحلة الأفول والغموض. ولو كان الأمر قد اقتصر على تطور النظام العرقي دون عائق، لكنا في هذه الحالة سنسجل زيادة في النزعات التدميرية غير أن التكوين العرقي لروس الكييفية تعقد بسبب الاتصالات العرقية مع ممثلي مجموعات عرقية مختلفة تمامًا: "المغول" و"العالم المسيحي".

قدمنا وصفا لتاريخ أوروبا الغربية بتفاصيل مسهبة، وهو ما لا نستطيع قوله عن تاريخ المغول. ومع ذلك، من دون ارتحالنا في تاريخ المغول، لن نفهم التصادمات الروسية التي وقعت، ليس فقط في القرن الثالث عشر، ولكن أيضًا في القرون اللاحقة. لذلك، سنترك أوروبا لبعض الوقت، ونتحرك إلى أقصى الشرق إلى ذلك الشعب الذي لعب دورًا حاسمًا في تاريخ أوراسيا.

السهوب الآسيوية

الأرض

في وسط القارة الأوراسية تمتد السهوب (السهول العشبية) العظمى، تحدها من الشمال غابات "التايجا" في سيبيريا، ومن الجنوب السلاسل الجبلية.

عند جبال ألطاي وساور وتارباغاتي وتيان شان الغربية تنقسم تلك السلاسل بدورها إلى قسمين:

– قسم شرقي تسمى فيه هذه السهوب بـ "آسيا الداخلية" ويضم منغوليا ودزونغاريا وتركستان الشرقية. وتنفصل آسيا الداخلية عن سيبيريا بواسطة جبال سايان وسلسلة خمار– دابان ويابلونوفي، وعن التبت بواسطة جبال كونلون ونانشان، وعن الصين بواسطة سور الصين العظيم الذي يتوافق تمامًا مع الحدود بين السهوب الجافة والمناطق شبه المدارية في شمال البلاد.

– أما الجزء الغربي من السهول الكبرى فلا يشمل فقط كازاخستان الحالية، ولكن أيضًا سهوب منطقة البحر الأسود. وفي بعض الفترات غطت السهول الكبرى جزءا من أراضي المجر، وهو ما يعرف باسم بوشتو.

من وجهة نظر الجغرافيا تعتبر السهول العظمى بأكملها بمثابة منطقة واحدة ذات حدود دقيقة، على الرغم من أن الاختلافات المناخية بين قسميها الشرقي والغربي.

فمن الناحية المناخية تعجز المنخفضات الجوية القادمة من المحيط الأطلسي عن حمل الأمطار سوى إلى الحاجز الجبلي الذي يفصل السهول الشرقية عن الغربية. وفوق منغوليا هناك دائمًا إعصار عكسي ضخم (منطقة ضغط جوي مرتفع). هواؤه جاف وشفاف تمر فيه أشعة الشمس بسهولة وتسخن سطح الأرض.

في فصل الشتاء يهطل القليل من الثلوج هنا وتستطيع الحيوانات العاشبة عن طريق خدش هذه الثلوج الحصول على العشب. في الربيع ترفع الطبقات السفلى من الهواء درجة حرارة التربة، وهذه ترتفع بدورها إلى الأعلى. يغزو الهواء الجاف القادم من سيبيريا طبقة السطح الشاغرة هذه في

الشمال، وفي الجنوب الهواء الرطب القادم من المحيط الهادئ. هذه الرطوبة تكفي لتتحول السهوب إلى اللون الأخضر وتوفر بذلك لذوات الحوافر الطعام طوال العام. وحيث تكون الحيوانات والماشية ممتلئة بالشبع يصيب الازدهار الناس. ولهذا السبب تحديدا تشكلت في شرق السهول الكبرى الظروف المواتية لنشأة الدول البدوية العظمى القوية للهون والأتراك والمغول.



يبلغ سُمك الغطاء الثلجي في غرب السهول ٣٠ سم، وعلاوة على ذلك تتكون خلال فترة ذوبان الثلج قشرة ثلجية سميكة، وهنا كانت تموت الماشية من الجوع. ولهذا السبب يضطر الرعاة إلى نقل الماشية إلى المراعي الجبلية في الصيف، وإلى تجميع القش والتبن استعدادا لفصل الشتاء. ولنتذكر هنا أن الكومان (البولوفتسي) الذين كانوا يقطنون في منطقة البحر الأسود كانت لديهم أكواخ ثابتة ودائمة لقضاء فصل الشتاء، وبالتالي كانوا في علاقة اعتمادية على الأمراء الروس القدامى، وذلك لأنهم كانوا مقيدين في الحركة، لم يستطيعوا تجنب هجمات القوات النظامية. ومن ثم كان هناك في الجزء

الغربي من السهول الكبرى نمط حياة مختلف لهذه الشعوب وظروف وشروط أخرى لحصول أهل السهوب على الاستقلال، مقارنة بساكني الجزء الشرقي.

لكن لا يوجد شيء دائم في العالم. في بعض الأحيان تغير الأعاصير والرياح الموسمية اتجاه حركتها ولا تمر فوق السهوب، بل فوق غابات التايجا أو حتى حشائش التندرا الجليدية. ثم يتسع حد افتقار الرطوبة فيشمل صحاري غوبي ودالا بيتباك، ويدفع النباتات والحيوانات إلى الشمال إلى سيبيريا، وإلى الجنوب إلى الصين كما يدفعهم خلف الحشائش اللازمة للماشية والحيوانات التي يتم اصطيادها. كان الناس في هذه الظروف يرحلون ليعيشوا في السهول الكبرى. خلال تلك الحقب تحديدا، حين يصيب الجفاف السهوب العظيمة، تصبح اتصالات البدو بالسكان المستقرين في الصين أمرا حتميا.

الشعوب والقبائل

أطلق المؤرخون الصينيون، عندما كانوا يصفون الشعوب التي تعيش في شمال الصين في السهوب العظيمة على جميع سكان السهوب اسما واحدا: "التتار"، تماما مثلما نطلق نحن في روسيا مصطلح "الأوروبيين" عندما نصف بهذه الكلمة كل من السويديين والإسبان. غير أنه، في الواقع، فإن اسم "التتار" هو اسم لقبيلة واحدة فقط من العديد من قبائل السهوب.

التتار أنفسهم كانوا مقسمين إلى ثلاثة فروع: "البيض" و"السود" و"الوحشيين":

- عاش التتار "البيض" الأونغوت على طول حدود السهوب الكبرى وخضعوا لإمبراطورية منشوريا. كانوا يحرسون البلاد ويتقاضون رواتبهم

مقابل ذلك. لذلك كان لديهم ملابس حريرية لزوجاتهم وأوانٍ صينية وأدوات أجنبية أخرى.

- احتل التتار "السود" السهوب المفتوحة شمال صحراء غوبي وخضعوا لخاناتهم واحتقروا التتار "البيض" الذين باعوا حريتهم واستقلالهم مقابل خرقات من الحرير وبعض الأشياء. أما هم فقد قاموا بتربية الماشية، التي كانت تطعمهم وتلبسهم، بينما كانوا يصنعون من جلودها الملابس، التي تسمى الآن معاطف جلد الغنم. ومع ذلك، فإن التتار "السود" كانوا يحظون بازدراء لا يقل عن ذلك من جانب التتار "المتوحشين".

- سكن "التتار المتوحشون" الأراضي الواقعة إلى الشمال. حتى أبسط أساسيات الدولة كانت غائبة عن التتار "المتوحشيين"، لم يكن لديهم سلطان سوى للأكبر سنا في العشيرة، وإذا أصبح الخضوع يمثل عبئا، كان دائما بإمكان الأصغر سنا الانفصال. كان اقتصاد التتار "المتوحشين" قائمًا على الصيد البري وصيد الأسماك، وذلك أنهم وضعوا حريتهم فوق أي شيء آخر في العالم. فمثلا بالنسبة لفتاة من التتار "المتوحشين" كان زواجها من أحد التتار "السود"، الذي قد يجبرها على حلب الأبقار أو رعي الأغنام، بمثابة عار ومهانة.

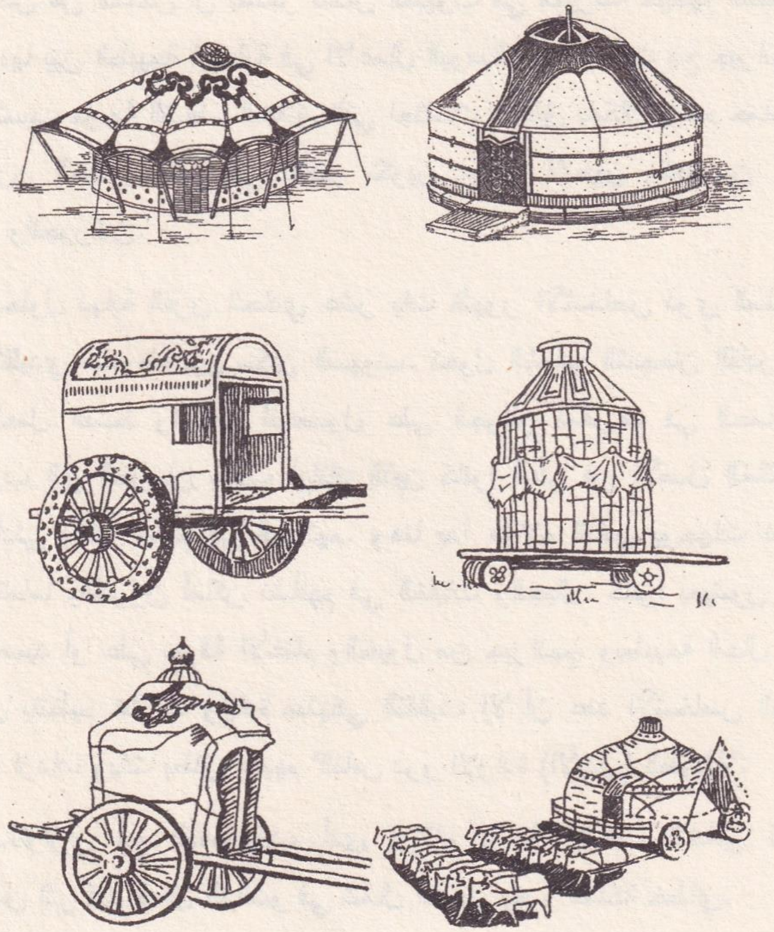
وهنا نرى إنه كانت لدى قبائل السهوب المختلفة قوالب وأنماط مختلفة من السلوك. فالموقف من السلطة أو القرابة أو الطبيعة كان يميز بينهم.

نأتي إلى المغول. كان المغول شعبا من الشعوب الصغيرة في السهول الكبرى، وكانوا يقطنون في المناطق الحدودية المحاذية للتتار "السود" و"الوحشيين" في خلف القطاع الشرقي من بحيرة بايكال.

كان المغول يعتبرون أنفسهم مخلوقين من اثنين من الحيوانات: الأب هو الذئب الرمادي (واسمه لديهم بورتي تشينو) والأم من الأيل المرقط (واسمها لديهم ألان غوا). وبحلول القرنين الحادي عشر والثاني عشر كان يقطن في مناطق الغابات السهوبية الواقعة إلى الشمال من نهر أونون عدد من العشائر المنغولية التي انضم إليها السكان الأصليون المجاورون.

ومن الشعوب الأخرى في هذه المنطقة كان الكيرايت الذين ارتحلوا على طول نهري سيلينغا في الجزء الأوسط من منغوليا. وكان الكيرايت يخضعون لحكم الخانات، وهو لقب يعني الأشخاص المحترمين الذين حصلوا على المناصب المناسبة اعتمادا على شعبيتهم بين الناس. لم يكن الكيرايت يعيشون في مجمعات عائلية تضم من اثنتين إلى ثلاث خيام، ولكن في شكل تكتلات أكبر، عندما كان يتم نصب العديد من الخيام معا، وتكون محاطة بالعربات ويحرسها الجنود، لأن الكيرايت كانوا دائما يتحسبون من الهجوم. خلافا للشعوب المجاورة اعتنق الكيرايت المسيحية النسطورية في عام ١٠٠٩ ومنذ ذلك الحين أصبحوا شعبًا متدينا للغاية.

إلى الغرب من بدو الكيرايت الرعويين عند سفوح ألطاي كانت تقطن قبيلة نايمان (وتعني كلمة "نايمان" باللغة المنغولية "ثمانية"، وهذا هو عدد العشائر التي تضمها هذه القبيلة). كان النايمان من نسل شعب الخطاي، وأطاح بهم الجورتشين (سكان منشوريا) من معاقلهم السابقة. وكانت شواطئ بحيرة بايكال إلى الشرق من مدينة إيركوتسك الحالية تقطنها قبيلة المركيت الشجاعة والمحاربة، بينما استقرت قبائل أويرات في سايانو ألطاي. كانت جميع قبائل السهول الكبرى غالبا ما تتنازع فيما بينها، ولكن هذه الصراعات كانت تحمل طابع الاشتباكات الحدودية.



اتسمت حياة البدو بنوع من الكفاية، ولكنها كانت قاسية، والأهم أنها كانت بلا أفق أو طموحات. فليس بإمكان أحد أن يشغل أي من المناصب العليا إلا بحكم المولد، وهو أمر صعب للغاية، وقد حدث أن حصل طفل يبلغ من العمر عامين على الحق في أن يصبح خان وأن يكون له لقب نيون (أمير) وهي فرصة لم تكن تمنح لشيخ حكيم أو مغوار شجاع.

كان من الممكن أن يستمر سكان السهوب في ممارسة حياتهم المعتادة ويقضونها بين الطبيعة المحلية في الأعمال اليومية والاشتباكات مع جيرانهم، لو لم تتسبب موجة الشغف الخلاق التي اجتاحت مناطق بايكال بزخم حماسي في القرن الحادي عشر في تفجير تكوين عرقي لشعبين متحاربين هما المغول والجورشن.

بحلول نهاية القرن الحادي عشر بات ظهور الأشخاص ذوي السلوك غير التقليدي ملحوظا بين سكان السهوب. تحول الشباب الشجعان القادرون على العمل النشط والسعي للحصول على الجوائز لمآثرهم في الحملات والحروب إلى الحرمان بسبب أولئك الذين كانوا أعلى في الأصل العائلي، ولكن أدنى بكثير منهم في قدراتهم. وهنا بدأ هؤلاء الناس بوجهات نظر جديدة تماما يغادرون أماكن نشأتهم في الغابات والجبال. كانوا يعيشون إما على الصيد أو على سرقة الأغنام والخيول من جيرانهم. وبطبيعة الحال قام الجيران بتنظيم غارات وإبادة منتهكي التقاليد، إلا أن عدد الأشخاص الذين غادروا ازداد، وبات يطلق عليهم "الناس ذوو الإرادة (الأيدي) الطويلة".

بالتوازي مع المنغوليين، أدى ارتقاء نزعة الشغف الخلاق لدى الجورشن إلى قيام قبائل المانشو في شمال الصين بغزو مملكة خطاي.

تجدر الإشارة إلى أن المغول والمانشو كانوا أعداء على الدوام، ويتجلى ذلك في صورة الغارات والمواجهات التي نشبت بينهم. ولكن مع نمو إمكانات الطاقة الخلاقة لهذين الشعبين تغيرت طبيعة المواجهة بينهما.

ولكن قبل أن نعيد الأمر إلى فكرة الطاقة الخلاقة دعونا نستعيد التبرير الأسطوري لازدياد حدة النزاع المعروف بين المغول والمانشو:

"تنبأ أحد العرافين لخان المانشو "بوغد خان" -إمبراطور شمال الصين - أن شعبه سيهلك على يد المغول الرحّل. فشن الإمبراطور حملة عليهم وبدأ بإرسال الفصائل العسكرية إلى مخيماتهم بشكل منتظم كل عام للحيلولة دون تقوية مواقعهم، وهناك قام جنوده بقتل الرجال وإبادتهم وأسر النساء والأطفال وإحضارهم إلى الصين وبيعهم عبيدا. كان الصينيون يشترون الأسرى لاستعمالهم في المزارع. وتمكن بعض المغول من الفرار. وهؤلاء بطبيعة الحال لم ينسوا الجرائم التي ارتكبت ضدهم، وسكنت فكرة الانتقام في عقولهم ودمائهم".

عندما اتخذت غارات المانشو المستمرة طابعا مخيفا، أدرك المغول ضرورة الحاجة إلى التوحد. فانتظمت قبائلهم معا وانتخبت لها خانا، وحمل أول خان مغولي اسم "خابول خان". حكم خابول خان في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثاني عشر وتمكن من وقف هجمات المانشو. جرى ذلك في ذات الوقت الذي اضطر فيه الصينيون - بعدما عانوا من هزيمة ساحقة على يد الجورشن - إلى التنازل للمغول عن أراضٍ كبيرة. تمكن المغول من هزيمة الجورشن وأجبروهم على سحب القوات بعيداً عن الحدود المغولية.

غير أنه بعد فترة قصيرة من وفاة خابول خان (١١٤٩م) انهار التحالف القبلي المغولي، حيث إن السكان الذين شكلوا الأغلبية، لم يستطيعوا تحمل فكرة أن يكونوا خاضعين لـــ "ذوي الإرادة الطويلة" ولم يقدموا لهم سوى القليل من الدعم. فضل السكان الاستمرار في الترحال، بخيم الأيل في الشمال، حيث كانت المناطق آمنة، وعبر الأكواخ في الجنوب، حيث كانوا تحت تهديد التتار والجورشن.

على خلاف ذلك، قويت الإمبراطورية المنشورية للغاية خلال هذه الفترة. استخدم الجورشن في القتال ضد سكان السهوب طريقة ماكرة وقاسية،

كانوا يقومون بخطف القادة المغول الموهوبين ويعرضونهم للموت المؤلم، كانوا يقومون بتثبيتهم بالمسامير على حمار خشبي وتركهم عرضة للشمس الجنوبية الحارقة. كان الرجل يموت موتا بطيئا في عذاب فظيع.

في نفس هذه السنوات استمرت الخلافات في قبيلة الكيرايت. كان الوريث الشرعي المدعو طغرل قد تعرض للخيانة وقام أعداء والده بتسليمه إلى الميركيت (الميرغيد). تمكن والده من تحريره، ولكن التتار خطفوا طغرل. وتمكن من الهرب من التتار واستولى على السلطة المستحقة له، لكن المعارضة في قبيلة الكيرايت كانت قوية جدا، لأن الأقارب الأقوياء الأشداء للخان الشاب أعاقوا الوحدة بكل السبل معتمدين على خيامهم. فاضطر طغرل إلى الفرار من بلده بين الحين والآخر. في الوقت نفسه دخل النايمان، الذين كانوا يقطنون في غرب منغوليا، في تحالف مع المعارضة الكيراتية ومع منشوريا.

بدا أن شعوب السهوب العظمى لم تكن لتوحد قواتها أبدا للتصدى للعدو. وبدا لو أن مستقبل سكان السهوب هو الأكثر قتامة على الإطلاق.

جنكيز خان

الميلاد

في منتصف القرن الثاني عشر بعد هلاك العديد من الخانات المغول، كان الدفاع المغولي ضد الجورشن وحلفائهم التتار يقوده حفيد خابول خان يسوغي باغاتور (بهادور)، (وكلمة باغاتور تعني "البطل الشجاع"). كان ياجوغي- باغاتور رجلاً شجاعًا وصاحب عزم وحزم، ولكنه لم يكن خانًا،

بل كان رئيسًا لأسرة بورجيقن التي كانت تقطن المنطقة الواقعة شمال الحدود الروسية المنغولية الحديثة، حيث تقع الآن مدينة نيرشينسك.

ذات مرة عندما خرج يسوغي، الذي كان لا يزال شابًا صغيرا، يصطاد في السهوب بصقر رأى فجأة أحد الميركيتيين يحمل فتاة ذات جمال استثنائي في عربة يقودها حصان قوي وجيد. فنادى يسوغي على إخوته، وهرع المغول في السعي وراء الفريسة. عند رؤيتها لهؤلاء المتطفلين بكت الفتاة بمرارة وخاطبت خطيبها الميركيتي: "أنت ترى هؤلاء الناس، سيقتلونك، اتركني وأهرب وأنا سأذكرك إلى الأبد". ثم خلعت قميصها وأعطته له. كان المغول يقتربون بالفعل، فسارع هذا الرجل الميركيتي وركب حصانه بسرعة وأحرق جلده بضربة من السوط وفر من المطاردة. وقام الإخوة المغول بجر العربة بخيولهم وقالوا للفتاة: "انسي خطيبك، إن يسوغي يعيش بدون امرأة"، وسلموها يسوغي. وكانت زوجة يسوغي هذه، والتي خلد التاريخ اسمها، تدعى هويلون.

كان الزواج سعيدا وفي عام ١١٦٢م وضعت هويلون ولدها البكر تيموجين، ثم أنجبت بعد ذلك ثلاثة أبناء آخرين، هم قسار وقاجيون بكي وتيموجي، وابنة اسمها تيمولون (تيمولين). ومن زوجته الثانية (كان المغول يسمحون، بل ويشجعون تعدد الزيجات) سوشهيل، كان ليسوغي ولدان آخران هما بختير وبيلغوتي.

سنوات الصبا

عندما شب تيموجين وبلغ عمره تسع سنوات كان عليه وفقا للعرف المنغولي أن يخطب فتاة. رتب الأب مسألة خطبة تيموجين مع والدي فتاة جميلة تبلغ من العمر عشر سنوات اسمها بورته من قبيلة أونجيرات

المجاورة وأخذ ابنه إلى مقر صهره المستقبلي. وانطلق يسوغي في طريق العودة تاركا تيموجين لدى هونكيرات، حتى يعتاد على العروس وأقاربه المستقبليين. في الطريق رأى جمعًا من الناس يلتفون في جلسة حول نار موقدة فوجهوا له – كما جرت العادة في السهوب – الدعوة لمشاركتهم الطعام. وعندما اقترب يسوغي منهم أكثر حينها فقط أدرك أنهم التتار. كان من غير المجدي أن يركض، لأن التتار سوف يطاردونه، وكان حصان يسوغي متعبا. فضلا عن ذلك وفقا لتقاليد السهوب لا يجوز لأحد مس الضيف بالقرب من نار التخييم في المخيم.

لم يكن لدى يسوغي أي خيار سوى قبول الدعوة، وبعد أن أكل غادر المكان بأمان. لكن في الطريق شعر يسوغي بتعب، فاستنتج أنه قد تم تسميمه. وفي اليوم الرابع من وصلوه إلى داره وافته المنية بعد أن أوصى أقاربه بالانتقام من التتار. من الصعب القول إلى أي مدى كان يسوغي محقا في شكوكه، ولكن المهم هو شيء آخر، فقد افترض بأن التتار قد يكونوا سمموه، وهذا يعني أنه وقع انتهاك للتقاليد وخرق لعادات سكان السهوب لم يسمع به من قبل.

صعوبات قاسية

ذهب رفاق الأب لإحضار تيموجين وعادوا بالولد إلى الديار. وبوصفه الابن البكر أصبح رئيسًا للعشيرة، وهنا اتضح أن كامل قوة القبيلة كانت تعتمد على وتُستمد من إرادة وطاقة يسوغي. فمن خلال سلطته وهيبته كان يُجبر الناس على الخروج في الحملات والغزوات، وللدفاع عن أنفسهم ضد العدو، ولنسيان المصادمات والمشاحنات المحلية من أجل القضية المشتركة.

لكن بما أن يسوغي لم يكن خانًا، فقد انتهى نفوذه بموته. لم يكن على رجال القبائل أية التزامات تجاه عائلة يسوغي وغادروا بورجيقن ساحبين معهم كل الماشية، ما كان من شأنه أن يودي أساسًا بعائلة يسوغي إلى الموت جوعا، فالابن الأكبر تيموجين كان عمره تسع سنوات فقط، والباقون كانوا أصغر سنا منه.

كان المبادرون بمثل هذه القسوة هم تايجوتي، وهي قبيلة معادية ليسوغي. حينها انتزعت هايلون راية يسوغي وانطلقت على الحصان خلف المغادرين ووبختهم قائلة: "عار عليكم، ألا تخجلون من ترك أسرة زعيمكم!" عاد بعضهم، لكنهم ما لبثوا أن غادروا مرة أخرى، ووقعت كل صعوبات تربية الأطفال والحصول على الطعام للأسرة على أكتاف امرأتين هما هايلون وسوشهيل زوجتا يسوغي الأولى والثانية. كانتا تصطدان المرموط والسنجاب للحصول على بعض اللحم على الأقل، وكانتا تجمعان الثوم البري. وكان تيموجين يذهب إلى النهر ليحاول صيد الأسماك بالسهام. فهو مثل كل المغول، كان يعرف كيف يطلق السهام في الماء، على الرغم من حقيقة أن الضوء ينكسر في الماء ويحرف الصورة، ومن هنا يكون من الصعب للغاية إصابة الهدف. حتى في الصيف كانت الأسرى تعيش نصف جوعى، محاولة جمع مخزون للشتاء.

في هذه الأثناء واصل رجال القبائل الذين أهانوا وتخلوا عن عائلة يسوغي مراقبتها، حيث كانوا يخشون من الانتقام الذي يستحقونه. وعلى ما يبدو نجحوا في تحويل ابن سوشهل البكر بختير عينا لهم على الأسرة. وبختير الذي بات يشعر بالسلطة التي تسنده من ورائه بدأ يتصرف بسلوك خشن تجاه أبناء هايلون.

لم يتحمل تيموجين وقسار بلطجة أخيهما ورمياه بسهم فأردياه قتيلا.

وبحلول هذا الوقت كانت تشكلت الشخصيات بالكامل وتحددت ميول أطفال يسوغي. كان قسار شابا شجاعًا وقويًا ورامي سهام ممتاز. تيموجي أصبح ابنا لطيفا ومطيعا اعتنى بوالدته وزوجة أبيه الثانية. بينما قاجيون بكي فلم يكن يتمتع بأي فضائل. أما تيموجين فقد لاحظ كل من الأصدقاء والأعداء قدرته على التحمل والإرادة والعناد والمثابرة لتحقيق الهدف. بالطبع كل هذه الصفات أخافت أعداء بورجيقن، وبالتالي هاجم ألطايجيوت خيمة عائلة يسوغي، فتمكّن تيموجين من الهرب إلى غابة التايجا الكثيفة التي بحسب ما يقول المصدر المغولي لم يكن بها ولو حتى مسارات يمكن أن "يزحف عليها ثعبان شبعان".

وبعد تسعة أيام اضطر تيموجين المعذب جوعا للاستسلام. فخرج إلى السهوب، حيث تم أسره وجلبه إلى المخيم. لكن ما الذي دفعهم لتقصي أثره ومحاولة اصطياده؟ نعم، من الواضح أن السبب مقتل بختير، جاسوس قبيلة تايجوت. لم يقتل ألطايجوت تيموجين. فقد تمكّن تارجوتاي كيرلتوخ صديق يسوغي من إنقاذ الشاب من الموت، لكن ليس من العقاب. وضعوا الرداء الخشبي على تيموجين وهو عبارة عن لوحين من الخشب بهما ثقب في منطقة الرقبة، وكان يعلق اللوحان على بعضهما البعض. كان هذا النوع من العقاب عقابًا مؤلمًا، إذ لم يكن لدى الرجل أي فرصة لتناول الطعام والشراب أو حتى طرد الذبابة التي كانت تجلس على وجهه. بالإضافة إلى ذلك، كان عليه أن يمسك اللوحين الخشبيين طول الوقت بيديه حتى لا يعصرا رقبته.

تحمل تيموجين ظاهريا كل شيء دون شكوى تماما. ولكن ذات مرة خلال عيد اكتمال القمر، نظمت قبيلة تايجوت حفلة خمر كبيرة وسكر،

وتركوا الأسير تحت حراسة شاب ضعيف، لم يقدموا له شراب أرخي (حليب الفودكا). استغل تيموجين اللحظة وضرب الرجل على رأسه بالكتلة الخشبية المحمولة على جسده وهرب بعيدا حاملا الألواح بيديه. لكن لم يكن باستطاعته الركض بعيدا، فوصل تيموجين إلى ساحل نهر أونون ورقد في الماء. صاح الحارس بعدما أفاق: "لقد هرب السجين!"، وهنا هرع حشد السكارى من ألطايجوت كلهم في حالة سكر للبحث عن الهارب. كان القمر ساطعا سطوعا براقا، وكان كل شيء مكشوف كما في فترة الظهيرة. أدرك تيموجين فجأة أن رجلاً كان يقف فوقه وينظر في عينيه. كان هذا الرجل هو سورجان- شيرا من قبيلة سولدوس، والذي كان يعيش في معسكر ألطايجوت، حيث كان يعمل بصنعته وهي صنع مشروب الكوميس. فقال لتيموجين: "لهذا السبب لا يحبونك، لأنك ذكي جدًا. لا تخف لن أسلمك لهم".

عاد سورجان شيرا للمتقصين أثر تيموجين وعرض عليهم البحث عنه مرة أخرى. من السهل طبعا أن نفهم أنه لم يتم الإمساك بالأسير الهارب. أراد ألطايجورت الذين كانوا في حالة سكر أن يناموا، وبعد أن قرروا أن الرجل المقيد في الألواح الخشبية لن يستطيع الذهاب بعيدا توقفوا عن البحث. ثم خرج تيموجين من الماء وذهب إلى منقذه. سورجان- شيرا بمجرد رؤية أن الرجل المأسور يزحف إلى خيمته شعر بخوف شديد وأراد طرد تيموجن بعيدا، ولكن احتج أبناء سورجان-شيرا وقالوا لأبيهم: "لا، ماذا دهاك يا أبت. عندما يدفع حيوان مفترس الطيور إلى داخل الغابة الكثيفة، فإن الغابة حتى تنقذها. لا يمكننا طرده، لأنه ضيف". أزالوا الألواح الخشبية (الطوق الخشبي) من على كاهل تيموجين، وقاموا بتقطيع الألواح ورميها في النار. لم يبق أمام سورجان- شيرا سوى مخرج واحد فقط وهو إنقاذ تيموجين،

وبالتالي أعطاه حصانًا وقوسًا وسهمين، ولكنه لم يعطه قداحة النار وحجر الصوان. وذلك لأنه بعد كل شيء، كانت الخيول ترعى في السهوب، وكان القوس يعلق على الأفاريز العلوية لباب اليورتا (الخيمة)، وكان من السهل سرقة كل ذلك، أما حجر الصوان والقداحة فكان كل رجل من سكان السهوب يحملها معه. وإذا وقع تيموجين من جديد في الأسر وعثر بحوزته على القداحة أو حجر الصوان الخاص بسورجان-شيرا، فإن عائلة هذا المنقذ وهو نفسه كانت ستواجه أوقاتًا سيئة عصيبة.

ركب تيموجين الحصان وفر بعيدا وبعد فترة وجد عائلته. ارتحلت عشيرة بورجيقن على الفور إلى مكان آخر، ولم يعد بإمكان ألطايجورت العثور عليها. يظهر هذا الظرف أن بيختير كان جاسوسا حقًا، فبعد موته لم يكن هناك أحد لإبلاغ العدو بأماكن انتقال وارتحال البورجيقيين. ثم تزوج تيموجين من خطيبته بورته. فقد وفيَّ والدها بكلمته وتم الزفاف. وكانت هدية الزواج من والدي بورته عبارة عن معطف من فرو السمور الفاخر. وأخذ تيموجين عروسه بورته إلى داره ... ثم قام "بمصادرة" معطف الفراء الثمين على الفور. كان تيموجين يدرك أنه من دون دعم لا يمكنه أن يقاوم الأعداء الكثر، وبالتالي سرعان ما توجه إلى أقوى قادة السهوب آنذاك واسمه فان خان من قبيلة كيرايت. كان فان خان في وقت ما صديقًا لوالد تيموجين، وتمكن تيموجين من الحصول على دعم فان خان، مذكرًا إياه بهذه الصداقة ومقدما له هدية فاخرة، وهي معطف الفرو الخاص ببورته.

لكن لم يكد تيموجين الفرح والمنتشي بالنجاح الذي حققه يعود إلى داره حتى وجد أن مخيم بورجيقن قد تعرض لهجوم جديد. جاء الهجوم هذه المرة من قبل الميركيت، مما أجبر العائلة على الفرار إلى جبل برخان خلدون. ولم يكن ما حدث من دون خسارة، فقد وقعت بورته والزوجة الثانية يسوغي

سوشهيل في الأسر. وأصيب تيموجين بعد أن فقد زوجته المحبوبة بحالة من اليأس، ولكن ليس متحيرًا أو مرتبكا. فقد سارع البورجيقن إلى جاموقا (جاموخا) ساتيه الذي كانت تربطه بتيموجين علاقة أخوة في قبيلة جاجديرات وإلى فان خان الكيرايتي. وقاد جاموقا القوات المشتركة، وذلك لكونه كان قائدا موهوبا.

الصراع القبلي وبزوغ جنكيز

وفي أواخر خريف عام ١١٨٠، عندما بدأ أول هطول للثلوج، انهمر محاربو جاموقا وتيموجين فجأة على مخيمات ميركيت البدوية الواقعة شرق بايكال. هرب الأعداء على الفور. أراد تيموجين العثور على بورته ونادى باسمها. سمعت بورته وجرت هاربة من بين حشد من النساء وأمسكت بركاب حصان زوجها. أما سوشهيل فذهبت مع الخاطفين. يبدو أنها بدأت تؤدي نفس مهمة التجسس التي كان يقوم بها ابنها بيختير، إذ لم يكن هناك أحد سواها يمكن أن يطلع الميركيت على أماكن رعي معسكر البورجيقن وكيف يمكن تنظيم الهجوم عليهم. لم تعد سوشهيل، وعبثا طالب ابنها بلجيتي الطيب، الذي كان يحب والدته كثيرا، طالب من الميركيت أن يردوها إليه.

تجدر الإشارة هنا إلى أنه على الرغم من أن بيلغوتي كان ابنا لخائنة وشقيقا لخائن، فإن تيموجين لعلمه أن بلغيوتي نفسه كان رجلا مخلصا كان يقدره وأحبه دائما وكان يعتبره أقرب أقربائه. هذا بالطبع يبرز صفات غير سيئة في الشخص الذي حاول المؤرخون أن يصنعوا منه وحشا! عند قراءة ما كتبه المعاصرون حول تيموجين من الضروري أن نتذكر أن الأشخاص الذين كتبوا عنه كانوا حانقين عليه للغاية. لكن حتى الشيطان (إبليس) في

الشعر المسلم يقول: "هم يصورونني في دورات المياه بشعا، لأن فرشاة الرسم في يد عدوي".

رفعت الغزوة على الميركيت إلى حد كبير من سلطة وشهرة تيموجين، لكن ليس بين جميع سكان السهوب، بل بين صفوف الجزء ذي الطاقة الخلاقة، ونعني هنا "الناس ذوي الإرادة الطويلة". ورأى المحاربون الفرادى أنه من المنطقي دعم ابن يسوغي المبادر الشجاع، حتى لو كان في ذلك مخاطرة بالحياة. وبدأت هذه العملية، التي أطلقها عن غير قصد خان الكيرات وزعيم الجاجيراتيين. بدأ رجال السهوب الفرادى بالتجمع حول تيموجين. وفي عام ١١٨٢ كانوا هم من اختاروه خانا ومنحوه لقب "جانكيز".

كلمة "جنكيز" نفسها ليست واضحة المعنى. يرى د. بانزافوف الباحث البورياتي أن هذا هو اسم أحد الأرواح الشامانية. يعتقد آخرون أن هذا اللقب مشتق من كلمة "جينغيهو" بمعنى "يعانق"، وبناء عليه، يصبح جانكيز لقب للرجل الذي لديهِ السلطة الكاملة. على أي حال، أنشأ المغول نظامًا جديدًا للحكم. من الصعب أن نصف مبدأه بالملكي، لأن الخان لم يكن مطلقا مستبدا متفردا بالحكم، بل على العكس لم يكن باستطاعته أن يتجاهل النويون، أي رؤساء القبائل الذين انضموا إليه وأبطالهم الشجعان. وهكذا قيد الجيش بشكل موثوق سلطة وإرادة الخان.

لم ينص نظام الدولة على حق الميراث، رغم أنه فيما بعد كان هناك خان جديد يتم انتخابه فقط من نسل جانكيز. لكن هذا لم يكن قانونًا، بل تعبيرًا عن إرادة المغول أنفسهم، احتراما لجنكيز خان وخدماته للشعب، لم يروا أي سبب لرفض وراثة العرش لأحفاده. بالإضافة إلى ذلك، كان المغول يؤمنون ويعتقدون في الطبيعة الفطرية للمزايا البشرية والعيوب. لذا اعتبروا الميل

إلى الخيانة سمة وراثية لا يمكن فصلها مثل لون العينين أو الشعر، وبالتالي كانوا يقومون بقتل الخونة بلا رحمة مع كامل أقاربهم.

جنكيز يصبح خانًا

جاء انتخابه خانا مفاجأة بالنسبة لتيموجين، فكل المرشحين الآخرين للعرش من بين أحفاد خابول خان رفضوا ببساطة هذا المنصب المرهق. وقد قوبل خبر انتخاب تيموجين خانا بطرق مختلفة في السهوب. فمثلا فان خان كان سعيدًا جدًا بهذا التحول في دفة الأمور، أما زعيم الجاجيرات جاموقا فتلقى نبأ ترقي أخيه بامتعاض. ونظر جاموقا إلى مقتل شقيقه تاتشار كخطيئة، والذي قتل بينما كان يحاول طرد القطيع من ممتلكات جانكيز. تحت ذريعة الانتقام توجه جاموقا على رأس جيش من ثلاثين ألفًا لمواجهة جانكيز. وبعد عدم تحقيقه نجاحا حاسما في هزيمة العدو، اكتفى زعيم الجاجيرات بالقتل الانتقامي القاسي للأسرى وتراجع.

تجلت مظاهر القسوة غير المعتادة هذه بالنسبة لسكان السهوب الناس أفقدت جاموقا شعبية. فارتحلت اثنتان من القبائل الأكبر والأكثر كفاءة وهما أورتي ومانجوت للانضمام إلى جانكيز. في الاحتفال الذي أقيم ابتهاجا بالتخلص من جاموقا، أمسك شقيق جنكيز خان بيلغوتي باللص الذي سرق اللجام والمقود. فوقف البوغاتر بوري-بوكو من قبيلة جورشن (يوركي) دفاعا عن اللص. فاندلع عراك انتهي نهاية سيئة للجورشن. وعندما شن جانكيز حملة جديدة ضد التتار، فإن الجورشن لم يأتوا للمساعدة متذكرين ذاك الشجار، لكنهم توجهوا إلى الخيام المغولية، حيث العزل فسرقوا ونهبوا فيها وقتلوا عشرات من الرجال الضعفاء. بعد عودته من الحملة قرر جانكيز

معاقبة قبيلة جورشن، فأباد مخيماتهم وأمر بإعدام قادة القبيلة، ثم تم إدراج الجنود الناجين إلى جيش خان المغول.

تبقى تفاصيل ما حدث بعد ذلك (١١٨٥-١١٩٧) غير معروفة بدقة تامة، لكن الثغرة في هذه المعرفة التاريخية يمكن ملئها بمساعدة بيانات الكتاب الثمين (مين-دا بي-لو) (التاريخ السري للمغول). يخبرنا الكتاب بأن تيموجين وقع فى الأسر لدى المنشوريين وأمضى ١١ عامًا في السجن. ثم هرب بطريقة ما وعاد إلى السهوب.

الآن كان على جانكيز أن يبدأ من جديد، من بين ١٣ ألف فارس بقي أقل من ثلاثة آلاف. لم يخسر المغول فقط كل المزايا التي اكتسبوها في عهد جنكيز خان، ولكنهم أيضا تشاجروا واختلفوا مع بعضهم البعض. حتى قسار ترك أخاه وذهب يخدم خان الكيرات.

جنكيز بين قانون "ياسا"

ولكن في ١١٩٨ أصبح تيموجين من جديد على رأس قبيلة قوية. والسؤال هو: ما الذي سمح له باستعادة ما تمت خسارته بهذه السرعة؟ من المحتمل أن يكون السبب هو زيادة تأثير الشغف الخلاق للمغول مرة أخرى. فقد ازداد عدد "ذوي الإرادة الطويلة"، كما نمت رغبتهم في بناء وتنظيم حياتهم على طريقتهم الخاصة. وبالتالي فقد كانوا بحاجة إلى قائد يأمرهم بالقيام بما أرادوا القيام به. فقد كان منافسو جانكيز وهم النويان (الزعماء) ألتان وهوتشار وسيتشي بيك، كانوا يحلمون بالنظام القديم القائم على أساس التعسف والظلم والحق في القبح وعدم الوفاء للالتزامات. أما أنصار جانكيز

فأرادوا نظاما صارمًا وضمانات المساعدة المتبادلة واحترام حقوقهم. بعد فهمه التام لطموحات أتباعه وضع جنكيز خان مجموعة جديدة من القوانين، أطلق عليها قانون "ياسا" العظيم. لم يكن ياسا على الإطلاق تعديلاً للقانون العرفي، بل كان يستند إلى الالتزام بالمساعدة المتبادلة، ونظام واحد للجميع وإدانة للخيانة دون أي تنازلات.

وهكذا، كان ياسا جنكيز خان في الواقع هو تنظيم لتلك الصور النمطية السلوكية الجديدة التي كان يدافع عنها "الناس أصحاب الإرادة القوية". لم تعرف الممارسة المغولية شيئًا من هذا القبيل سابقا. وهكذا، وفقا لقانون ياسا العظيم، فإن كل خائن، ويقصد به الشخص الذي خدع أولئك الذين وثقوا به، كان يحكم عليه بالموت. وكان في هذا الإطار يتم قطع رأس الأشخاص العاديين، أما الشخصيات ذوات الأصول العالية فكان يكسر عمودهم الفقري، بحيث يبقى الدم في جسم الضحية. في هذه الحالة وفقا للاعتقاد المغولي كان يمكن للميت أن يولد من جديد لحياة جديدة. أما إذا تدفق الدم على الأرض، فإن هذا يعني أن الشخص لم يفقد الحياة فحسب، بل الروح أيضا.

وبالمثل تم اعتماد عقوبة الإعدام على عدم تقديم المساعدة إلى الرفيق. على سبيل المثال، كان يجب على كل مغولي إذا التقى ابن قبيلته في الصحراء (!) دعوته للشرب وتناول الطعام. فعابر السبيل الذي لم يكن قادرا على إيجاد ما يتقوى به ويصلب طوله كان مهددا بالموت، وفي هذه الحالة كانت تقع تهمة القتل على منتهك القانون. وإذا فقد أحد المحاربين قوسًا أو جعبة من السهام، فإن الشخص الذي كان يسير خلفه بحصانه كان عليه أن يرفعها ويعيدها إليه. وكان انتهاك هذه القاعدة مساويًا أيضًا لعدم تقديم المساعدة وينطوي على عقوبة الإعدام.

كانت عقوبة الموت عقابًا على القتل وعلى زنا الرجال وخيانة الزوجة والسرقة والسلب والنهب وشراء الأشياء المسروقة وإخفاء العبد الهارب والسحر المقصود به إلحاق الضرر بالقريب أو الجار وعدم إرجاع الدين ثلاثة أضعاف. أما العقوبة بالنسبة للجرائم الأقل خطورة، فكانت متمثلة في النفي إلى سيبيريا أو بغرامة.

لقد كان قانون ياسا انتهاكا لم يسبق له مثيل للعادات القبلية، كان بمثابة علامة على انتهاء فترة (الحضَّانة) الكامنة في تكوين العرقية المغولية والانتقال إلى فترة صريحة من مرحلة الصعود بواجب وضرورة أخلاقية جديدة مفادها: "كن كما يجب أن تكون!". لقد وفر مبدأ الدعم ولمساعدة المتبادلة الذي نص عليه القانون للطاقة العرقية الخلاقة لأنصار جانكيز خان الفرصة لتنسيق الجهود. غير أنه مع ذلك، فإن معظم المغول فضلوا بعناد الأشكال التقليدية للحياة القبلية، وليس حياة القبيلة المحاربة.

كان الميركيت والنايمان والتتار والجورشن وأويراتي لا يزالون أعداء المغول، في حين لم يكن الحليف الوحيد هم الكيرات بقيادة فان خان يعتمد عليه بشكل خالص. وكان على "أصحاب الإرادة الطويلة" كما كان الأمر في السابق الدفاع عن أنفسهم من أجل ضمان الحياة. لكن الآن زيادة معدلات الطاقة كانت تملي عليهم السعي لتحقيق الانتصارات، لأنه في تلك الأيام كان النصر على الأعداء فقط قادرًا على إنقاذ الناس من التهديد المستمر. وبدأت الحرب من أجل النصر. وهنا أصبح دخول المغول إلى ساحة التاريخ العسكري السياسي العالمي بمثابة نقطة تحول في وجود القارة الأوراسية بأكملها.

جنكيز خان يبني دولته



في مطلع القرن الثالث عشر، تحديدا في عامي ١٢٠٢/١٢٠٣ وهو العام الحاسم بالنسبة للوضع برمته في السهوب، هزم المغول أولاً ميركيت، ثم كيرايت. وتكمن المسألة في أن قبيلة كيرايت كانت مقسمة إلى أنصار جنكيز خان وخصومه. كان على رأس معارضي جنكيز خان ابن فان خان، الوريث الشرعي للعرش واسمه نيلخا (وكان هذا الاسم لدى الكيرايت المسيحيين النسطوريين يوافق اسم إيليا).

وكان لدى نيلخا الأسباب لكره جنكيز خان، ففي ذلك الوقت الذي كان فيه فان خان حليفاً لـــجنكيز، حيث رأى زعيم كيرايت مواهب الأخير التي لا يمكن إنكارها، أراد أن يعطيه عرش كيرايت متجاوزًا ابنه. وقد وقع تصادم هذا الجزء من الكرايت مع المغول حتى خلال حياة فان خان. وعلى الرغم من أن كيرايت كانوا متفوقين من حيث العدد، فإن المغول هزموهم لأنهم أظهروا قدرة استثنائية على الحركة وأخذوا العدو على حين غرة.

خريطة الصراع

في أثناء الصدام مع الكيرايت ظهرت ملامح شخصية جنكيز خان بشكل كامل. عندما هرب فان خان وابنه نيلخا من ساحة المعركة، عطل أحد

قوادهم بفصيلة صغيرة تقدم المغول لينقذ بذلك زعماء القبيلة. فتم أسر هذا القائد (نويان) وجلب أمام أعين جانكيز، فسأله: "لماذا لم تقم أيها النويان مع رؤيتك لوضع قواتك بالفرار كالبقية؟ كان لديك أيضا الوقت والفرصة لذلك"، فأجاب: "لقد فعلت ذلك خدمة للخان وأعطيته بذلك فرصة للهرب، أما رأسي فهي لك، أيها المنتصر". فرد جنكيز خان قائلا: "على الجميع أن يأخذوا القدوة من هذا الرجل. انظر كم هو شجاع ومخلص وباسل. لا أستطيع أن أقتلك يا نويان، بل أقدِّم لك مكاناً في جيشي". وأصبح نويان قائدا لفرقة من ألف جندي، وبطبيعة الحال خدم جنكيز خان بأمانة، لأن قبيلة كرايت كانت قد انهارت. لقد قتل فان خان نفسه بطريقة سخيفة، فبينما كان يحاول الفرار إلى النايمان، بمجرد أن رأى الحراس على حدودهم زعيم الكرايت قاموا بدون تفكير بقتله وجلبوا رأس الرجل العجوز إلى خانهم.

في عام ١٢٠٤ وقع الصدام المحتوم بين مغول جنكيز خان وخانية النايمان القوية، وهي القبيلة التي كانت تضم سكانا مختلطين يتألفون من النايمان المغول والأتراك الذين انضموا إليهم. ومرة أخرى كان النصر حليف مغول جنكيز. قتل خان النايمان، وفر ابنه كوشلوك (غوشلوك) إلى رفاقه من رجال قبيلة خطاي. وكالعادة دخل المهزومون ضمن قبيلة جنكيز.

في السهوب الشرقية لم تكن هناك قبائل أخرى قادرة على مقاومة النظام الجديد بشكل فعال، وفي عام ١٢٠٦ في مؤتمر كورولتاي العظيم انتخب جانكيز من جديد كخان، ولكن هذه المرة لمنغوليا بأكملها. وهكذا ولدت الدولة المغولية. بقيت القبيلة الوحيدة التي تمثل العدو الوحيد لها هم الأعداء القدماء لقبيلة بورجيقن أي المركيت، ولكن بحلول عام ١٢٠٨ تم طردهم إلى وادي نهر إرجيز.

لقد سمح الشغف الخلاق المتنامي لقبيلة جنكيز خان باستيعاب القبائل والشعوب المختلفة بسهولة تامة. لأنه، وفقا للصور النمطية المغولية للسلوك، كان يجب على الخان أن يطلب السمع والطاعة لأوامره والوفاء بالواجبات، ولكن كان يعتبر شيئا غبيا وغير أخلاقي أيضا المطالبة بأن يتخلى الشخص عن عقيدته أو عاداته. وجذب هذا النظام الكثيرين. في عام ١٢٠٩ أرسلت دولة الأويغور المستقلة سفراء إلى جانكيز خان تطلب قبولها ضمن دولته (أولوس). وبالطبع تم تلبية طلبهم، ومنح جنكيز خان امتيازات تجارية ضخمة للأويغور. ومر طريق القوافل عبر دولة الأويغور، وأصبح الأويغور الذين يشكلون جزءًا من الدولة المغولية أثرياء على حساب بيعهم المياه والفواكه واللحوم "والملذات" لرجال القوافل الجوعى بأسعار مرتفعة.

واتضح أن الاتحاد الطوعي للأويغور مع منغوليا مفيد للمغول أيضًا. أولا، اقتبس شعب السهوب الذين لم تكن لديهم أبجديتهم الخاصة الأبجدية الأويغورية. (من المثير للاهتمام، أن أول من محيت أميته في دولة المغول كان ولدا تتاريا يتيما اسمه شيخي خوتخو كانت تراعاه وتربيه والدة الخان هايلون) ثانيا، مع انضمام دولة الأويغور تجاوز المغول حدود نطاقهم العرقي واتصلوا مع شعوب أخرى.

في عام ١٢١٠ اندلعت حرب ثقيلة مع الجورشن. كان الجيش المغولي برئاسة جنكيز خان وأبنائه جوجي شاغاتاي وأوجيدي والقائد جيبي. لم يكن قادة الجورشن العسكريون أدنى في المواهب من المغول، لكن لم يكن لديهم قوات مثل قوات جنكيز خان. هُزِم الجورشن، لكنهم قاتلوا بعناد، واستمرت الحرب لفترة طويلة جدا وانتهت في عام ١٢٣٤ فقط بعد وفاة جنكيز خان مع الاستيلاء على آخر معاقل إمبراطورية كين-كايفنغ وتسي زو.

في كايفنغ مات الجورشن الذي كانوا يقاومون بيأس بسبب الجوع. كانوا ضعفاء لدرجة أنهم لم يستطيعوا حتى حمل السلاح في أيديهم. عندما عرض عليهم الاستسلام قال المحاربون: "مادام هناك فئران في الحصن نمسك بها ونأكلها، وإذا لم تكن موجودة عندها لدينا زوجات وأطفال سنأكلهم، لكننا لن نستسلم". هذه كانت طاقة الجورشن الخلاقة التي لم تكن أقل شأنا من المغولية.

الصدام مع خوارزم

في عام ١٢١٦ أنزل المغول هزيمة ساحقة ببقايا ميركيت على نهر إرجيز، لكنهم تعرضوا للهجوم من قبل الخوارزميين.

من الضروري قول المزيد عن خوارزم. تبين أن خوارزم كانت أقوى الدول التي ظهرت في القرن الثاني عشر، عندما دب الضعف في الدولة السلجوقية[١] أصبح حكام خوارزم من ولاة حاكم أورغينش حكامًا مستقلين وأخذوا لأنفسهم لقب "خوارزم شاه". كانوا نشيطين ومغامرين وحكاما محاربين. هذا سمح لخورزمشاه بغزو معظم آسيا الوسطى. حتى إنهم قاموا بغزو جنوب أفغانستان، موحدين بذلك إيران وبلاد ما وراء النهر[٢] تحت حكمهم. وأنشأوا دولة ضخمة، حيث كانت القوة العسكرية الرئيسية بها يشكلها الأتراك من السهوب المجاورة: البچناك والقارلوق.

ولكن تبين أن هذه الدولة هشة على الرغم من وفرة الثروة المادية والمحاربين الشجعان والعلماء ذوي الخبرة الذين يخدمون كدبلوماسيين. لقد استند نظام الدكتاتورية العسكرية إلى قبائل غريبة عن السكان المحليين كان

لها لغة مختلفة وعادات وأخلاق مختلفة. لا يمكن القول إن الديانات كانت مختلفة أيضًا، لأن فكرة الدين بين الجنود الأتراك كانت غير متبلورة بشكل تام. لكن المرتزقة كانوا يعرفون كيف يتصرفون على نحو مشين! فأزعجوا سكان سمرقند وبخارى ومرو، بل كان هناك عدد كبير من مدن آسيا الوسطى، حيث لم يكن بإمكان السكان تحمل تعسف الغيلان. فقد أدى التمرد في سمرقند على سبيل المثال إلى حقيقة أن الحامية التركية دمرت بالكامل، وكان السكان المحليون يمزقون الأتراك إلى أشلاء. وبطبيعة الحال أعقب ذلك عملية عقابية للخوارزميين الذين قمعوا الانتفاضة وقتّلوا بوحشية سكان سمرقند. كما تضررت مدن أخرى كبيرة وغنية في آسيا الوسطى.

في هذه الحالة قرر الخوارزم شاه محمد تأكيد لقبه "الغازي"، أي "قاهر الكفار"، وأن يعزز شهرته بانتصار آخر عليهم. فتوفرت له الفرصة لذلك في نفس العام ١٢١٦، عندما وصل المغول الذين قاتلوا ضد الميركيت إلى نهر إرجيز. عند معرفته بنبأ وصول المغول أرسل محمد جيشًا ليقاتلهم فقط لأن هؤلاء السهوبيين لم يؤمنوا بالله.

هاجم الجيش الخوارزمي المغول، لكن في خلال المعركة انتقل المغول أنفسهم للهجوم وضربوا الخوارزميين بشدة. ولولا هجوم الجناح الأيسر بقيادة ابن خوارزم شاه القائد الموهوب جلال الدين لما تحسن الوضع. ثم تراجع الخوارزميون وعاد المغول إلى وطنهم، فهم لم يكونوا يعتزمون القتال مع خوارزم، بل على العكس أراد جنكيز خان تحسين العلاقات مع خوارزم شاه. فقد كان طريق القوافل العظيم يمر عبر آسيا الوسطى وجميع حكام الأراضي التي كانت على الطريق تنامت ثرواتها بسبب الرسوم التي يدفعها التجار. والتجار كانوا يدفعون أية رسوم برضى وطواعية، لأنهم كانوا بأي حال

يحملون هذه التكاليف دائما على المستهلكين. ولرغبتهم في الحفاظ على جميع المزايا المرتبطة بطريق القوافل سعى المغول إلى إحلال الراحة والسلام على حدودهم. كما أن الاختلاف في المعتقدات، في رأيهم، لم يكن من شأنه أن يكون سببا للحرب أو مبررا لسفك الدماء. على الأغلب كان خوارزم شاه نفسه يفهم الاشتباكات التي وقعت على نهر إرجيز على أنها عرضية. ففي عام ١٢١٨م أرسل محمد إلى منغوليا قافلة تجارية، وتم استعادة السلام، وخصوصا أن المغول كانوا مشغولين بأمور أخرى عن خوارزم.

قبل ذلك بقليل، بدأ أمير النايمان كوشلوك حربًا جديدة مع المغول معتمدا على قوة رفاقه من أبناء قبائل كارا تشينا. تحمل كوشلوك هزيمة، لكن ما قضى على الأمير لم يكن الضعف العسكري. فقد كانت قوته كافية لمحاربة الفيلق الصغير الذي أرسله جنكيز خان، لكن كوشلوك اعتنق دينا جديدا، لا تشير المصادر إلى تفاصيل كثيرة عنه. على أي حال، لم يكن هذا الاعتقاد ينتمي لا للإسلام ولا للمسيحية ولا للبوذية، ولكنه كان اعتقادا طائفيا غير مشهور. شيء آخر معروف على وجه اليقين، وهو رفض جميع السكان تقديم الطاعة لكوشلوك. فهرب وقدم دفاعا بطوليا عن نفسه، وتراجع حتى وصل إلى جبال بامير، وهناك لحق به المغول وقتلوه. أما سكان خانية قرة الصينية فخضعوا طواعية بالكامل لجنكيز خان.

للمرة الثانية تضررت علاقات المغول وخوارزم بيد السردار (القادة العسكريين) الأتراك وخوارزم شاه أنفسهم، الذين وافقوا على انتهاكات الضباط. في عام ١٢١٩م اقترب قافلة ثرية قادمة من أراضي جنكيز خان من مدينة أترار الواقعة في أملاك خوارزم شاه. توقف القافلة على ضفة سير داريا وذهب التجار إلى المدينة لشراء المؤن من السوق والاستحمام في

الحمام. التقى التجار باثنين من المعارف، فأبلغ أحد الرجلين حاكم المدينة أن هؤلاء التجار كانوا جواسيس. وهذا الأخير أدرك على الفور أن هناك ذريعة وسببًا ممتازًا لنهب القافلة. فقتل التجار وصودرت الممتلكات. ثم قام حاكم أترار بإرسال نصف المسروقات إلى خوارزم، وقبل محمد الغنائم، ما يعني أنه يتقاسم المسؤولية عن هذا الفعل.

أرسل جنكيز خان السفراء لمعرفة سبب وقوع مثل هذا الحادث الغريب. كان محمد غاضبًا عندما رأى الكفار، وأمر بقتل بعض السفراء، وبتجريد البعض الآخر من الملابس وطردهم إلى الموت المحقق في السهوب. لكنَّ اثنين أو ثلاثة من المغول تمكنوا من العودة إلى ديارهم وأخبروا بما حدث. كان غضب جنكيز خان لا حدود له. فمن وجهة النظر المغولية، وقعت أفظع الجرائم: خداع من قدم الثقة وقتل الضيوف. ووفقا لقانون ياسا (ياسق) العظيم، لم يكن بوسع جنكيز خان أن يترك مقتل هؤلاء التجار الذين قتلوا في أترار، ولا هؤلاء السفراء الذين تعرضوا للإهانة والقتل على يد خوارزم شاه دون انتقام. كان على الخان القتال، وإلا فإن رجال القبائل كانوا سيرفضون ببساطة الثقة به.

كان لدى خوارزم شاه في وسط آسيا جيش نظامي يقدر بـــ ٤٠٠ ألف مقاتل. أما مقاتلو المغول، كما أثبت المستشرق الشهير فاسيلي بارتولد، فكان عددهم فقط ٢٠٠ ألف، فطلب جنكيز خان المساعدة العسكرية من جميع الحلفاء.

جاء المحاربون من الأتراك ومن الخطاي، كما أرسل الأويغور فرقة من ٥ آلاف فرد، وحده سفير التانغوت أجاب بجرأة: "إذا كنت تعاني من نقص القوات، لا تقاتل". اعتبر جنكيز خان أن الجواب كان إهانة وقال: "وحده الموت يجعلني أستطيع تحمل مثل هذه الإهانة".

لذلك، قام جنكيز خان بتوجيه القوات المغولية والأويغورية والتركية والخطايية على خوارزم. أما خوارزم شاه فبعد أن تشاجر مع والدته تركان خاتون، لم يعد يثق بالقادة العسكريين الذين تربطهما بها صلة دم وقرابة. وكان خائفا من جمعهم يدًا واحدة من أجل صد هجوم المغول، بل وقام بتفريق الجيش بين الحاميات. كان أفضل قادة الشاه هما ابنه الذي لا يحبه جلال الدين، وقائد حصن خوقند تيمور ملك. استولى المغول على الحصون الواحد تلو الآخر والقلعة تلو الأخرى، بينما في خوقند، فعلى الرغم من استيلائهم على الحصن، لم يتمكنوا من أسر الحامية. فقد ركب تيمور ملك محاربيه على الأطواف وأبحر متخفيا على طول نهر سير داريا الواسع من الملاحقة. ولم تتمكن الحاميات المفرقة من صد هجوم قوات جنكيز خان. وسرعان ما استولى المغول على جميع المدن الرئيسية في السلطنة وهي سمرقند وبخارى ومرو وهرات.

فيما يتعلق باستيلاء المغول على مدن آسيا الوسطى هناك رواية راسخة مفادها: "البدو الرحل المتوحشون دمروا الواحات الثقافية للشعوب الزراعية المستقرة". لقد بنيت هذه الرواية على الأساطير التي أنشأها مؤرخو البلاط الإسلامي. على سبيل المثال، ذكر المؤرخون الإسلاميون عن أن سقوط هرات كانت كارثة، حيث تم القضاء على جميع السكان في المدينة، باستثناء عدد قليل من الرجال الذين تمكنوا من الاحتماء بأحد المساجد. وكانوا يختبئون هناك خائفين من النزول إلى الشوارع المليئة بالجثث. ووحدها الحيوانات البرية جابت المدينة وأكلت جثث الموتى. وبعد أن مكثوا لبعض الوقت وثابوا إلى رشدهم، ذهب هؤلاء "الأبطال" إلى البلاد البعيدة لسرقة القوافل بهدف استعادة ثرواتهم المفقودة.

هذا هو مثال أنموذجي لصناعة الأسطورة، لأنه إذا كان قد تم القضاء على جميع سكان مدينة كبيرة ورقدت الجثث في الشوارع، لكان الهواء داخل المدينة، لا سيما في المسجد سيتلوث بسموم الجثث، ولمات أولئك الذين يختبئون هناك ببساطة. كما أنه لا تعيش أي حيوانات مفترسة، باستثناء ابن آوى، بالقرب من المدينة، وهي نادرًا ما تتوغل داخل المدينة. فضلا عن ذلك، فإن مسألة انطلاق الرجال المنهكين للتحرك لسرقة القوافل على بعد بضع مئات من الكيلومترات من هرات كان ببساطة أمرًا مستحيلاً، وذلك لأنهم سيضطرون إلى السير على الأقدام حاملين معهم الماء والطعام. و"قاطع طريق" كهذا إذا التقى بقافلة، لم يكن قادرًا على سرقتها، لأنه بالكاد كانت قواه ستكفيه لطلب المياه.

الأكثر إثارة من ذلك المعلومات التي نقلها المؤرخون حول مرو. فقد استولى المغول عليها في عام ١٢١٩م، وزعم أيضًا أنهم قتلوا جميع السكان هناك حتى آخر رجل. ولكن في عام ١٢٢٠م تمردت مرو، واضطر المغول لإعادة احتلالها من جديد. وأخيرا، وبعد ذلك بعامين شكلت مرو قوة مكونة من عشرة آلاف رجل لمحاربة المغول.

لقد ولّدت ثمار الخيال العاطفي، التي أخذت وقبلت حرفيًا، ولدت الأسطورة الشريرة "السوداء" عن الفظائع الوحشية للمغول. لكن إذا أخذنا في الاعتبار درجة موثوقية المصادر إذا سألنا أسئلة بسيطة ولكنها ضرورية، فمن السهل فصل الحقيقة التاريخية عن القصص الأدبية.

لقد استولى المغول على بلاد فارس دون قتال تقريبا، حيث طردوا ابن خوارزم شاه جلال الدين إلى شمال الهند. محمد الثاني غازي نفسه، المكسور بسبب الصراع والهزائم الدائمة، توفي في مستعمرة لمرضى الجذام على جزيرة في بحر قزوين (١٢٢١م).

كما عقد المغول سلاما مع السكان الشيعة في إيران، والذين كان الحكام السنة يسيئون إليهم بشكل مستمر، ولا سيما خليفة بغداد وجلال الدين نفسه. نتيجة لذلك، عانى السكان الشيعة في بلاد فارس أقل بكثير من السنّة في آسيا الوسطى. على كل حال انتهى في ١٢٢١م الكيان الخوارزمي ودولة خوارزم شاه من الوجود. ففي ظل حاكم واحد، وهو محمد الثاني غازي، وصلت هذه الدولة إلى أوج مجدها وقوتها ومعه أيضا انهارت وسقطت. وبالمحصلة تم ضم خوارزم وشمال إيران وخراسان للإمبراطورية المغولية.

في عام ١٢٢٦م دقت ساعة دولة التانجوت التي رفضت في خضم الحرب الحاسمة مع خوارزم مساعدة جانكيز. نظر المغول إلى هذه الخطوة على أنها خيانة، تستوجب، بحسب قانون الياسا، الانتقام. في الوقت الحالي أراضي دولة التانجوت، وهي عبارة عن سهوب وهضاب متاخمة لمنحنى النهر الأصفر وسلسلة جبال نانشان، هي صحراء حقيقية. لكن في القرن الثالث عشر، كانت على هذه الأرض هناك دولة غنية بها مدن كبيرة ومناجم ذهب وجيش نظامي وثقافة أصلية. كانت عاصمة التانجوت هي مدينة جونج سيونج، وقد حاصرها جنكيز خان في عام ١٢٢٧م، بعد أن هزم قوات التانجوت في المعارك السابقة.

وفاة جنكيز خان

خلال حصار مدينة جونج سيونج، توفي جنكيز خان، ولكن أمراء المغول، بأمر من زعيمهم أخفوا نبأ موته. وسقط الحصن في أيديهم وتعرض سكان المدينة "الشريرة" الذين وقع عليهم ذنب جماعي للخيانة إلى القتل. اختفت دولة التانجوت تاركة وراءها أدلة مكتوبة فقط عن الثقافة العالية

السابقة، ولكن المدينة نجت واستمرت على قيد الحياة حتى عام ١٤٠٥م عندما دمرتها أسرة مينغ الصينية.

نقل المغول من عاصمة التانجوت جسد خانهم العظيم إلى سهولهم المحلية. كانت مراسم الجنازة على النحو التالي: أنزلوا جثمان جنكيز خان ومعه العديد من الأشياء القيمة في القبر المحفور، ثم تم قتل جميع العبيد الذين نفذوا أعمال الجنازة. ووفقا للعرف بعد مرور عام واحد بالضبط كان يجب إجراء حفل تأبين. ولكيلا يخطئوا مكان الدفن، قام المغول بما يلي، قاموا بالتضحية على القبر بجمل صغير أخذوه لتوه من أمه. وبعد عام وجدت الناقة الأم بنفسها في السهوب اللامحدودة المكان الذي قتل فيه ولدها. فأخذوا هذه الناقة، وبعد ذلك قام المغول بطقوس حفل التأبين، ثم غادروا القبر إلى الأبد. وإلى الآن لا يعرف أحد أين دفن جنكيز خان.

ورثة جنكيز خان

في السنوات الأخيرة من حياته كان جنكيز خان قلقًا للغاية بشأن مصير دولته. كان لدى الخان أربعة أبناء من زوجته المحبوبة بورته وكثير من الأطفال من الزوجات الأخريات، الذين رغم اعتبارهم أطفالا شرعيين لم يكن لديهم الحق في شغل مكان الأب. اختلف أبناء بورته بشكل كبير في ميولهم وشخصيتهم. الابن الأكبر جوجي كان قد ولد بعد فترة قصيرة من وقوع بورته في الأسر لدى الميركيت، وبالتالي ليس فقط "الألسنة الشريرة"، بل وشقيقه الأصغر شغطاي كان يصفه بـــ "منحط الميركيت". على الرغم من أن بورته كانت دائمًا تدافع عن جوجي، وجنكيز خان نفسه كان دائمًا يعترف بأنه ابنه، فإن حقيقة الأسر الميركيتي لأمه ألقت على جوجي ظلالاً من الشك

في كونه غير شرعي. فذات مرة، وفي حضور والده ، سب شقطاي أخاه جوجي علنا، وكادت المسألة أن تفضي إلى عراك بين الإخوة.

كانت هناك بعض الصور والقوالب النمطية المستمرة في سلوك جوجي التي ميزته بشكل كبير من جانكيز. فإذا كان مفهوم الرحمة للأعداء لا وجود له في قاموس جنكيز خان (كان يعفو فقط عن الأطفال الصغار، الذين كانت تتبناهم والدته هايلون، وكذلك الباغاتور (الشجعان) الباسلين الذين كانوا يقبلون الخدمة في جيش المغول)، فإن جوجي كان يتميز بالإنسانية والطيبة. فمثلا، أثناء حصار جرجان طلب من الخوارزميين الذين كانت الحرب قد أنهكتهم تماما قبول الاستسلام، أي بكل بساطة، رحمة بهم. أيد جوجي تفضيل إظهار الرحمة، لكن جنكيز خان رفض بشكل قاطع طلبه لرحمتهم، ونتيجة لذلك تم تقتيل جزء من حامية جرجان، وغمرت المياه المدينة نفسها بمياه أمو داريا. ومما يؤسف له أن سوء التفاهم بين الأب والابن البكر، والذي كانت تغذيه باستمرار المؤامرات وتشويه السمعة التي حاكها الأقارب، تعمّق في نهاية المطاف وتحول إلى انعدام ثقة الملك في وريثه.

كان جنكيز خان يشك في أن جوجي يريد أن يكتسب شعبية بين الشعوب التي تم غزوها وأن ينفصل عن منغوليا. لم يكن الأمر كذلك، لكن الحقيقة تبقى أنه في بداية عام ١٢٢٧م تم العثور على جوجي الذي كان قد خرج للصد في السهوب مقتولا، نتيجة كسر في العمود الفقري. التفاصيل المخيفة للحادث غير معروفة، ولكن دون أدنى شك، كان الأب هو الشخص الوحيد المهتم بموت جوجي والقادر على وضع نقطة النهاية في حياة ابن الخان.

وعلى النقيض من جوجي، كان الابن الثاني لجنكيز خان شقطاي رجلاً صارمًا متنفذا، بل وحشيًا. لذلك أعطيت له وظيفة "حارس الياسا" (شيء قريب من النائب العام أو القاضي الأعلى). امتثل شقطاي للقانون بشكل صارم تماما وكان يتعامل مع منتهكيه دون أي رحمة.

تميز الابن الثالث للخان العظيم أوقطاي مثل جوجي بلطفه وتسامحه تجاه الناس. لكن الميزة الأبرز لأوقطاي كانت شغفه بالصيد في السهوب والشرب مع الأصدقاء. يتضح الفارق في السلوك بين أوقطاي وشقطاي في المثال التالي. ذات مرة في رحلة مشتركة رأى الأخوان مسلما يغتسل في الماء. ووفقاً للعادات الإسلامية، فإن جميع المؤمنين يجب عليهم أداء الصلاة والوضوء عدة مرات في اليوم. على النقيض من ذلك، كانت التقاليد المغولية تحظر أن يغتسل الإنسان في أي مكان خلال فصل الصيف بأكمله. فقد كان المغول يعتقدون أن الاغتسال في نهر أو بحيرة يتسبب في عاصفة رعدية، وكانت العواصف الرعدية في السهوب خطرة للغاية بالنسبة للمسافرين، وبالتالي كان ينظر إلى "التسبب في استدعاء" عاصفة رعدية كمحاولة اعتداء على حياة أشخاص آخرين. فقام جنود شقطاي القاسي المتعصب للقانون بالإمساك بالمسلم. وبتوقعه للخاتمة الدموية – فقد كان هذا البائس مهددًا بقطع رأسه– أرسل أوقطاي رجلا تابعا له لكي يأمر هذا المسلم بأن يقول إنه أسقط قطعة ذهب في الماء وكان فقط يبحث عنها هناك. فقال المسلم لشقطاي هذا بالفعل، فأمره شقطاي بالبحث عن قطعة الذهب، وخلال هذا الوقت ألقى أحد جنود أوقطاي قطعة من الذهب في الماء. وعادت قطعة الذهب بعد ذلك إلى مالكها "الشرعي". عند الفراق، قام أوقطاي بأخذ حفنة من النقود الذهبية من جيبه وأعطاها إلى الشخص الذي كان قد أنقذه وقال له: "في المرة القادمة التي تسقط فيها قطعة الذهب في الماء، لا تنزل وراءها، لا تخالف القانون".

وُلد تولوي الابن الأصغر لجنكيز خان حسبما يشير المؤرخ الصيني في عام ١١٩٣م، كما نعرف من كتاب التاريخ السري للمغول، فإن جنكيز خان كان في الأسر لدى الجورشن حتى عام ١١٩٧م، وهذه المرة كانت خيانة بورته واضحة تماما، لكن جنكيز خان اعترف بتولوي هو الآخر ابنا شرعيا له، على الرغم من أن تولوي من ناحية الشكل لم يكن يشبه عائلة بورجيقن. فقد كان جميع البورجيقيين يتميزون بعيونهم الخضراء أو المائلة إلى الزرقة، والتي وصفها المؤرخون الصينيون بأنها "زجاجية"، وكان لونهم فاتحًا وشعرهم يميل إلى الحمرة، أما تولوي فكان شكله منغوليا عاديًا، شعره أسود وعيونه سوداء داكنة.

من بين أبناء جنكيز خان الأربعة كان الأصغر يملك أعظم المواهب وأظهر أعظم الكرامة والشرف الأخلاقي. كان تولوي قائدًا عسكريا جيدًا وإداريا ألمعيًا، كما ظل زوجًا محبوبًا ونبيلاً. فقد تزوج من ابنة زعيم الكرايت المقتول فان خان، والتي كانت مسيحية متدينة. كان تولوي نفسه لا يحق له اعتناق الدين المسيحي، وذلك لكونه جنكيزيا كان عليه أن يعتنق ديانة أسلافه وكانت تسمى بون[٣]. لكن ابن الخان لم يسمح لزوجته فقط بأداء جميع الطقوس المسيحية في خيمة "كنيسة" فخمة، ولكن أيضا سمح بأن يكون لديها كهنة وأن تستقبل الرهبان.

يمكن اعتبار وفاة تولوي بطولية دون أي مبالغة. عندما مرض أوقطاي، شرب تولوي بإرادته جرعة قوية من شراب الشامان في محاولة "لجذب" المرض لنفسه ومات وهو يحاول إنقاذ شقيقه.

كان لجميع الأبناء الأربعة الحق في وراثة جنكيز خان. بعد إقصاء جوجي، تبقى ثلاثة ورثة، وعندما مات جنكيز، ولم يكن قد تم انتخاب الخان

الجديد بعد، قام تولوي بحكم القبيلة (الدولة). وفي مؤتمر عام ١٢٢٩ تم اختيار أوقطاي الرقيق اللين والمتسامح خانا أعظم وفقا لإرادة جنكيز. كان أوقطاي، كما ذكرنا سابقاً، يمتلك روحا ونفسا طيبة، لكن طيبة الحاكم في كثير من الأحيان لا تفيد الدولة ورعاياها. كانت إدارة الدولة ضعيفة جدا في ظل حكمه وكانت تسير وتنفذ أساسا بفضل شدة شقطاي والمهارات الدبلوماسية والإدارية لتولوي. في حين أن الخان العظيم نفسه فضل على ذلك اهتماماته بالترحال والصيد وإقامة الاحتفالات في غرب منغوليا.

أما أحفاد جنكيز خان فقد منحت لهم مناطق مختلفة من الدولة لحكمها أو مناصب عليا في الدولة. فقد حصل أوردا خان الابن الأكبر لجوجي على حكم القبيلة البيضاء، التي كانت تقع بين نهر إرتيش وسلسلة جبال تار بجاتاي (منطقة سيميبالاتينسك الحالية). بينما بدأ الابن الثاني باتو خان بامتلاك القبيلة الذهبية (الكبيرة) على نهر الفولغا. أما الابن الثالث شيبان، فقد حاز على القبيلة الزرقاء التي امتدت اراضيها من تيومن إلى آرال. وفي الوقت نفسه، تم تخصص ألف أو ألفين مقاتل مغولي للأشقاء الثلاثة حكام القبائل، بينما بلغ العدد الإجمالي للجيوش المغولية ١٣٠ ألفاً.

كما حصل كل من أبناء شقطاي كذلك على ألف محارب، في حين أن أحفاد تولوي، في ظل وجودهم ضمن الحاشية، قد امتلكوا كل كامل دولة جدهم وأبيهم. وهكذا أنشأ المغول نظامًا للتوريث يسمى "مينورات"، والذي في إطاره كان الابن الأصغر يرث جميع حقوق الأب، والأشقاء الأكبر سنا فقط نصيبا في الميراث المشترك.

كان لدى الخان الأعظم أوقطاي أيضا ابن يدعى جيوك خان، كان يطمح هو أيضا في الميراث. وقد تسببت الزيادة العددية في العشيرة خلال

حياة أبناء جنكيز في تقسيم الميراث وكذلك في صعوبات هائلة في إدارة الدولة التي ترامت أطرافها من البحر الأسود إلى البحر الأصفر. وفي هذه الصعوبات والحسابات العائلية كمنت بذور العداوات المستقبلية التي دمرت الدولة العظيمة التي أنشأها جنكيز خان وأنصاره.

الهوامش

(١) دولة بني سلجوق- هي الدولة التي أنشأها التركمان السلاجقة في القرن التاسع على أراضي خرسان وفارس وكردستان وأرمينيا وآسيا الصغرى. (المترجم)

(٢) ما وراء النهر – هو المصطلح العربي الذي يطلق على المنطقة الواقعة خلف نهر جيحون (آموداريا).

(٣) بون- هي ديانة تيبتية قديمة متفرعة عن الميثرانية. (المترجم)

الفصل الثاني

الصدام المغولي الروسي..معركة نهر كالكا

- ما قبل المواجهة
- حملة المغول الكبرى نحو الغرب
- خضوع الإمارات الروسية
- غزو ألماني سويدي على "روس"
- البحث عن حليف: المغول أم الغرب
- روس توازن بين الشرق والغرب

ما قبل المواجهة

بعدما ألقينا نظرة عامة على تاريخ إنشاء دولة المغول الضخمة، حان الوقت لنعود إلى "روس". ولكن قبل الانتقال إلى قصة العلاقات الروسية المغولية آنذاك، نود تذكير القارئ بروس نفسها في بداية القرن الثالث عشر.

روس في مطلع القرن الثالث عشر

كما سبق وذكرنا، فإنه على النقيض من المغول "الشباب"، انتقلت روس القديمة من مرحلة القصور الذاتي إلى مرحلة الغموض والخفوت. فقد أدى تناقص وانخفاض الطاقة الخلاقة في نهاية المطاف إلى تدمير الجماعة العرقية بوصفها نظامًا موحدًا.

في عام ١١٩٨ أصبح إيغور- ابن سفياتوسلافيتش وحفيد الأمير أوليغ- أميرا على تشرنيغوف، وكان أول ما وضعه نصب عينيه اتخاذ موقف صارم ضد كييف، المدينة التي لطاما تعزز فيه نفوذ خصوم عائلته باستمرار. فعقد اتفاقا مع أمير سمولينسك روريك روستيسلافيتش طالبًا من الكومان المساعدة والدعم. أما الدفاع عن كييف "أم المدائن الروسية" فقد قاده الأمير رومان فولين معتمدا على قوات حلفاءه الترك.

لم تنفذ خطة أمير تشرنيغوف سوى بعد وفاته عام ١٢٠٢م. فقد انتصر روريك أمير سمولينسك وأبناء أوليغ بالتعاون مع الكومان في معركة يناير ١٢٠٣، والتي جرت وقائعها بشكل رئيسي بين الكومان من جهة والترك

المتحالفين مع رومان فولين. وبمجرد سيطرته على كييف أعمل روريك روستيسلافيتش الدمار في المدينة المهزومة. تم تدمير كنيسة الأعشار ودير"كييف بيتشيرسك لافرا"، كما احترقت المدينة نفسها. "لقد صنعوا شرًا عظيمًا، لم تشهده الأرض الروسية منذ المعمودية"، هكذا وصف المؤرخ الوضع في مخطوطته.

بعد عام ١٢٠٣م المصيري لم تتعاف كييف. وتعثرت محاولات إعادة إعمار العاصمة، رغم أنه كان في المدينة بناءون ومعماريون موهوبون، وتجار واسعو الحيلة والدهاء، ورهبان مؤهلون متنورون. على هذا النحو لم يعد في روس ممن يمكن وصفهم بأصحاب الطاقة الخلاقة سوى عدد قليل. ولذلك لم تكن هناك مبادرة، ولم يكن هناك إيقاظ أو إحياء للقدرة على التضحية بالمصالح الشخصية من أجل مصالح الشعب والدولة. في مثل هذه الظروف لم يكن للمواجهة مع خصم قوي إلا أن تصبح مأساويةً بالنسبة للبلد.

الكومان والمغول والروس

في هذه الأثناء اقتربت وحدات التومين العسكرية المغولية التي لا تقهر من الحدود الروسية. كانت الجبهة الغربية للمغول تمر عبر أراضي كازاخستان الحديثة بين نهري إرجيز ويايك وشملت الطرف الجنوبي من سلاسل جبال الأورال. في ذلك الوقت كان الكومان (البولوفتسي) هم العدو الرئيسي للمغول في الغرب.

كانت عداوتهم قد بدأت في عام ١٢١٦ عندما استقبل وآوى الكومان أعداء جنكيز من الميركيت. كما انتهج الكومان سياسة مناهضة للمغول بنشاط كبير، حيث قدموا دعما مستمرا للقبائل الفنلندية الأوغرية المعادية

للمغول. في الوقت نفسه كان الكومان سكان السهول يتنقلون بذات القدر من المناورة وسرعة الحركة مثل المغول أنفسهم. وكان جنكيز خان يفهم جيدا ويعي تماما حقيقة أن الطريق من أونون إلى الدون مساوٍ للمسار من الدون إلى أونون. وبإدراكهم لعدم جدوى المعارك الفرسانية مع الكومان استخدم المغول الطريقة العسكرية التقليدية للبدو، حيث أرسلوا قوة استطلاعية خلف مؤخرة العدو.

قاد القائد الموهوب سوبوتاي ورامي السهام الحاذق جبه نويان فيلقًا مكونًا من ثلاثة تومينات (وحدات عسكرية مكونة من ١٠ آلاف مقاتل) عبر القوقاز (١٢٢٢). حاول القيصر الجورجي جيورجي لاشا مهاجمتهم، لكن تم سحقه هو وجيشه بالكامل. تمكن المغول من أسر عدد من الرجال الذين يعملون كدليلٍ للطريق، والذين بدورهم أرشدوا المغول إلى طريق وادي دريالي (الطريق العسكري الجورجي الحديث). وبهذه الطريقة وصلوا إلى الروافد العليا لنهر كوبان، إلى الخطوط الخلفية للكومان. وهنا اصطدم المغول مع شعب الآلان. بحلول القرن الثالث عشر كان شعب آلان قد فقد بالفعل طاقته الخلاقة، فلم تكن لديهم الرغبة لا في المقاومة، ولا حتى في الوحدة. لقد انشق الشعب فعليًا وانقسم الناس إلى عائلات منفصلة. فقام المغول المنهكون من قطع هذه الرحلة الطويلة بأخذ الطعام من الآلان، وضموا الخيول وغيرها من الماشية إلى قطعانهم. وهرب الآلان وتفرقوا من الرعب والفزع في كل اتجاه. أما الكومان الذين فوجئوا بالعدو في مؤخرتهم فتراجعوا إلى الغرب، واقتربوا من الحدود الروسية وطلبوا المساعدة من الأمراء الروس.

قبل ذلك بقليل وعند حديثنا عن أحداث القرنين الحادي عشر والثاني عشر وصلنا إلى قناعة بأن العلاقات بين روس والكومان لم تتناسب مع

مخطط المواجهة البدائي "المستقر – البدوي". وينطبق الشيء نفسه على بداية القرن الثالث عشر. ففي عام ١٢٢٣ تحالف الأمراء الروس مع الكومان. ثلاثة من أقوى أمراء روس (وهم مستيسلاف أودالوي من غاليتسيا، ومستيسلاف الكييفي ومستيسلاف التشرنيغوفي) قاموا بجمع القوات والسرايا في محاولة للدفاع عن الكومان.

معركة نهر كالكا

لكن المهم في هذا السياق أن المغول لم يكونوا يسعون على الإطلاق إلى الحرب مع روس. فسفراء المغول الذين وصلوا إلى الأمراء الروس نقلوا اقتراحا يقضي بإنهاء الاتحاد الروسي الكوماني وعقد السلام. وقد رفض الأمراء الروس مقترحات السلام المغولية، إذ بقوا مخلصين لالتزاماتهم مع الحليف. ولكن للأسف ارتكب الأمراء خطأ كانت له عواقب وخيمة. فقد قُتل جميع السفراء المغوليين، وبما أنه بموجب قانون الياسا يعتبر خداع الشخص الذي له عهد جريمة لا تغتفر، فمن ثم كان لا يمكن تجنب الحرب وتلافي الانتقام.

غير أن الأمراء الروس لم يكونوا يعرفون أي شيء عن هذا الأمر، وفي الواقع هم بهذا التصرف أجبروا المغول على المعركة. وقعت المعركة على نهر كلكا: في عام ١٢٢٣ هاجم الجيش الروسي/الكوماني المكون من ثمانين ألفا وحدات الجيش المغولي المكونة من عشرين ألفًا فقط. خسر الجيش الروسي هذه المعركة بسبب غياب الحد الأدنى من القدرة على التنظيم. مستيسلاف أودالوي والأمير "الأصغر" دانيال فرا إلى ما وراء نهر الدنيبر، حيث كانا أول من وصل إلى الساحل وتمكنا من القفز في المركب.

في الوقت نفسه، قام الأميران بتحطيم وتقطيع بقية المراكب، خوفا من أن يتمكن المغول من العبور بها وراءهما. وهكذا، حكما على أنصارهما ورفاقهما الذين كانت خيولهم أسوأ من خيول الأمراء بالموت المحقق. وبالطبع قتل المغول كل من وقع في أيديهم.

بدأ مستيسلاف أمير تشرنيغوف وجيشه في الانسحاب عبر السهوب، دون ترك أي حرس أو حاجز خلفي. طارد فرسان المغول جيش تشرنيغوف ولحقوا به بسهولة وقاموا بسحق كل من فيه.

أما مستيسلاف أمير كييف فقد صف محاربيه على تلة كبيرة، ناسيا أن من الضروري توفير منفذ إلى الماء. المغول بطبيعة الحال حاصروا الجيش بسهولة. استسلم مستيسلاف المحاصر مستجيبًا لمحاولات الإقناع التي قام بها بلوسكينيا زعيم البرودنيكيين، الذين كانوا حلفاء المغول. أقنع بلوسكينيا الأمير بأن الروس سوف ينجون ولن تسفك دماؤهم. التزم المغول، وفقا لعادتهم، بالكلمة التي أعطوها. وضعوا السجناء المقيدين على الأرض وغطوهم بألواح من الخشب وجلسوا على أجسادهم يتناولون وليمة. لكن بالفعل لم ترق ولا قطرة واحدة من الدم الروسي. وهذه النقطة الأخيرة، كما بتنا نعرف، وفقا للاعتقادات المغولية كانت بالغة الأهمية.

إن فيما ذُكر مثال على تباين كيفية إدراك الشعوب والأشخاص المختلفين لمعايير القانون ومفهوم الصدق. اعتقد الروس أن المغول بقتل مستيسلاف وغيره من الأسرى خرقوا القسم. لكن المغول رأوا، من وجهة نظرهم، أنهم حافظوا على القسم، أما الإعدام فاعتبروه ضرورة عليا وعدالة أعلى، لأن الأمراء ارتكبوا خطيئة كبرى بقتل الشخص المعاهد. تجدر الإشارة إلى أنه وفقاً لمعايير القانون الحديث، فإن العنف ضد العضو

البرلماني يتم إدانته ومعاقبته بشكل صارم. ومع ذلك يبقى كل شخص حرًا في هذه الحالة في تبني الموقف الأقرب إلى عرفه الأخلاقي.

بعد معركة كالكا وجه المغول خيولهم إلى الشرق سعيا للعودة إلى وطنهم والإبلاغ عن إنجاز المهمة المحددة، ألا وهي النصر على الكومان. لكن وقع الجيش المغولي في كمين نصبه بلغار الفولغا لهم على ضفاف نهر الفولغا.

المسلمون الذين كانوا يكرهون المغول باعتبارهم وثنيين هاجموهم بشكل غير متوقع أثناء العبور. وهنا تحمل المنتصرون في معركة كلكا هزيمة كبيرة وفقدوا الكثير من الناس. وأولئك الذين تمكنوا من عبور نهر الفولغا انطلقوا في السهوب إلى الشرق وانضموا إلى القوات الرئيسية لجنكيز خان. وهكذا انتهى اللقاء الاول بين المغول والروس.

حملة المغول الكبرى نحو الغرب

كيف بدت الحملة؟

لم يكن النصر في معركة كالكا يعني الهزيمة النهائية للكومان. وبما أن السياسة العسكرية للمغول قد تشكلت وفقا للمبدأ الذي صاغه جنكيز خان: "الحرب تنتهي فقط بالقضاء التام على العدو"، فقد كان يجب مواصلة الحرب ضد الكومان. غير أنه لم يكن لدى المغول قوات إضافية، لأنه في موازاة الحرب في الغرب، كان المغول يخوضون قتالا ضد إمبراطورية جين الجورشنية ودولة تانغوت شيا. وفقط بعد الاستيلاء على بكين في ١٢١٥، وعلى عاصمة تانغوت في 1227، وعلى حصني كايفنج وجايجو في 1234،

توفرت لدى المغول الفرصة لاستكمال الحرب مع الكومان. وقد صدر عن مؤتمر أمراء وقادة المغول الذي التأم في عام ١٢٣٥ على ضفة نهر أونون، في منطقة نيرشينسك الحالية، قرار بمواصلة الحرب ضد الكومان حتى النهاية. وهكذ بدأت الحملة الغربية الكبرى.

ولم يكن وصفها "بالعظيمة" عبثا. فقد كان على القوات أن تمر عبر منغوليا بأكملها وأن تمر عبر الممرات الجبلية إلى سهوب كازاخستان. كان من الضروري عبورهم والوصول إلى بحر آرال، ولكن الجزء الرئيسي من هذا الطريق يمر عبر صحراء دالا بيتباك، حيث تنمو أشجار الدردار فقط. عبر المغول السهوب الصحراوية في الشتاء عندما كان الناس والخيول بإمكانهم استخدام الثلج بدلاً من الماء. وفي الطريق من أرال عبر هضبة أوستيورت إلى نهر الفولغا كان بالإمكان مصادفة بيوت الكاروانسراي (الخانات) هنا وهناك ومنابع المياه، ومع ذلك كان هذا العبور شاقا كذلك. وفي نهاية الطريق عند منابع نهر الفولغا، كان في انتظار المغول القيام بعمل عسكري. وبما أن وحدات التموين كان عليها أن تقطع في المتوسط ٢٥ كيلومترا في اليوم، فإن الحملة التي بلغ طول طريقها ٥ آلاف كيلومتر، والتي وضع تصورها وبدأت في ١٢٣٥ انتهت فقط في خريف عام ١٢٣٦.

تبين بعد ذلك أن قوات المغول التي تخصيصها للحملة الغربية لم تكن كبيرة. فمن بين المائة وثلاثين ألف جندي الموجودين لديهم، تم إرسال ستين ألفا إلى الخدمة الدائمة في الصين، وذهب أربعين ألفا آخرين إلى بلاد فارس لقمع المسلمين، بينما كان هناك عشرة آلاف جندي في مقر قيادة الدولة بشكل دائم. وهكذا تبقى للحملة فيلق مكون من عشرين ألف مقاتل فقط. وبفهم وإدراكهم لعدم كفاية هذا العدد، قام المغول بإعلان تعبئة طارئة، أخذ في إطارها للخدمة الابن البكر من كل عائلة.

وبالرغم من ذلك، من المستبعد أن يكون العدد الإجمالي للقوات المتجهة إلى الغرب قد تجاوز ٣٠-٤٠ ألف شخص. فضلا عن ذلك وبعد كل شيء من المنطقي ألا يكفي لقطع عدة آلاف من الكيلومترات حصان واحد. فكان على كل جندي أن يكون لديه فضلا عن حصان الركوب حصان آخر لحمل المتعلقات. وبالنسبة للهجوم، كان من الضروري وجود أحصنة مدربة للحرب، لأن القتال على ظهر حصان متعب أو غير مدرّب هو بمثابة انتحار. كما كانت هناك حاجة لفصائل وخيول لنقل معدات وأسلحة الحصار. وبالتالي كان هناك ما لا يقل عن ٣ خيول إلى ٤ لكل فارس، وهو ما يعني أن جيشا مكونًا من ثلاثين ألف مقاتل يجب أن يكون بحوزته ١٠٠ ألف حصان على الأقل. وتوفير الطعام لهذا العدد من الخيول عند عبور السهوب أمر صعب جدا. وبالتالي كان من المستحيل اصطحاب ونقل المؤن والإمدادات اللازمة لعدد كبير من الناس والأعلاف الضرورية لعدد ضخم من الحيوانات. وهذا هو السبب في أن الرقم ٣٠-٤٠ ألف هو أكثر التقديرات واقعية للقوات المغولية خلال الحملة الغربية. بالمناسبة يتوافق هذا التقدير مع التقدير المعروف لـــ ن. إ. فيسيلوفسكى.

كان بلغار الفولغا هم أول من هاجمهم المغول، والذين كانوا قد هزموا في عام ١٢٢٣ جيش سوبوتاي وجبه. تم الاستيلاء على مدينة بولغار ودمرت بالكامل. في الوقت نفسه تم غزو الشعوب الأخرى في منطقة الفولغا الذين عارضوا المغول وهم من البورطاس والبشكير. وبعد عبور نهر الفولغا انقسم الجيش المغولي. وبدأت القوات الرئيسية بقيادة القائد القوي والذكي منكو خان ابن تولوي بمطاردة زعيم الكومان كوتيان خان وملاحقته إلى حدود هنغاريا. أم الجزء الآخر من الجيش بقيادة باتو خان، فاقترب من حدود إمارة ريازان.

خضوع الإمارات الروسية

لم يشارك أمراء ريزان مثلهم مثل أمراء سوزدال وفلاديمير في معركة نهر كالكا، وبالتالي لم يكن باتو يعتزم قتالهم. ومع ذلك تطلبت التحركات الإضافية للقوات تغييرًا مستمرا للخيول، وتوفيرا دائما للطعام. أرسل باتو المفاوضين إلى ريزان سعيا للحصول على الطعام والخيول. جاء رد أمراء ريزان سلبيا، لم يكلفوا حتى أنفسهم عناء معرفة مع من يتعاملون معه، أجابوا بشكل حاسم: "اقتلونا إن استطعتم، وسيكون لكم كل شيء"، وقد كان .

ريــزان

اجتمعت قوتان معًا قرب ريزان. عندما انطلق المغول كالحمم البركانية، ارتجف مقاتلو ريزان فارين. وبعد أن تركوا ساحة المعركة احتموا بأسوار مدينتهم. كانت المدينة قد تم بناؤها مؤخرا فقط بعد ما قام فسيفولد أمير سوزدال (المسمى "العش الكبير") بتدميرها في عام ١٢٠٨، وبالتالي لم تكن مستعدة بقدر كاف لمواجهة الحصار. سقطت ريزان وقتلت الأسرة الأميرية وباتت جميع الممتلكات ملكا للمغول، وإن بقيت هناك بعض قوات ريزانية. غادر المغول بعدما أخذوا ما يحتاجون من الغذاء والخيول. فقام القائد الريزاني المقدام "يفباتي كولوفرات" بقيادة فرقة من جنوده ولحق بالمغول وضرب مؤخرة جيشهم، فأعاق تقدمهم. واضطر باتو لتحويل الجبهة لكي ينزل بقوات "يفباتي كولوفرات" الهزيمة. قاتل المحاربون ببطولة على كلا الجبهتين، ولكن لم يكن من الصعب التنبؤ بنتيجة المعركة: فقد سقط

رفاق بل ولقي يفباتي مصرعه، ولكن بعد أن ألحقوا خسائر كبيرة وأضرارًا فادحة في قوات العدو.

لقد أكدت المواجهة مع قوات "يفباتي كولوفرات" تقديرنا لعدد القوات المغولية. فقد كانت فرقة يفباتي تضم حوالي ألفي جندي. فلو كان هناك بالفعل مئات الآلاف من المحاربين في صفوف جيش المغول، فلم يكن في استطاعة أو مقدرة كولوفرات مهما كانت بطولته وما كان ليتمكن من شل حركة الجيش المغولي. على الأرجح لو كان الحال كذلك، لما كان المغول ببساطة لاحظوا فرقته هذه. لكن على الأغلب لم يكن بحوزة باتو أكثر من نصف القوات المغولية، أي من ١٥-٢٠ ألف جندي، وبالتالي كان هجوم كولوفرات على مؤخرة الجيش المغولي مؤثرا.

فــلاديمير

من ريزان المهزومة قاد باتو القوات إلى إمارة فلاديمير. لسوء الحظ كان "يوري فسيفولوديتش" أمير فلاديمير سياسيًا ضعيفًا وقائدًا بغيضا. منذ عام ١٢١٠ كانت قواته قد أنهكت في عداوته مع عمه الذي كان مدعوما من حكام إمارة نوڤغورود. ففي معركة ليبيتسا وحدها التي أنهت هذا النزاع قتل أكثر من تسعة آلاف روسي بلا معنى، كان أغلبهم من فلاديمير وسوزدال الذين خسروا المعركة. لذلك، ما الذي كان يمكن أن يفعله يوري في شتاء ١٢٣٧-١٢٣٨ إثر توجيه باتو قواته - بعد سقوط ريزان في يده وتفرق الروس الذين تجمعوا على نهر كولومنا - إلى فلاديمير؟ بقي أمام الأمير خياران:

- إما محاولة التوصل إلى اتفاق مع المغول

- أو التخلي عن مدن وأراضي فلاديمير والابتعاد باتجاه الشمال وتعزيز مواقعه في الغابات صعبة الاجتياح.

لكن يوري اختار خيارا ثالثا، أكثر فشلا. إذ أمر بالدفاع عن إمارة فلاديمير دون تزويدها بحامية وترك عائلته في المدينة. الأمير نفسه تحت ذريعة تجميع الجنود ذهب إلى ضفاف نهر مولوغا وتوقف في المكان الذي يتدفق فيه نهر سيتي الصغير. بالطبع سقطت فلاديمير في أيدي المغول. ولكن بما أن المدينة، وفقا لأمر يوري، لم تستسلم على الفور فقد تحملت أضرارا بالغة وعانت بشدة. أما يوري فقد وقع في الأسر صدفة عند اصطدم بوحدة القائد الغولي بورولدي ذات الألف رجل. تعثر المغول في المعسكر الروسي الذي كان من غير حماية أو حراسة، وذلك لأن الأمير لم يقم بتعيين حراسة ومرابطة ولم يرسل دوريات للاستطلاع. وهكذا نرى أن يوري لم يفعل أي شيء كان يجب على القائد العسكري فعله حين يخوض حرباً أمام عدو ماهر قوي. بالطبع سقط قتيلا كل من كان في المعسكر وأخذوا جيعا على حين غرة مع أميرهم.

تــورجوك

بحلول صيف عام ١٢٣٨ عاد المغول إلى نهر الفولغا الأدنى، وهناك قضوا فصل الشتاء. بدأت الحركة الجديدة نحو الغرب، من خلال الاستيلاء أيضا على جنوب روسيا في ربيع عام ١٢٣٩. في إمارة نوڤغورود رفضت مدينة تورجوك الخضوع والاستسلام للمغول، وذلك بعد أن جاءت وعود من مدينة نوڤغورود عاصمة الإمارة بالمساعدة. غير أن النوڤغوروديين أمضوا

وقتا أطول من اللازم في الاستعداد للمعركة، سقطت تورجوك في يد المغول وذُبح سكانها.

كـــوزلسك

ثم تحرك المغول جنوبا. في طريقهم كانت مدينة كوزلسك. اندفع المغول إلى أسوار المدينة تحثهم ذكرى معركة نهر كالكا. فقبل ١٥ سنة كان "مستيسلاف" أمير تشرنيغوف وكوزلسك مشاركا في قتل السفراء المغول. وعلى الرغم من أن مستيسلاف قد قتل بالفعل في ذلك الوقت، سعى المغول مسترشدين بمفهوم المسؤولية الجماعية للانتقام من المدينة "الشريرة" على جُرم أميرها. بالطبع، من وجهة نظر الناس المعاصرين، قد يبدو سلوك سكان السهوب المغول قاسيًا وبلا مبرر. ولكن دعونا لا ننسى أنهم يتبعون تصوراتهم وأفكارهم فقط، بينما نتبع نحن تصوراتنا وأفكارنا. ووفقاً لرأي المغول، فإن جميع رعايا الأمير يشاركونه المسؤولية المتساوية عن الفظائع والجرائم التي يرتكبها، لأنهم هم من وافقوا على اتخاذه أميرا. حاصر المغول كوزلسك لمدة سبعة أسابيع، ولم يأت أي من الروس لمساعدة هذه المدينة.

الطريق إلى كييف

لكن لم تعان كل المدن من مصير فلاديمير وتورجوك وكوزلسك. فعلى سبيل المثال، سرعان ما وجد سكان مدينة أوغليتش التجارية الغنية لغة مشتركة مع المغول. فبقيامهم بمنح الخيول والطعام والمؤن للمغول أنقذ سكان أوغليتش مدينتهم. وبعد ذلك تصرفت جميع مدن حوض الفولغا تقريبا بهذه

الطريقة. علاوة على ذلك كان هناك روس انضموا وعززوا صفوف القوات المغولية. وقد وصفهم المؤرخ الهنغاري بوصف "المسيحيون الأشرار".

استولى باتو على تشرنيغوف، وبعدها سقطت كييف التي لم تتعاف من آثار الفتن والاقتتال الداخلي. لم يكن لدى هذه المدينة – التي فر منها أميرها ودافع عنها القائد العسكري دِميتري – قوة كافية للقتال.

المغول في شرق أوروبا

ثم مر باتو عبر فولين. وهنا انقسمت آراء سكان فولينيا، البعض قاوم المغول، لكن أمراء بولخوف الذين عاشوا في ضواحي فولين الجنوبية فضلوا التفاوض مع خان المغول.

وخلال ملاحقتهم للكومان الفارين إلى المجر قام المغول عبر غاليسيا بالتحرك سعيًا لإنشاء حدود غربية لدولتهم لا يمكن انتهاكها. في البداية زار سفراؤهم بولندا، لكن البولنديون قتلوا السفراء. ما استتبع اندلاع الحرب التي استولى المغول خلالها على كراكوف، وبعد ذلك في معركة ليغنيتسا في سيليزيا أنزلوا بالجيش البولندي الألماني الهزيمة. كما كان القتل مصير السفراء المغول في المجر. فانتقم المغول بهزيمة قوات الملك المجري في معركة نهر شايو (معركة موهي)، وأحرقوا معظم القلاع والمدن المجرية. وعلى ما يبدو أن المغول قد تعلموا من التجربة المريرة، فلم يبعثوا سفراء إلى التشيك. التقت وحدات جيش المغول والجيش التشيكي في معركة أولوموك وفيها تغلب التشيكيون على سكان السهوب المغول.

بحلول عام ١٢٤٢م انتهت الحملة المغولية الكبرى نحو الغرب: وصلت قوات باتو إلى البحر الأدرياتيي. كانت نتائج الحملة ناجحة للغاية بالنسبة للمغول، لم يكن لمواصلة الحرب أي معنى بالنسبة لهم. ضمن المغول الأمن لحدودهم الغربية، لأنه لا التشيكيون ولا البولنديون ولا المجريون كان بوسعهم الوصول إلى منغوليا، إذ لم تكن لديهم رغبة ولا قدرة على فعل ذلك. كما لم يكن باستطاعة أعداء المغول الرئيسيين الكومان أن يهددوها أيضًا، فقد تم طردهم إلى المجر، وكان مصيرهم مؤسفًا محزنًا

خضع خان الكومان كوتيان للملك المجري، ولكن قدوم بدو الكومان أزعج أثرياء المجر، الذين قتلوا الخان وعاملوا الكومان بازدراء وقسوة. عندها غادر جزء من هؤلاء البدو الرحل عبر البلقان إلى بيزنطة واستقروا بالقرب من مدينة نيقية في آسيا الصغرى. الجزء الآخر من الكومان استقر في ترانسيلفانيا، حيث اعتنقوا لاحقا الكاثوليكية واندمجوا وذابوا إلى حد كبير في صفوف النبلاء المجريين الصغار.

حري بنا أن نطلق على الحملة الغربية الكبرى لباتو تسمية "هجمة الخيَّالة العظمى"، أما الحملة على روس فلدينا كل الأسباب لوصفها بالغارة. إذ لم يكن هناك حديث عن أي غزو مغولي لـــ "روس". فلم يترك المغول حاميات، ولم تكن لديهم نية إقامة سلطة دائمة هناك. مع نهاية الحملة اتجه باتو إلى نهر الفولغا، حيث أسس عند مصبه مقر سلطته في مدينة "سراي".

في الواقع اكتفى الخان بتدمير تلك المدن التي كانت في طريق القوات المغولية ورفضت صنع السلام مع المغول وبدأت المقاومة المسلحة. وحدها مدينة كوزلسك فقط يمكن اعتبارها استثناء، ولكن المغول، كما نتذكر، دمروها انتقاما لقتل سفرائهم.

فضلا عن ذلك كانت الحملة الغربية أيضا، من حيث عواقبها وتبعاتها، غارة بدوية نموذجية، وإن كانت واسعة النطاق. من المفترض أن معاصري الأحداث كانوا يفهمون تماما طبيعة الحملة وأغراضها. ومن وجهة النظر هذه، لا ينغي إدانة الشعب الروسي في القرن الثالث عشر بسبب هشاشة مقاومته للمغول. فلم تكن هناك جدوى من الدخول في أعمال قتال غير ضرورية طالما كان من الممكن تجنبها. ففي واقع الحال على مدى عشرين عامًا بعد باتو لم يقم المغول بفرض أو جبي أية ضرائب أو إتاوات أو جزية على الإطلاق من إمارات روس الشمالية. صحيح، تم أخذ الضرائب من الولايات الجنوبية (تشرنيغوف، كييف)، ولكن السكان وجدوا مخرجا. بدأ الروس بالتحرك بنشاط نحو الشمال: إلى تفير وكولومنا وموسكو وسيرباخوف وموروم ومدن أخرى في روس زاليسكايا. وهكذا انتقلت جميع التقاليد الروسية مع الناس من أطراف سهوب الغابات ومن السهوب إلى حزام الغابات. وقد تبين أن هذا العامل الجغرافي، أي تغيير المشهد الجغرافي نتيجة للهجرة، كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى المسار اللاحق للتكوين العرقي لبلدنا روسيا.

غزو ألماني سويدي على روس

في القرن الثالث عشر كانت أوروبا الغربية تمثل تهديدًا متزايدًا لروس. في العقود السابقة كانت الطاقة الخلاقة الزائدة عن الحد لأوروبا الغربية قد "احترقت" في المحاولات الأولى للتوسع الاستعماري، ونقصد بها الحروب الصليبية على فلسطين. الآن قرر الإمبراطور فريدريك الثاني إرسال الصليبيين الألمان من فلسطين إلى البلطيق. كان هذا القرار معقولاً وحكيما جدا. لقد كان الفرسان الألمان في صراع دائم مع الفرنسيين

والإيطاليين ويسلكون سلوكا متغرطسا. ولذلك، فإن قيام الإمبراطور بإرسال الألمان إلى البلطيق وتكليفهم بغزو وإخضاع القبائل الوثنية المحلية كان تصرفا يصب في مصلحة كل من الفرسان والإمبراطورية معا. في عام ١٢٣٧م توحد الفرسان الرهبان من جماعة "أخوة السيف الليفونية" وجماعة "الفرسان التيوتون" وأدى هذا الاتحاد إلى ظهور النظام الليفوني القوي. في الواقع تم تشكيل دولة "دينية عسكرية" كان الغرض من وجودها الاستيلاء على دول البلطيق والتقدم نحو روس، ومن ثم فرض المذهب الكاثوليكي قسرا على السكان المهزومين.

كانت بداية الغزو صعبة. ثم كانت منطقة حوض البلطيق مسكونة من قبل شعوب البلطيق القديمة: استون، ليتوان، جمود، لياتفياج، بروس. كانوا كلهم في حالة من التناغم البيئي، وكانت قوة هذه الشعوب كافية فقط للبقاء على قيد الحياة في مشهد الأرض. لذلك اقتصرت شعوب البلطيق في القتال ضد الألمان على الدفاع عن أنفسهم، لكن بما أنهم دافعوا حتى النهاية، فكان من وقع في الأسر منهم هم أولئك الموتى، ولم يحقق الألمان نجاحًا كبيرًا في البداية. ما ساعد الفرسان هو أنهم حصلوا على دعم قبيلة محاربة متشددة للغاية هي قبيلة الليفونيين. بالإضافة إلى ذلك عثر الفرسان على حليف قوي وهم السويديون الذين أخضعوا قبائل سوم ويوم الفنلندية لسيطرتهم.

قام الألمان تدريجيا باستعباد قبائل "الليتس"، ولكن الإستونيين رفضوا الخضوع لهم، ذلك بفضل علاقاتهم القوية مع الروس. ويؤكد وجود هذه العلاقات حقيقة أن المدينتين اللتين تسميان الآن "تالين" و"تارتو" لهما أسماء تاريخية روسية تمامًا وهي كوليفان ويوربيف (على الاسم المسيحي لمؤسس هذه المدينة ياروسلاف الحكيم).

كان الألمان والسويديون يعاملون الروس بوحشية مقارنة بتعاملهم مع شعوب البلطيق. على سبيل المثال إذا كان يتم تحويل الإستونيين الذين يقعون في أيديهم إلى أقنان، فقد كان يجري قتل الروس ببساطة ولم ينج حتى الأطفال الرضع. لقد أصبح تهديد العدوان الألماني السويدي واضحًا لروس، حيث كان خطره يتزايد يومًا بعد يوم.

في عام ١٢٤٠م دخل الأسطول السويدي إلى مصب نهر نيفا واقترب من المكان الذي يصب فيه نهر إيجورا، وهناك نفذوا عملية إنزال للجنود. لم يكن سكان نوفغورود – مثلهم مثل بقية المدن السلافية الأخرى – مستعدين للدفاع بقدر ما كانوا غارقين في الجدال والخلاف الداخلي حول اختيار الجهة التي يربطون بها مصيرهم: أمير سوزدال ياروسلاف أم الملك السويدي.

بينما كان الناس في نوفغورود منشغلين بهذا الجدال توجه أنصار روس في إمارتي فلاديمير وسوزدال بدعوة استغاثة طلبا للمساعدة إلى الأمير الشاب ألكسندر ياروسلافيتش (المعروف بالنسبة للأحفاد البارين باسم ألكسندر نيفسكي) والذي كان في ذلك الوقت في الثانية والعشرين من عمره، لكنه كان شابا ذكيًا ونشيطًا وشجاعًا، والأهم من ذلك كان وطنيًا حقيقيًا محبًا لوطنه.

لم يتمكن ألكسندر من جمع قوات كبيرة. وبمسيرة سريعة وصل ألكسندر مع فصيلته السوزدالية الصغيرة وعدد قليل من متطوعي نوفغورود إلى نهر نيفا وهاجم المعسكر السويدي. في هذه المعركة كسا أهل نوفغورود وسوزدال أنفسهم بمجد أبدي. فمثلا اقتحم أحد المقاتلين النوفغوروديين ويدعى غافريلا أوليكسيتش على ظهر فرسه قاربا سويديا وقاتل السويديين على متن سفينتهم حتى ألقوا به في الماء، فنجا وعاد للمعركة من جديد. كما قُتِلَ خادم

ألكسندر (واسمه راتمير) الذي مات ميتة بطولية، حيث قاتل على قدميه ضد مجموعة كبيرة من جنود العدو في وقت واحد. ولقي السويديون الذين لم يتوقعوا هذا الهجوم هزيمة كبرى وهربوا ليلاً من ساحة المعركة.

بمزيج من التضحية والشجاعة والإقدام لرفاق ألكسندر تم إنقاذ نوفغورود، ولكن التهديد ظل قائما بالنسبة لروس. فقد قام الفرسان التيوتون في ١٢٤٠ -١٢٤١م بزيادة الضغط على ازبورسك سعيا لإخضاع بسكوف. وفي بسكوف نفسها تم الكشف عن وجود فصيل قوي بين البويار موالي لألمانيا. وبالاعتماد على مساعدة هذا الفصيل استولى الألمان على هذه المدينة بحلول عام ١٢٤٢م، وكذلك مدينتي يام وكوبوري، وبدأوا من جديد يهددون نوفغورود.

في شتاء عام ١٢٤٢م وبدعم من نوفغورود وبسكوف قام ألكسندر نيفسكي مع قوات سوزدال (أو كما كان يطلق عليهم حينها "سكان الأرض المنخفضة") بشن هجوم على القوات الألمانية في بسكوف. وبعد أن قام بتحرير بسكوف، اتجه لمحاربة القوات الرئيسية لليفونيين الذين كانوا ينسحبون متجاوزين بحيرة تشودسكويه (بحيرة بيبوس). وعلى الشاطئ الغربي للبحيرة عند صخرة رافينستون كان على الألمان قبول المعركة والقتال.

كان عدد الفرسان قليلا لا يزيد عن بضع عشرات، لكن كل فارس كان مقاتلاً جسورا. بالإضافة إلى ذلك، حصل الفرسان على دعم من قبل مرتزقة مشاة مسلحين بالرماح، وكذلك من حلفاء النظام الليفونيين. رص الفرسان أنفسهم على شاكلة "قطيع الخنازير": المقاتل الأقوى في المقدمة، ووراءه اثنان آخران، ثم وراء هؤلاء أربعة، وهكذا دوليك.

كان الهجوم الضاغط لمثل هذه المجموعة لا يقاوم بالنسبة للروس المسلحين تسليحا خفيفا، ولم يحاول ألكسندر حتى أن يوقف ضربات القوات الألمانية. على العكس أضعف من مركز وقلب جيشه مفسحا المجال للفرسان الألمان لاختراقه. في هذه الأثناء هاجمت الأجنحة المدعومة والمعززة للروس كلاً من جناحي القوات الألمانية. ركض الليفونيين هربا، في حين قاوم الألمان بشدة ويأس، ولكن بما أن ذلك الوقت كان في الربيع، فقد تصدع الجليد وبدأ الفرسان المدججين بالسلاح في السقوط في مياه بحيرة بيبوس. كما لم يسمح النوفغوروديون للعدو بالهروب من الفخ المميت. أدت هزيمة الألمان على بحيرة بيبوس في ٥ أبريل ١٢٤٢م إلى تأخير تقدمهم إلى الشرق (Drang nach Osten)، الذي كان بمثابة الفكرة الرئيسية للسياسة الألمانية خلال الفترة من عام ١٢٠٢م إلى عام ١٩٤١م.

تجدر الإشارة إلى أن انتصار ألكسندر نيفسكي في هذه المعركة لم يعالج المشاكل السياسية، فلم يضع النصر نهاية لاحتمالية وإمكانية تكرار الهجوم الألماني، لأن الفرسان الألمان كانت لديهم قوة أكبر بكثير من النوفغوروديين. فالمدن الحصون مثل ريغا وكونيغسبرغ وريفال كانت بمثابة نقطة انطلاق وقاعدة أمامية ملائمة للفرسان الأوروبيين القادمين من الغرب. وفي الوقت نفسه كان بإمكان الألمان تجديد قواتهم باستمرار، والسبب في ذلك أنه منذ القرن الثالث عشر كان هناك في أوروبا عدد كبير من المتطوعين الذين كانوا يحلمون بمن يستخدمهم أو يمنحهم الفرصة لاستخدام قوتهم. كانت هجمة العرقية الغربية المتغطرسة ضد روس لا تزال تمثل تهديدا حقيقيا واقعيا.

سرعان ما أدرك الجيل الجديد من الروس ممن هم في سن الأمير ألكسندر حجم الخطر الذي يهدد البلاد من الغرب والحاجة إلى حليف قوي. ساعد منطق الأحداث وعبقرية ألكسندر نيفسكي في إيجاد هذا الحليف لروس.

البحث عن حليف: المغول أم الغرب

في عام ١٢٤٢م توفي الخان العظيم أوقطاي خان. وقد غيرت وفاته بشكل جذري الوضع داخل قبيلة فاتح الدول وقاهر الشعوب باتو خان. فحتى خلال حملة ١٢٣٨-١٢٣٩م تخاصم باتو مع ابن عمه جيوك ابن أوقطاي. أهان جيوك باتو واصفًا إياه بالمرأة العجوز وهدده بجره من شعره. وعلى نفس درجة السوء كان تصرف ابن عمهما بوري ابن شقطاي خان (الذي كان كما نتذكر القاضي الأعلى في دولة المغول بأكملها). كانت العاصفة على وشك النيل من صدر وخاصرة باتو. استبعد باتو بصفته القائد الأعلى للحملة الأميرين المغرورين من الجيش وأرسلهما إلى أبويهما. فعاقب أوقطاي وشقطاي ابنيهما بقسوة جراء انتهاكهما الانضباط العسكري وتم طردهما من مقر حكم الخان وحرما من جميع الرتب.

ومن المفهوم أنه بعد وفاة أوقطاي أطلق جيوك وبوري العنان لكراهيتهما وخاضا صراعا مشتركا ضد باتو. الآن عندما كان بإمكان جيوك أن يحل محل الخان العظيم أصبح موقف باتو صعبًا، إن لم نقل قاتلا كارثيًا. فقد كانت قواته محدودة بأربعة آلاف جندي، بينما تحت تصرف جيوك، في حال إذا أصبح خانا عظيمًا، سيكون هناك ما لا يقل عن ١٠٠ ألف شخص.

أصبح باتو في حاجة ماسة وملحة لحليف، وقد أكدت الأحداث التالية صحة هذا الأمر.

في عام ١٢٤٦م انتخب مؤتمر الأمراء المغول (مجلس الشورى المغولي المعروف باسم "الكورولتاي الكبير") "جيوك" خانا أعظم. حينها بدا وكأن مصير باتو بات محددًا سلفًا. وبفهمه لوضعه الميؤوس حاول باتو الحصول على الدعم في روس. وفي الواقع لم تكن هناك أسباب سياسية لاستمرار الحرب بين الروس والمغول. ولكن الأهم من ذلك أن الدوافع الانفعالية للمواجهة كانت، على ما يبدو، قد اختفت بالفعل. لذا دعا الروس باتو بلقب "الخان الصالح". لقد قيم المغول الحرب مع روس بوعي شديد، على الرغم من حقيقة أن كيول خان الابن الأثير المحبوب لجنكيز خان من زوجته خولان خاتون الجميلة كان قد قُتل بالقرب من كولومنا. ففي الواقع فيما يتعلق بأي موت في الحرب كان المغول يسترشدون بالمبدأ القائل: "إنهم لا يدينون أحدًا على الجرأة والشجاعة في المعركة". وهكذا أصبح التحالف بين روس وباتو ممكنًا.

غير أن هناك ظرفا واحدا طرأ أعاق إتمام هذا الاتحاد. فقد توفى مسموما أمير فلاديمير الكبير ياروسلاف والد ألكسندر نيفسكي، الذي كان حاضرا في الاحتفالات بمناسبة انتخاب الخان الجديد. قيل – وفقا للمندوب البابوي "بلانو كاربيني" – إن هذا السم دسته لياروسلاف أم جيوك توراكينا خاتون. وكان السبب وراء هذا الفعل الخطير هو وشاية القائد فيودور يارونوفيتش، الذي قذف الأمير زورًا بالقول إن ياروسلاف دخل في تحالف مع البابا إنوسنت الرابع.

وعلى الرغم من ذلك لم تتحول روس الشمالية الشرقية بعد وفاة ياروسلاف إلى تبعية القبيلة. وهذا واضح حتى من حقيقة أنه في عام

١٢٤٨م أقر باتو تعيين سفياتوسلاف فسيفولدوفيتش شقيق ياروسلاف المتوفى (المسموم) أميرًا جديدًا على فلاديمير. غير أنه بعد حكمه كأمير لمدة تقل عن العام أطيح به من قبل ميخائيل ياروسلافيتش أمير تفير. وقضى سفياتوسلاف باقي أيامه في القبيلة سعيًا بلا طائل وراء العدالة. ولم يكن باتو هو المسؤول عن مصيره هذا، بل الحكومة المركزية في قراقورم، حيث بعد وفاة جيوك في نفس عام ١٢٤٨ استلمت الحكم أرملته النايمانية "أوغل قايميش". وهي بدورها جعلت حكم روس في أبناء ياروسلاف المسموم، حيث استلم ألكسندر الإمارة المعظمة في كييف المدمرة، بينما حصل أندريه على إمارة فلاديمير الغنية.

واجه ألكسندر اختيارًا صعبًا للحليف. فقد كان عليه أن يختار بين القبيلة التي مات فيها والده وبين الغرب، الذي كان أمير نوفغورود يعرفه جيدا منذ أيام "معركة الجليد". وهنا يجب أن نشيد بألكسندر ياروسلافيتش: لقد فهم تماما الوضع السياسي العرقي في البلاد، وتمكن من السمو فوق مشاعره وعواطفه الشخصية من أجل إنقاذ الوطن الأم.

في عام ١٢٥١م أتى ألكسندر إلى قبيلة باتو وأقام علاقة صداقة، ثم تآخى مع سارتاك ابن الخان، ونتيجة لذلك أصبح هو نفسه ابنا بالتبني للخان. لقد تحقق الاتحاد بين القبيلة وروس بفضل وطنية ونكران الذات للأمير ألكسندر. وقد حصل اختيار ألكسندر ياروسلافيتش في رأي الأحفاد على أعلى درجات المباركة والتقدير. واعترفا بالمآثر غير المسبوقة التي أنجزها لأجل أرض وتراب الوطن الروسي منحت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الأمير درجة القديس.

روس توازن بين الشرق والغرب

من أسفٍ، لم يكن المسار السياسي لألكسندر ياروسلافيتش يتمتع بشعبية بين المعاصرين الذين فقدوا طاقتهم الخلاقة بشكل غير قابل للاسترداد. لم يفكر أحد في شكر الأمير على جهوده البطولية لإنقاذ الأرض الروسية. فمعظم أهل نوڤغورود كانوا ملتزمين بشدة بالتوجه المؤيد للغرب. ونتيجة لذلك، سعوا بعد معركة نهر نيفا إلى طرد ألكسندر من نوڤغورود. لكن عندما استولى الألمان على أرض بسكوف، قام سكان نوڤغورود على الفور بدعوة الأمير إلى العودة. وبعد أن تحقق طرد الألمان من بسكوف، وانتصر في معركة بحيرة بيبوس، قاموا بالتخلي عنه من جديد. باءت بالفشل كل المحاولات الرشيدة من شعب نوڤغورود لمعارضة هذا السلوك الانتحاري الذي انتهجه بنو عرقهم. وفي نوڤغورود تعرض أنصار الأمير المحارب للسرقة والإبعاد عن إدارة الأمور والعمل. وقد تطورت الخلافات بين الفصيلين إلى أن كادت تصل إلى مرحلة الحرب. ومع ذلك انتصر فصيل أنصار الأمير، وإن كان بصعوبة بالغة، وأصر على جلوس ألكسندر على عرش الإمارة في نوڤغورود.

على هذا النحو، ليس هناك ما يدعو لوصف حياة الأمير بالسهلة أو الميسرة. ففي كل مرة كان يأتي ملبيا "دعوة النوڤغوروديين"، ومقدما خدمات هائلة لأرض نوڤغورود: خاض معركة نهر نيفا، ومعركة بحيرة بيبوس، كما أخضع قبيلة "فوت" التي قاتلت ضد نوڤغورود، ورغم كل ما قام به تمت تنحيته من القيادة بضغوط من أنصار الغرب باستخدام إجراء "ديمقراطي" وهو التصويت في مجلس ممثلي الإمارة.

حتى بين الأقارب المقربين لم يجد الأمير ألكسندر تفاهما. كان شقيقه أندريه نفسه من دعاة الغرب وأعلن أنه سيعقد تحالف مع السويديين والليفونيين والبولنديين للتخلص من المغول. سمع المغول بذلك التحالف، ويبدو بفضل ألكسندر نيفسكي نفسه. أرسل باتو، في إطار وفائه بالتزاماته بموجب التحالف، القائد العسكري نيفريو إلى روس عام ١٢٥٢م، والذي تمكن بدوره من إلحاق الهزيمة بقوات الأمير أندريه، ما اضطره للهجرة إلى السويد. في الوقت نفسه ألحقت "قوات نيفريو" بروس أضرار أكثر من تلك التي خلفتها حملة باتو.

كما كان الأمير دانيال غاليسكي يعارض التتار بقوة. ومن ثم فقد قام بعد رحيل باتو إلى الفولغا بالهجوم على حلفاء المغول من أمراء فولخوف، وقضى على كل الطبقة الأرستقراطية وبعثر سكان الإمارة. كان الخط السياسي لدانيال هو فصل إمارة غاليسيا فولينيا وتحويلها إلى دولة إقطاعية مستقلة تتجه بوصلتها إلى الغرب.

لكن لنتذكر أنه في العصور الوسطى لم يكن "الغرب" كيانا موحدا. فقد قام شعب غيبلين – من أنصار الأباطرة الألمان – بمقاتلة شعب غويلف الذين كانوا يدعمون العرش البابوي. وفي منتصف القرن الثالث عشر، كان فريق يؤيد الإمبراطور فريدريك الثاني والفريق الثاني يؤيد البابا إنوسنت الرابع. ومن المثير للاهتمام أن فريدريك الثاني كان قد قام على تربيته أنصار البابوية، لكنه بمجرد أن أصبح الإمبراطور الجرماني (١٢١٢- ١٢٥٠م) بات ألد أعداء العرش البابوي. وبالمثل قام فريدريك الثاني نفسه على تربية رئيس الكهنة في المستقبل ورفعه إلى العرش البابوي، لكنه في المقابل حصل في شخصه على عدو مميت.

في هذا دليل آخر على أن أي شخص ليس بمقدوره أن يصدر الأوامر، بقدر أنه يجب عليه، ولو على غير إرادته، الانصياع إلى الرغبات نصف المنطوقة للحاشية والدائرة القريبة منه. ففي حال إذا كان الكرادلة والأساقفة الذين يحيطون بالبابا راضين عن أوامره، جلس البابا على العرش حاكما وسيدا مستقلا. ولكن عندما كان يتصرف على عكس رغباتهم، كانت تبدأ عليه عادة أعراض مرض غريب، ثم يأتيه الموت "المفاجئ".

بالمقارنة كان الإمبراطور يشعر بثقة أكبر إلى حد ما، وذلك بفضل وجود قوات موالية تحيط به. وكان معظم أتباع الإمبراطور يكرهون ويبغضون قادة الكنيسة الكاثوليكية، ولم يكن ممكنا للإمبراطور أن يتجاهل ذلك. لذلك بدأ فريدريك الثاني مراسلات مع باتو وجيوك في الوقت الذي كان يطالب فيه البابا بالحرب ضد المغول.

كان رومان والد الأمير دانييل من أنصار الغيبلينين وحاول مساعدة حلفائه الألمان. وكان من المفترض أن يتبع دانيال سياسة والده، لكن البابا وعده بمنحه لقب الملك وبالاستقلال الكامل. ولم يعد لا المغول ولا فريدريك الثاني الأمير الجاليكي بأي شيء، وبالتالي كان تعاطفه يميل بشكل واضح إلى جانب رئيس الكنيسة الروماني. فأصبح دانيال من مؤيدي البابا واستلم من يديه التاج الذهبي الموعود.

لا بد من القول إن الفصيل الموالي للغرب في روس الذي كان يكره ويبغض المغول بسبب غاراتهم، والذي كان مرتبطاً مع أوروبا الغربية بعلاقات تجارية ووظيفية وثقافية، كان فصيلا كبيرا من حيث العدد بالدرجة الكافية للدفاع عن خطه السياسي. كان برنامج دعاة التغريب يتلخص فيما يلي: الاعتماد على مساعدة الفرسان لتوحيد قوى جميع الأمراء الروس وطرد

المغول. ورغم كونه برنامجا جذابا من الناحية النظرية، فإنه لم يكن ممكنا تنفيذ هذا البرنامج من الناحية العملية. أولاً، بسبب أنه لا الفرسان ولا تجار عصبة الهانزا ولا البابا ولا الإمبراطور كانوا يعتزمون ابتداء أن يضيعوا قواتهم من أجل توحيد دولة أجنبية. فقد وضعوا نصب أعينهم مهمة أخرى، ألا وهي استخدام المحاربين الروس في القتال ضد المغول، بهدف استنزاف قوى روس وإخضاعها مثل البلطيق.

ثانيا، لأنه بحلول منتصف القرن الثالث عشر كانت فكرة توحيد روس قد أضحت سرابا. ولقد فهم ألكسندر نيفسكي هذا جيدًا، ولم يفهم دانيال ذلك على الإطلاق. وانقسمت روس أخيرًا إلى أراضى الجنوب الغربي والشمال الشرقي ونوفغورود. كان يحكم القسمين الأولين فرعان من نسل مونوماخ: الفرع الأكبر سنا في الشمال الشرقي، بينما الأصغر في الجنوب. كانت هناك حروب شرسة بين هذين الفرعين. وكان تدخل التشرنيغوفيين من نسل أوليغ في الصراع الروسي العام عادة بلا نتيجة وفاشلا سواء بالنسبة لهم أنفسهم أو لروس بالمجمل. وقد حول أمراء بولوتسك ممتلكاتهم إلى إمارة مستقلة. كما كان رفض سلطة إمارة فلاديمير أيضا من سمات ريزان، لقد حارب شعب ريزان كثيرا ضد فلاديمير وسوزدال وكييف. والأمراء وحدهم لا يمكن لومهم على ذلك، حيث إنهم لم يكونوا يهيمنون على مدنهم والأراضي المحيطة بها، أكثر مما كان يمليه سكان الحضر الكثيرون والنشطون الفاعلون على أمرائهم في هذا السلوك أو ذاك. على سبيل المثال، عندما وقعت حرب جديدة بين نوفغورود وفلاديمير اقترب السوزداليون (هكذا كان يطلق على قوات أمير فلاديمير) من مدينة تورجوك التي كانت مستعدة للاستسلام وطلبت من الأمير فسيفولود أن "يقبل السلام" "وأن يتحلى

بالرحمة". وقد قدم سكان المدينة وعدًا أن يطيعوا وأن يقبلوا جميع الشروط وأن يدفعوا الضرائب والعطايا. أراد الأمير المعظم فسيفولد (العش الكبير) قبول عرض تورجوك، لكن جنوده رفضوا رفضًا قاطعًا قائلين: "لم نأت إلى هنا لتقبيلهم". فتم الاستيلاء على تورجوك ونهبها ضد إرادة الأمير ورغبته.

كما طالب سكان مينسك وغرودنو ومدن أخرى في الشمال الغربي من الأراضي الروسية بأن يتبع أمراؤهم سياسة الانفصال. أصبحت الرغبة في الاستقلال عامة، وكان الانهيار حتميًا بسبب تهاوي الطاقة الخلاقة لدى سكان روس. إذ لم تعد هناك القوة الكافية التي من شأنها أن ربط الإمارات العديدة وإخضاعهم لتبعية كييف. فقدت كييف طاقتها الخلاقة، غير أنها كانت لا تزال محفوظة على الأطراف. غير أن حلول مرحلة الجمود جعلت محاولات إعادة إحياء روس الموحدة في القرن الثالث عشر محكوم عليها بالفشل.

من المفهوم في ظل هذه الظروف أن يكون الفشل أيضا هو مصير جهود الغربيين لتوحيد الروس. فقد انتهى نشاط دانيال غاليتسكي بشكل سيئ بالنسبة له هو شخصيا. فبعد عدة عمليات ناجحة ضد فصائل مغولية صغيرة قادها القائد العسكري كوريمسا (1254)، اصطدم دانيال بالقائد "بورولداي" ذي الخبرة الكبيرة. تمكن بورولدي بسهولة من هزيمة الأمير الجاليكي وإجباره على تدمير كل الحصون بحيث لم يكن لدى غاليسيا وفولين فرصة للانفصال.

لكن ما النتائج الحقيقية للتحالف مع المغول الذي عقده ألكسندر نيفسكي؟ احتفظ الأمراء الروس بحرية أكبر في العمل. عندما أرسل مونكو خان عددًا من المسلمين إلى روسيا ("البيسرميان") لإعادة إحصاء السكان بغرض جبي الضرائب منهم، قام السكان بقتل جميع الكتبة وجامعي

الضرائب. ووفقا لافتراض الخبير في هذه المسألة الباحث الشسهير "ناسونوف"، فإن هذه المجزرة كانت بمبادرة من الأمير ألكسندر نفسه. والدوافع وراء تصرفات الأمير المفترضة هذه مفهومة تماما: إرسال الأموال الروسية إلى المغول لم يكن في مصلحته. كان ألكسندر مهتمًا باحتمال تلقي المساعدات العسكرية من المغول لمواجهة هجوم الغرب والمعارضة الداخلية. كان ألكسندر ياروسلافيتش على استعداد لدفع ثمن هذه المساعدة تحديدا، ولو كانت باهظة الثمن.

ولكن سرعان ما واجه ألكسندر نيفسكي صدمة لا تصدق: فقد كان خطه السياسي بأكمله في خطر. في عام ١٢٥٦ توفي حليفه باتو خان، وفي نفس العام تم تسميم ابن باتو سارتاك بسبب تعاطفه مع المسيحية. وعلى يد من؟ على يد شقيق باتو بِركة خان الذي اعتمد على مسلمي القبيلة. اعتنق بِركة الإسلام وذبح النسطوريين في سمرقند وسمم ابن أخيه وأعدم قريبته بوراك جين خاتون، وأسس ديكتاتورية مسلمة، لكن دون وجود اضطهاد ديني.

وقام ألكسندر ياروسلافيتش الوفي لمبدأ النضال من أجل مصالح الوطن هذه المرة "بوضع روحه لأجل أصدقائه". فذهب إلى بِركة خان ووافق على دفع الجزية للمغول في مقابل الحصول على مساعدة عسكرية ضد الليتوانيين والألمان. لكن عندما جاء الكتبة المغول إلى نوفغورود مع الأمير لتحديد مقدار الضريبة قام شعب نوفغورود بتمرد تحت قيادة الأحمق السكير فاسيلي أليكسندروفيتش الابن الأكبر للأمير المعظم.

قاد ألكسندر السفراء إلى خارج المدينة تحت حماية حرسه الشخصي ولم يسمح بقتلهم. فأنقذ بذلك نوفغورود من الموت، فنحن بعد كل شيء نعرف ما فعله المغول بسكان المدن التي قتل فيها سفراء الخان المغولي.

تصرف ألكسندر ياروسلافيتش بقسوة مع زعماء الفتنة: فتم " فقأ أعينهم"، معتقدين أن الشخص ليس بحاجة إلى العينين إذا لم ير ما يحدث حوله. فقط بهذا الثمن نجح ألكسندر في إخضاع شعب نوفغورود الذي كان قد فقد الحس السليم مع فقدانه للطاقة الخلاقة، ولم يفهم أن أولئك الذين لم يكن لديهم القوة للدفاع عن أنفسهم عليهم دفع ثمن الحماية من الأعداء. بطبيعة الحال، إعطاء أموالك للآخرين هو أمر مزعج دائمًا، ولكن ربما يكون من الأفضل التنازل عن المال، بدلا من فقدان الحياة.

وماذا بعد؟!

هكذا أصبحت معاهدة التحالف مع القبيلة حقيقة واقعة. وكان الروس أول من قدم المساعدة العسكرية للتتار عندما شاركوا في الحملة ضد شعب الآلان. تحول التحالف مع التتار ليكون نعمة لروس وذلك من وجهة نظر إرساء النظام داخل البلاد.

في عام ١٢٦١م وبفضل الجهود المشتركة لألكسندر نيفسكي والخانات المغول (خاصة مع كل من بِركة ومنكو تيمور) افتتح في "سراي" مقرا لأسقف الكنيسة الأرثوذكسية. وكان ينظر لأسقف سراي على أنه ممثل لمصالح روس وكل الشعب الروسي في بلاط الخان العظيم. وحين كان ينشب في روس نزاع أميري كان الخان يقوم بإيفاد أسقف سراي برفقة بك تتاري (كان لابد أن يكون مسيحياً) لمعالجة المسائل المثيرة للجدل في المؤتمرات الأميرية. إذا لم يأخذ شخص ما بعين الاعتبار القرار الذي يتم إقراره وحاول مواصلة الحرب الإقطاعية، فكان يتم إجباره على السلام بواسطة سلاح الفرسان التتاري.

اعتمادًا على التحالف مع بركة خان قرر ألكسندر ليس فقط وقف حركة الألمان تجاه روس، ولكن أيضًا لتقويض قدرتهم على ذلك. كما عقد مع الأمير الليتواني ميندواجاس الذي كان من نفس عمره تحالفًا موجهًا ضد الصليبيين. كان ميندواجاس كحاكم يتميز بالمكر والحيلة. في عام ١٢٥٠م اعتنق الكاثوليكية، لكن "معموديته كانت تزلفا ورياء" حسبما يذكر المؤرخ. وبعد ١٠ سنوات انسلخ ميندواجاس عن الدين الذي فرض عليه وأصبح ألد أعداء الصليبيين والكاثوليك.

وكان ألكسندر ياروسلافيتش على أعتاب نصره الدبلوماسي الثاني الذي لا يقل أهمية عن ذلك الذي حققه مع القبيلة. ولكن في عام ١٢٦٣م في ذروة التحضير لحملة مشتركة ضد التنظيم الليفوني، توفي الأمير بعد عودته من رحلة جديدة إلى القبيلة. يمكننا أن نفترض أن ألكسندر ياروسلافيش توفي، وفقا للمصطلحات الحالية، نتيجة للتوتر والإجهاد. في الواقع، مثل هذه الإجراءات الدبلوماسية المعقدة والانتصارات الرائعة والصراع مع أبناء جلدته، كل ذلك كان يتطلب توترا عصبيا أكثر مما ينبغي، ولا يقوى الجميع على تحمله. ومع ذلك، يبدو غريبا أن ميندواجاس هو الآخر توفي بعده بوقت قريب. وهنا تتصاعد فكرة ملحة بأن سبب وفاة الأمير ألكسندر لم يكن الإجهاد. على الأغلب ينبغي للمرء أن يرى في وفاة ألكسندر وميندواجاس يد للمناصرين الموالين للألمان في روس وليتوانيا.

في ظل الظروف التي كان يوجد فيها بين دعاة التغريب الروس أشخاص يمكن شراؤهم واستخدامهم في الصراع ضد الوطن، كانت هناك حاجة مزدوجة لدى الإمارات الروسية إلى حليف موثوق يعتمد عليه في حوض نهر الفولغا. في عام ١٢٦٨م بعد ست سنوات من وفاة ألكسندر هاجم

النوفغوروديون قلعة راكفير المملوكة للدنماركيين (تقع مدينة راكفير المعاصرة بالقرب من مدينة تالين). في الطريق تعرضت أفواج النوفغورود إلى هجوم من قبل الألمان وحدثت مذبحة مروعة سميت بمعركة راكوفور. نجح النوفغوروديون في هزيمة قوات الحلفاء الألمان والدنماركيين. ومن دون تردد وجهوا الدعوة لعدد كبير من المحاربين والفرسان من أوروبا الغربية لعبور نهر نارفا واحتلال نوفغورود. ولكن عندها في نوفغورود، وبناء على المعاهدة الموقعة مع القبيلة، ظهرت فصيلة مكونة من ٥٠٠ فارس تتاري. فقام الألمان على الفور، دون حتى معرفة حجم هذه الفصيلة بالضبط، "بصنع السلام مع إرادة نوفغورود الكلية، فقط لكونهم كانوا مرعوبين جدا من اسم التتار". فنجت نوفغورود وبسكوف.

كما نرى، تجلت الجوانب الإيجابية للتحالف مع القبيلة بعد وفاة ألكسندر ياروسلافيتش. ففي أي مكان كانت تتدخل فيه قوات التتار، كان الضغط الصليبي يتوقف على الفور. وهكذا، في مقابل الضريبة التي تعهد ألكسندر نيفسكي بدفعها إلى سراي، حصلت عاصمة الدولة الروسية الجديدة على نهر الفولغا على جيش قوي يعتمد عليه، دافع ليس فقط عن نوفغورود وبسكوف. إذ بنفس الطريقة، وبفضل التتار حافظت في سبعينيات القرن الثالث عشر سمولينسك على استقلالها، حيث كانت واقعة تحت تهديد الليتوانيين.

في عام ١٢٧٤م اقترح سكان سمولينسك على أميرهم الخضوع طواعية للقبيلة، ومنذ ذلك الحين بما أن سمولينسك أصبحت تحت حماية التتار لم يجرؤ الليتوانيون على اقتحامها. وهكذا جلب التحالف مع القبيلة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر لروس الشمالية الشرقية السلام والنظام الثابت المستقر. علاوة على ذلك، حافظت الإمارات الروسية – التي عقدت

تحالفًا مع القبيلة الذهبية - على استقلاليتها الإيديولوجية واستقلالها السياسي. على سبيل المثال، بعد انتصار الفصيل المسلم في القبيلة بقيادة بركة خان لم يطالب أحد الروس بأن يعتنقوا الإسلام. هذا وحده يدل على أن روس لم تكن ولاية أو مقاطعة تابعة للمغول، بل كانت دولة حليفة للخان العظيم، كانت تدفع ضريبة معينة للإنفاق على القوات التي كانت هي نفسها بحاجة إليهم.

ما التفسير العرقي لهذه الأحداث الكبرى التي وقعت في القرن الثالث عشر؟ لقد ذكرنا بالفعل أنه في الحادي عشر وفي مطلع القرن الثالث عشر كانت الأرض الروسية تمثل عرقية كبرى موحدة. ولكن مع سقوط وهبوط الطاقة الخلاقة في القرن الثالث عشر، فُقدت الوحدة. ودخلت الأنظمة الفرعية المنفصلة للعرقية الكبرى التي أصابها الوهن والضعف كجزء من العوالم العرقية الأكثر شبابا. وبهذه الطريقة دخلت روس الشمالية الشرقية في عرقية المغول الكبرى. ولهذا السبب تحديدا نجد أن خلفاء باتو خان غير المسلمين أولاً - ثم المسلمون لاحقا مثل بركة خان - حلوا محل الأباطرة البيزنطيين في التسلسل الهرمي للأفكار والتصورات الجيوسياسية الروسية. في السابق كان الاعتقاد السائد في روس أن هناك قيصرًا واحدًا فقط وهو فاسيليوس القسطنطينية. وكانت الأراضي الروسية يحكمها الأمراء، أي الحكام المستقلون، ولكنهم كانوا في مرتبة الشخص الثاني في التسلسل الهرمي للدولة. بعد أن استولى الصليبيون على القسطنطينية عام ١٢٠٤م، وبعد انهيار سلطة الأباطرة البيزنطيين، بدأ لقب "القيصر" في روس يطلق على خانات القبيلة الذهبية. كانوا يطلقون عليه الألقاب التالية: "القيصر الطيب" جاني بك أو "القيصر الصارم" أوز بك.

أما الإمارات الروسية التي رفضت التحالف مع التتار، فتم الاستيلاء عليها جزئيا من قبل ليتوانيا وجزئيا من قبل بولندا، وكان مصيرها حزينا جدا. إذ كان الروس ينتظرهم مصير شعوب الدرجة الثانية في إطار العرق الأوروبي الغربي المتفوق.

وهكذا، فإن الأرض الروسية التي دخلت مرحلة الاضمحلال انشطرت إلى منطقتين بفعل القوتين القويتين للطاقة الخلاقة بين الغرب والشرق. في الوقت نفسه، من وجهة نظر التاريخ العرقي، يبقى من المهم للغاية الإجابة عن السؤال التالي: أية "روس" التي كان يمثلها ألكسندر ياروسلافيتش نيفسكي؟ وهل كان هو آخر أمير كبير في روس القديمة، أم أول أمير لروس العظمى المستقبلية؟ هل من الممكن وضعه على قدم المساواة مع فلاديمير مونوماخ أم تجب مقارنته مع دِميتري دونسكوي؟

يبدو أن الأمير ألكسندر نيفسكي وشركاءه كانوا ينتمون إلى جيل جديد من أولئك الناس الذين رفعوا "روس" إلى مصافر سامقة. وما يدعونا لذلك هو أن سلوك التضحية والفداء لألكسندر ياروسلافيتش ورفاقه كان مختلفا جدًا عن أخلاقيات الأمراء الإقطاعيين الروس القدامى. إن النمط المهيمن للسلوك الذي صاغه ألكسندر، والمتمثل في الوطنية الإيثارية، قد حدد مبادئ تنظيم وبناء روس لعدة قرون قادمة. فتقاليد التحالف مع شعوب آسيا التي وضع أساسها هذا الأمير كانت قائمة على التسامح القومي والديني، وقد ظلت حتى القرن التاسع عشر تجذب الشعوب التي عاشت في الأراضي المجاورة لروس. وأخيرا، بأيدي أحفاد ألكسندر ياروسلافش نيفسكي على وجه التحديد بُنيت على أنقاض دولة روس الكييفية القديمة في القرن الرابع عشر الدولة الروسية الجديدة والتي كانت تسمى في البداية الدولة الموسكوفية، ثم من نهاية القرن الخامس عشر أصبح تعرف باسم روسيا.

إن كل ما سبق ذكره يعطينا الفرصة لنقول بثقة إنه في بداية القرن الثالث عشر كان هناك على أراضي روس وجود لدفعة من الطاقة الخلاقة. يمكننا حتى، في ضوء افتراضاتنا، تحديد تاريخ هذه الدفعة بدقة. بدأ الناس "الجدد" يولدون حوالي ١٢٠٠م، بينما أصبحوا قوة تاريخية مع نهاية القرن الرابع عشر، حوالي عام١٣٨٠، وبذلك استمرت فترة حضانة مرحلة صعود الطاقة الخلاقة مدة ١٨٠عامًا تقريبًا، وهو ما لا يتناقض عمليًا مع البيانات الخاصة بالأمثلة الأخرى المعروفة للتكوين العرقي.

والتحقق من التأكيد القائل بحدوث دفعة للطاقة الخلاقة في روس في القرن الثالث عشر أمر سهل. وذلك لأن الأمر يكمن في حقيقة أن دفعة الطاقة الخلاقة، إذا حدثت، فإن تأثيرها لا يكتفي ببلد واحد أو عرق واحد قط. وكظاهرة عالمية كوكبية، فإن انفجار التكوين العرقي يغطي ويشمل ممرات وخطوط ضيقة ممتدة على سطح الأرض تمر عبر مناطق مختلفة تسكنها شعوب مختلفة. وفي هذه الممرات، التي تمتد لآلاف الكيلومترات، تبدأ بشكل متزامن عمليات التكوين العرقي لشعوب مختلفة في آن واحد. وهذا هو ما كان في القرن الثالث عشر.

يمكن تتبع هذه الدفعة في منطقة البلطيق أيضا: فعلى ضفاف نهر نيمان نتيجة لاختلاط القبائل الليتوانية مع السكان السلافيين نشأت عرقية ليتوانية جديدة. كما دخل وادي بريبيات ومنطقة دنيبر داخل منطقة الدفعة هذه: حيث بدأت تنطلق من هنا هجرة السكان الروس البولنديين المختلطين الذين شكلوا فيما بعد مجموعة عرقية تسمى الأوكرانية. وبالتزامن مع العمليات التي جرت في روس الشمالية الشرقية وليتوانيا، بدأ تكوين العرقيات الجديدة في الجزء الغربي من آسيا الصغرى، حيث بحلول نهاية القرن الثالث

عشر كانت قد نشأت هناك عرقية جديدة وهي العثمانية. كان الأتراك العثمانيون الذين سكنوا الجزء الشرقي من آسيا الصغرى مختلفين تماما عن الأتراك السلاجقة (التركمان). ربما يكون هناك ارتباط بين حركة وتأثير الدفعة التي وقعت في القرن الثالث عشر وبين ظهور عرقية تتار القرم، الذين انضموا فيما بعد إلى العثمانيين.



الفصل الثالث

روسيا بين القبيلة الذهبية والأطماع الأوروبية

- روس بعد ألكسندر نيفسكي
- أفول كييف وصعود موسكو
- ليتوانيا وبولندا يستهدفان روس
- الكنيسة والصراع السياسي في موسكو
- ماذا يحدث في القبيلة الذهبية؟
- القبيلة الزرقاء
- المعركة التاريخية في ساحة كوليكوفو

كثيرا ما يقال إن الطبيعة لا تهب أبناء العظماء ما منحته لآبائهم. كان لدى ألكسندر ياروسلافيتش نيفسكي العديد من الأبناء، لكنهم جميعا كانوا بعيدين عن قدرات والدهم العظيم. فالابن الأكبر فاسيلي، الذي سجنه أبوه ألكسندر في نوفغورود، لم يستطع في البداية الاتفاق مع سكان المدينة فطردوه، ثم حاول، أن يحرض نوفغورود ضد سفراء التتار عبر تنظيمه لتمرد ضد والده. تسامح الأب مع ابنه وأسلمه لموتة هادئة وسلمية بإدمان السُكر والشراب. كان ابنا ألكسندر الأميران دميتري وأندريه أكثر نشاطا وفاعلية. انضم دِميتري إلى أنصار الاتجاه الغربي في حين دعم أندريه خانات القبيلة الذهبية.

روس بعد ألكسندر نيفسكي

تشكلت في القبيلة الذهبية بنهاية القرن الثالث عشر وتحددت بوضوح ملامح المرحلة الجديدة من التكوين العرقي المغولي. فقد تزايد بشكل ملحوظ عدد النشطين والجشعين والمستعدين لعمل أي شيء من أجل المجد والشهرة والغنيمة، ونتيجة لذلك نشأت بينهم احتكاكات مستمرة. حاول القائد "نوغاي" حاكم المناطق الغربية من القبيلة (سهوب البحر الأسود وساحل شبه جزيرة القرم) التحرر من سلطة خانات القبيلة الذهبية، وأصبح في الواقع حاكما مستقلاً تقريبا. اعتمد نوغاي في مساعيه على الكومان، وهم السكان الأصليون لسهوب البحر الأسود؛ كما اعتمد على روس لحاجته إلى الدعم،

وقد وصل إلى اتفاق للتحالف مع دِميتري بن ألكسندر. ونتيجة لذلك حقق القائد الطموح نجاحًا كبيرًا، حيث سيطر على خانات القبيلة الذهبية. استمر هذا الأمر حتى استطاع "توكتا خان" – الذي اتضح أنه رجل نشط – عقد تحالف مع الأمير أندريه بن ألكسندر الذي جاءت قواته لمساعدة الخان.

في عام ١٢٩٩م في المعركة الحاسمة التي جرت رحاها في موقع بين نهري دنيبر ودنيستر انتصر تتار الفولغا بدعم من القوات الروسية، وبفضل دعم من تتار سيبيريا وآسيا الوسطى من القبيلتين "الزرقاء" و"البيضاء". وقع نوغاي نفسه في الأسر. وقد أسر هذا المحارب الرهيب جندي روسي، لم يأخذه إلى الخان، بل قطع رأس الأسير وأحضرها إلى الخان توكتا. وكان هذا الفعل من وجهة نظر الأخلاقيات العسكرية المغولية غير لائق: كان من المفترض أن يُعدم نوغاي كمجرم بناء على حكم الخان، وألا يقتل هكذا كأسير. وأمر توكتا بقطع رأس الجندي الروسي. وقد بات توكتا، الذي أصبح حاكما مستقلا تماما بعدما تمكن من إخماد تمرد "نوغاي"، مؤيدا قويا لروس ودعم الأمراء الروس، وبفضله تمكن الأمير أندريه من هزيمة شقيقه دِميتري.

حصل دانيال الابن الأصغر لألكسندر نيفسكي على سلطة الإمارة في بلدة صغيرة وسط الغابات تسمى موسكو. على عكس الأمراء الآخرين كانت خبرة دانيال الحربية قليلة. كان أمير موسكو يعمل في مجال الاقتصاد: فأعاد بناء مدينته وطوّر الزراعة والحرف اليدوية. كان غزوه الوحيد هو مدينة كولومنا التي كانت تابعة لأمراء ريزان. بفضل سياسته السلمية اكتسب دانيال سمعه كبيرة ومع بداية القرن الرابع عشر أصبح أحد الأمراء الأكثر نفوذا في روس.

بعد وفاة أندريه بن ألكسندر عام ١٣٠٤ صار ابن عمه ميخائيل بن ياروسلاف التفيري(١)، الأمير المعظم الكبير وذلك بدعم من "توكتا خان". كان

ميخائيل ياروسلافيتش في هيئته وشخصيته مشابهاً للمحارب الملحمي، فقد كان شجاعا جسورا ونبيلا مخلصا لكلمته. وهذه الصفات أثارت إعجاب الخان، وتمتع ميخائيل التفيري بثقته الكاملة. ومع انتقال "العرش المعظم" إلى ميخائيل التفيري، أفلتت السلطة الحقيقية من أيدي أبناء ألكسندر ياروسلافيتش.

أفول كييف وصعود موسكو

وهكذا مع مطلع القرن الرابع عشر كانت دولة روس الكييفية القديمة قد طواها الزمن وتوارت الوحدة السياسية أو العرقية للروس. نعم، بقي الناس، لكن نظام السلطة نفسه وتنظيم العلاقات الاجتماعية دُمِّر بالكامل. وحلت محل المدن القديمة في منطقة حوض دنيبر مراكز جديدة. كان أهمها: تفير وهي مدينة غنية جميلة تقع على نهر الفولغا، والتي كان لها موقع جغرافي متفرد؛ وسمولينسك التي تعتبر الدرع الغربي لروس؛ وريزان التي كانت بمثابة حائط دفاع ضد الغارات العشوائية التي شنها لصوص السهوب، وكذلك "نيجني نوڤغورود" التي تم اقتطاعها من أهل "موردوف"، وهي مدينة تجارية ومركز مستعمرة على الحدود مع بلغار الفولغا. وعلاوة على كل ذلك مدينة موسكو الصغيرة المفقودة وسط الغابات.

غير أنه حتى هذا الجزء الصغير من روس الذي تبنى البوصلة التتارية بفضل سياسة ألكسندر نيفسكي لم يكن يشكل كيان دولة متكامل. فبعد وفاة ميخائيل التفيري مباشرة أصبحت تفير خصما لموسكو. ورغم اعتراف "نيجني نوڤغورود" بسلطة الأمير المعظم على سوزدال إلا أنها كانت تتوق للاستقلال. أما أهل ريزان الذين اعتادوا الحرب، فقد حاربوا الموسكوفيين،

مثلما تقاتلوا مع التتار وبالمثل كانت جمهورية "نيجني نوڤغورود" لا تعتبر نفسها جزءًا من الأراضي الروسية، حيث حظيت بكل الفرص لكي تصبح عرقًا سلافيًا خاصًا. أما النوڤغوروديون - الذين يمتلكون طاقة خلاقة أعلى مع الحفاظ على تقاليد الحكم القائم على نظام مجلس فيتشيه - فقد خسروا أنفسهم في مواجهة بقية روس "الأراضي الدنيا". كما استمرت نوڤغورود في الحفاظ على ميلها وتعاطفها مع الغرب. فعلى سبيل المثال، استقبل بعض كهنة نوڤغورود المفكرين الغربيين المتحررين ممن عارضوا دوما الأرثوذكسية الكنسية البيزنطية. وليس من قبيل المصادفة، كما سنرى لاحقا، أن نوڤغورود في القرنين الرابع عشر والخامس عشر أصبحت أكثر من مرة مصدرا للهرطقة الكنسية في روس.

عندما كان يتم تتويج الأمير في منصب الأمير المعظم لإمارة فلاديمير بعد حصوله على تسميته من "القيصر" - أي من خان القبيلة الذهبية - فإنه لم يكن يحصل فعليا سوى على سكان إقطاعتيه كرعايا، أي سكان موسكو وتفير وسوزدال. وكان بوسع هؤلاء إن لم يعجبهم هذا الأمير أو النظام الذي وضعه أن يذهبوا بحرية تامة إلى أي مكان على بعد بضعة عشرات من الأميال في أي إمارة مجاورة وأن يشعروا بالاستقلال التام هناك.

بقيت العقيدة الأرثوذكسية هي الخيط الوحيد الذي يربط بين جميع الروس في القرن الرابع عشر. وكان أي شخص يعتنق الأرثوذكسية ويقر ويعترف بالسلطة الروحية للمطران الروسي يعد روسيًا. ولهذا فإن الكنيسة الأرثوذكسية فقط هي من قاومت انهيار روس في ذلك الزمن. وقد أكّدت الأحداث التالية النمو غير المشروط لهيبة السلطة الروحية بين الناس.

في عهد ميخائيل التفيري وقع حادث يبدو للوهلة الأولى غير ذي أهمية، لكنه لعب في الواقع دورا حاسما في قيام دولة موسكو المستقبلية. في عام ١٣٠٥ قام مجمع فولين المقدس بانتخاب الراهب بيوتر (بطرس) مطرانا لإمارة فلاديمير (كانت مدينة فلاديمير مقر الكرسي المطراني منذ ١٢٩٩). وقام المطران الذي انتقل للإقامة في فلاديمير بزيارات إلى الأبرشيات والأديرة، وكان يؤدي عمله المفضل وهو رسم الأيقونات. ومع أن خدمته الدينية سارت على نحو سلس إلا أنه لم يسلم من مكائد الأساقفة الذين كانت لهم الحظوة عند الأمير ميخائيل التفيري فأخذوا يحيكون الدسائس ضده متهمين إياه بارتكاب خطية سيمون، أو إذا تحدثنا ببساطة، اتهموه بالرشوة. فقد كان بيع الرتب والمناصب الكنيسة يعتبر جريمة خطيرة تهدد المسؤول بالحرمان الكنسي، ولكن عزل المطران كان يتطلب قرارا من المجمع المقدس.

ثم حدث ما هو غير متوقع: جاء إلى الكاتدرائية خلق كثير من الناس العاديين من مدن فلاديمير وياروسلافل وموسكو وكوستروما وريزان. وعندما بدأ الأساقفة الاجتماع وثار الجدل أجبر الناس الأمير والمجلس على تبرئة بيوتر. وبطبيعة الحال، حاول بيوتر بعد ذلك عدم زيارة تفير لكنه فضل عليها موسكو، أكثر وهناك لقى الترحيب والود. ستظهر عواقب الخلاف مع المطران وتعاطفه مع موسكو أكثر، في سقوط الأمير ميخائيل وإمارة تفير لاحقا.

كان لدى دانيل أمير موسكو ابنان، الأكبر منهما يدعى "يوري"، وكان شخصا لا يُقهر عديم المبادئ ضيّق الأفق، وعلى النقيض تمامًا كان الأبن الأصغر "إيفان" هادئا يُشهد له بتقوى الله والبراعة في شؤون الاقتصاد. شيء واحد فقط قرب بين "يوري" و"إيفان": كلاهما فقد العرش المعظم، وكلاهما

كانا مستعدين لفعل أي شيء لاستعادته. ورث يوري إمارة موسكو وهو كاره لميخائيل التفيري الذي كان يمتلك مرسوم الإمارة الكبرى المعظمة. وابتسم القدر لأمير موسكو، لقد تغير الخان في القبيلة الذهبية.

في ظروف غامضة أثناء توجهه إلى المرعى الصيفي مات توكتا خان، راعي ميخائيل. استولى الأمير "أوزبك" على السلطة في ١٣١٢، كان أوزبك مدعوما من جانب حشد مسلمي القبيلة الذهبية الذين استقروا منذ ذلك الحين في مدن الفولغا، وبهذا الشكل وصل إلى السلطة في العاصمة "سراي" فصيل جديد، هو الفصيل الإسلامي.

أظهر أوزبك، وريث تقاليد "بِركة خان"، نفسه حاكما بالغ القسوة. باعتناقه الإسلام طالب جميع رعاياه تحت تهديد القتل اعتناق ذلك الدين. حتى ذلك الحين لم يتم أبدا استخدام القمع لأسباب دينية في القبيلة، لذلك لم يكن من المستغرب أن الكثيرين رفضوا قبول "دين العرب". ذلك أنه وفقا لقانون "ياسا" التتري الذي وضعه جنكيز خان لا يستطيع الخان الحاكم التدخل في مسائل الإيمان، وقد فهم المغول دائما حرية الضمير والاعتقاد كحق شخصي لكل إنسان. لم يتردد "أوزبك" في رفض هذا المبدأ، فتم إعدام جميع الذين رفضوا اعتناق الإسلام، بما في ذلك سبعين أميراً من نسل جنكيز خان. لكن عددا كبيرا من التتار (المسيحيين والوثنيين) الذين رفضوا اعتناق الإسلام تمكن من الفرار إلى روس أثناء حكم أوزبك.

قرر يوري دانييلوفيتش الموسكوفي الاستفادة من تغيير السلطة في القبيلة الذهبية في صراعه مع ميخائيل التفيري. كانت تفير أكثر ثراءً وأكثر عدوانية من موسكو، لكن الصدامات العسكرية بين موسكو وتفير لم تحقق تفوقاً حاسماً لأي من الجانبين، لذلك كان من الصعب على يوري دانييلوفيتش إدارتها

وتجاوزها دون مساعدة الخان الجديد للقبيلة الذهبية. ذهب يوري مرات عديدة إلى القبيلة، واستطاع ليس فقط الحصول على دعم أوزبك، ولكن أيضًا أصبح أحد أقرباء الخان بزواجه من "كونشاك" شقيقة الخان. بعد حصوله على المساعدة التتارية بحجة أن التفيريين "يميلون" إلى أعداء التتار، أي الليتوانيين، وبعد إبرام تحالف مع نوفغورود تحرك يوري صوب مدينة تفير.

تبدى أن أمير موسكو قائد عسكري لا نفع فيه، وتمكن ميخائيل من هزيمة جيش يوري وأسر زوجته، التي أصبح اسمها أغافيا بعد تعميدها. غير أن هذا النجاح للأسف دمر أمير تفير، إذ ماتت أغافيا بعد أن عاشت في الأسر بعضا من الوقت في ظروف غريبة للغاية. لم يتردد يوري في استغلال هذا الحادث، حيث اتجه إلى القبيلة وبمجرد أن وصل اتهم ميخائيل بقتل كونشاك–أجافيا عمدًا، وهنا حُسم مصير الأمير الأكبر.

حصل يوري على "العرش المعظم" بعد الإطاحة بميخائيل التفيري، وتم استدعاء أمير تفير إلى القبيلة. ولعدم رغبته في جعل مدينته الأم عرضة للنهب والدمار ذهب ميخائيل بنفسه إلى أوزبك الذي أمر بضرب عنقه. وكان من قام بتنفيذ القتل هم رجال يوري الموسكوفي ورفيقه التتاري كافغادي. تم تعذيب الأمير المعظم بحبسه في قيد خشبي لفترة طويلة، بينما كان يقدم له أسوأ أنواع الطعام، فضلا عن ذلك أهانوا الأسير كثيرا، ثم قتلوه في النهاية ذبحاً.

ولم يعد قتل البريء بفائدة على المتسببين في التخلص منه. فسرعان ما أدين كافغادي بارتكاب جرائم وأعدم أيضا. بينما التقى يوري هو الأخر في القبيلة مع ابن ميخائيل، واسمه دميتري ذو العيون الرهيبة، فقطع الشاب التفيري رأس المتآمر الموسكوفي. وبما أن حق المحكمة والإعدام في القبيلة كان يعد حقا حصريا للخان، فقد تم إعدام دِميتري ميخائيلوفيتش على تصرفه

الانتقامي خارج عرف القانون. وهكذا مات وريث أمير تفير وكانت لوفاته عواقب استثنائية. فالابن الأصغر لميخائيل، واسمه ألكسندر، بعد أن علم بوفاة شقيقه تخلى عن التحالف التقليدي مع القبيلة وراهن على ليتوانيا.

ليتوانيا وبولندا يستهدفان روس

كان موقف ليتوانيا مقارنة بإمارة فلاديمير مفيدا للغاية. إذ تأثرت ليتوانيا، كما نعرف بدفعة من الطاقة الخلاقة التي وقعت في القرن الثالث عشر، وهي دفعة أعادت إحياء عدد من القبائل الليتوانية. وطبقا لعلم أسماء الأماكن (الطوبونوميا) احتلت القبائل الليتوانية في العصور القديمة الأرض الممتدة إلى مدينة تامبوف الحالية تقريبا، ولكن بحلول الفترة التي تمثل اهتماما بالنسبة لنا، فإنه في جنوب السهول الروسية (في شرق أوروبا) كانت قد اختفت بالفعل، واندمجت مع السكان المحليين من الفينو أوغريين والسلاف. نجحت القبائل الليتوانية القديمة فقط في الحفاظ على بقائها في منطقة البلطيق وبيلاروسيا، ولكن حتى هناك كانوا في حالة من الجمود لعدة قرون. إلى الغرب منها كانت تقطن قبيلة "تشود"، وأبعد من ذلك إلى الغرب أيضا كان يعيش سكان "بروسيا". وفي شرق بيلاروسيا المعاصرة كان يقيم "الياتفيغ"، بينما كانت قبيلة "غولاد" تقطن في منطقة كولومنا.

كان الحاكم الذي تمكن من لملمة هذه الشظايا المتناثرة وإقامة دولة ليتوانيا الموحدة هو الأمير الليتواني "ميندوجاس" الذي تحدثنا عنه لاحقا والذي كان من نفس عمر ألكسندر نيفسكي. وبعد الموت المأساوي لميندوجاس حدث شيء عادة ما يحدث دائما في بداية مرحلة صعود الطاقة الخلاقة: اندلع صراع على السلطة بين الأمراء الليتوانيين طوال القرن الثالث

عشر، فتقاتلوا فيما بينهم من أجل السلطة. وفقط في بداية القرن الرابع عشر، تمكن أحدهم في نهاية المطاف ويدعى غيديمين (غيديميناس) من سحق المنافسين وشرع في انتهاج سياسة الغزو.

كان أول غزو له هو "روس السوداء"، وهي منطقة تقع بالقرب من مدينة غرودنو، حيث إنها الجزء الغربي الأكبر من دولة روس. ثم تمكن غيديمين من إخضاع المدن التي تنتمي الآن إلى "روسيا البيضاء" وهي: بولوتسك ومينسك وفيتبسك. بعد ذلك، بدأ الليتوانيون بالتسلل تدريجيًا إلى فولين وإلى غاليسيا، حيث كان يحكم ليف وأندريه حفيدا "ملك روس الصغرى" دانييل رومانوفيتش غاليتسكي. كان الأمراء الجاليكيون يتمتعون بقدر ضئيل من القوة لدرجة أنهم لم يتمكنوا بالشكل الكافي من مقاومة التتار أو الليتوانيين أو البولنديين أو الهنغاريين. صحيح أن التتار في ذلك الوقت قاموا بقمع تمرد نوغاي، ولم يكن لهم شأن حينها في فولين، لكن الليتوانيين كانوا يحاولون بنشاط الاستيلاء على هذه المنطقة.

ومع ذلك فشل غيديمين في إخضاع غاليسيا. ونتيجة لسلسلة من الحروب الصغيرة احتل البولنديون غاليسيا، بينما احتل المجريون منطقة روس زاكارباتيا (خلف جبل الكربات) ولم تخضع لليتوانيين سوى فولين الشرقية. كانت "كييف" هي القادمة على القائمة، فقرر أمير كييف ستانيسلاف الدفاع عن مدينته، التي لا تزال هناك بقية من مجدها العظيم. طلب ستانيسلاف المساعدة من الأمراء الروس الآخرين، بما في ذلك من أمير سيفيرسك. وعند نهر إيربن في عام ١٣٢١ اصطدم مع قوات غيديمين. فاز الليتوانيون بالمعركة وحاصروا كييف. وبما أنه لم يكن هناك أمل في أن تصل مساعدة، قدم أهالي كييف فروض الولاء إلى الدوق الليتواني الأكبر

غيديمين مظهرين له التبعية، فتركت لهم كل الإقطاعيات والضيع وأصبح أمير كييف "مجرد تابع" للدوق الليتواني غيديمين.

بعد الاستيلاء على كييف استمر توسع الليتوانيين. تحت ضغط هجمات لا تقاوم للفرسان الليتوانيين سقطت جميع المدن الروسية حتى كورسك وتشرنيغوف. وهكذا في ظل حكم غيديمين وابنه ألجيرداس تم إنشاء دوقية ليتوانيا الكبرى. تجدر الإشارة إلى أن السمة المميزة لليتوانيا في القرن الثالث عشر كانت هي الحفاظ على الإيمان الوثني القديم في الإله المحارب "بيرون"، وفي الحفاظ أيضا على الموقف السيئ للغاية تجاه المسيحيين، سواء في الغرب أو في الشرق. ومع ذلك استطاع غَيديمين، الرجل الذكي قوي الشكيمة، والذي كان هو نفسه وثنيا، أن يصفي حسابه مع الشعب الروسي المسيحي.

وقد اتبع سياسة غيديمين ولداه ألجيرداس وكيستوت. تنقل سجلات المخطوطات الروسية كثيرا من المعلومات عن الابن الأول ولا تذكر شيئا تقريبًا عن الثاني، بيد أن سجلات الصليبيين، على العكس من ذلك تتحدث غالبًا عن كيستوت وتكاد لا تلاحظ ألجيرداس. هذا يرجع إلى حقيقة أن الإخوة قسّموا مجالات النفوذ. فجلس كيستوت في زمود (ساموجيتيه) وحارب الألمان، أما ألجيرداس، فخاض الحروب مع موسكو والتتار في محاولة الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي الروسية. في الوقت نفسه، اعتنق الأرثوذكسية ألجيرداس وابن أخيه فيتوتاس، وإن كان ذلك بشكل صوري. وتزوج الأميران الليتوانيان من أميرات روسيات وجمعوا ووحدوا حولهم من تبقى من آل روريك الناجين من أرض "توروف بينسك". وبالتدريج تم ضم الأراضي الروسية القديمة داخل دوقية ليتوانيا الكبرى.

تمكن ألجيرداس من إخضاع منطقة ضخمة تمتد حدودها تقريبا إلى البحر الأسود والدون. وفي عام ١٣٦٣ في معركة حاسمة مع التتار عند نهر المياه الزرقاء (الآن نهر سينيوها، أحد الروافد الجنوبية لنهر بوك)، هزم ألجيرداس سكان السهوب، وبالتالي استولى على الجزء الغربي من السهوب الكبرى بين دنيبر وفرع الدانوب ووصل إلى البحر الأسود.

لكن ليتوانيا ظلت محصورة بين روس الأرثوذكسية ومجمل أوروبا الكاثوليكية. خاض الليتوانيون قتالا ضروسا ضد الألمان، من نظامي الفرسان الليفونيين والتيوتونيين، وبالتالي فإن أنصار فصيل الغويفليين، وفي المقام الأول الكاثوليك البولنديين، يمكن أن يصبحوا حلفاءهم الموضوعيين. على الأرجح أنه في هذا الإطار سمح غيديمين لرعاياه باعتناق الإيمان الكاثوليكي. بالإضافة إلى ذلك، ربما أخذ في الاعتبار أنه إلى جانب الوحدة الأيديولوجية كان لدى الليتوانيين سبب ومبرر آخر للوحدة مع البولنديين. فقد شن الليتوانيون باستمرار غارات على بولندا، وفي المقام الأول على مازوفيا، حيث كانوا يجلبون من هناك الفتيات البولنديات، وهكذا تحديدا بدأت العملية القوية للتكامل البولندي الليتواني[٢].

كانت هناك بالفعل مقدمات لتطوير العلاقات والاتصالات البولندية الليتوانية. كانت بولندا، التي لم تطالها موجة الطاقة الخلاقة، في حالة أزمة عميقة. كانت مازوفيا تقع على حدود ممتلكات نظام الفرسان الذي يسيطر على بروسيا، بينما كانت بولندا الصغرى (منطقة تاريخية يقع مركزها في كراكوف) قد تخصلت بالكاد من هيمنة التشيك الذين تمكن الملك البولندي الموهوب- سليل سلالة بياست فلاديسلاف لوكيتك – من طردهم.

بعد انتهاء سلالة بياست (١٣٧٠)، انتقلت السلطة في البلاد إلى الفرنسي لويس أنجو الذي قام بدوره بتسليم التاج البولندي لابنته جادويغا. ولكن عندما أرادت جادويغا أن تتزوج من حبيبها فيلهلم ابن ليوبولد إمبراطور النمسا، تدخل كبار الأقطاب البولنديين وعرضوا على الملكة أن تتزوج من الدوق الليتواني يوغيلا من أجل مصالح الدولة، لكي يتم توحيد قوى بولندا وليتوانيا من أجل وقف توسع الألمان. وفي ختام المطاف أُعيد فيلهلم إلى النمسا، واضطرت جادويغا لتعميدها على عجل.

بعد الزواج من جادويغا أصبح يوغيلا حاكما كامل الحقوق لدولة بولندا وليتوانيا الموحدة، وبهذه الصفة أصدر أمرًا لجميع غير المسيحيين في ليتوانيا بالتحول إلى الكاثوليكية. وهكذا تحديدا وقع اتحاد "الكريفو" (١٣٨٦). ومع ذلك لم يستقبل الجميع هذا القرار بسرور. فأولئك الليتوانيون الذين ربطوا أنفسهم مع الروس، (ونعني هنا أحفاد غيديمين وأنصار فيتوتاس) لم يرغبوا في قبول اعتناق الكاثوليكية. كان فيتوتاس مؤيدًا للحل الوسط للمسألة الدينية، لكنَّ عددًا كبيرًا من الأرثوذكس المتحمسين في ليتوانيا لم يساعده على تحقيقه. وهكذا جلب الجيران الطاقة الخلاقة الليتوانية (نتيجة لموقع ليتوانيا الحدودي بين بولندا وروس الفلاديميرية). فقد اعتنق جزء من الليتفيين (الليتوانيين) الكاثوليكية، في حين اعتبر الآخرون الأرثوذكسية أكثر قبولا بالنسبة لهم. وكان هذا نتيجة لانفجار الطاقة الخلاقة.

الكنيسة والصراع السياسي في موسكو

كان للتأثير المتنامي للكاثوليكية في ليتوانيا وتوجيه الأمير ألكسندر التفيري للبوصلة تجاه ليتوانيا عواقب وخيمة بالنسبة لموسكو. فبما أن ألكسندر قد حصل على دعم الدوق الوثني الليتواني غيديمين، فإن هذا جعله

عدوًا للتتار، الذين كانوا يسعون للوصول إلى حل وسط مع المسيحيين. ولهذا السبب أعربت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية عن دعمها لموسكو.

وقد فضل اليوناني ثيوغنوست، حفيد المطران بيوتر، التعامل مع موسكو التي أثبتت أنها عماد الكرازة المطرانية، وليس تفير التي أصبحت حليفة للكاثوليك. في غضون ذلك كان عرش موسكو قد انتقل إلى إيفان دانييلوفيتش كاليتا، شقيق يوري المتوفى في ١٣٢٥. قامت سياسة كاليتا على استخدام التحالف مع التتار لصالح موسكو. بالإضافة إلى ذلك حاول الأمير إيفان شراء ممتلكات وإقطاعيات الأمراء المفلسين، إذ لم يكن في مقدور الإمارات الصغيرة المنافسة مع موسكو الغنية التي أنشأها دانيال وورثها إيفان كاليتا. وخلال سنوات حكمه وسع إيفان كاليتا حدود الإمارة، وعلى وجه الخصوص بشراء مدينة روستوف القديمة.

لكن الإنجاز الرئيس الذي يستحق الإشادة لإيفان كاليتا ولا يزال حتى الآن غير مقدر جيدا من جانب علم التأريخ التقليدي يكمن في شيء آخر. ففي ظل حكم إيفان كاليتا تم تطبيق مبدأ جديد لبناء الدولة، وهو مبدأ التسامح العرقي. فعلى عكس ليتوانيا، حيث أعطيت الأفضلية للكاثوليك، وعلى النقيض من القبيلة الذهبية – التي شهدت هيمنة المسلمين بعد انقلاب أوزبك – كان اختيار رجال الدولة والرسميين في موسكو يتم حصرا على أساس الكفاءة وفقا للصفات العملية. فكاليتا وورثته كانوا يعينون في خدمتهم التتار (المسيحيين والوثنيين الذين فروا من القبيلة بعد انتصار الإسلام ولم يرغبوا في التنازل عن اعتقاداتهم وقناعاتهم الدينية)، والليتوانيين الأرثوذكس الذين غادروا ليتوانيا بسبب الضغط الكاثوليكي الذي لا يطاق ولا يحتمل، والناس الروس العاديين الذين كانت كل ثروة للواحد منها حصان وسيف.

لم يكن هؤلاء الأشخاص يملكون شيئا، ولذلك كانوا يبحثون عن الخدمة، أي الواجبات العسكرية التابعة للدولة، والتي كان يجب على أمير موسكو مكافأتهم عليها في شكل طعام وشراب. لقد أصبح الإيمان الأرثوذكسي بمثابة القوة التي تربط جميع "الوافدين الجدد" إلى موسكو. فقد كانت المعمودية الطوعية شرطًا أساسيًا للدخول إلى الخدمة في موسكو. كما كان التعميد أمرا ضروريا للزواج أيضا. وقد تزوج العديد من التتار القادمين من القبيلة من الروسيات الجميلات، كما تزوجت النساء التتاريات من الرجال الروس.

وهكذا انتصرت الأرثوذكسية تدريجيًا في جميع أنحاء الأرض الشمالية الشرقية، على الرغم من الحفاظ على بعض التقاليد الوثنية في نفس الوقت.

لقد طال تعزيز التقاليد المسيحية في روس الشمالية الشرقية في القرن الرابع عشر في المقام الأول الموظفين الرسميين. فكما كان الحال في روس كييفية بعد تعميدها، وكذا في روس القرن الرابع عشر، فإنه كان بإمكان الشخص أن يصبح محاربًا أو حارسا على غرفة الأمير أو مقرب من طبقة البويار فقط إذا كان مسيحيًا. وبما أنه كان هناك التزام صارم بهذا الشرط، لم تكن هناك فرصة إذن للترقي الوظيفي والمهني في روس بالنسبة للمعارضين الرئيسيين للمسيحية (الوثنيون ذوو الطاقة الخلاقة) وكذا للمعارضين المبدئيين لأية مبادئ (الكسولين، ذوي الطاقة الخلاقة الكاذبة). وهنا جاء التتار لمساعدة الوثنيين الروس. فالخانات المغول كانوا يقبلون في الخدمة الجميع وأي شخص. وقد اتجه الوثنيون الروس مع قوات الخانات أولا إلى منطقة الفولغا، ومن ثم إلى الشرق الأقصى، إلى الصين.

وهكذا ظهرت بالقرب من بكين المستوطنات الروسية، التي كان سكانها يشكلون فرقا منفصلة في الجيوش المغولية التي سارت إلى الهند

الصينية وبورما، حيث خاض المعارك وحققت الانتصارات لخان المغول. كانت المستوطنات الروسية في الصين موجودة حتى نهاية القرن الرابع عشر، إلى أن قام الصينيون بتدميرها على رؤوس سكانها خلال الانتفاضات المناهضة للمغول.

وهكذا اختفى ببساطة الجزء المناهض للمسيحية من سكان روس نتيجة للهجرة، في حين زاد عدد المسيحيين النشطين في موسكو، بسبب تدفق أصحاب الطاقة الخلاقة من القبيلة الذهبية وليتوانيا والإمارات الروسية النائية. وقد اعتبر الأرثوذكسيون الروس في موسكو (المجتمع المكون من جذور وركائز مختلفة) أن زعيمهم الروحي الأكبر لروس هو المطران، وبالتالي أصبحت الأرثوذكسية الفعالة هي النمط المهيمن على السلوكيات لدى العرقية الجديدة الناشئة. وقد انعكست هذه الحقيقة في الواقع في اسم هذا المجتمع الجديد. ففي ذلك الوقت تحديدا، أي في القرن الرابع عشر، حصلت روس على صفة "المقدسة". وقد أشار هذا النعت المميز إلى أنه قد حل محل روس الكييفية القديمة عرقية عظمى جديدة تماما، هي "روس الموسكوفية".

وبما أن القساوسة الروس ورعيتهم كانت تعتبر أن قيمها المثالية تكمن في الالتزام بشريعة الأرثوذكسية البيزنطية، فإن العلاقات بين روس والقسطنطينية شهدت بالتالي تغيرات مهمة. لقد أضحت سلالة "باليولوج" – الذين استولوا على عرش الباسيلوس في عام ١٢٦١ – أباطرة بدون إمبراطورية، أي حكام مدينة متهدمة محاطة بالأعداء من جميع الجهات. وكان على الحكام الباسيليوس – ممن لم يكن لديهم القوة ولا الوسائل – البحث عن حلفاء أقوياء، والأقوى من هؤلاء هم الأتراك العثمانيون في الشرق، والصليبيون في الغرب.

وبما أن الأتراك هاجموا بيزنطة، والصليبيين غادروا القسطنطينية، فقد سعى آل باليولوج لإبرام اتفاق مع العرش البابوي والحصول على المساعدة الضرورية من الغرب لصد الأتراك ومنع المسلمين من الاستيلاء على آسيا الصغرى. لكن العرش البابوي رهن تقديم المساعدة لليونانيين بشرط لا يقبل المساومة وهو عقد اتحاد ديني. وهذا يعني أن الكنيسة الأرثوذكسية يجب أن تخضع لروما وتقبل "رمز الإيمان" الكاثوليكي مع الاحتفاظ بالأشكال الأساسية للطقوس الكنسية الدينية الشرقية. وفي السياق العرقي كان الاتحاد يعني دخول بيزنطة إلى نطاق العرقية الأوروبية الغربية المتفوقة مع كل ما يترتب على ذلك من عواقب.

نذكر هنا أيضا ظرفا آخر، عند قيامها بتقديم وعد لليونانيين بمساعدتهم في القتال ضد الأتراك، لم تكن لدى روما في واقع الأمر أية قدرات أو إمكانيات لتقديم هذه المساعدة. فالحروب مع الأباطرة الألمان، خصوصا مع فريدريك الثاني، وحركات الكاثار (تيارات مسيحية باطنية)، فضلا عن الفشل في الأرض المقدسة، كل ذلك أدى إلى فقدان العرش البابوي القدرة على التعامل بجدية وفعالية مع الشؤون اليونانية. وكان موقف العرش البابوي نفسه مهزوزا ومحفوفا بالمخاطر. لقد قام الأنجويون بطرد البابا نيكولا الثالث أورسيني من نابولي. بينما قام الفرنسيون باعتقال وسجن البابا بونيفاس الثامن، بل والأدهى من ذلك ما قام به أحد أعدائه وهو الكونت كولونا، حيث لطم رئيس الكهنة الروماني على وجهه. فضلا عن ذلك، لم يكن اللاتين حريصين على مساعدة اليونانيين: إذ ما الذي يدفعهم للاهتمام بـــهؤلاء "المنشقين"؟

ومع ذلك بدأت المفاوضات بين الأباطرة اليونانيين والباباوات، وبالطبع كانت هناك اليونانيين الأرثوذكس المخلصين معارضة قوية لفكرة الاتحاد.

وأحد مراكز هذه المعارضة كان الجيش. أدرك القادة اليونانيون جيدا أنه كان من المستحيل الحصول على مساعدة حقيقية من روما، مما يعني أنهم على أي حال سيضطرون للدفاع عن أنفسهم. وأصبح المعقل الثاني للمعارضة هم المفكرون الأرثوذكس، ونعني بهم الكهنة والرهبان، الذين رفضوا الفكرة الوحدوية من حيث المبدأ لأسباب لاهوتية. وبما أن معارضي الوحدة لم يكن مرحبا بهم في العاصمة، فقد اضطر المدافعون عن الأرثوذكسية إلى مغادرة القسطنطينية، وبدأوا في الذهاب إلى الأديرة على جبل آثوس.

وبما أن منطقة جبل آثوس كانت تابعة للحكومة المركزية، فإنها لم تعط أي فرصة للدعاية الدينية. وحينها صنع الرهبان الأرثوذكس على جبل آثوس شكلاً جديدًا من أشكال الحياة الدينية، وهو حياة الصمت (من الكلمة اليونانية hesychia ومعناها السلام والصمت). وبعد أن تعهدوا بنذر الصمت، لم يتحدثوا إلا في حالات نادرة عندما كان ذلك ضروريا. كان من الواضح أن الحكومة أصبحت عاجزة أمام الرهبان الصامتين. وهكذا، تم إنشاء مركزين دينيين في بيزنطة: القسطنطينية التي تسعى للوحدة، وأثوس الذي لم يكن فقط مكانا لمواصلة التقاليد الأرثوذكسية، ولكن أيضا لتطويرها. ولد نظام ديني جديد، والذي تم نقله في القرن الرابع عشر نفسه إلى روس.

كان الناس في روس يدركون جيدا خلفية الخلافات الدينية الجارية في بيزنطة. فقد اعترف الروس بالسلطة الروحية لبطريرك القسطنطينية، لكنهم لم يستطيعوا إلا أن يفهموا أنه بما أن الإمبراطور الذي عين البطريرك يميل إلى الاتحاد، فإن طاعته تعني عمليا إلحاق الضرر بالنفس. وبحلول ذلك الوقت كان الروس قد تمكنوا من تقييم عواقب الاتحاد مع الغرب. ولقد قام حكام سلالة باليولوج عند حاجتهم إلى المساعدة بفتح البوسفور والدردنيل أمام

السفن الإيطالية. وبما أن البندقية كانت ضد بيزنطة الفقيرة، فقد أعطيت الأفضلية لأهل جنوة. قامت جنوة ببناء الحصون في شبه جزيرة القرم وبدأت تجارة نشطة، أولا في منطقة الفولغا بين التتار، ثم في روس، حيث بسطت نفوذها حتى منطقة "فيليكي أوستيوج". لكن ذلك لم يعد بالخير على السكان المحليين، ليس صدفة ما كتبه دانتي في "الكوميديا الإلهية" أن الدوائر الدنيا من الجحيم يشغلها أهل جنوة من الأوغاد الأنذال.

كانت تعاليم رهبان آثوس تتطابق تمامًا مع تطلعات موسكو، لذلك انتشرت عادة الصمت وأديرة الرهبان (المهاجع الرهبانية) في القرن الرابع عشر في روس انتشارا واسعا ملحوظا. كان مؤسس أول مجمع رهباني بأكثر المواثيق الرهبانية صرامة هو المتقشف الروسي العظيم سيرغي رادونيجسكي. كان سيرغي قليل الكلام، كانت خدمته تتلخص في حمل الماء إلى الدير والوقوف لأداء الصلوات. لكن عندما كان سيرغي يقول شيئًا، كان الجميع يصغي إليه، وذلك لأنه إذا قال فعل. هذا النظام السلوكي وجد الكثير من الأتباع. وفي جوار دير سيرغي صنعت وخلقت هالة من القداسة والتبجيل، وبدأ تلاميذ هذا الزاهد أنفسهم بمباركته في إنشاء أديرة ومجامع رهبانية.

كانت فعالية هذا النوع من التوسع الروحي هائلة. لم يكن الدير بمثابة كنيسة فحسب، بل مستشفى ومدرسة ومكتبة. بالطبع كان عدد الأطباء بين الرهبان أقل مما هو في العيادة الحديثة، وعدد الكتب أقل مما هو موجود في مكتبة أكاديمية العلوم مثلا، ولكن الأطباء كانوا يعالجون، وكانت الكتب تُقرأ. نمى تأثير القساوسة والرهبان الزهاد. بدأ الناس الذين يأتون إلى الدير يعتقدون أن روس الأرثوذكسية يمكن أن تعيش بالاعتماد على نفسها دون الاعتماد على قوى التتار أو الليتوانيين. وهذه القناعة المتنامية ميزت الروس

بشكل أساسي عن البيزنطيين الذين بدون مساعدة الأتراك أو الإيطاليين لم يكن لأي فصيل منهم أن يحقق نجاحا. كانت الطاقة الخلاقة المتنامية للشعب الروسي منقادة من قبل الأرثوذكسية الأصولية نحو هدف وحيد هو بناء روس المقدسة. في ظل هذه الظروف تمكنت موسكو من أخذ زمام المبادرة في السياسة الداخلية والخارجية.

كان السؤال الذي يطرح تحديدا هو عن سبب وجود موسكو في الوضع الأفضل على مدار مائة وخمسين عامًا على الأقل. رأى الكثيرون السبب في الموقع الجغرافي لموسكو، أي لكونها تقع في وسط الأرض الروسية وعند تقاطع الطرق. ولكن كانت تفير أيضا في "الوسط"، وكانت مدينتا "أوغليش" أو "كوستروما" في وضع أفضل بكثير فيما يتعلق بالقرب من الطرق التجارية، ومع ذلك لم تصبح هذه المدن عواصم لدولة روس، أو بالأصح روسيا الجديدة.

إذا عدنا إلى مفاهيم نظرية الطاقة الخلاقة للتكوين العرقي فإن سبب صعود موسكو في الحقيقة يعود إلى أن إمارة موسكو تحديدا كانت مصدر جذب للعديد من الأشخاص ذوي الطاقة الخلاقة: التتار، الليتوانيين، الروس، الكومان، أي كل من أراد أن يكون لديه ثقة في المستقبل، ومكانة اجتماعية تتناسب مع قدراته وإمكاناته. تمكنت موسكو من استخدام كل هؤلاء الوافدين الجدد، والتكيف مع ميولهم، وتوحيدهم بعقيدة أرثوذكسية واحدة. في الوقت نفسه، كان يأتي إلى موسكو في أغلب الأحيان الناس المؤثرون المبدعون. فمثلا شكل تتار القبيلة الذهبية - الذين هربوا بعد انقلاب أوزبك إلى موسكو - العمود الفقري لسلاح الفرسان الروسي، الذي ضمن لاحقا تحقيق النصر في ساحة معركة "كوليكوفو بوليه" (في "تولا" غير بعيد عن غرب موسكو).

لقد كان التوليف العرقي الذي حدث على أرض موسكو في مرحلة ارتقاء وصعود الطاقة الخلاقة هو العامل الحاسم. لقد "سادت" إمكانات الطاقة الخلاقة لموسكو على ثروات نوفغورود ومجد تفير وتطلعات سوزدال. في النصف الأول من القرن الرابع عشر تولى "إيفان كاليتا" الحكم بالاعتماد على دعم الخان أوزبك في البداية، ثم ابنه جاني بك، حيث أخذ على عاتقه مهمة دفع الضرائب عن عموم روس. والآن كانت موسكو تقوم بجمع الجزية كضريبة من جميع الإمارات الروسية، ثم دفعها إلى القبيلة الذهبية على هيئة ما كان يسمى "الخراج". وكان التفيريون مثلا يقومون باستدعاء الليتوانيين ضد موسكو، بينما كانت فصائل التتار تأتي من نهر الفولغا للدفاع عن مصدر دخل الخان. وبهذا أصبحت موسكو غير معرضة للخطر من جهة الغرب، وفي حين كانت سمولينسك تحت سيطرة فيتوتاس، ضعفت تفير، أما "نيجني نوفغورود" فكانت غارقة في الصراعات الداخلية. كان هبوط الطاقة الخلاقة وروح القيادة في المراكز الروسية القديمة يسير في تناقض صارخ مع نموها في موسكو. فحتى النوفغورود- الذين كانوا لا يزالون ينظر إليهم في القرنين الثاني عشر والثالث عشر برهبة وهيبة، حيث كانوا يعتبرون عتاة عنيفين جدا لدرجة أن الأمراء كانوا يرفضون الذهاب إليهم، لأنه كان من المستحيل التعامل معهم- تحولوا بحلول القرن الرابع عشر إلى سكان هادئين في مدينة "برجوازية" وادعة.

في الوقت الذي كانت فيه نوفغورود تفقد موقعها ازدادت قوة الأمراء في موسكو وبدأوا بالفعل في المطالبة بممتلكاتها. في وقت مبكر من القرن الرابع عشر تم ضم "فيليكي أوستيوج" إلى موسكو، وهو ما زاد بشكل حاد من عدائها مع نوفغورود. سعى النوفغوروديون تقليديا لاستغلال الأراضي

الشاسعة من الشمال وصولا إلى الحزام الحجري، أي إلى سلاسل جبال الأورال. كان الأوستيوجيون أيضا يتطلعون للعب دور المستعمرين في الشمال وكانوا منافسين طبيعيين لنوفغورود. كانت فرق النوفغورود من الأوشكوينيين التي حاولت الاستيلاء على "زافولوتسكي تشود" بمثابة العرقية التي فقدت طاقتها الخلاقة، وكانت تقطن في منطقة حوض نهر دفينا الشمالي وسوخونا، كانت قد واجهت مقاومة ليس فقط من زافولوتسكي تشود، ولكن أيضا من الأوستيوجيين. لقد أعمل الأوستيوجيون القتل في جميع من وقع في أيديهم من الأوستيوجيين دون استثناء. وبطبيعة الحال نفذ النوفغوروديون حملات عقابية إلى فيليكي أوستيوج، ما أدى أيضًا إلى إبادة الأسرى.

كما نرى كانت الحرب ثلاثية بالفعل، وكانت المناطق الشمالية وصولا إلى البحر الأبيض وبحر بارنتس وإلى جبال الأورال - والتي تظهر على جميع الخرائط التاريخية كأراضي نوفغورودية - منطقة نفوذ حصري لنوفغورود. وبناء على ذلك عززت نوفغورود التجارة مع أوروبا الغربية. وعلى الرغم من أن النوفغوروديين أنفسهم لم يسافروا عبر بحر البلطيق، حيث كان الألمان يسيطرون بالكامل على طريق البلطيق، جاء تجار أوروبا الغربية إلى نوفغورود وقاموا بصفقات تجارية مربحة هناك. يبدو أن هذا كان كافيا حتى يمكن لهذه المدينة القديمة أن تحيا بشكل مستقل. لكن في الواقع كانت هناك عقبات طبيعية في طريقها إلى استقلالها الكامل.

في القرن الرابع عشر تحولت منطقة الرطوبة المناخية في القارة الأوراسية إلى الشمال. في الشمال الغربي من أوراسيا كان المطر يهطل بشكل مستمر لفترات طويلة في كثير من الأحيان، ما يعني أن تضرر المحاصيل كان يحدث باستمرار. في نوفغورود، على الرغم من ثروتها،

كانوا يفتقرون إلى الخبز. ولأنه كان من المستحيل نقل الحبوب من أوروبا في ذلك الوقت، فقد حصل شعب نوفغورود على الخبز من الأقاليم الجنوبية. وبالتالي، فإن من كان يملك المنطقة الواقعة بين نهري أوكا والفولغا، كان بإمكانه دائمًا عن طريق إيقاف قوافل الخبز إجبار نوفغورود على الاستسلام.

وقد استغل ملاك الأراضي الواقعة بين نهري أوكا والفولغا، وهم في البداية أمراء سوزدال، ثم من بعدهم أمراء موسكو، استغلوا هذا الأمر بأكبر قدر ممكن وعلى نطاق واسع. وقدم أمراء موسكو استثناء فقط عندما دخلت نوفغورود في تحالف معهم ضد تفير، وذلك لأن موسكو اعتبرت أن تفير إمارة ذات طموحات خادعة موالية لليتوانيا. كان هذا الأمر صحيح جزئيًا، ولكن بالنسبة لموضوعنا، فإن الأمر الأهم هو شيء آخر: فقد بدأ المجتمع العرقي الجديد الذي تشكل في موسكو تحت حكم إيفان كاليتا يضع نفسه في مقابل سكان المدن والإمارات الأخرى، ويتطلع ويطالب بدور المحكم في النزاعات الروسية العامة.

في نفس الفترة اصطدم الموسكوفيون مع مدينة ريزان المتطلعة للاستقلال. كان من الصعب الادعاء بأن سكان ريزان خونة للأرثوذكسية، إذ كانت ريزان الواقعة بالقرب من الحدود مع السهوب تناضل لصد غارات التتار، لذلك كان من غير المناسب اتهام أمراء ريزان بالخيانة، لكن الموسكوفويون تعاملوا مع هذه المهمة بنجاح، فاختلقوا ما مضمونه أن أمير ريزان أوليغ كان على اتصال مع ليتوانيا. بالطبع لم يكن لأوليغ أي صداقة مع ليتوانيا، ولكن هذه الفرية حققت الهدف، فأصبحت ريزان معزولة.

وقد استمرت هذه السياسة – التي عكست رغبة موسكو في القيادة وتثبيت الأرثوذكسية – دون هوادة بعد وفاة إيفان كاليتا عام ١٣٤٠م. وجدير بالذكر

القول إن ابني إيفان، سيميون غوردي وإيفان إيفانوفيتش كراسني، لم يكن لديهما أي مواهب خاصة. لكن في ظل الصعود العام للطاقة الخلاقة للعرقية أن يكون على العرش حاكم ليس لديه شخصية لامعة نعمة لا نقمة. وذلك لأن مثل هذا الأمير سيعطي بكل سرور المبادرة إلى البويار القريبين منه، وهؤلاء بينهم العديد من القادة الموهوبين، والدبلوماسيين الدواهي، والاقتصاديين الأذكياء. ولم يمنع الأميران سيميون وإيفان هؤلاء الناس من "القيام" بسياسة موسكو الداخلية والخارجية وفقًا لفهمهم الخاص وحصرا إسهامهما في مراعاة آداب القصر والحكم وتوزيع الجوائز والعطايا وفرض العقاب.

كان رئيس الدولة الفعلي بعد وفاة إيفان كاليتا هو المطران أليكسي ابنه بالمعمودية الذي حل محل الراهب ثيوغنوست. كان أليكسي ينحدر من عائلة من النبلاء (البويار) وكان رجلاً على ذكاء عظيم ولباقة كبيرة ونظرة سياسية واسعة. كما كان يحظى بتأييد غالبية الأرثوذكس الذين عاشوا في إمارة موسكو، والتي كانت في ذلك الوقت ذات أهمية حاسمة. وبصفته الرئيس الأكبر للكنيسة الروسية كان أليكسي يتمتع بسلطة حقيقية على جميع الأمراء الروس دون استثناء.

في ظل حكم أليكسي إلى جانب أمراء تفير أصبح أمراء سوزدال خصوما معارضين لموسكو. كان لديهم نظامهم الخاص للتوجه السياسي، فضلا عن مرونة كافية. كان أمراء سوزدال يدعمون روس القديمة ونظامها الإقطاعي، على الرغم من أنه في القرن الرابع عشر كما نتذكر سُلمت معظم الأراضي التي كانت تعود لملكية دولة روس الكييفية إلى الليتوانيين دون مقاومة، بينما تم الاحتفاظ فقط بتلك التي كانت تحت سلطة التتار. كان هناك تقليد للتقارب مع التتار لدى أمراء سوزدال أيضا، وكما ذكر المؤرخ

"تاسونوف" كان هذا التقليد يعود إلى فترة حكم "الخان باتو"، حيث كان السوزداليون يدعمون ويساندون سياسة ألكسندر نيفسكي، لكنهم لم يرغبوا بشكل قاطع في أي تغييرات. لقد ضمنت العلاقة الحميمة مع التتار المطالب الهادئة والمتسامحة بدفع الحد الأدنى من "الخراج"، وهو ما كفل الوجود والعيش المستقر. فقد كانت مدن الفولغا الغنية – وعلى رأسها نيجني نوفغورود – جزءًا من إمارة سوزدال. ساهم تراكم الثروة التي جلبتها التجارة في دفع الضريبة للتتار لأجل كفالة القوات، وبالتالي فإن كل جهود أمراء سوزدال كانت موجهة لتنمية التجارة داخل إمارتهم، وليس لأجل توحيد البلاد، كما كان الحال في موسكو. لذلك، لم تكن صداقة السوزداليين مع التتار مثل تلك التي كانت مع الموسكوفيين.

وإذا كان التتار في موسكو قد اعتنقوا الأرثوذكسية وتزوجوا من نساء روسيات واندمجوا وذابوا في النسيج العام من سكان موسكو ولم يبق عندهم سوى ذكريات جذورهم، فإنه لم يكن هناك أي اندماج في إمارة سوزدال. لم يقم أمراء سوزدال بتعميد التتار عند قبلوهم في الخدمة، فهم اختاروا ببساطة التتار المسلمين الذين استمروا في العيش على نهر الفولغا كحليفهم السياسي. وهذا أمر مفهوم، لأن السوزداليين المتشددين تأييدا للعصور الغابرة كانوا يسعون إلى استقلال مدنهم والحصول على دخل من التجارة، ولم يرغبوا في التقاسم أو مشاركته مع أحد.

بما أن موسكو ممثلة في المطران أليكسي قد أعلنت أولوية أخرى، حيث أصبحت في جوهر الأمر ملكية دينية جامعة، فإنه بالنسبة لأمراء سوزدال كان أليكسي العدو الأول. ومحاولة سوزدال أخذ زمام المبادرة أسفرت عن حرب بين دِميتريين، دِميتري قسطنطينوفيتش من "نيجني نوفغورود" ودِميتري

إيفانوفيتش "الموسكوفي". وانتهى الصراع بالمصالحة وزواج دِميتري إيفانوفيتش وأميرة سوزدال (١٣٦٦م). وهذه المرة حقق المطران أليكسي السلام المرغوب فيه في "روس"، وإن ثبت لاحقا أنه سلام هش.

ولم يكن لهذا السلام أن يكون دائمًا، لأنه لم يكن الجميع أبدا يشاطرون رغبة موسكو في الوحدة. نوفْغورود، تفير، ريزان، بل وسوزدال نفسها كانت لا تزال تحلم بالإطاحة بالسلطة المتوطدة لأمير موسكو، وفي نزع العرش المعظم من الموسكوفيين. كانت المعارضة لموسكو مركزة ومسجلة بوضوح في المعالم الأدبية. فعلى سبيل المثال أظهر "كوماروفيتش" - لدى النظر في أسطورة كيتيج - أن كلمة "تتار" استُخدمت فيها كشفرة للرقابة. فكلمة "التتار" في الأسطورة كان يقصد بها ضمنيًا: "موسكو" التي استولت على المدن مدينة وراء مدينة، وأقامت فيها نظما جديدة، وكانت كلمة غير مريحة تماما بالنسبة لأنصار العصور البائدة.

لم يكن لسياسي متمرس مثل المطران أليكسي إلا أن يفهم ويعي جيدا التهديد الذي تمثله هذه المعارضة لسلطات موسكو. وبما أن مرسوم الإمارة العظمى كان لا يزال يصدره الخان، فبالتالي، كان بوسع فقدان مرسوم التسمية بالنسبة للموسكوفيين أن ينفي جميع الجهود الطويلة الأجل التي بذلها أمراء موسكو لتجميع الأراضي الروسية. كان لدى أليكسي مخرج وحيد، وهو التخلي عن النظام القديم لنقل السلطة في روس ومحاولة جعل العرش العظيم جزءاً من أملاك حكام موسكو التي لا يمكن التنازل عنها. وقد نجح أليكسي بشرف في تأدية هذه المهمة ذات الأهمية الهائلة بالاعتماد على دعم موسكو بأسرها. ولكن لكي نفهم لماذا أصبح ذلك ممكنا، من الضروري أن نتحول إلى النظر في حالة الأوضاع في القبيلة في ذلك الوقت.

ماذا يحدث في القبيلة الذهبية؟

حدثت في القرن الرابع عشر تغييرات هائلة في القبيلة الذهبية. لقد سبق أن ذكرنا أن هذه القبيلة – مثل الدولة المغولية الموحدة التي كانت قائمة في زمن ما – بدأت بحلول بداية القرن الرابع عشر في الانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل التكوين العرقي وهي مرحلة الجمود. عادة ما تكون فترة المرحلة الانتقالية مصحوبة بضعف المجموعة العرقية بسبب فقدان القوى التي تم إنفاقها على التكيف وإعادة البناء الهيكلي. ولم يشكل المغول استثناء من هذه القاعدة. فقد كان إنفاق القوة عظيمًا جدًا لدرجة أن العرقية فقدت عاملها المهيمن السابق، واستبدلته بآخر جديد، وهو اعتناق الإسلام (١٣١٢م). لقد أصبح انقلاب أوزبك خان معلم زمني وعلامة فارقة في تاريخ القبيلة الذهبية.

في الفترة الأولى في أعقاب الانقلاب ظلت العلاقة التقليدية بين روس والقبيلة الذهبية. فقد سعى جاني بك – الذي اعتنق الإسلام وكان ابنا للخان أوزبك ووريثه – إلى الحفاظ على العلاقات التي أقيمت في عهد خانات القبيلة الذهبية قبل الإسلام. وفي إطار تحالفه مع سيميون غوردي، قاوم جاني بك – وكان رجلا صادقا نزيها وحاسما – تغلغل الكاثوليك، حلفاء أباطرة القسطنطينية في منطقة الفولغا وعلى ساحل البحر الأسود.

تحولت المواجهة إلى حرب مفتوحة بعد أن أصاب البدو التتار عاصفة من الجليد الأسود، فسقطت الماشية، وأصاب الجوع الناس، حتى فروا هربا من الجوع، بل قام التتار ببيع أبنائهم وبناتهم إلى تجار جنوة. واشترى تجار جنوة البنات والبنين بكل سرور طمعا في الأرباح العالية. وبمجرد علمه بذلك استشاط جاني بك غضبا، إذ وفقا لمفاهيم التتار كان من الممكن والضروري

السعي إلى الحصول على غنائم عسكرية، غير أن استغلال سوء وضع الجار لتحقيق الربح كان يعتبر عملا غير أخلاقي. حاصر جنود جاني بك حصن كافو الجنوي القوي (قلعة فيودوسيا الحالية). ونظرا لأن الجنويين كان لديهم أسطول، بينما لم يكن التتار يمتلكون أسطولا، فإن الحصن كان منيعًا عمليًا بالنسبة لهم. حينها أمر جاني بك برمي جثة رجل مات بالطاعون إلى داخل الحصن باستخدام المنجنيق. طارت الجثة فوق الحائط وتحطمت. بطبيعة الحال بدأ الطاعون في الحصن. وبذلك أُجبر الجنويون على مغادرة الحصن، وعاد الجزء الذي بقي سالما من الحامية إلى الديار.

في الطريق توقف أولئك الذين غادروا حصن كافو في القسطنطينية، وبسبب ذلك استشري الطاعون في القسطنطينية، ومنها انتقل إلى أوروبا. في الوقت نفسه كان هناك هجرة من الشرق إلى الغرب للفئران السوداء واليرابيع، وبما أن الجرذان تعد حاملا للطاعون، فإن "الموت الأسود" تسلل إلى جميع أنحاء أوروبا الغربية. حينها قضى الجزء الأكبر من جنوب إيطاليا، وثلاثة أرباع سكان ألمانيا، فضلا عن حوالي ٦٠% من سكان إنجلترا. وعبر ألمانيا والسويد جاء "الموت الأسود" إلى نوفغورود، وعن طريق نوفغورود وبسكوف انتقل إلى موسكو، حيث مات بسببه الأمير سيميون غوردي عام ١٣٥٤م.

على الرغم من الخسائر البشرية الهائلة خلال فترة الطاعون، فإن إمارة موسكو سرعان ما استعادت عافيتها ليس فقط من حيث عدد السكان، ولكن الأهم من ذلك من حيث التكوين والتركيبة "النوعية" لسكانها. وهذا ليس مستغربا، فقد استطاع ذوو الطاقة الخلاقة مواجهة الظروف الصعبة خاصة تحمل صدمة موت رفاقهم وأصدقائهم وأقاربهم، واحتفظوا بالإرادة للعيش

والعمل. بعد انتهاء الوباء تشكلت الظروف الأكثر ملاءمة لهؤلاء الناس، فالجميع، الأمير والبويار والمطران في ساعة الخراب لم يكونوا بحاجة إلى المتسكعين، بل إلى الأذكياء ذوي الهمم العالية.

ومن ثم، وعلى الرغم من الطاعون، كانت فترة حكم جاني بك فترة مواتية للغاية بالنسبة لموسكو. ولقد ساهم في ذلك إلى حد كبير حقيقة أن المطران أليكسي نفسه كان قادرا على إقامة علاقة ثقة مع جاني بك وزوجته الأكبر تايدولا. كانت تايدولا "السيدة الأولى" في قصر الخان، وكانت امرأة ذات جمال نادر وعقل بارز. لكنها قد عانت من سوء الحظ، حيث أصابها مرض شديد في العيون (على ما يبدو كان التراخوما). وقد أتى الأطباء الفرس والعرب المشهورون، وشامانات السهوب وزاروا لعلاج الملكة، لكن دون نفع أو جدوى، فتفاقم المرض. وفقط اليكسي، الذي زار تايدولا في القبيلة، استطاع مساعدة زوجة الخان. وتايدولا، وهي المرأة النبيلة، لم تنسى الخدمات وظلت دائما صديقا مخلصا لمطران موسكو، وبالتالي لإمارة موسكو.

كانت نهاية عهد "الملك الطيب" جاني بيك مأساوية. فقد أصبح أحد أبنائه العديدين، وهو بيردي بيك، قاتل والده، واستولى على العرش وأعدم جميع إخوته من أجل تعزيز حقوقه في السلطة. لكن لم يكن هناك أحد سيؤيد هذا القاتل الوحشي لأبيه، وسرعان ما قُتل بيرديي بيك. بعد ذلك، ظهر عدد كبير من المحتالين. كولبا ونافرز وآخرون أخذوا يدعون أنهم أبناء "جاني بيك" الناجين والباقين على قيد الحياة. جميعهم ادعوا الحق في العرش، ولم يكن أحد يهتم بأصلهم الحقيقي. ونتيجة لذلك، فقدت القبيلة الاستقرار، إذ في عشر سنوات تبدل عشرات الخانات، كان معظمهم شخصيات سياسية اسمية بحتة. وقد وصف المؤرخون الروس بدقة شديدة ما حدث في القبيلة بمصطلح "التيه العظيم".

وهنا استغل المطران أليكسي هذا "التيه" على أفضل نحو. حيث استغل حاجة الخان الجديد إلى الفضة الروسية، وتمكن في مقابل تقديم الدعم المالي من استصدار مرسوم من الخان يقر ويثبت أن العرش المعظم هو حق وراثي لأمراء موسكو من سلالة إيفان كاليتا. وبالتالي تم إلغاء التقليد السياسي لروس الكييفية، حيث جرى استبدالها بمبدأ جديد تمامًا للملكية الوراثية الأسرية.

كانت نتائج "التيه العظيم" قاسية ومؤسفة للقبيلة الذهبية. فقد تزعم خان القبيلة الزرقاء "خضر خان" قواته السيبيرية واستولى على منطقة الفولغا بأكملها. وقد وصف المؤرخون الروس الخان خضر أيضا بالطيبة والوداعة. خلال فترة حكمه القصيرة نجح في إنجاز فعل واحد فقط، وهو توجيه الأمراء الروس بالقبض على وإعدام القراصنة النوفغوروديين الذين أقضوا مضاجع الناس فيما بين الفولغا وكاما، وهو ما فعله الأمراء بكل سرور، لأن هؤلاء اللصوص لم يجذبوا أدنى تعاطف من أحد.

كان ارتباط خانات القبيلة الزرقاء بالعاصمة سراي ضعيفا. وإذا كانت القبيلة البيضاء المتاخمة لمنطقة جاغاتاي والشطر المسلم من آسيا الوسطى قد تحولت - بدون حماسة - إلى الإسلام، فإن القبيلة الزرقاء التي كما نتذكر كان مقرها في غرب سيبيريا، على ما يبدو، لم يكن لديها أي فكرة عن الإسلام على الإطلاق. فالنبلاء الذين كانوا في حاشية الخانات لم يكن يطلق عليهم لقب "أمراء"، بل أُطلق عليهم مُسمى "تويابا" (الأرستقراطية العسكرية) ممن لم يتعرضوا لأي تأثيرات ثقافية، لا التنصير ولا الأسلمة. ولهذا السبب سرعان ما فقدت السلامة الإقليمية للقبيلة الذهبية، فقد انفصل بلغار كاما وموردوفا والأغوز الذين عاشوا عند نهر يايك، في حين تم تقسيم المنطقة المتبقية إلى جزأين.

بدأ أحفاد خضر خان (كانوا كثيري العدد، وكثيرا ما تناوبوا على العرش) في امتلاك الجزء الشرقي، وفي منطقة البحر الأسود وصل القائد ماماي إلى السلطة. كان ماماي يقود فرقة اليومين المكونة من عشرة آلاف محارب. لم يكن ينتمي إلى سلالة جنكيز خان، لكنه كان قائدًا عسكريًا موهوبًا وسياسيًا ذكيًا. ربما هذا هو السبب في أنه اعتمد على الأعداء السابقين للمغول، وهو كومان منطقة الدون، الذين باتوا يعرفون في ذلك الوقت بالتتار.

كانت علاقات هذين الجزأين من القبيلة الذهبية السابقة مع روس متباينة. فورثة خانات القبيلة الزرقاء، وفي المقام الأول توكتامش، التزموا بالسياسة التقليدية للتحالف مع روس، والتي تعود جذورها إلى زمن باتو خان. أما ماماي فقد اعتمد على التحالف مع الغرب، وبالأساس مع مستعمرات جنوة في شبه جزيرة القرم. كان هذا الاختلاف حاسمًا في المسار المستقبلي للأحداث.

القبيلة الزرقاء

استفاد الليتوانيون من فقدان القبيلة الذهبية لوحدتها وحققوا نجاحًا كبيرًا في المنطقة التي فقدت حماية التتار. أصبحت كييف بشكل متزايد مدينة ليتوانية، أما أراضي تشرنيغوف وسيفرسك فباتت تنتقل باستمرار من يد إلى أخرى، من موسكو إلى ليتوانيا والعكس. وفي غير مرة شنَّ الأمير الليتواني "ألجيرداس" الذي لم يتعاطف مع الأرثوذكسية عمليات اضطهاد للمسيحيين في "بولوتسك" و"فيتبسك" ونال ذلك من شعبيته في روس إذ كانت موسكو تعارض بشكل قاطع السياسة الليتوانية. بالإضافة إلى ذلك، كان على ألجيرداس أن يأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن غالبية سكان ليتوانيا –

المغرورين بالفتوحات – كانوا من الروس الأرثوذكس. لذلك، ومن أجل ضمان ولائهم وإضعاف تأثير مطران موسكو، حاول "ألجيرداس" إقامة مطرانية مستقلة في كييف يخضع لها الروس الأرثوذكس.

أعاد المطران أليكسي النظر في تقييم الخطر الذي كانت تنطوي عليه خطة "ألجيرداس" سواء بالنسبة لحكام موسكو أو لمصير روس. لحسن الحظ لم يكن ممكنا تقرير مسألة إنشاء مطرانية جديدة إلا بواسطة القسطنطينية. وفي القسطنطينية، حل محل حكام سلالة "باليولوج" القائد العسكري "يوحنا قانتاقوزين" الذي أصبح الإمبراطور. عند رؤية قانتاقوزين لوفاة الدولة الرومانية قرر الاستعانة بمساعدة السلطان العثماني أورخان، فتمكن من هزيمة حكام باليولوج واستولى على القسطنطينية. بما أن الدعم الأيديولوجي لقانتاقوزين قد قدمه له رهبان آثوس (خصوم سلالة باليولوج التغريبية) فمع صعوده إلى السلطة استعادت الأرثوذكسية الكنسية وضعها وتم إيقاف جميع محاولات إبرام الاتحاد مع روما.

بطبيعة الحال، فإن سياسة قانتاقوزين التي اعتمدت على الصداقة مع التورك ورفض خدمات الفرسان من فرنسا وإيطاليا وصقلية تم تصنيفها ووصفها من قبل الأوروبيين الغربيين وأصدقائهم اليونانيين على أنها خيانة. وقد انتقلت وجهة النظر هذه من الكتابات الفرنسية والألمانية إلى كتابات التأريخ الليبرالي الروسي في القرن التاسع عشر، رغم أنه من النزاهة والعدل الاعتراف بوجهة النظر هذه على أنها على الأقل أحادية الجانب. وذلك لأن قانتاقوزين في الواقع قدم خدمة رائعة للمطران أليكسي في الحفاظ على الوحدة الكنسية في روس. فقد عارض الإمبراطور والبطريرك الذي قام بتعيينه "فيلوثيوس كوكينه" تقسيم المطرانية الروسية إلى شرقية وغربية.

واستنادا إلى دعم الإمبراطور والبطريرك تمكن المطران أليكسي أثناء وجوده في القسطنطينية من إقناع البطريركية برفض طلب "ألجيرداس". لكن بعد مرور بعض الوقت تخلى قانتاقوزين، الذي تخلى عنه أنصاره، عن العرش وصعد إلى جبل آثوس، حيث مضت آخر أيامه في الدنيا كراهبًا وكاتبًا دينيًا. عادت سلالة "باليولوج" إلى السلطة، ولكن المطرانية الروسية ظلت موحدة.

لم تكن كل روسيا تدعم سياسة موسكو المعادية لليتوانيا، وبالتالي المناهضة للغربً. فقد وقف خصوم موسكو، ونعني بهم أمراء سوزدال في صف "ألجيرداس". كما كان هناك فصيل قوي من مؤيدي ليتوانيا في نوفْغورود. بنفس الطريقة، كما نتذكر، تشكل فصيلان مماثلان في شطري القبيلة الذهبية السابقة، الفصيل الموالي للغرب بقيادة القائد العسكري "ماماي"، وفصيل أنصار روس الموسكوفية بقيادة "الخان توختاميش".

كان توختاميش ابن حاكم منطقة مانغشلاق الذي قتل على يد حاكم القبيلة البيضاء "أوروس خان". لكن أمراء وبكوات القبيلة البيضاء لم يرغبوا في الخضوع لورثة أوروس خان: الأغبياء والسكارى الكسالى. وبدون طول تفكير دعوا توختاميش ابن ضحية أوروس خان. بدأ الصراع الداخلي الذي تحول إلى أعمال قتال عسكرية. خسر توختاميش المعركة الحاسمة، فألقى بنفسه في نهر سرداريا تحت سيل السهام، وسبح عبر النهر وهو جريح حتى صعد إلى الجانب الآخر. هناك التقطه رجال الأعرج الحديدي "تيمورلنك". فقدموا له الطعام وضمدوا جراحه وأعطوه ما يرتديه من اللباس، ثم قدموا به إلى تيمور نفسه. فقال له تيمور: "يبدو أنك شخص شجاع. سأعطيك رجالاً فاذهب واستعد أرضك وسوف تصبح حينها صديقي وحليفي". عاد توختاميش بصحبة قوات تيمور واستولى على خانية القبيلة البيضاء، بينما حصل على

الزرقاء بالميراث. بعد ذلك تحرك في اتجاه الغرب لطرد المغتصب ماماي من منطقة البحر الأسود.

كان ماماي يفهم ويدرك تماما الخطر الذي يواجهه ومن أجل جمع عدد كاف من الناس لدرء ذلك الخطر (كان تتار الفولغا يخدمون لدى ماماي على مضض، وكان عدد قليل منهم في جيشه) قام ماماي بجذب الياسوف والكاسوغ وتتر القرم. وكان الإمساك بهذه القوات يحتاج إلى المال، إلى الكثير من المال. لم يكن لدى ماماي نفسه أية أموال، ولم يكن باستطاعة ماماي الحصول على أي مساعدة مالية إلا من أصدقائه، أي من جنوة. وهؤلاء وعدوه بالمساعدة، ولكنهم طالبوا في المقابل الحصول على امتيازات لإنتاج الفراء والتجارة في شمال روس، تحديدا في منطقة "فيليكي أوستيوج". حاول ماماي الاتفاق مع الأمير دِميتري الموسكوفي وبعض البويار الروس على أنه في مقابل منح الامتيازات سوف يساعدهم في ترتيب شؤونهم الخاصة، وأن يمنح الأمير الصغير دِميتري مرسوم ولاية العرش المعظم.

ولو كان دِميتري وافق على هذه الصفقة، لكانت روس الموسكوفية قد تحولت خلال وقت قصير إلى مستعمرة تجارية تابعة لجنوة. على الرغم من أن الاقتراح بدا مربحا للكثيرين في موسكو، فإن الكنيسة قالت كلمتها. أعلن القديس "سيرجي رودجينسكي" أنه لا يمكن أن يكون هناك عمل مع اللاتين: يجب ألا يسمح للتجار الأجانب بدخول الأراضي الروسية المقدسة، لأن هذه خطيئة. كانت هيبة وسلطة سرجي عالية جدا بحيث كان من المستحيل عدم أخذه في الحسبان، إلى جانب كونه مدعوما من المطران أليكسي. رفضت موسكو عرض الجنويين، وبالتالي أظهرت بذلك ولاءها للتحالف مع الوريث الشرعي لخانات القبيلة الذهبية توختاميش، الذي كان يقود ويترأس تتار الفولغا في سيبيريا.

قرر ماماي الغاضب سحق أمير موسكو وتدمير مدينته، وجمع إتاوة متزايدة من دميتري، وبالتالي نيل رضى أصدقائه الجنويين. تحقيقا لهذه الغاية دخل في تحالف مع "يوغيلا" ابن "ألجيرداس" الذي كان مثل والده يحلم بالاستيلاء على جزء من روس. جمعت بين مامايا ويوغيلا فكرة تقسيم روس، حيث وفقا لها كان سيذهب جزء من أراضيها إلى الليتوانيين، وسيقوم ماماي بإخضاع الجزء الثاني وتأسيس دولة جديدة على أساسها.

في روس لم يكن هناك إجماع حول السياسة التي يجب اتباعها فيما يتعلق بماماى. البعض قال إنه كان من الضروري التوصل إلى اتفاق معه والتوصل إلى اتفاق مع الباليولوجيين والجنويين والحفاظ على السلام: وفي رأي هؤلاء لا يوجد شيء رهيب في الخنوع والخضوع. البعض الآخر، ونعني بهم خصوم أولئك الأولين، كانوا يدركون جيدا أن الكاثوليك هم من يقف وراء ماماي، والكاثوليك هم أعداء لروس.

عشية الأحداث الحاسمة توفي مطران موسكو الطاعن في السن "أليكسي"، وحاول أنصار التحالف مع الغرب الاستفادة من هذا الوضع الجديد الملائم. لكن لا بد من القول إن الأمير الصغير دميتري كان يشعر بالتململ من وصاية المطران أليكسي وتأثير ونفوذ القديس سرجي الذي كان سيخلف أليكسي في كرسي المطرانية إليه. بينما أراد دميتري أن يصبح أبوه الروحي "ميتياي" مطرانا جديدا. لكن بما أن سرجي ارتدى قلنسوة المطران، فقد سارت الأمور على أكمل وجه بالنسبة لأنصار الغرب: كان "ميتياي" شخصية موالية. وبتوجيه من الأمير سرعان ما حلق الرجل رأسه وارتدى زي الرهبان. وبعدما أعطى له اسم ميخائيل تم ترقيته إلى الرتبة العالية وإرساله إلى القسطنطينية لتلقي كرامة المطران. لكن ليس كل الناس متساوون في

وطنيتهم وإيثارهم وصدقهم. كان من بين أولئك الذين أرسلوا بصحبة ميتياي شخص يدعى بيمين، وكان رجلا طامعا عديم المبادئ ، ولديه خطط بعيدة المدى بوسعها القضاء في المستقبل على "ميتياي".

طمعًا في أن يقدم دِميتري والمطران الجديد مساعدات إلى "ماماي" بما يشبع مطامعه ومطالب الجنوبيين، سمح ماماي لسفينة "ميتياي" بالإبحار عبر نهر الدون. وصلت السفارة إلى ساحل البحر الأسود بأمان، لكن هناك مات ميتياي، الشخص العفي تماما المملوء بالصحة، في ظل ظروف غامضة لا تفسير لها. لكن وكما أظهرت الأحداث اللاحقة، كان هذا الحدث مربحا قبل كل شيء بالنسبة لذلك الرجل "بيمين". فبعد أن وصل إلى القسطنطينية وقف بين يدي البطريرك وحصل منه على البركة، ثم عاد إلى موسكو كمطران لها. لكن الموسكوفيين لم يكونوا أغبياء. الأمير دميتري، (الذي لم يقرأ القصص البوليسية الحديثة) استطاع بنفسه استخلاص النتائج. فتم نزع الغطاء الأبيض من على رأس "بيمين" ومعه كل شعارات المطرنة وأرسل لتوه إلى المنفى في تشوخلوما.

تجدر الإشارة إلى أن أتباع الراحل أليكسي والقديس سرجي أظهروا ذكائهم ليس فقط في فضح هذه المؤامرة الدنيئة. فقد كان أحد المؤيدين المتحمسين للحرب ضد التتار هو "ديونيسيوس" أسقف سوزدال أحد اتباع سرجي. وبما أن سوزدال كانت بلدة صغيرة، في الأساس حصن، فقد عاش الأسقف ديونيسيوس في نيجني نوفْغورود الغنية التي كانت تتبع أمراء سوزدال. وعندما أرسل ماماي سفارة إلى هناك للتفاوض من اجل الاتفاق حول السلام والتحالف، قام الأسقف ديونيسيوس بإثارة الناس ضد التتار. هاجم غوغاء نيجني نوفْغورود السفارة. فقام السفير وهو يدافع عن نفسه بشجاعة

برمي الأسقف بسهم، لكن ديونيسيوس أنقذته ثيابه الواسعة، فلم يفعل السهم شيئا سوى اختراق الثوب. لكن تم قتل جميع التتار بأشد الطرق قسوة: فقد تم تجريدهم من ملابسهم وسحلهم على جليد الفولغا وتركهم فريسة للكلاب.

ماماي الذي بات في سخط عارم جراء هذا الفعل، أرسل إلى مدينة الأمير مندوبا عنه هو "عربشاه" الذي غادر الضفة اليسرى للفولغا. (يبدو أن أحوال توختاميش الذي كان يقف على الضفة اليسرى لنهر الفولغا لم تكن كلها طيبة، ولم يكن يلقى دعم الجميع، إذ قرر "عربشاه" الانتقال من خدمة الخان إلى خدمة القائد "ماماي". وهنا باغتت المفاجأة أمراء سوزدال، وعلى نهر بيانّيا (النهر السكران) (المثير أن الكثير من السوزداليين كانوا حينها سكارى) تم ذبح قواتهم على يد جنود عربشاه. بعد ذلك سقطت نيجني نوفغورود. وهنا ترد على الخاطر فكرة مفادها أن الأسقف ديونيسيوس قد ضحى ببساطة بالشعب (بالقطيع) الموكول إليه من أجل طموحه الشخصي.

ثم قام ماماى بتحريك القوات من أجل سحق الروس، ولكن على نهر فورسكلا تمكنت قوات موسكو من تحقيق فوز كامل على قوات المرزا "بيجيتش" الذي قاد قوات ماماي. ففي معركة مفتوحة تمكن جيش موسكو من كسر مقاومة التتار وأظهر أنه ليس أدنى من التتار في القدرة القتالية.

بعد كل ما حدث أصبح صدام الروس مع ماماي لا مفر منه. وبفهمه لذلك اضطر الأمير دِميتري للجوء إلى استخدام السمعة والهيبة الروسية العامة للقديس سيرجي رادونيجسكي. فبارك القديس هذه الحرب، ولذلك اعتبر كل الأرثوذكس أنه من واجبهم الوقوف والنفير دفاعًا عن الأرض الروسية ضد الباسورمان (المسلمين) واللاتين. وتحركت القوات الروسية لمواجهة ماماي.

المعركة التاريخية في ساحة كوليكوفو

قدر العدد الإجمالي للمحاربين الروس الذين تم جمعهم تحت راية دِميتري في موسكو بـــ ١٥٠ ألف شخص. تألف هذا الجيش من فرق الفرسان والمشاة الأميرية، بالإضافة إلى الميليشيا المسلّحة بالرماح والأقواس والفؤوس. كان تشكيل الفرسان (حوالي ٢٠ ألف محارب) يضم التتار المعمدين الذين هزموا الليتوانيين، والروس الذين تعلموا وتدربوا على القتال ضمن سلاح الفرسان التتار. بينما كانت قوات ماماي تضم المشاة الجنويين، وكذلك الألآن (الأوسيتيين) والكاسوغ (الشركس) والكومان الذين تم تعبئتهم بالأموال الجنوية. وقد بلغ العدد الإجمالي لقوات القائد التتاري الرهيب ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص.

كان لكل من ماماي والروس حلفاء. فقد تحرك الدوق الليتواني يوغيلا لمساعدة القائد التتاري. في حين كان حليف دِميتري إيفانوفيتش، بطبيعة الحال، الخان توختاميش المدعوم من موسكو. وبما أن توختاميش كان يسير مع جيشه المكون من تتار سيبيريا نحو سراي، فقد قرر ماماي أن يهزم دِميتري أولاً عبر انضمامه المسبق مع قوات يوغيلا. في المقابل قرر الأمير دِميتري الخروج لملاقة ماماي ومنعه من الاتحاد مع الليتوانيين.

وقع التحام قوات دميتري وماماي عند مصب نهر نيبريادفي في نهر الدون. وقام الروس بعبور نهر الدون ليلا، وبالتالي قطعوا على أنفسهم كل الطرق للتراجع: فإما أن ينتصروا أو يموتوا. كانت فرق المشاة الروسية منظمة على شكل سلاسل عميقة، بحيث يمكن لكل محارب أن يشعر برفيق وراء ظهره، وفي المقدمة سارت فصيلة سلاح الفرسان. لجأ الروس إلى أسلوب وطريقة تتارية نموذجية: فقد اختبأ فوج مكون من عشرة آلاف من سلاح الفرسان في غانه صغيرة.

في صباح اليوم التالي بدأ التتار الهجوم. فتم سحق الفوج المتقدم من الروس وسرعان ما دمر تماما. فقد اخترق التتار بأقصى سرعة السلاسل الكثيفة من المشاة الموسكوفيين الذين كانوا قد نصبوا الرماح. فانطلقت خيول التتار تراوغ بين الرماح، وقطعت سيوف التتار المقوسة يمينا ويسارا، وفي وصف ذلك كتب المؤرخ يقول: "وكأن الموسكوفيين غير معتادين على القتال، فتفرقوا مولين الأدبار". بدا وكأن المعركة خاسرة بالفعل. لكن مع ذلك كان دور البطولات الفردية مهما، فقد وقف بعض الشجعان ظهرهم لظهر بعض ونصبوا رماحهم مشكلين ما يشبه المشابك أو يطلق عليه ("شوك القنفذ") وتصدوا للهجوم، لكن التتار الذين لم يلتحموا بشكل مباشر باشروا بإطلاق السهام عليهم من الأقواس الطويلة. وهنا باتت الهزيمة الساحقة لسرايا المشاة الروسية قريبة. وفي تلك اللحظة تحديدا انطلق فوج الكمين كالحمم البركانية، عشرة آلاف من المقاتلين (الطازجين) انطلقوا مشتتين سلاح الفرسان التتار. تسببت ضربة فوج الكمين في إثارة الفزع في صفوف العدو. هرب التتار، وعلى مدى ٢٠ ميلاً قام الروس بمطاردتهم وذبحهم دون رحمة.

وتحقق النصر، لكن الخسائر الروسية كانت كبيرة جدا: من بين ١٥٠ ألف جندي بقي فقط ٣٠ ألفا، وقُتل وجُرِحَ الباقون. لكن هذه التضحيات لم تكن عبثا. لقد اتضح أن الأهمية العرقية لما حدث في عام ١٣٨٠م في ساحة "كوليكوفو بوليه" هائلة. فقد ذهب السوزداليون والفلاديميريون والروستوفيون والبسكوفيون للقتال في كوليكوفو كممثلين عن إماراتهم، لكنهم عادوا من هناك روساً، على الرغم من أنهم ظلوا يعيشون في مدن مختلفة. وبالتالي، تعتبر معركة "كوليكوفو" في التاريخ العرقي لبلدنا الحدث الذي أصبح بعده المجتمع العرقي الجديد، أي روس الموسكوفية حقيقة واقعة، وهي حقيقة ذات أهمية تاريخية عالمية.

دون التقليل من بطولة الروس في ساحة "كوليكوفو" نشير إلى أن غياب الجيش الليتواني البالغ تعداده ثمانين ألفًا عن المعركة كان مهمًا من أجل تحقيق النصر. تأخر "يوغيلا" عن المعركة لمدة مسير يوم واحد فقط. ولم يكن ذلك عن طريق الصدفة. إذ اتضح أن أوليغ ريزانسكي، المتهم بالخيانة، كان قد تمكن مع خمسة آلاف من قواته بمناورة ماهرة لإعاقة الليتوانيين. عندما تمكن الليتوانيون من إزاحة أوليغ من طريقهم كانت المعركة قد انتهت. فهاجم محاربو يوغيلا العربات الروسية التي تقل الجرحى فأعملوا فيهم التقتيل.

كما نرى اتخذت الحرب طابعًا مدمرًا، وهي نموذج للصراعات التي تجري بين العرقيات العليا. إذا أخذنا في الاعتبار أن الأغلبية في جيش يوغيلا كانوا روسًا من ضواحي مينسك وبولوتسك وغرودنو، فعندها من السهل فهم كينونة الوحدة التي كانت ممثلة يوما ما في دولة روس الكييفية. بحلول عام ١٣٨٠م كانت روس القديمة قد "ذابت" في ليتوانيا وفي روس الموسكوفية. والأحداث اللاحقة تؤكد صدق هذا الطرح.

قام الأمير الليتواني كيستوت الذي غضب بشدة من مجزرة قتل الجرحى بتنحية يوغيلا عن العرش. أعلن نفسه دوق ليتوانيا الكبير وحاول إقامة صداقة مع إمارة موسكو، وحاول التقارب مع دميتري، الذي حصل على لقب دونسكوي. وهكذا حول كيستوت دفة السياسة الليتوانية ١٨٠ درجة. لكن يوغيلا بمساعدة الألمان وعملاء البابا تمكن من خداع "كيستوت" وإغرائه بحضور الحفل الذي قُتل فيه هذا الأخير. كما تم اعتقال فيتوتاس ابن كيستوت وأودع السجن.

يظهر هذا المثال بوضوح التغيرات التي حدثت في الصورة النمطية لسلوك الليتوانيين مع نمو طاقتهم الخلاقة. لأن قتل العم على مأدبة الاحتفال واعتقال ابن العم الذي كان يعني أن مصيره هو الآخر الموت، هي عين الخيانة في أسوأ تجلياتها. وفيتوتاس نفسه، الرجل النشيط والشجاع، لم يكن صاحب مبادئ مثل والده وعمه. لقد تم إنقاذ حياة فيتوتاس، بسبب نزوة غريبة للقدر، لذات سبب نمو الطاقة الخلاقة لدى الليتوانيين. فالفتاة التي كانت تقدم الطعام لفيتوتاس رثت لحال هذا البائس، فقامت مضحية بنفسها بتبديل ملابسها مع ملابسه، فخرج فيتوتاس في ثيابها من السجن وهرب إلى الألمان. وبهذا انتهك تقاليد والده الذي كان مقاتلا بلا هوادة ضد نظام الفرسان.

بعد القضاء على المنافسين تحالف يوغيلا مع بولندا والبابا وأمر رعاياه باعتناق الكاثوليكية. وهكذا نشأت المملكة الليتوانية البولندية الموحدة، حيث ظل يحكم أحفاد يوغيلا، الياغيلون، حتى تغيرت الحقبة وأصبحت المملكة جمهورية "ريتش بوسبوليتا" (الكومنولث الليتواني البولندي).

رغم الانتصار في معركة كوليكوفو بوليه لم يكن الجميع في روس مؤيدين لتوحيد البلاد تحت رعاية وراية موسكو. لم يفكر المنافسون القدامى للبيت الأميري الموسكوفي – ونقصد بهم أمراء سوزدال – في التخلي عن مواقفهم، على الرغم من أن العديد من رجال سوزدال قتلوا في المعركة ضد ماماي من أجل الوحدة الروسية.

حاول بوريس (شقيق أمير سوزدال دميتري) وأبناء أخيه فاسيلي وسيميون بكل قوتهم تجنب الخضوع لموسكو. لأجل ذلك استخدموا أساليب قديمة جدا وفعالة جدا: السب والقذف والطعن والاستفزاز. وفي محاولة للوقيعة بين دِميتري دونسكوي والخان توختاميش قام بوريس وأبناء أخيه

بإعداد مؤامرة لئيمة باتهام موسكو وريزان بالرغبة في الانتقال الى صف ليتوانيا العدو الرئيسي للتتار. وصدق توختاميش الوشاية، ولم يدر في خلد هذا السيبيري أنهم يخدعونه. ولم يكن السبب فقط سذاجة الرجل الذي لم يعتد أو يألف الكذب.

وهكذا أمامنا الآن نتيجة التغيرات التي حدثت في مستوى الطاقة الخلاقة في القبيلة ذاتها، إذ إن القسم الأفضل والأكثر ذكاء وخبرة فيها كان قد أُبيد خلال فترة "التيه العظيم" على يد التتار السيبيريين أنفسهم، ولهذا لم يكن هناك ببساطة أحد بوسعه تقديم النصائح العملية للخان. لأن توختا خان وأوزبك خان وجاني بيك ومستشاروهم ما كانوا ليسمحوا أبدًا بأن يُخدعوا بهذه الطريقة الساذجة.

في عام ١٣٨٢ نظم توختاميش غارة على موسكو. بعد عبورهم نهري الفولغا وأوكا ظهر التتار فجأة تحت أسوار المدينة. وكان معظم البويار الموسكوفيين ورجال الدين والجنود كما هو الحال دائما في فصل الصيف قد غادروا موسكو إلى القرى المجاورة. ولم يبق في موسكو سوى الأميرة المعظمة والمطران كيبريان. كُلف كيبريان بمهمة الدفاع عن المدينة، ولأنه لم يكن عسكريا فشل في تحقيق هذه المهمة. لذلك، تمكن التتار من محاصرة موسكو دون أن يتمكنوا من الاستيلاء عليها. في ذلك الوقت كانت موسكو تمتلك أسوارًا حجرية عالية، نصبت عليها مدافع نارية تسمى بالروسية "تيوفياك" (من الكلمة الفارسية "توبانج" الماسورة). كانت هذه المدافع تشحن بالبارود وبإمكانها إطلاق خمس طلقات. صحيح أن مدى النيران كان صغيرا، ولكن لحماية القلعة كانت مثل هذه الأسلحة مريحة للغاية: فعندما اقترب المهاجمون، منعهم الوابل من الوصول إلى الجدران.

لم تكن غارة توختاميش هذه رهيبة أو مخيفة تماما، لولا طبيعة السكان الذين استقروا في موسكو في العقود القليلة الماضية التي تميزت بالهدوء. فماذا كان يريد السكان المحاصرون؟ الشرب والتنزه. لذلك قام سكان موسكو، الناس الموسكوفيون العاديون، وهم في الحصار في البداية بالذهاب إلى أقبية البويار، فكسروا الأقفال وسحبوا براميل العسل والخمر وشربوا حتى الثمالة. بعد ذلك ساروا إلى الجدران مظهرين "جسارتهم وعدم خوفهم" وأخذوا يكيلون السباب للتتار، مصاحبين سبابهم بإيماءات بذيئة. والتتار، وبصفة خاصة السيبيريون منهم، كانوا حساسين للغاية، فاستشاطوا غضبا من سكان موسكو بسبب سلوكهم المعيب. ولم يستطع المطران فعل أي شيء حيال ما يجري: إذ لم يستمع إليه أحد، وعندما أراد المطران مغادرة موسكو (لم يكن الحصار كاملا مطبقا، وكان بإمكان أي شخص مغادرة المدينة)، قام الغوغاء بسرقته، كما فعلوا مع الأميرة المعظمة، تاركينه على البلاط مجردينه من آخر خيط في ثيابه.

بعد رحيل كيبريان واصل الناس المرح والشراب من ممتلكاتهم الخاصة وممتلكات الآخرين. بعد مرور بعض الوقت، عندما تم شرب كامل مخزون الكحوليات، قرر سكان موسكو التفاوض مع التتار: طُلب من التتار إعلان شروطهم للسلام، ولهذا الغرض عزم المحَاصَرون على السماح بدخول سفارة إلى المدينة. ولكن عندما فُتحت البوابات لم يدر بخلد أي من ممثلي "الجماهير الشعبية" أن يضعوا حرسًا يعتمد عليهم أمام الأبواب حتى لا يسمحوا سوى للسفراء بالمرور إلى الداخل. بل فتح المحاصرون البوابة ببساطة، فاقتحم التتار المدينة وأحدثوا مجزرة هائلة. قُتل كل سكان موسكو تقريبًا ودمرت المدينة ونُهبت.

سرعان ما وصلت الشائعات حول الهجوم الغادر من جانب توختاميش إلى ضواحي أراضي موسكو. أولئك الذين لم يستطيعوا القتال ذهبوا إلى إمارة تفير، حيث نهى توختاميش نهيا باتا وبشكل قاطع قواته عن مهاجمة أراضي تفير. أما بويار موسكو فقاموا على وجه السرعة بجمع محاربيهم ومهاجمة فصائل التتار التي كانت مبعثرة في الأحياء والنواحي. عندما رأى توختاميش أنه سيكون مضطرا لخوض قتال جدي، انسحب على الفور وترك موسكو التي كان استولى عليها وانتقل عبر نهر أوكا إلى إمارة ريزان، فنهبها ثم ذهب بعيدا.

من السهل أن نفهم أن الخونة فقط، أي أمراء سوزدال، كانوا هم المستفيدون من غارة توختاميش. لكن كل شيء له علاقة بالغارة كان له عواقب عميقة وبعيدة الأثر. لقد أسفرت عملية الاستيلاء على موسكو عن إفساد العلاقات الودية الوثيقة التي كانت موجودة في السابق بين القبيلة وإمارة موسكو. ومع ذلك لم تبدأ موسكو حربًا مع القبيلة، وذلك لأن النبلاء (البويار) القريبين من دِميتري أدركوا تمامًا ما كان يعنيه هذا الأمر. ولم يكن دبلوماسيو موسكو مخطئين بشأن الجناة الحقيقيين وراء هذه المأساة. ولم يروا ضرورة للقتال مع توختاميش، الذي كان مجرد أداة للشر والكذب والقتل. ولكن التعاطف مع القبيلة اختفى بلا رجعة.

في القرن التالي على هذه الأحداث أثرت هذه القطيعة العاطفية بشكل كبير على تاريخ روسيا، وكذلك على تاريخ القبيلة.

الهـوامـش

(١) نسبة الى بلدة صغيرة قرب موسكو اسمها "تفير".

(٢) ولنتذكر القصائد الشعرية الرائعة لآدم ميتسكيفيتش، والتي قام بترجمتها ألكسندر بوشكين: "لدى يودريس ثلاثة أبناء، مثلهم مثله، الثلاثة ليتفين (ليتوانيين) ..." العجوز ليتفين يرسل أبناءه للحرب: أحدهم لسرقة الروس في نوفغورود الغنية، والثاني إلى بحر البلطيق ضد الصليبيين، "الكريزاك الملعونين"، بينما يرسل الابن الثالث إلى بولندا .

وتنتهي القصيدة بالقول: ذهب الأبناء الثلاثة جميعهم إلى بولندا وأحضر كل منهم عروسًا له.

الفصل الرابع

روسيا بين أوروبا والتتار

- توخاميش وتيمور
- تيمور وفارس
- المغول في مواجهة بولندا وليتوانيا
- العلاقات الليتوانية – البولندية
- كاثوليك وأرثوذكس

زعماء المغول.. توختاميش وتيمور

أضعف الصدام مع الخان المغولي "توختاميش" موقف الأمير الأكبر دميتري. فقد ظل الخان، كما كان الأمر في السابق، يمنح مرسوم ولاية العرش العظيم، وذلك لأن معركة كوليكوفو لم تغير العلاقة السياسية بين القبيلة وموسكو: كان العرش العظيم مرتبطا بتعيين أمير موسكو وفق إرادة "قيصر" القبيلة.

وقد سعت إمارة تفير لاستغلال النفور الذي نشأ بين دِميتري وتوختاميش. لكن محاولات الأمير ميخائيل ألكسندروفيتش التفيري الحصول على عهدة الإمارة العظيمة من الخان لم تكلل بالنجاح. فقد أرسل دِميتري ابنه فاسيلي إلى القبيلة، ونجح بذلك في الاحتفاظ بالإمارة العظيمة في موسكو. لكن توختاميش احتفظ بفاسيلي في القبيلة رهينة، إلا أن فاسيلي تمكن في ١٣٨٥ من الفرار إلى مولدوفا، ومنها انتهى به الأمر في ليتوانيا، حيث وقع في الأسر لدى فيتاوتاس. وجعل فيتاوتاس زواج الأمير فاسيلي من ابنته صوفيا شرطا للإفراج عنه، فاضطر وريث عرش موسكو الرضوخ لهذا الشرط وقبول الاتفاق.

في موسكو، كما نتذكر، تم إقرار مبدأ وراثة العرش لسلالة كاليتا. ولم يكن صدفة أو خطأ عندما بارك دِميتري دونسكوي في وصيته ابنه فاسيلي أميرًا عظيما لفلاديمير وذلك عند حديثه عن تغيير وقع في العلاقات مع القبيلة من منظور سياسي بعيد المدى، فقد عكست كلماته الانفعالية التغييرات

العاطفية التي دخلت على العلاقة مع القبيلة بعد قيام توختاميش بحرق موسكو. كان لا يزال يُعترف بسلطان الخان بحكم الأمر الواقع، لكن هذه العلاقة باتت عبئًا ثقيلا، كان كل الروس يتمنون التخلص منه، خاصة أنه منذ نهاية القرن الرابع عشر لم يكن التحالف مع القبيلة يجلب لموسكو أي فوائد كتلك التي كانت في السابق. وقد عكس هذا التصور لسلطة الخان سياسة أمير موسكو فيما بعد عام ١٣٨٢.

فشل الخان توختاميش – الذي وحَّد القبائل البيضاء والزرقاء والذهبية واستعاد دولة المغول العظمى- في الحفاظ على السلطة التي حصل عليها بصعوبة. وكان السبب في ذلك هو قصور وضيق أفق توختاميش كسياسي. ولنتذكر أن توختاميش كان يدين لصعوده في القبيلة في الأصل للأعرج الحديدي تيمورلنك. كان تيمور نفسه ينحدر من أصل مغولي من سلالة بارلاس ولم يكن ينتمي إلى الجنكيزخانيين. تيمور المسلم المتحمس الذي كان يجيد على حد سواء كلتا اللغتين التركية والفارسية لم يكن محاربًا قويا فحسب بل وكاتبًا أيضًا. كان هذا الفاتح العظيم رجل عصره، عصر اختلاط الأخلاق والتقاليد في دولة المغول فترة نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر. وبما أنه كان يدين بالإسلام فقد قام بتطوير تقاليد الثقافة الإسلامية، بدلاً من قانون "ياسا" الذي وضعه جنكيز خان.

اعتمد تيمور على السكان المسلمين في واحات آسيا الوسطى. وإذا كان جنود جنكيز خان من مقاتلي البدو، الذين كان كل واحد منهم يعرف كيف يركب الخيل ويطلق السهام من القوس، فإن تشكيلات قوات تيمور العسكرية كانت قائمة على أساس مختلف. إن محاولة تعبئة أولئك الذين لا يعرفون كيف يمسكون بالسيف في أيديهم من "الدهقان" لم يكن لها معنى، ولذا كان

جيش تيمور في آسيا الوسطى مكونًا من محاربي "الغولام" المحترفين. لقد خاطر المحترفون بحياتهم، بالطبع ليس من دون مقابل، فقد كانت خدمتهم مدفوعة الأجر بمقابل جيد.

ومن أجل الحصول على راتب جيد كان على المحاربين "الغولام" إظهار مهاراتهم، على سبيل المثال أن يقوم المحارب بحربته وهو منطلق بأقصى سرعة بالتقاط خاتم يمسكه المراقب بين أصابعه. من السهل تخيل مقدار الجهد الذي تم إنفاقه على مثل هذا الإعداد العالي. في الوقت نفسه، كان مطلوبا من "الغولام" الانضباط المطلق والطاعة العمياء غير المشروطة للقادة الأمراء.

لقد كانت آسيا الوسطى في الفترة التي نحن بصدد دراستها واستعراضها مسرحا كبيرا شاملا للعمليات العسكرية. فقد خاض آخر خانات المغول صراعات ضد أمرائهم، وكان الأمراء بدورهم يتحاربون مع عصابات جيتيه (من كلمة جيتيه التي تعني" عصابة مارقة"، أو" فصيل متمرد). وقد تحقق نجاح كبير لهؤلاء الجيتيه أو العصابات المارقة التي كانت مكونة من أولئك الذين أرادوا العيش على حساب السرقة والنهب وعدم الاستماع إلى أية قيادات أو رئاسات، بل وأنشأوا دولة مستقلة اسمها دولة "الموغول" (موغولستان) في منطقة البحور السبعة منفصلة عن دولة المغول، حيث ساد هنا السكان التورك، وليس المغول. كما تم تدمير سلطة الإيلخانيين المغول في إيران نتيجة لانتفاضة الفرس السربداريين (الوطنيين). كان شعار هذه الحركة هو "سر با دار" والذي ينص على " دع الرأس معلقة على الباب".

في وقت الانهيار النهائي للدول المغولية، في الحقبة المأساوية، حيث حرب الكل ضد الكل، بدا أن تيمور على رأس جيشه المكون من "الغولام" هو القائد العسكري الأقوى والأكثر نجاحًا. وعند المواجهة مع المتآمرين المسلحين من السربداريين قضى عليهم تيمور وأبادهم عن بكرة أبيهم. سقطت قلاع وحصون السربداريين وأولئك الذين رفضوا الاستسلام، دفنوا أحياء داخل الجدران بأمر من تيمور. بالطبع، كانت هذه القسوة فوق العادة وخارقة للطبيعة، ولكن بما أن السربداريين هم أيضا قاموا بالتخلص من أنصار تيمور بقسوة، فكان تصرفه معهم بهذا الشكل مفهوما.

ثم استولى تيمور على كل من فرغانة. واتخذ الفاتح من مدينة "كيش"، التي تسمى الآن "شهرسبز"، عاصمة لدولته، وأخضع سمرقند. كما تمكن الأعرج الحديدي تيمور في عام ١٣٧٠م من الاستيلاء على ولاية بلخ. واستسلم أمير بلخ "حسين"، الذي كان حليفا سابقا لتيمور في القتال ضد السربداريين، وقد استسلم على شرط الحفاظ على حياته، لكن لعدم قدرته على تحمل التوتر العصبي حاول الهرب، فتم الإمساك به وإعدامه لأن تيمور اعتبر أن حسين خرق المعاهدة بالهروب.

تيمور وفارس

في الجنوب كان خصوم تيمور هم "آل مظفر"، آخر السلالات الفارسية التي حكمت فارس وأصفهان. استولى تيمور على أصفهان، فحفظ حياة السكان ولم يعمل فيهم القتل، لكنهم قاموا بعد ذلك بتمرد قتلوا خلاله حاميته. بعد هذه الواقعة قام تيمور بتدمير أصفهان وبناء هرم من جماجم القتلى. ومع

ذلك واصل آل مظفر المقاومة. اقترب تيمور من شيراز التي كان سلطانها الشجاع من آل مظفر يرغب في مبارزة تيمور، لكنه قتل قبل أن يتمكن من اختراق الصفوف إلى عدوه.

ويرتبط بدخول تيمور وإقامته في شيراز مشهد مؤثر. كان يعيش في هذه المدينة حافظ الشيرازي (شمس الدين محمد حافظ الشيرازي)، الشاعر العظيم الذي ذاع صيته في العالم الإسلامي كله. ومن بين إبداعاته كتب الرباعية الغنائية التالية عن الحب والغرام:

آه لو كانت لي هذه الجميلة التركية!

قلبي في يديها،

لقدمت لأجل شامتها الهندية

سمرقند وبخارى.

كان تيمور، بالطبع، يعرف هذه الأبيات. وها هو عندما استولى على شيراز جلس على سجادة في قلب الساحة في وسط بحر من القسوة والعنف، فقد نهب جنوده الغولام البيوت وساقوا الأسرى واغتصبوا النساء وذبحوا آخر المقاومين. ودون اهتمام لكل هذا، أمر تيمور أن يأتوه بالشاعر حافظ. بعد مرور بعض الوقت أحضروا إليه هذا الشاعر الشهير الذي كان يرتدي رداءً بسيطًا. فقال الفاتح للشاعر، ملمحا إلى رباعيته الغرامية الشهيرة: " يا أيها البائس! لقد أمضيت حياتي كلها في تزيين وتمجيد مدينتيّ المفضلتين الحبيبتين: سمرقند وبخارى، وأردت أنت إعطاءهما هكذا لأجل شامة بغي فاسقة"! فأجابه حافظ قائلا:" يا أمير المؤمنين! لولا كرمي هذا، ما كنت

أعيش في هذا الفقر الدائم الذي تراه". أعجب تيمور بسعة حيلة الشاعر، فضحك، وأمر لحافظ بثوب فاخر والسماح له بالعودة إلى داره.

بالطبع، يمكن إدانة أوامر وأفعال تيمور، لكن من المستبعد أنه كان يمكن أن يتصرف على غير ذلك. إذ بعد أن بدأ تيمور الحرب كان عليه يستمر فيها، كان لابد من دفع الرواتب للغولام، وكانت الحرب وسيلة لإطعام الجيش. ولو كان تيمور توقف عن ذلك لبقى بدون جيش، ثم بعد ذلك بدون رأس.

توختاميش يواجه تيمور

لكن دعونا نعود إلى توختاميش مرة أخرى. بعد أن أصبح على رأس دولة المغول (أولوس جنكيز)، لم يستطع أن يسترشد بالنظم التي وضعها تيمور في آسيا الوسطى. وحتى إذا أراد أن يلتزم بهذه الاستراتيجية، فإن النبلاء وزعماء سيبيريا المحليين لن يقبلوا أبدًا بدور الخدام البسطاء عند السلطان، وألا يكونوا قوات الخان المستقلة. وطالب الناس توختاميش بالانتفاض ضد عدوان المسلمين الذين استولوا على منطقة بعد منطقة في غرب سيبيريا. بالإضافة إلى ذلك، ووفقًا لوصية جنكيز خان، فإن واحة خوارزم بأكملها تكون ملكا لأحفاد جوجي. وفي عام ١٣٨٣م قام توختاميش بأول محاولة للحصول على الاستقلال، فحاول انتزاع خوارزم من تيمور. وقد نجح لبعض الوقت، ولكن لاحقا استعاد تيمور واحة خوارزم.

ومن ذلك الوقت بدأت الحرب بين الثقافتين، السهول الأوراسية والإسلامية، التي كان ممثلها تيمور الذي أعاد القوة السابقة للجيوش

الإسلامية. كانت أعمال تيموز في جوهرها محاولة لتجديد الأيديولوجيا المتلاشية وثقافة الإسلام. وقد امتدت هذه المحاولة مع الأخذ في الاعتبار نشاط التيموريين لمدة مائة عام، وخلال هذا الوقت بات البدو الرحل الذين كانوا يسكنون السهوب الأوراسية هم العدو الرئيسي للمسلمين في آسيا الوسطى.

في عام ١٣٨٥ أنزل توختاميش ضربة جديدة بممتلكات تيمور. مرت قوات توختاميش عبر ممر دربيال (مضيق كروش) واستولت على تبريز في أذربيجان، والتي كان من المفترض أيضا أنها من أملاك دولة جوجي (أولوس جوجي). ففرق تيمور شمل جيش التتار، وأسر العديد منهم. وفي محاولة لتأجيل الصدام الحاسم، أعاد للأسرى حريتهم وأرسلهم تحت الحراسة إلى سهولهم المحلية. لكنه لم ينجح في تغيير مسار الأحداث التالية.

بعد سنتين من ذلك قام توختاميش بجمع قوة كبيرة ونقلها عبر السهوب الكازاخستانية وعبر صحراء دالا بيتباك، وبعد أن اجتاز خوجند وسمرقند وصل إلى ترمذ. على طول الطريق قام الخان بنهب كل القرى التي قابلته، لكنه لم يستول على أي حصن أو قلعة، وذلك لأنها كانت محصنة جيدًا. عاد تيمور الذي كان يقاتل في ذلك الوقت في بلاد فارس إلى آسيا الوسطى في مسيرة سريعة مع الوحدات المختارة من جيشه. بدأ توختاميش في التراجع، لكن تيمور لحق به في فرغانة وهزمه، بعد ذلك هرب توختاميش مع ما تبقى من قوات إلى غرب سيبيريا.

فهم تيمور أن الحرب مع توختاميش لا يمكن كسبها إلا في داخل الممتلكات التتارية. ولخوض حرب في السهوب كان من الضروري وجود عدد كاف من الخيول، فضلا عن توفير الأعلاف الضرورية أو المراعي لها.

ولم تكن السهول الشاسعة التي تفصل الفولغا عن واحات آسيا الوسطى مغطاة بالعشب على مدار السنة. في هذه الحالة أظهر تيمور مواهب استراتيجية غير عادية. حيث أخذ في الاعتبار أنه في فصل الربيع تنمو النباتات والأعشاب في سهول آسيا الوسطى أولاً في الجنوب، ثم في وسط كازاخستان، وبعدها فقط في الشمال. وجمع تيمور جيشاً وانطلق في المسيرة بالمعنى الحرفي للكلمة" يقتفي أثر الربيع ."فكانت الخيول تتغذى على العشب الذي لم يذبل بعد. وقام الجيش بتخزين مخزون من المؤن عن طريق الصيد والمطاردة في السهوب.

لم يتوقع توختاميش هذا العبور الإسلامي عبر السهوب، ولكن سرعان ما بدأ في جمع كل القوات الموجودة تحت تصرفه.

في هذا الوقت، أي في عام ١٣٨٩ توفي أمير موسكو الأكبر دِميتري إيفانوفيتش. وبالرغم من أنه، كما نتذكر، قد أوصى خلافاً لكل العادات القديمة بالعرش العظيم لابنه فاسيلي، فإن مباركة هذا القرار كان لابد أن تأتي من الخان الشرعي للدولة الروسية، (الأولوس الروسي)، أي توختاميش. أكد توختاميش حقوق فاسيلي دميتروفيتش، وهو ما يبدو بديهيا وطبيعيا تماما عشية الاشتباك مع تيمور، وطالب بالطبع بتقديم المساعدة. قاد الأمير فاسيلي الجيش، ولكن الأمير الروسي لم يكن لديه أي رغبة في القتال من أجل توختاميش، إذ لا تزال ذكرى الدمار الذي لحق بموسكو على يديه عام ١٣٨٢ حية متقدة. وبهذا الشكل أصبح الخان توختاميش في اللحظة الحاسمة للمواجهة مع أتراك وسط آسيا بدون حليف فعلي.

بعد أن قام تيمور بضربته الخاطفة تمكن من حصار قوات الخان ضاغطا عليها على نهر الفولغا. على الرغم من كل شجاعة سلاح الفرسان

التتار، إلا أن توختاميش تجرع الهزيمة. فقد حقق الجيش النظامي لتيمور وغولامه الرهيبون انتصارا حاسما في معركة نهر كوندورتشا، أحد روافد النهر. تمكن توختاميش نفسه من العبور إلى الضفة اليمنى من نهر الفولغا، لكن بعد أن كان قد خسر قضيته. أما فاسيلي، فبعد أن رأى بعينيه كيف تتطور الأحداث، قاد جيشه إلى الروافد الدنيا لنهر كاما وانتقل أيضا إلى الضفة اليمنى من نهر الفولغا فارا من تيمور. لم يعبر تيمور النهر ونجح أمير موسكو في تجنب الاصطدام.

بعد هذا الانتصار بدأ تيمور في الانسحاب، حيث غادر فارا من البرد والجوع، بنفس الطريق الذي اتبعه في فصل الربيع. ونجح في سحب وإجلاء معظم قواته. كانت حملة تيمور على نهر الفولغا منتصرة، لكنه لم ينجز مهمته الرئيسية، وهي الدفاع عن آسيا الوسطى. وظل مركز وقلب ممتلكات تيمور، أي مدينتا سمرقند وبخارى الجميلتان، لا حول ولا قوة لهما ضد الهجمات القادمة من السهوب الكازاخستانية. وبالفعل، عاد توختاميش مرة أخرى للهجوم على تيمور. فقد تحرك من سهوب الفولغا إلى الجنوب على طول الشاطئ الغربي لبحر قزوين. خرج تيمور لملاقته، والتقى الجيشان عند نهر تيريك، حيث جرت وقائع معركة دامية. أظهر التتار بطولة استثنائية، لكن القوات التتارية غير النظامية فشلت مرة أخرى في التصدي للهجمة الضاغطة للجيش النظامي. انتصر تيمور، الذي كان يشارك شخصيا في الحرب في صفوف الجنود المقاتلين. وفر توختاميش هاربا. بينما تحرك تيمور إلى الأمام، ومر عبر سهوب بحر قزوين وغزا مركز وقلب القبيلة الذهبية، منطقة ما بين نهري الفولغا والدون.

كان أشجع الجميع في القتال ضد تيمور هو القائد العسكري الموهوب ياريك أوجلان بيك. وقد تمكن من سحب قواته إلى دنيبر، لكن تيمور أرسل إلى هناك واحدًا من أفضل قادته وهو الأمير عثمان. حاصر عثمان السهوب الواقعة على ضفاف نهر الدنيبر. ومع ذلك تمكن ياريك بيك من الهرب مرة أخرى واندفع شرقـا مع جزء من جيشـه، لأنه لم يكن لديه وسيلة أخرى. بيد أنـه في الغرب كانت تقع ليتوانيا المعـادية للتتار. تمكن الأمير عثمان من اللحاق بـ "ياريك بيك" في مدينة ييليتس الروسـية. فحاصر الأمير مدينة ييليتس. وقد قاومت المدينة التي كانت تدافع عنها القوات التتارية الروسية المشتركة بشدة، لكن سقطت في النهاية. ومرة أخرى اخترق ياريك أوجلان بيك مع ابنه الأكبر صفوف المحاربين وذهب إلى روسيا. استولت الدهشة على تيمور من شـجاعة ومقـاومة وولاء هذا الزعيم التتاري، لدرجة أنه بعد أن وقعت أسرته في الأسر لدى تيمور، أمر هذا الأخير بفك أسرها وإرسالها خلف هذا البطل تحت الحراسة حتى لا يتسبب أحد بأذى للنساء والأطفال.

قرر تيمور التحرك لأبعد من ذلك إلى داخل روس والاستيلاء على ريزان وموسكو. على الأرجح، كان بإمكانه أن ينجح في ذلك لو لم يحدث تمرد في المؤخرة بين الشركس والأوسيت والتتار. ما أضطر تيمور للعودة. ولدى مروره عائدا قام بجمع الإتاوة في شبه جزيرة القرم وأطعم جيشه. وعلى الرغم من أن الشركس الثائرين أحرقوا السهوب في شمال كوبان، فإن قوات تيمور تمكنت من المرور عبر السهوب المحترقة وألحقت بالشراكسة هزيمة وحشية وأجبرتهم على اللجوء إلى الجبال. وأثناء مرر تيمور عبر ممر دِربَنْد ودخوله إلى أذربيجان قام بتدمير قلاع المتمردين في منطقة

القوقاز وفي جبال إلبروس، ثم عاد إلى سمرقند، المدينة" الشبيهة بالجنة" لكن حروب تيمور المظفرة لم تنته عند هذا الحد. فقد كان عليه أن يقاتل بشراسة ضد الأتراك العثمانيين، وفي عام ١٤٠٢م هزم السلطان العثماني بايزيد وقواته من مشاة الانكشارية التي لم تقهر من قبل حتى ذلك الوقت. ثم اقترب تيمور من أسوار إزمير(سميرنا)، التي تحتلها الحامية الصليبية لفرسان القديس يوحنا.

حاصر الأتراك إزمير لمدة 20 سنة ولم يتمكنوا من أخذها، بينما تمكن تيمور من الاستيلاء على القلعة في هجوم خاطف كالعاصفة في غضون أيام قليلة. عندما وصلت سفن البندقية وجنوة إلى إزميرٍ بالمساعدات والذخيرة والمؤن للمحاصرين، قصفها محاربو تيمور برؤوس فرسان يوحنا من المقاليع والمنجنيق. بعد ذلك، عاد سيد آسيا الوسطى إلى سمرقند وبعد أن دفع رواتب جيشه واصل مع قواته قمع مغولستان المتمردة.

ومع انسحاب تيمور من الفولغا، طلب بعض الضباط ذوو الأصل التتاري (ميرزا إديغي، وأمير صغير من القبيلة البيضاء اسمه كوريتشاك) إذناً للبقاء في السهول، فوافق تيمور وكلفهما بمهمة تنظيم الأمور في القبيلة التتارية. لكن هذين القائدين العسكريين غادرا ولم يعودا إلى السيد المسلم، خارقين بذلك القسم. من الواضح أن عامل الانتماء العرقي الإثني كان أقوى. ولم ينوِ ميرزا والأمير الصغير مساعدة الفاتح، لكنهما فضلا على ذلك الانضمام إلى شعبيهما. وهكذا، ظهر في القبيلة الذهبية التي هزمها تيمور حكام جدد. غير أن الأمير كوريشاك، ابن أوروس زعيم القبيلة البيضاء الشاب النشط قد وافته المنية بعد ذلك بقليل، وهنا انتقلت السلطة إلى ابن عمه تيمور قتلغ.

وسرعان ما وجد هذا الخان الجديد نفسه مضطرا للدفاع عن عرشه ضد توختاميش خاصة بعد أن فقد دعم تيمورلنك بسبب خيانة الأمير كوريشاك المتوفى،. لقد كان لدى توختاميش عدد كاف من المؤيدين، خاصة خلف جبال الأورال. احتل توختاميش سراي، ولكن تيمور قتلغ هزمه ودخل في تحالف وثيق مع ميرزا إديغي، الذي تم تعيينه في منصب قائد عام الجيوش أو رئيس الحكومة في واقع الأمر. وحيث أن التحالف مع موسكو كان مستحيلاً بالفعل بالنسبة إلى توختاميش، فقد انطلق منكسرًا إلى الغرب تجاه الحدود الليتوانية.

على جبهة بولندا – ليتوانيا

منذ أن دخلت ليتوانيا في عام ١٣٨٦م في اتحاد مع بولندا وأواصر الاتحاد تتدعم من خلال الزواج الذي جمع بين الأمير "يوغيلا" الليتواني والملكة البولندية "يادفيجا". وعلى الرغم من أن "يوغيلا"، الذي اتخذ لنفسه اسم فلاديسلاف، بدأ في دعم التوسع الكاثوليكي فإنه لم يكن من السهل إدخال دوقية ليتوانيا الكبرى ضمن مملكة بولندا. كان الاتحاد محل نقد واستنكار، ليس فقط من جانب الغالبية العظمى من السكان الروس الأرثوذكس، ولكن أيضا من قبل ممثلي النبلاء الوثنيين الليتوانيين، الذين أرادوا الحفاظ على استقلالهم عن البولنديين. كافح الأمراء الليتوانيون الإقطاعيون ضد سياسة يوغيلا، بينما شارك فيتاوتاس، الذي كان قد فر من الأسر، بدور نشط في هذا الصراع. وبحلول عام ١٣٩٢م صعد ابن كيستوتاس لمكانة الدوق الأكبر لليتوانيا، وتوقف عن أخذ يوغيلا في الحسبان.

ومع فيتاوتاس تحديدا اتفق توختاميش في عام ١٣٩٥م على تقسيم روس الموسكوفية. والتنازل عن جميع الأراضي الروسية إلى فيتاوتاس، في مقابل أن يساعده فيتاوتاس على استعادة العرش في سراي. وقد كان فيتاوتاس (الذي سعى لفترة طويلة إلى توسيع دوقية ليتوانيا الكبرى على حساب ضم روس) قد حقق في هذا الوقت بعض النجاحات الدبلوماسية. فمثلا في عام ١٣٩٠م تزوج الأمير الأكبر لموسكو فاسيلي الأول من ابنة فيتاوتاس صوفيا، موفيًا بذلك بالوعد الذي قطعه على نفسه عندما وقع الأسر. وبحلول وقت الاتفاق مع توختاميش كان فيتاوتاس قد استولى على إمارة سمولينسك، وبعد ذلك بقليل ضم مدينة ليوبوتسك إلى ليتوانيا (كانت تقع بالقرب من كالوجا الحالية)، وكانت هذه المدينة تقع على نهر أوكا. لذلك كان عرض واقتراح توختاميش مناسبين جدا في إطار الخطط بعيدة المدى لفيتاوتاس، إذ بتنصيبه "خانًا" على عرش القبيلة الذهبية تابعا لفيتاوتاس سيقدم فرصة حقيقية لقهر وإخضاع موسكو.

على الرغم من كون الاتفاق بين فيتاوتاس وتوختاميش مفيدًا لكلا الجانبين، فإنه كان صعب التنفيذ. لم يكن "تيمور قتلغ" (ملك القبيلة الذهبية) ينوي بحال التنازل عن العرش إلى توختاميش، بل وطالب فيتاوتاس بتسليم الهارب. رفض فيتاوتاس ذلك. وبطبيعة الحال، كان الخان الشرعي متحالفًا مع إمارة موسكو المعادية لتوختاميش، لكن موسكو لم تضطر حتى إلى المشاركة في الصراع المسلح بين هذين التحالفين.

التحالف المغولي الأوروبي يواجه التتار

وقد خرج تيمور قتلغ بنفسه على رأس فرقة صغيرة من التتار لملاقة فيتاوتاس وتوختاميش، اللذين جمعا جيشا ضخما وتحركا به إلى بودوليا،

وطلب من تيمور الاستسلام غير المشروط. كان جيش فيتاوتاس مكونا من حوالي 100 ألف شخص، من الليتوانيين والبيلاروسيين والبولنديين والفرسان الألمان. حاول "تيمور قتلغ" تأجيل بداية المعركة، حيث انتظر قدوم ميرزا إديغي من سهول البحر الأسود لمساعدته، ودخل في مفاوضات مع فيتاوتاس. كان الأمير الليتواني قد ارسل لتيمور قتلغ مطلبا كانت الموافقة عليه تعني وفقًا لتقاليد القرن الرابع عشر الإنصياع والخضوع التام. كان المطلب ينص على صك عملة القبيلة بصورته، أي صورة فيتاوتاس نفسه عليها، مبررا الحاجة إلى مثل هذه الخطوة بحقيقة أنه أكبر سنًا بكثير من تيمور قتلغ. ومن "خلال النظر في "مطالب ليتوانيا، كسب التتار الوقت، وبهذا حصل إديغي الذي اقترب بجيشه، على فرصة المشاركة في" المفاوضات ."وأعلن الميرزا الذكي بسخرية لليتواني ما يلي": أنا أفهم، أيها الأمير المبجل، أنكم أكبر سنا من خاننا الشرعي تيمور قتلغ، لكنكم أصغر مني، وإذا لجأنا لحكم الأقدمية، عندها يجب أن تُصك العملة بختمي أنا".

أوقف فيتاوتاس الغاضب المفاوضات وحرك قواته لشن الهجوم على التتار. صف أديغي فرقته الصغيرة ضد جيش العدو الضخم وبدأ في انسحاب بطيء. لم تساعد المدفعية الليتوانيين كثيرًا، لأن إطلاق نيران المدفعية ضد الأهداف المبعثرة كان غير فعال: فقد تسببت النيران في أضرار عرضية فقط بالنسبة لمركز قوات الخصم. في هذه الأثناء قام تيمور قتلغ على رأس فرقته الصغيرة بمناورة والتفافة عميقة، فوجد نفسه في مؤخرة قوات فيتاوتاس، وبضربه الليتوانيين في الظهر تسبب في حالة من الذعر.

فرّ الجميع، البولنديون، الصليبيون الألمان، المحاربون البيلاروسيون، بل والليتوانيون الشجعان أنفسهم. تراجعوا جميعا بشكل عشوائي إلى مسافة

٦٠٠ ميل تقريبًا، إلى مدينة لوتسك، حيث كانوا يأملون في العثور على الخلاص. غير أن التتار لاحقوا الهاربين وأجهزوا عليهم عاملين فيهم القتل والذبح، دون أن يتحملوا هم أنفسهم أي خسائر تقريبا. من المثير للفضول أن توختاميش، الذي كان على معرفة جيدة بتكتيكات التتار وقدرات قاداتهم العسكرية، فضل حتى قبل اندلاع المعركة سحب جيشه على طول الحدود الجنوبية الروسية إلى سيبيريا.

فشل جيش فيتاوتاس – المجهز من الناحية الفنية على الطريقة الأوروبية – في مقاومة التتار الذين لم يعتمدوا على المعدات، ولكن على تدريب الجنود والقيادة الجيدة، أي إنهم اعتمدوا على الصفات والسمات الشخصية للعنصر البشري. هلك الجيش الأوروبي، بينما لاذ فيتاوتاس نفسه بالفرار. وكانت هذه هي نتائج معركة فورسكلا الشهيرة التي وقعت عام ١٣٩٩م. ولكن وعلى الرغم من غرابة ذلك، فإن أكثر من تضرر من هذه النتيجة لم يكن فيتاوتاس، ولا حتى توختاميش، ولكن المنتصر تيمور قتلغ. بعد مرور وقت قصير، لسبب ما اختفى تيمور من ساحة التاريخ، بل وهناك تضارب وغموض في المصادر التاريخية بشأن أسباب ما حدث له. ولا يوجد شيء غريب في هذا إذا اعتبر المرء أن كل خان من خانات القبيلة الذهبية في فترة نهاية القرن الرابع عشر كان عليه أن يختار من يخون: إما الغازي تيمورلنك، الذي أعطاه السلطة، أو شعبه الذي لم يرغب قط في الخضوع لتيمورلنك وأتباعه. على الأرجح كان اختيار تيمور قتلغ خيارًا لصالح شعبه، ولم يكن هذا الخيار عبثًا بالنسبة له. فقد تم استبدال تيمور قتلغ على عرش الخان بشقيقه شادي بيك، الذي كان هو الآخر رجلا موهوبا جدا.

ماذا جنت موسكو؟

حصلت موسكو أكبر المكاسب من معركة "فورسكلا". فهزيمة فيتاوتاس أنقذتها من خطر الغزو الليتواني، بل وخسر الدوق الليتواني مدينة سمولينسك لفترة من الزمن (١٤٠١م) لكنها استعادها مرة أخرى بحلول عام ١٤٠٥م بل واستولى معها على مدينة "فيازما". لم تكن لدى موسكو قوى كافية لخوض صراع مستقل ضد هجوم ليتوانيا المتجدد. لم يتمكن فاسيلي دِميتريفيتش من إعاقة أو منع فيتاوتاس من الاستيلاء على إمارات نهر أوكا العليا (بيريميشل وأودوفسكي ونوفوسيلسكي وفوروتينسكي) بات جليا أنه لا يمكن الاستغناء عن مساعدة التتار.

وعندما شعر فاسيلي دِميتريفيتش بالتهديد الليتواني الحقيقي توجه في الوقت المناسب إلى خان القبيلة الذهبية لطلب المساعدة. أراد شادي بيك استعادة سياسة القبيلة التي كانت سارية في القرن السابق، أي السياسة التقليدية للتحالف مع موسكو، وأرسل إلى الموسكوفيين جيشا لدعمهم في القتال ضد ليتوانيا. وكما نرى، فإن التتار، حتى بدون أن يكون لديهم هذا الهدف، كانوا بإرادة القدر بمثابة الحاجز والعقبة الكؤود أمام تقدم القوات الكاثوليكية، ما منح إمارة موسكو الفرصة لتعزيز قوتها. لكن للأسف لم تطل كذلك فترة جلوس شادي بيك على العرش. لقد اختفى في مكان ما، على ما يبدو أنه قُتل وحل محله بولات تيمور، الذي كان ما زال صبيا، حيث رفعه إديغي المنتصر في فورسكلا على العرش.

طالب إديغي – الحاكم الجديد للقبيلة بحكم الأمر الواقع – أن يدفع فاسيلي جزية سنوية مقابل المساعدة العسكرية التي ستقدم له. لم يكن أمير

موسكو يريد أن يدفع، ومن ثم إمتعض إديغي فقام بغارة خاطفة على موسكو عام ١٤٠٨م كي يؤدب تابعه. وبعد أن نهب مدن "نيجني نوفغورود" و"روستوف" و"بيرياسلاف" فرض إديغي الحصار على عاصمة الإمارة العظيمة الكبرى. غادر الأمير فاسيلي دِميتريفيتش المدينة قبل الحصار وذهب إلى الشمال لجمع القوات. ومن جديد كان الوضع في القبيلة نفسها هو ما أنقذ موسكو، إذ بلغت إديغي أنباء تفيد بأن سلطة ربيبه "بولات تيمور" في خطر. فتعجل إديغي العودة إلى الديار، دخل في مفاوضات مع الموسكوفيين، وبعد أن اتفق على السلام مقابل" ضريبة "بلغت ثلاثة آلاف روبل رفع الحصار عن المدينة.

بالعودة إلى القبيلة، اصطدم إديغي بمقاومة مفتوحة. فقد ثار أبناء توختاميش ضد سلطة إديغي. وكان توختاميش نفسه قد مات قبل ذلك الوقت في تيومين. التقى جنود إديغي مع قوات أبناء توختاميش على ما يفترض عند مصب نهر سرداريا. وفي المعركة الشرسة مات العجوز اديغي، الذي سجل العديد من الانتصارات ودافع عن مبادئه حتى النهاية، مات كما يجب أن يموت المحارب الحقيقي، على حصانه وفي يده سيفه.

لم يكن موت إديغي والانقلاب الجديد الذي وقع في القبيلة (١٤١١م) يعد بأي شيء جيد بالنسبة لفاسيلي دِميتريفيتش. وذلك لأن سلطة إديغي انتقلت إلى أيدي تابعي العدو الأسوأ لروس، الأمير الليتواني فيتاوتاس. غير أن القبيلة الذهبية كانت في ذلك الوقت قد بدأت تتفكك تدريجيا. فالتتار لم يعودوا يرون أنفسهم ككل موحد. بدأ البعض منهم – ممن كانوا يدعمون إديغي – يطلقون على أنفسهم نوغاي. ويبدو أن هؤلاء كانوا أحفاد شعب

أتراك الأوغوز القديم جداء الذين كانوا يقطنون مناطق نهر يابيك. حين حصل آخرون - مؤيدو كوريشاك وتيمور قتلغ - على اسم القبيلة الأوزبكية، على الرغم من أن هؤلاء التتار لا يمكن اعتبارهم من الأوزبك، لأنهم اعتمدوا هذا الاسم فقط في عام ١٤٢٨م تحت قيادة أبو الخير خان، الذي استعاد الاستقلال لشعبه. واصل أبو الخير الحرب ضد أتراك آسيا الوسطى، بينما غزا حفيد أبي الخير شيباني خان (أبو الفتح محمد شيباني) آسيا الوسطى، التي أصبحت منذ ذلك الحين ملكا للأوزبك الرحل.

الصراع بين الجبهة الأوروبية - السيف

في بداية القرن الخامس عشر لم يكن لدى فيتاوتاس الفرصة لمواصلة سياسة غزو روس وإخضاعها. فقد شهدت الحدود الشمالية الغربية لدوقية ليتوانيا الكبرى حربا مستمرة مع فرسان النظام الليفوني الألمان.

في ١٤٠٩م أثارت "ساموغيتيا" تمردا ضد هيمنة الفرسان الألمان، فأعلن نظام الفرسان الحرب على يوغيلا. تجاوز عدد قوات نظام الفرسان ٥٠ ألف شخص، لكن الفرسان أنفسهم كانوا ما يزالون قليلي العدد. وكان الجزء الأكبر من قوات نظام الفرسان يشكله المتطوعون الذين تم تجنيدهم من اللاندسكنيشت.

وتنفيذا لقرار اتحاد كريفو عام ١٣٨٦م، دخل فيتاوتاس المعركة الحاسمة مع نظام الفرسان إلى جانب يوغيلا. كانت القوة الرئيسية لقوات فيتاوتاس من الروس، وخاصة روس سمولينسك، الذين كانوا يشكلون الأفواج. كان جيش يوغيلا يضم الكثير من الجاليكيين والتشيكيين

والهنغاريين. تخطت القوات المشتركة لبولندا وليتوانيا عدد القوات المعادية قليلاً. وبإدراكه أن المعركة الحاسمة تكون غاية في الشراسة، حاول يوغيلا الدخول في مفاوضات مع سيد نظام الفرسان أولريخ فون جونغ (Ulrich von Jungingen)، لكن زعيم الصليبيين رد عليه برفض متغطرس.

في ١٥ يوليو عام ١٤١٠م في ساحة معركة غرونوالد (جنوب غرب مصب نهر فيستولا). بادر فيتاوتاس بالهجوم فضرب بسلاح الفرسان الليتواني الذي لا يقهر الجناح الأيسر لقوات نظام الفرسان الصليبيين. رد الألمان بهجوم على الجناح الأيمن وتمكنوا من الضغط بشكل واضح على قوات فيتاوتاس ويوغيلا. ومع ذلك، لم يتمكن الفرسان في نهاية المطاف من كسر دفاعهم، وذلك بسبب مقاومة شرسة من أفواج سمولينسك الثلاثة.

وبإدخالهما احتياطيات جديدة إلى المعركة تمكن فيتاوتاس ويوغيلا من تحقيق النصر، حيث وجد الفرسان أنفسهم محاصرين وهزموا، أما السيد الأعظم فون جونغن نفسه، الذي رفض بتهور التفاوض بشأن السلام، فقد سقط قتيلا في هذه المعركة الدامية. لقد وضعت معركة غرونوالد نهاية لهيمنة نظام الفرسان في منطقة البلطيق، لأنها كسرت شوكته وبددت قوته تمامًا . أُجبر الألمان على قبول الشروط المجحفة بالنسبة لهم لعقد سلام مع فيتاوتاس.

العلاقات البولندية الليتوانية

تجلت النتيجة الأهم لنصر عام ١٤١٠م في تطور العلاقات البولندية الليتوانية. فقد تعزز اتحاد بولندا وليتوانيا بشكل ملحوظ، كما عزز اتحاد غوروديل عام ١٤١٣م التأثير الكاثوليكي على ليتوانيا، حيث اضطرت دوقية

ليتوانيا الكبرى إلى الاعتراف بسلطة التاج البولندي. وكان جميع النبلاء (البويار) وطبقة الخدمة العامة في الدولة الليتوانية، وفقا لاتحاد غورودیلسك، يمكنهم الحصول على حقوق متساوية مع طبقة النبلاء البولنديين، ولكن فقط بشرط اعتناقهم للكاثوليكية. وبطبيعة الحال، لم يكن الأرثوذكس المخلصون من رعية فيتاوتاس سعداء بمثل هذا التحول في الأمور. ومن جديد تفاقمت المواجهة بين الكاثوليك والأرثوذكس، ولم تكلل محاولة فيتاوتاس لإضعاف التناقضات الدينية في ليتوانيا بالنجاح. وبشروعه في بذل الجهود لتحقيق الاتحاد بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية، تمكن فيتاوتاس فقط من تحقيق انقسام المطرانية. بالنسبة لليتوانيا تم تنصيب مطران خاص، اختاره الأمير غريغوري تسامبلاك. غير أن المطران الجديد لم يستطع تحقيق أي نجاح في المفاوضات مع مندوب بابا روما أثناء مجمع كونستانس، ما اضطر فيتاوتاس للتخلي عن فكرة الاتحاد الديني.

وبما أن نظام الفرسان لم يعد يشكل خطورة بالنسبة لليتوانيا، تمكن فيتاوتاس من تحويل انتباهه واهتمامه إلى الشرق. ساهمت وفاة الأمير الأكبر فاسيلي دِميتريفيتش (١٤٢٥م) بشكل كبير في تسهيل مهمة فيتاوتاس المتمثلة في توسيع نطاق النفوذ الليتواني.

عندما مات فاسيلي دِميتريفيتش أوصى بزوجته وابنه البالغ من العمر عشر سنوات لوالدها، أي فيتاوتاس. وبعد أن أصبح فيتاوتاس الوصي الشرعي على أمير موسكو الكبير، بدأ بقوة في اتباع سياسة إخضاع جميع الإمارات الروسية الأخرى. وبعد وقت قصير من وفاة فاسيلي أبرم فيتاوتاس معاهدات تحالف مع المنافسين الرئيسيين لموسكو، أي تفير

وريزان. وهكذا بحلول نهاية عشرينيات القرن الخامس عشر تمكن فيتاوتاس من إزالة العقبات التي كانت تعترض طريق توسع إقليم دولته، سواء تلك التي كانت من جانب نظام الفرسان، أو من جانب روس. ليس من المستغرب أن ترتبط خطوته التالية بالرغبة في تجنب الاعتماد على بولندا. كان الدوق الأكبر لليتوانيا يجتهد بنشاط لدى الإمبراطور الألماني، لكي يمنحه هذا الأخير التاج الملكي.

لكن مرة أخرى تدخل القدر– إذ لم يمهل الموت فيتاوتاس لتحقيق خططه الكبيرة الشاملة (١٤٣٠م). وبوفاة رجل الدولة الليتواني العظيم، بدأت الاشتباكات الداخلية تنخر في أوصال إمارته. وبما أن قضية الاتحاد الكنسي لم تصل إلى غايتها ونهايتها المنطقية، فقد استمر الرعايا الأرثوذكس في الكفاح والنضال ضد عدم المساواة التي نص عليها امتياز غورودیل عام ١٤١٣م. لكن تبين أن سفيدريغايلو ابن أولجرداس – الذي ترأس الفصيل الأرثوذكسي – كان قائدًا لا يستحق منصبه. فبعد أن أصبح الدوق الأكبر لليتوانيا مباشرة بعد وفاة فيتاوتاس ظهر كشخص لا يملك موهبة القائد أو قدرات إدارية.

كاثوليك وأرثوذكس

استطاع سيغيسموند شقيق فيتاوتاس، الذي كان يعتمد على الكاثوليك، انتزاع عهدة الحكم العظيم من سفيدريغايلو بكل سهولة. وسعيا لتأمين وضمان دعم الكاثوليك له، أبرم سيغيسموند في المقام الأول معاهدة جديدة حول اتحاد ليتوانيا وبولندا، ولكن بما أن معظم رعاياه ما زالوا أرثوذكس، فقد اضطر

الأمير إلى أن يأخذ في الحسبان تطلعاتهم وطموحاتهم. وفي عام ١٤٣٢م أصدر مرسوما يقضي بأن الأمراء والنبلاء البويار الأرثوذكس الروس متساوون في الحقوق مع الكاثوليك. وقد أضعف هذا القرار إلى درجة كبيرة مقاومة سياسة سيغيسموند في صفوف النبلاء الروس وجعل موقف سفيدريغايلو صعبا للغاية.

فقد سفيدريغايلو في ظل الوضع الجديد آخر علامات الحكمة وبدأ في اللجوء إلى تكتيكات التخويف. وراح المطران جيراسيم الأرثوذكسي - الذي نصبته وأقامته القسطنطينية بناء على طلب سفيدريغايلو نفسه - ضحية شكوك سفيدريغايلو التي لا تعرف الكلل. بعد أن اشتبه في خيانة المطران أمر الأمير، دون طول تفكير أو تدبر، بالإمساك بهذا المأسوف عليه وحرقه. ودمرت الوحشية القاسية التي لا معنى لها سفيدريغايلو بالكامل، إذ فقد كل دعم مؤيديه الأرثوذكس. وبعد فترة وجيزة من إعدام المطران، التقى سفيدريغايلو بسيغسموند في المعركة الحاسمة على نهر سفينتي، أحد روافد نهر فيليا، وبعد أن انسحق تماما أُجبر على التخلي عن ادعاءاته ومطالبته بأحقيته على عرش الدوق الأكبر في ليتوانيا.

بهزيمة سفيدريغايلو دفنت الآمال الأخيرة لانتصار الأرثوذكسية في ليتوانيا. وعلى الرغم من أن سيغيسموند بعد بضع سنوات من انتصاره في معركة نهر سفينتي وقع ضحية مؤامرة (قُتل في قلعته الخاصة في تراكاي)، فإن هذه الحادثة لم تؤثر كثيرا على سير الأمور فيما بعد. فقد تم إعلان كازيمير - وهو ابن آخر من أبناء يوغيلا - دوقا أعظما في ١٤٤٠م، وبعد مقتل شقيقه الملك البولندي فلاديسلاف الثالث في معركة مع الأتراك بالقرب

من مدينة فارنا، شغل كازيمير أيضا عرش بولندا، وقام بمساواة رعاياه البولنديين والليتوانيين في الحقوق. وتحولت ليتوانيا أخيرا إلى دولة كاثوليكية تمامًا.

ولكن في موسكو، التي كان يحكمها حفيد فيتاوتاس، ابن صوفيا فيتاوتوفنا، الأمير الكبير فاسيلي فاسيليفيتش، باءت محاولة الكاثوليك لتحقيق النصر بالفشل. وبعـــد موت المطران جيراســـيم ظل عرش مطرانية عموم روس شاغرا لفترة من الزمن، ثم قرر فاسيلي فاسيليفيتش أن يجلس يونان أسقف ريزان في كرسي المطرانية. وفقـــا لتقاليد الكنيسة الروسية، ذهب يونان إلى القســـطنطينية ليحصل على مباركة التنصيب، لكنه فشل فشلا ذريعا. فاليونانيون – الذين كانت المشكلة الأكثر إلحاحًا بالنسبة لهم هي الصراع مع الأتراك العثمـــانيين في ذلك الوقت – بذلـــوا قصـــارى جهدهم لعقد اتحاد كنـــسي مع روما، آملين في الحصـــول على المســـاعدة من الغرب بهذه الطريقة. وبطبيعة الحال، أراد اليـــونانيون أيضًا أن يكون "رجلهم "على عرش المطرانية الروســـية. وقد أصبـــح بالفعـــل على رأس الهرم رجل الدين اليـــوناني إيزيادور (١٤٣٧م). وسرعان ما أكـــدت الأحـــداث أن اختيـــار بطريركية القســـطنطينية كان صحيحًا، فقـــد برر رجلـــهم الآمـــال الموضوعة عليه تمامًا.

في الفترة ما بين ١٤٣٨-١٤٣٩م جرت أعمال ما يعرف بمجمع فيرارا – فلورنس، حيث تم مناقشة مسألة اتحاد الكنائس الغربية والشرقية. وفقط بعد بذل جهود جبارة لمحاولة التغلب على مقاومة جزء من رجال الدين اليونانيين الأرثوذكس، ومع اللجوء إلى التهديدات والرشوة والعنف المباشر،

تمكن أتباع البابا في عام ١٤٣٩م من التوقيع على وثيقة الاتحاد. وقد شارك المطران إيزيادور في المجمع، حيث ظهر كمؤيد قوي للاتحاد.

ولكن ما مر ببساطة في فلورنسا وتسبب في التصفيق في القسطنطينية، كانت نهايته مؤسفة بالنسبة لإيزيادور في روس. عند وصوله إلى موسكو بدأ إيزيادور في صلاة القداس بطريقة جديدة، فنطق اسم البابا مقدمًا على اسم البطريرك وأمر بأن يقرأ في الكنائس تعريفًا عن الاتحاد الذي تم للتو. قوبل ذلك باستنكار لا حد له من جانب الرعية. كما كان رد فعل الأمير العظيم على ما حدث حادًا. لم يستطع فاسيلي فاسيليفيتش تحمل خيانة الأرثوذكسية، فألقي إيزيادور، الذي أُعلن" راعيًا كاذبًا"، في السجن، لكنه سرعان ما فر منه إلى روما، ومن هذا الحادث يمكن استنتاج وفهم أنه كان هناك في روس عدد غير قليل من مؤيدي الاندماج الكنسي مع الغرب، ولكن الغالبية العظمى من الروس من جميع الطبقات اعتمدت البوصلة والتوجّه الأرثوذكسي بصرامة.

وجاء خلع إيزيدور متبوعًا بحدث لم يكن له مثيل في تاريخ روس منذ زمن المعمودية. في عام ١٤٤١م تم تسمية أسقف ريزان "يونان" في رتبة المطران ليس من قبل بطريركية القسطنطينية، ولكن بموجب قرار مجمع الأساقفة الروس. وهكذا، اهتزت التبعية القديمة الممتدة لقرون في إدارة شؤون الكنيسة للقسطنطينية، وليس هذا فقط لأن أنصار الاتحاد هناك فازوا أخيرًا. بل لأن مخطط التصورات والأفكار السياسية الكنسية للشعب الروسي قد تغير. فأولئك الذين اعتبروا حتى هذا الوقت أن من الطبيعي في مسائل الإيمان أن يخضعوا لسلطة اليونانيين، وجدوا الآن أنه من الممكن المطالبة باستقلال كنيستهم. ومن الناحية العرقية، كان هذا يعني أن الطاقة الخلاقة

لروسيا نمت إلى حد كبير فوق المستوى الذي يضمن وجودها باعتبارها مجموعة عرقية. وبالفعل، إذا انتقلنا من تاريخ الكنيسة إلى التاريخ السياسي، سنرى فورا مدى تقدم روس في القرن الخامس عشر على طريق التحول من مجرد مجموعة عرقية إلى عرقية فائقة التميز.

في بداية عهد فاسيلي فاسيليفيتش ظهرت تغييرات في طبيعة الصراع على السلطة في روس. إذا كان أمراء تفير وسوزدال في السابق ينازعون موسكو على العرش الأميري العظيم على قدم المساواة، والذين شكل أقارب وأبناء أمير موسكو جبهة موحدة للتصدي لهم، فالآن لا يمكن لأحد أن يشكك في أحقية أحفاد "كاليتا" في العرش الفلاديميري العظيم. وفي عام ١٣٩٢م نجح البويار الموسكوفيون في الحصول من القبيلة على حق ضم إمارة سوزدال- نيجنيغورود إلى دولتهم (أولوس). أما تفير التي كانت إلى جانب ليتوانيا، فقد خسرت بعد اتحاد فلورنسا ليس فقط من الناحية العسكرية السياسية، ولكن أيضا خسرت الفرص العرقية لمقاومة معقل الأرثوذكسية الروسية العامة ممثلة في موسكو.

لكن في تلك اللحظة، عندما بدا أن هيمنة أمير موسكو على روس قد أصبحت مطلقة وغير قابلة للتقسيم، بدأ أقارب أمير موسكو أنفسهم في التطلع والمطالبة بالسلطة والتنافس عليها.

الصراع في البيت الروسي... شيمياكا

ظهرت التناقضات في البيت الأميري الموسكوفي مباشرة بعد وفاة ابن دِميتري دونسكوي، فاسيلي دِميتريفيتش (١٤٢٥م). فقد رفض شقيق المتوفى،

يـــوري دِميتريفيتش إعطـــاء قسم الـــولاء لابن أخيه فاســيلي، وبـــدلاً من حضور الجنـــازة ذهب إلى مدينتـــه غاليتش من أجـــل جمـــع الجنـــود. لكن تبين أن نبلاء الأمير الأكبر" لم يكـــونوا ســيئين"، حيث قـــامـــوا على عجل بتوحيد قواتهم والخروج لملاقاة يوري المتطلع إلى السلطة. وبرؤيته أن الأمور تأخذ منعطفًا سيئًا، اعتبر يوري دِميتريفيتش أن الأجدى الدخول في مفاوضات.

توجه الرئيس الفعلي لحكومة موسكو، المطران فوتيوس، إلى غاليسيا لمقابلة يوري. أثبت الأب أنه دبلوماسي محنك. فالأمير الذي كان يرغب في استعراض تعداد قواته وأن مطالبه بالعرش مبررة، لذا قام بتجميع العديد من الفلاحين والحرفيين المسلحين قبيل قدوم المطران إلى غاليسيا. لكن الأب خمن بسهولة خدعة يوري دِميتريفيتش وقال له" : يا بني، الأمير يوري! لم أر قط مثل هذا العدد الكبير من الناس في صوف الخرفان "مما جعل من الواضح أنه ليس لمثل ميليشيا يوري هذه أن تصمد في قتال مع سلاح الفرسان الموسكوفي النبيل، الذي يتألف من مقاتلين محترفين. وحصل فوتيوس على وعد من يوري بعدم السعي لإثارة القلاقل للعرش الأميري العظيم بسبب تقديراته الخاصة، وكذا بالموافقة على قرار خان القبيلة. "وبتنافسهما حول حكم العرش العظيم "غادر العم وابن أخيه إلى القبيلة طلبًا للتحكيم والعدالة.

في الصراع من أجل العرش العظيم اعتمد يوري دِميتريفيتش من جهة على دعم شقيق زوجته دوق ليتوانيا الكبير سفيدريغايلو ألجيرداسوفيتش، ومن جهة أخرى على شفاعة صديقه الميرزا تيجين ذى النفوذ والحظوة لدى الخان. لكن البويار الموسكوفيين برئاسة الدبلوماسي الموهوب إيفان

دِميتريفيتش فسيفولوجسكي فهموا تماما توازن القوى القائم. واستطاع إيفان دِميتريفيتش إثارة معظم شيوخ القبيلة ضد تيجين، وبالتالي جعلهم يدعمون أميره. عندما بدأ يوري دِميتريفيتش يحاول في المحكمة أمام الخان إثبات ادعاءاته بأحقيته في العرش العظيم بالإشارة إلى قانون الأسلاف القديم، تمكن الدبلوماسي الموسكوفي بجملة وعبارة واحدة من الحصول على قرار الخان لصالحه، حيث قال": الأمير يوري يبحث عن العرش العظيم بموجب وصية والده، أما الأمير فاسيلي فيسعى لذلك بموجب كرمكم وعطفكم."

أمر الخان، الذي كان مسرورًا للغاية من إظهار هذا الخضوع من جانب الموسكوفيين، بمنح مرسوم وسم فاسيلي أميرا، بل وأمر يوري دِميتريفيتش، كدليل على خضوعه لإرادة خان، بقيادة خطام حصان الأمير الأكبر وهو على ظهره. لكن فاسيلي، الذي قرر إظهار نبله المميز بعدم رغبته في إذلال عمه، رفض ذلك. ومع ذلك، وبعد صدور حكم الخان، لم يتخل يوري دِميتريفيتش عن تطلعاته وادعاءاته.

وكان الـدافع لاستمرار الحرب سـببه هو المشـهد التـالي. في عام ١٤٣٣م خلال حفل زفاف فاسيلي فاسيليفيتش مزقت والدته صوفيا فيتاوتوفنا الحزام الذهبي الثمين الذي كان يرتديه فاسيلي الآخر، ابن يوري دِميتريفيتش. وقبل ذلك بقليل، كان أحد البويار المتقدمين في السن قد قال لصوفيا: إن هذا الحزام كان يملكه دميتري دونسكوي، ثم سُرق وانتهى به المطاف في أسرة يوري دِميتريفيتش. كانت الفضيحة كبيرة وأثارت ضجـة كيف يأتي الأمير في وليمـة عرس مرتديا شيئا مسروقا! بالطبع، غادر فاسيلي يوريفيتش وشقيقه دِميتري شـيماكا موسـكو على الفـور. لم يبطئ والدهما يوري

دِميتريفيتش في استغلال هذه الذريعة الجيدة وعلى الفور قام بتحريك القوات لمهاجمة ابن أخيه.

في معركة نهر كليازما لقيت قوات فاسيلي فاسيليفيتش قليلة العدد هزيمة أمام يوري دِميتريفيتش، وأُسر الأمير الكبير يوري إلى كولومنا. في الأسبوع المقدس عام ١٤٣٤م دخل يوري دِميتريفيتش موسكو، لكن تبين أنه ضيف غير مرحب به. عارض البويار والمحاربون ورجال المدينة دخول الأمير لأن الجميع رآه مغتصبًا. هرع الموسكوفيون إلى كولومنا إلى سيدهم وحاكمهم الشرعي، وأُرغم يوري – الذي قوبل برفض وعدم قبول عام– على مغادرة موسكو.

بعد فترة من الوقت جرى استئناف الصراع. تمكن يوري من هزيمة فاسيلي مرة أخرى وعاد إلى العاصمة وأسر والدة الأمير الأك بر. لكن سرعان ما توفي يوري دميتريفيتش. وجلس فاسيلي فاسيليفيتش على العرش العظيم واتفق على السلام مع أبناء عمه.

لم يدم هذا السلام طويلا، فقد انتهكه فاسيلي يوريفيتش، ومثلما فعل والده ذهب إلى كوستروما لجمع القوات ضد الأمير الأكبر. التقى الخصمان في قرية سكوريتينا (حول مدينة روستوف حاليا). وبعد أن اتفق على الهدنة مع فاسيليفيتش حتى الصباح، لم يلتزم فاسيلي يوريفيتش مرة أخرى بعهده وانطلق فجأة إلى الهجوم. لكن الأمير الأكبر تمكن من إنهاض أفواجه، وفي معركة سكوريتينا هُزمت قوات المتطلع إلى العرش العظيم، بل وسقط في الأسر واقتيد إلى موسكو وسملت عيناه بأمر من الأمير الأكبر. وهكذا انتهت الجولة الأولى من القتال.

مرت السنوات الخمس التالية حتى عام ١٤٤٥م بهدوء نسبي. وانتظر شيمياكا الذي أجبر على التسليم ظاهريا بهيمنة ابن عمه، انتظر الحصول على الفرصة المناسبة، وقد واتته. واستفاد شيمياكا من الوضع الجديد في القبيلة، ففي ظل غياب أي نظام اندلع هناك صراع أهلي مستمر. وأي شخص كان لديه ولو بعض القوات العسكرية كان إما يخوض قتالا ضد منافسيه داخل القبيلة أو يخاطر على مسؤوليته الخاصة بشن الغارات على المدن الروسية.

في عام ١٤٣٨م استولى الخان أولوغ محمد" المنبوذ" - الذي طرد من القبيلة على يد قريبه محمد جراي - على مدينة بيليف الروسية. أرسل الأمير الكبير فاسيلي أفواجًا لمحاربته تحت قيادة دِميتري شيمياكا. وعندما وصل شيمياكا إلى بيليف، على الرغم من رغبة أولوغ محمد في التفاوض مع الأمراء الروس للحصول على دعمهم" وفق ما يريدون وتمليه إرادتهم"، ألحق شيمياكا هزيمة خطيرة بالتتار. غادر "أولوغ محمد" مدينة بيليف إلى قازان، لكنه عاد وظهر عام ١٤٣٩م تحت أسوار موسكو. وبعد أن استولى على نيجني نوفغورود عزز أولوغ محمد موقعه هناك وفي عام ١٤٤٥م أرسل جيشا لمحاربة الأمير الأكبر بقيادة ابنيه محمود ويعقوب.

وعد شيمياكا بإرسال أفواج من قواته لمساعدة فاسيلي، لكنه لم يف بوعده. وواجه الأمير الأكبر، الذي كان منهمكا بالاحتفال في الليلة السابقة للمعركة، واجه العدو بقوات صغيرة. هزم فاسيلي أمام قوات التتار المتفوقة عددا ووقع الأمير في الأسر. ولم يكن الأميران التتاريان يتوقعان هذا التطور للأحداث. ولفترة طويلة أخذا يفكران فيما يجب عليهما فعله مع هذا الأسير

المهم. فقاما في البداية بإرسال صليبه الصدري إلى والدة فاسيلي وزوجته في موسكو حتى لا تشكان في صدقية الأخبار الحزينة المؤسفة. ومن خلال مبعوثيه أغرى دِميتري شيمياكا التتار بعدم إطلاق سراح فاسيلي إلى الحرية، غير أن الأمير الأكبر تمكن من تحرير نفسه من الأسر مقابل دفع" فدية " ضخمة بلغت ٢٠٠ ألف روبل.

لجمع هذا المبلغ الخيالي تم ارسال عدد من الميرزات التتار على رأس عدة فصائل من الجنود المحاربين مع فاسيلي إلى روس، فإنضم كثير من هؤلاء الجنود على الفور" إلى الخدمة "لدى فاسيلي. بطبيعة الحال اضطر الأمير الأكبر إلى استقبال التتار بمودة، لكن الاستياء من التوجه التتاري لفاسيلي انتشر في جميع أنحاء البلاد" : لماذا جلب هؤلاء التتار إلى الأرض الروسية وسلمهم المدينة، وأعطاهم الفولستات؟"، غير أن سياسية الأمير كانت بعيدة النظر، فبقبوله التتار في الخدمة الروسية عززت موسكو من قوتها، بينما ضعفت القبيلة. ومع ذلك، بالنسبة لمعظم معاصريه بدا أن هجرة التتار هي انتهاك لم يسمع عن مثله لحقوقهم، علاوة على أن هذا الانتهاك تبين أنه كان مصحوبا بتكاليف ونفقات مادية كبيرة.

عم السخط، وهنا قرر شيمياكا الاستفادة منه. وفي مرة من المرات التي غادر فيها فاسيلي فاسيليفيتش للحج والصلاة إلى دير الثالوث، استولى شيمياكا مع أنصاره بشكل غير متوقع على موسكو وأسر زوجة ووالدة الأمير الأكبر. ثم سار شيماكا بسرعة نحو دير الثالوث. وعلى الرغم من أنه قد تم تحذير فاسيلي، وأن الحراس كانوا على ثغورهم، تمكن شيماكا من خداع الحراس، حيث خبأ المحاربين في عربات القش. لم يكن لدى فاسيلي وقت للهروب واضطر إلى الاختباء في الكنيسة، ثم خرج إلى عدوه حاملا

أيقونة في يديه متوسلاً الرحمة والإذن بأن يقص شعره ليصبح راهبا. حصل على وعد بالرحمة، ولكن شيمياكا، وللمرة الألف، لم يحفظ عهده ووعده. ثم وقع في قبضة الأمير الأكبر دِميتري يوريفيتش الذي أمر بنقله على مزلجة إلى موسكو وسمل عينيه (ومن هنا جاء لقب الأمير "الأعمى" "*مظلم العينين*"، ثم نفي إلى أوغليش مع زوجته. كما تم إرسال والدة فاسيلي، صوفيا فيتاوتوفنا، إلى المنفى في تشوخلوما".

بدا وكأن شيمياكا بإمكانه أن يحتفل بالنصر النهائي، لكن هنا ظهر أثر العاطفة التي كانت قائمة فاسيلي الأعمى والتتار. بشكل عام تبين أن الأمير الأعمى لديه من الأنصار أكثر بكثير من الأعداء، فالأميران التتاريان الشابان قاسم ويعقوب، ابنا أولوغ محمد، وقفا وراء فاسيلي الأعمى، اللذان كان أحدهما قد أسر الأمير الأكبر في السابق. ودعمه الأسقف يونان الذي جرت تسميته مطرانا. كما كان العديد من البويار مستعدين للقتال من أجل عودة فاسيلي إلى العرش. آتت جهود أنصار الأمير الشرعي ثمارها. فتمكن فاسيلي الأعمى- بعد أن ذهب إلى رحلة الحج التالية إلى دير كيريلو بيلوزيرسكي- من الفرار من هناك إلى تفير، حيث حصل على دعم أمير تفير. وفي عام ١٤٤٧م عاد فاسيلي منتصرا إلى موسكو واسترد العرش. لكنه احتاج إلى عدة سنوات من الكفاح من أجل الإطاحة بشيمياكا نهائيا. في عام ١٤٥٠م تم طرد شيمياكا من وكره ومعقله في غاليتش، فهرب إلى نوفغورود التي تعتبر مركز معارضة الأمير الأكبر، ومات هنـــاك (يُعتقد أنه قد تم تسميمه بأمر من فاسيلي).

كان النوفغوروديون يدعمون شيمياكا بشدة، وهذا لم يمر هباءً. في شتاء عام ١٤٥٦ تذكر فاسيلي الأعمى المظالم القديمة، فقام على رأس جيشه

المعزز بقوات التتار بالتحرك نحو نوفغورود. بعد الاستيلاء على مدينة "ستاريا روسا"، قام القادة العسكريون الموسكوفيون بتسريح الجزء الأكبر من الجيش مبقين على فصيلة من مائتي رجل، وهنا هاجمهم جيش نوفغورود الذي يتألف من خمسة آلاف من الفرسان. في هكذا ظروف بدا أن المقاومة كانت غير واردة، لكن الموسكوفيين ذوي الطاقة الخلاقة وجدوا مخرجا. فأصدروا الأوامر بإطلاق النار على خيول النوفغوروديين وتحقق لهم بذلك النصر الكامل. سقطت نوفغورود المكسوة بالدروع تحت حوافر الخيول، ما دل على الغياب التام لأي إرادة للمقاومة.

بعد الهزيمة بالقرب من "روسا" لم يفكر النوفغوروديون إلا في كيفية إبرام السلام مع فاسيلي بوساطة رئيس أساقفة نوفغورود، وحصلوا على ما أرادوا قابلين بأكثر الشروط إهانة. أما فاسيلي الأعمى نفسه، فلم يكن راضيًا تمامًا عن نتائج حملة عام ١٤٥٦م، وكان يشكو دائمًا إلى المطران يونان أن شعب نوفغورود لا يحترمه كما ينبغي، وأنه فقط بفضل شفاعة هذا الأخير امتنع عن شن حملة جديدة ضد" الجمهورية "المتمردة. وقد منعه الموت من تنفيذ خططه الرامية لتحقيق التبعية الكاملة والخضوع التام لنوفغورود لموسكو. وكانت هذه المهمة، جنبا إلى جنب مع مهمة توحيد البلاد، من نصيب ابنه إيفان الثالث.

كان الإرث الذي حصل عليه الابن الأكبر لفاسيلي الأعمى إيفان الثالث فاسيليفيتش، إرثا يُحسد عليه. فجميع الأمراء الروس كانوا في الواقع خاضعين للإرادة الكاملة لأمير موسكو، وكانت قد خمدت نيران النزاع الأسري، وتلاشى تقريبا تهديد القبيلة الذهبية.

كما ذكرنا من قبل، كان لدى خان القبيلة الذهبية "أولوغ محمد" ثلاثة أبناء، هم محمود ويعقوب وقاسم. أصبح الأول والثاني مع الوقت أعداء. محمود الذي كان يرغب في الاستقلال قتل والده واستولى على السلطة في قازان، مؤسسا بذلك خانية قازان التي انفصلت عن القبيلة. كان قاسم الذي أخذ على عاتقه عبء الثأر لمقتل والده، أحد أكثر المؤيدين المخلصين لفاسيلي الأعمى. ولقد كان فاسيلي الثاني مديناً بدرجة كبيرة بعودته إلى العرش عام ١٤٤٧م إلى مساهمة قاسم. فخصص له فاسيلي نظير خدمته المخلصة مدينة صغيرة على نهر أوكا ملكا مدى الحياة، أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم قاسيموف.

حافظ سكان خانية قاسيموف لفترة طويلة على جميع سماتهم الإثنوغرافية، بما في ذلك اعتناقهم للإسلام.

انفصلت خانية القرم كذلك عن القبيلة، وبعد ذلك باتت القبيلة الذهبية تضم فقط المنطقة المتاخمة لسراي مباشرة، ولم تعد تشكل تهديدًا خطيرًا لروس. صحيح أنه في عام ١٤٦٥م كان خان القبيلة الذهبية أحمد خان يعتزم الإغارة على موسكو لكي يجبر الموسكوفيين على مواصلة دفع الجزية، ولكن الهجوم غير المتوقع لتتار القرم خلط كل أوراقه وأربك كل خططه.

ساهم إيفان الثالث بدور فعال في الصراع المستمر بين قاسم ومحمود، ففي عام ١٤٦٧م توجه بعض أمراء قازان، الذين كانوا غير راضين عن حكم إبراهيم ابن محمود، إلى قاسم باقتراحٍ لشغل عرش قازان. وبمساعدة التعزيزات التي أتته من القوات الروسية التي قدمها له إيفان الثالث سار قاسم نحو قازان، لكنه لم يتمكن من تحقيق النجاح. وبعد عامين جرى تكرار المحاولة بشن حملة ثانية، وكان ذلك بعد وفاة قاسم. عندما اقترب أفواج

الأمراء الموسكوفيين مع قوات القاسيموفيين مجددا من قازان وجد إبراهيم نفسه مجبرًا على قبول السلام وفقا للشروط التي اقترحتها موسكو.

بعد المصالحة مع قازان تمكن إيفان الثالث من مواصلة سياسة والده تجاه نوفغورود. لقد فقد النوفغوروديون بحلول ذلك الوقت أي قدرة على الحفاظ حتى على أقل مظاهر الاستقلال. كان هناك فصيلان متنافسان في المدينة، فصيل موال لليتوانيا، يتألف من البويار بقيادة بيت بوريتسكي، والثاني موال لموسكو يشكله" صغار الشادي"، أي الناس العاديين. وبما أن البويار كان لهم منفذ إلى السلطة وكانوا يتخذون القرارات، فإنه ليس من المستغرب أنه في عام ١٤٧١م، قامت نوفغورود بعقد تحالف مع الدوق الأكبر لليتوانيا والملك البولندي كازيمير ياغيلون. وضع كازيمير تابعه في نوفغورود ووعد بحماية" الأمير الأكبر لنوفغورود "من بأس موسكو. كما كان خان القبيلة الذهبية أحمد خان العضو الثالث في التحالف المناهض لموسكو متحالفا مع كازيمير أيضا.

عندما رأى إيفان الثالث، وهو سياسي ذكي وحذر، أن مثل هذا التحالف الخطير قد نشأ ضده، قرر أيضا أن يسعى لإيجاد حلفاء. وولى بناظره، بطبيعة الحال، إلى خانية القرم التي كانت في حالة عداء مع سراي. في عام ١٤٧٣م أصبحت معاهدة التحالف مع خان القرم مينجلي جيراي حقيقة واقعة. فقدم القرميون وعدا بمحاربة الليتوانيين في انتظار مساعدة إيفان في الصراع ضد أحمد.

بدأ إيفان الثالث الحرب ضد التحالف المناهض لموسكو من نوفغورود، ولم يكن هذا القرار عن طريق الصدفة. ففي الأراضي" المنخفضة "كان

الاستنكار تجاه اتحاد نوفغورود مع كازيمير وأحمد عظيمًا للغاية. اعتبر الموسكوفيون تصرفات النوفغوروديين خيانة للشأن الروسي العام وقارنوا حملة إيفان الثالث هذه بحملة دِميتري دونسكوي على ماماي.

تقول المصادر إن إيفان الثالث ذهب إلى نوفغورود" ليس لقتال المسيحيين، ولكن لقتال الوثني المرتد عن الأرثوذكسية ."ويعد هذا الظرف الأخير بالغ الأهمية بالنسبة للتشخيص العرقي. وهكذا، كما نرى، مع حلول نهاية القرن الخامس عشر لم يعد ممثلو عرقية الموسكوفيين الجديدة يؤمنون بآثار روس القديمة، أو بالنوفغوروديين باعتبار هذه الآثار تعبيرا عن "أهلهم، بني جلدتهم"، لأن الإيمان الديني كان في ذلك الوقت هو المؤشر على التعاطف العرقي. لقد بات النوفغوروديين، الذين اختاروا التحالف مع الكاثوليك، بالنسبة للموسكوفيين مساوين للوثنيين.

بدعم روسي عام وكامل تحرك جيش ضخم صوب نوفغورود تحت قيادة الأمير دانيال خولمسكي، أفضل القادة الموسكوفيين. كما سارت إلى جانب الجيش الروسي فصائل أمير خانية قاسيموف الأمير "دانيار". وانتهى اللقاء بقوات نوفغورود على نهر شيلون بالفوز الكاسح للموسكوفيين وبتحقيق نصر كامل، وذلك لأنهم واجهوا مقاومة من ميليشيات على الرغم من تسلحها الجيد، فإنها كانت غير مدربة، كما لم تأت المساعدة الليتوانية. كانت نتائج معركة نهر شيلون ثقيلة بالنسبة للنوفغوروديين. فقد أُجبر النوفغوروديون على التخلي عن خطط الاتحاد مع ليتوانيا ودفعوا للأمير الأكبر مساهمة نقدية كبيرة، تجاوزت ١٥ ألف روبل.

ولكن على الرغم من أن الليتوانيين لم يأتوا لمساعدة نوفغورود، فإن "أحمد خان" زعيم القبيلة الذهبية حاول مساعدة المدينة. فقد وصل في مسيرة سريعة إلى أوكا، لكن وبأمر من الأمير الأكبر تحرك أمراء قاسيموف

الشباب: "دانيار" و"مرتضى" لمواجهة أحمد على تخوم كولومنا وسربوخوف، وذلك لقطع المؤن والإمداد عن جيش أحمد إذا ما استمر في التقدم نحو موسكو. وبمجرد أن علم خان القبيلة الذهبية بذلك قرر عدم التورط مع القاسيموفيين وتراجع بسرعة.

لقد فهم إيفان الثالث بوضوح عدم كفاية النجاحات التي تحققت. إن وجود فصيل قوي في نوفغورود موال لليتوانيا ولحليفة ليتوانيا خانية القبيلة الذهبية جعل من وفاء نوفغورود بالتزاماتها تجاه موسكو محل شك. لذلك سعى إيفان الثالث إلى الإخضاع النهائي لنوفغورود والقضاء على القبيلة الذهبية. واستغل إيفان الثالث حقيقة أن" صغار الرعية النوفغوروديين "اشتكوا له من البويار الميالين لليتوانيا، وطلبوا منه الحماية وسموه" السيد الأمير"، فقام في ١٤٧٨ بشن حملة جديدة إلى النوفغوروديين وفرض عليهم برنامجه الذيينص على أنه ":لا مكان لمجلس فيتشيه، لا مكان للبوسادنيك (حاكم المدينة المعين من قبل الفيتشيه)، ولتبقى الدولة جميعا تحت حكمنا". بعد مقاومة قصيرة انصاع النوفغوروديون لإرادة الأمير الأكبر وتمت إزالة رمز الحرية القديمة لنوفغورود، أي جرس الفيتشيه، وأُرسل إلى موسكو، ونقل العشرات من أكثر العائلات نبالة في نوفغورود إلى منطقة الحكم العظيم كأشخاص من طبقة الخدمة العامة الإلزامية للدولة.

وهكذا انتهى تاريخ الجزء الإثني الأخير من روس القديمة، حيث أُدخل في تكوين العرقية الجديدة. إن مثال نوفغورود هو مثال لامع على موت النظام العرقي الذي لا يختفي معه الناس أنفسهم كما جرت القاعدة. بل يبقى الناس، غير أنهم يصبحون جزءا من المجموعات العرقية الجديدة، لكن النظام السلوكي الذي ربط هؤلاء الناس ببعضهم بعضًا، جاعلا منهم" عرقا واحدا "

يختفي نهائيا. ومع اختفاء استقلال نوفغورود، اختفت جميع الأنماط السلوكية النموذجية التي كانت تمثل روس الفيتشيه، واحتفظ الناس أنفسهم فقط بذكرى أصلهم.

بطبيعة الحال، كان انضمام نوفغورود إلى موسكو ذروة السياسة التوحيدية التي انتهجها إيفان الثالث. غير أن الأمر لم يتوقف عند ذلك. في عام ١٤٨٤م سرت أخبار في موسكو أن الأمير ميخائيل بوريسوفيتش أمير تفير أبرم معاهدة مع دوق لتوانيا الأكبر "كازيمير". مثل هذا الاتفاق كان انتهاكا مباشرا للاتفاقات القائمة بين ميخائيل وإيفان الثالث، وعليه أعلن الأمير الأكبر لموسكو الحرب على تفير. ولم تأت من الغرب المساعدة، التي وعد بها كازيمير، كما هو الحال دائما، ولم يكن أمام ميخائيل أي خيار آخر سوى الاعتراف بسيادة إيفان الثالث وأن يقبل بالسلام. في هذه الأثناء ترك بويار تفير مع عائلاتهم بأكملها أميرهم واصطفوا خلف إيفان الثالث، وطلبوا منهم قبولهم في الخدمة. وبعد أن فقد ميخائيل بوريسوفيتش دعم حاشيته، هرع لإصلاح الخلاف مع كازيمير، وعجلت هذه الخطوة بالنهاية. فقد أعلن إيفان الثالث ميخائيل خائنًا، وتحرك بقواته نحو تفير وحاصر المدينة. ففر أمير تفير (الذي تعرض لخيانة البويار المقربين) إلى ليتوانيا، وأُجلس ابنه مكانه.

في صيف عام ١٤٨٠م اقترب خان القبيلة الذهبية أحمد على رأس جيشه من نهر أوغرا الواقع على حدود موسكو، وهو أحد الروافد الشمالية لأوكا، ونزل هناك وعسكر، حيث كان ينتظر المساعدة من حليفه كازيمير. كان انتظاره عبثًا: فقد توقع إيفان الثالث، بصفته سياسيًا واسع الخبرة، الصدام القادم مع أحمد، كما أن التحالف الروسي القرمي الموجه ضده كان فعالا.

لذلك، أُجبر كازيمير على سحب كل قواته للدفاع عن ليتوانيا ضد خان القرم مينجلي جراي. كان جيش موسكو يقف على الضفة المقابلة لنهر أوغرا، ولكن لم يجرؤ لا إيفان الثالث ولا أحمد على بدء المعركة. واستمر" الوقوف الشهير على نهر أوغرا "حتى أواخر الخريف، إلى أن أنهته غارة على الخطوط الخلفية لأحمد في منطقة الفولغا شنتها فصيلة روسية - تتارية تحت قيادة كل من القائد العسكري "نوزدريفاتي" والأمير الصغير "نور دولت جراي"، فاضطر أحمد للانسحاب.



بعد أن شعر إيفان الثالث بـأن لديه القوة لمقاومة الخان قام بطرد سفرائه ورفض استئناف دفع الجزية. من السهل أن نفهم أن الوقوف على نهر أوغرا كان مجرد حلقة من حلقات الصراع الطويل بين تحالفين: تحالف نوفغورود -ليتوانيا- القبيلة الذهبية، وتحالف موسكو-خانية قاسيموف-خانية القرم. وهنا لا يوجد أي سبب للاعتقاد بأن الوقوف على نهر أوغرا كان عنوانا" للإطاحة بالنير المغولي ."وكما نرى، فإن فاسيلي الأعمى نفسه والد إيفان الثالث كان قد توقف عمليا عن أخذ القبيلة في الحسبان، بل وضم بعض الأجزاء العرقية من القبيلة الذهبية إلى إمارته الكبرى. بل إن المعاصرين لتلك الأحداث أنفسهم لم ينظروا إلى الحرب مع أحمد على أنها أطاحت وأجهزت على نير القبيلة، بل نظروا إليها كحرب عقدية من أجل الدين ضد عدو شرير، ضد عدو الأرثوذكسية. يُتصور أنه بالإشارة إلى أحداث عام ١٤٨٠م من الجدير ألا نتحدث عن" زوال النير المغولي "الذي ببساطة لم يكن له وجود، بل الأجدر الحديث عن نشأة منظومة أحلاف سياسية متصارعة مكونة من الدول التي نشأت وقامت على أطلال القبيلة الذهبية. وهي إمارة موسكو العظمى، خانيتا القرم وقازان، خانية نوغاي. في الوقت نفسه ظل أحمد والأحمديون حتى لحظة الانهيار والسقوط الرسمي للقبيلة يولون وجوههم شطر ليتوانيا، بينما كان تتار القرم يتجهون إلى موسكو.

في إطار التحالف مع خان القرم تحديدا تمكن إيفان الثالث من معالجة مشكلة قازان. فعندما تزوجت إحدى أرامل إبراهيم (قيصر قازان) من مانجلي جيراي، أعلن محمد أمين ابن إبراهيم حقه في عرش قازان وتوجه إلى إيفان الثالث طلبا للمساعدة. أيد إيفان الثالث هذا المدعي وأرسل له فرقة بقيادة المنتصر في معركة نهر شيلون الأمير دانيال خولمسكي. فرضت قوات الحلفاء حصارها على قازان ونصبت رجلها التابع.

في عام ١٤٩١م بنفس الطريقة قام إيفان الثالث بتأييد "مانجلي جيراي" في صراعه مع أبناء أحمد. وكانت هذه هي بداية الانهيار النهائي للقبيلة الذهبية. في عام ١٥٠٢م حقق خان القرم انتصارا كاملا على آخر قياصرة القبيلة الذهبية شيخ أحمد.

في هذه الفترة نفسها حدثت تغييرات أخرى في إطار التحالف المناهض لموسكو. في عام ١٤٩٢م توفي دوق ليتوانيا الأكبر وملك بولندا كازيمير، وانتخب ابنه ألكسندر مثل والده دوقا أكبر لليتوانيا، أما عرش ملك بولندا فاعتلاه ابن كازيمير الثاني يان الأول ألبرت. وهكذا، تم تهديم الاتحاد الشخصي لليتوانيا وبولندا. استغل إيفان الثالث لحظة الارتباك العام في الدولة البولندية الليتوانية وغزا واخترق على نحو غير متوقع الحدود الليتوانية.

لم يكن لا الليتوانيون ولا البولنديون مستعدين للحرب على الإطلاق، والسلام الذي انتهت إليه هذه الحرب ضمن لحاكم موسكو لقب" الأمير الأكبر لعموم روسيا"، وذلك لأن الأراضي التي كانت قد استولت عليها ليتوانيا سابقًا في الروافد العليا لأوكا، والتي كانت ذات يوم ملكا للأمراء الإقطاعيين المحليين الذين انتقلوا إلى خدمة موسكو، آلت بعد التنازل عنها إلى موسكو. وعلى الرغم من أن نتائج الحرب تم تدعيمها بالزواج الأسري بين ابنة إيفان الثالث إيلينا ودوق ليتوانيا الأكبر الكسندر، فإن الحرب على أراضي سيفيرسك اندلعت بقوة من جديد. وكان النصر الحاسم فيها من نصيب القوات الروسية وذلك في معركة فيدروش عام ١٥٠٠م، والتي كانت إلى حد كبير نتيجة لغارات سلاح الفرسان التابع لقيصر قازان محمد أمين، الذي حوّل انتباه قوات العدو الكبيرة إليه.

وهكذا بحلول مطلع القرن السادس عشر توفرت لدى إيفان الثالث كل المبررات للادعاء بأنه الأمير الأكبر لعموم روسيا. وبالفعل، كانت كل أراضي دولة روس القديمة، باستثناء الجزء الذي استولت عليه بولندا، قد دخل ضمن الدولة الروسية الجديدة، التي كان عليها الآن الدخول إلى منعطف تاريخي مختلف تمامًا.

القسم الثالث

موسكو القيصرية





الفصل الأول

جموح بشر ..روسيا في القرن السادس عشر

- في موسكو وعلى الحدود
- إلى الجنوب والشرق
- الحرب الليفونية

عند دراسة تاريخ روسيا في القرن السادس عشر لدينا وفرة في المعلومات مقارنة بالندرة التي عانيناها في تحليل تاريخ روس القديمة، وكنا أسرى عدد محدد من الروايات، ففي تاريخ روسيا الحديث لدينا "فائض" من المعلومات والحقائق، التي من المستحيل إدراجها كلها في البحث، إذ سينتج عن ذلك حينها ما يسمى في علم التحكم والاتصال (السيبرينيتيك **Cybernetics**) باسم "الضجيج"، ولك أن تتخيل مجموعة من الناس جلسوا في غرفة واحدة وفجأة بدأوا في نفس اللحظة بالحديث عن شؤونهم العائلية، لن نسمع شيئا في النهاية ولن نعرف ماذا يقول الواحد منهم. وفرة الحقائق تتطلب انتقائية، علينا إذا كما يفعل خبراء الصوتيات في انتقاء الموجات الصوتية أن نختار الحقائق المفيدة لإبراز موضوعنا، ونعني به "التاريخ العرقي لبلادنا".

حكم روسيا في القرن السادس عشر ثلاثة ملوك من أحفاد ألكسندر نيفسكي هم على التوالي: فاسيلي الثالث إيفانوفيتش، إيفان الرابع فاسيليفيتش جروزني ثم ابنه فيدور. شهد عهد هؤلاء الثلاثة توسعا مطردا في منطقة نفوذ "العرق السوبر[١]" الروسي، إذ تمكن فاسيلي الثالث من استكمال توحيد الأراضي الروسية إبان سقوط القبيلة التترية العظمى[٢]، تلك القبيلة التي كان والده إيفان الثالث قد تحرر من سلطتها، منذ أن توقف الروس عن دفع الضرائب لها في عام ١٤٨٠م. تفككت القبيلة التترية في عام ١٥٠٢م، ومن ثم أصبحت روسيا – التي سرعان ما ضمت ريزان وبسكوف وإمارة تشرنيجوف – دولة متجانسة متماسكة تحدها من الجنوب والشرق الخانات التترية.

اتسم بالضعف جيران روسيا من الخانات التترية، مثل خانية كازان وقبيلة نوجاي التي كانت تسكن في صحراء رين- بيسكي. لم تتمكن هذه الخانات من منافسة نفوذ روسيا المتزايد الذي كانت تتزعمه إمارة موسكو.

في ذات الوقت، كانت الدولة البولندية/الليتوانية قد تكبدت سلسلة من الهزائم في الحروب مع الأتراك العثمانيين، مما أوقعها في حالة من الفقر الشديد، ومن ثم لم تعد قوتهم الكبيرة (ظاهريا) تشكل تهديدًا خطيرًا لروسيا. كانت الحروب مع البولنديين والليتوانيين تسير بفتور، وكان النصر تارة من نصيب هذا الطرف وتارة من نصيب ذاك، على الرغم من أن بولندا ظلت القوة العسكرية السياسية في أوروبا الغربية بأكملها. أدى انشطار "العرق الأعلى" في أوروبا الغربية في مرحلة الانهيار(٣) إلى ابتلاع الشغف الخلاق للأوروبيين داخل آتون الحروب الأهلية للإصلاح البروتستانتي. ويبدو أن الوضع في أوروبا الشرقية كان مواتيًا جدا لروسيا وشعبها.

هكذا اتضح أن أهداف وأعمال الشعب الروسي في القرن السادس عشر تغيرت جوهريا بالمقارنة مع سلوك الأجيال السابقة لشعب موسكو، حيث زاد عدد ذوي الهمم العالية، سيما أن مهمة توحيد البلاد والدفاع عنها قد ترسخت، ولذلك اختار الشعب الروسي ذو الشغف الخلاق أهدافًا جديدة للحياة، وحتميات جديدة للسلوك. أصبح العالم صغيرا في نظر الروس، وتوقفوا عن خدمة الغير، وكل واحد منهم أراد أن يكون نفسه، لم يكن الأمير الروسي آنذاك يريد أن يبقى مجرد أمير، بل أن يكون الأمير شويسكي، وليس مجرد فرد من الحاشية، وإنما جودونوف، وليس فقط شخصًا من القوزاق، وإنما يرماك تيموفييفيتش. أصبح لدى كل واحد من أصحاب الهمم العالية مثالا وقدوة لإنسان يشغل المكانة الأولى وينتزع السلطة من مخالب المنافسين.

في موسكو وعلى الحدود

بتوحيد البلاد تم تحقيق الاستقرار السياسي والاقتصادي. كان من الممكن للفلاحين في القرى الانخراط بهدوء في الزراعة، ودفع الضرائب لأصحاب الأراضي. كان النبلاء من العسكريين يجنون الجزء الأكبر من عوائد الضرائب؛ لأنه لم يكن بحوزتهم سوى القليل من الفلاحين، وكان عليهم أن ينفقوا على الخيول والمحاربين من مالهم الخاص المجموع من هذه العوائد. وكان البويار[٤] يحصلون على قدر متوسط من الضرائب، أما الحد الأدنى من عائدات الضرائب فكانت تحصل عليه الأديرة. كانت أرض روسيا الغنية تغطي أي تكاليف للعمل وأي ضرائب، ولذلك تضاعف مرة ونصف عدد سكان روسيا في النصف الأول من القرن السادس عشر ليصل إلى تسعة ملايين شخص.

ولم يكن لدى الشباب ذوي الهمم العالية شيئا يفعلونه في القرية، فالحياة كان يحيطها الملل ويحاصرها السأم، كيف يبقى هناك من قال فيهم الشاعر:

أولئك الشجعان المسكونون دوما بالبحث والكشف

من ضاق ذرعا بوطن الآباء،

أولئك الضاحكون بسخرية،

أولئك الساخرون من نصائح العجائز والحكماء!

كانت القرية تفضل المتكيفين[٥] – الهادئين، محبي العمل، الساكنين، الذين لا يبحثون عن أي شيء، ولكن يزرعون الأرض بمهارة ويدفعون الضرائب بانتظام، أما أصحاب الهمم العالية فسعوا دوما لمغادرة القرية

الهادئة، سيطرت عليهم الفكرة التي صيغت في العصور القديمة: "الفرصة تمر بجوارنا، طوبى لمن أخذ بزمامها"، وفي القرن السادس عشر لم يكن ممكنا بناء مستقبل مهني إلا في العمل لدى السلطة الحكومية، هناك في المراكز العمرانية الكبرى..لا في الريف والقرية.

ويجب القول: إن أمراء موسكو أنفسهم ساهموا في تكريس الشغف الخلاق في إمارة موسكو. فعلى سبيل المثال، قرر إيفان الثالث نقل متمردي نوفجورد (ومن بينهم كان هناك الكثير من أصحاب الطاقة الخلاقة) إلى موسكو بحيث يمكن مراقبتهم بسهولة. وبنفس الأهداف استقبلت موسكو العديد من أبناء "الأمراء" من مدن بوتيفل، وتشرنيجوف، ونوفغورود، وكورسك. فعل إيفان الثالث الشيء نفسه مع أمراء "المقاطعات" ذوى العزم والهمم العالية. في الواقع، لم يكن الأمير شويسكي ليفعل الكثير من المجد في شويا، أو الأمير أوديوسكي في مدينة أودوييف، أما في العاصمة السيادية موسكو فهم تحت الإشراف، فهنا ينشط الناس ويخرجون ما عندهم من إبداع. كان القرار منطقيًا تمامًا وحكوميا، لكنه لم يؤد، كما هو الحال دائمًا، إلى النتائج التي كانت متوقعة.

كان إيجاد أنصار في موسكو أمرا سهلا، وقد وجدهم البويار هناك، فإلى جانب ممثلي الأرستقراطية ذوي الهمم العالية كان هناك أيضا العديد من "الخدم" و"أفراد حاشية الأمراء" ذوو الطاقة الخلاقة، والتجار وأصحاب الحرف ممن سكنوا أطراف المدينة وأطلق عليهم اسم "الباساد" ونتيجة لذلك، دعم سكان جزء من موسكو عائلات مثل الشويسكيين والبيلسكيين. تحولت موسكو بسرعة كبيرة مع بداية القرن السادس عشر إلى مرتع لا يصدق من الطاقة الخلاقة، حيث انقسم سكان المدينة بأكملها إلى أحزاب متنافسة.

لحسن الحظ لم يذهب جميع أصحاب الشغف الخلاق إلى موسكو، حيث إنه إذا استقر المرء هناك، كان عليه أن يكون خادما أو عبدا لشخص ما صاحب نفوذ. وعلى الرغم من أن ذلك كان مربحًا جدًا في ذلك الوقت؛ لأنه سيجد المال والشراب، كما أن الخدمة سهلة، وسيتلقى عطايا سخية، فإن العدد الكبير من ذوي الهمم العالية لم يكن يقبل بهذا الاختيار؛ لأنهم كانوا مستقلين للغاية وطموحين.

اتجه جزء من ذوي الطاقة الخلاقة في القرن السادس عشر للمناطق الحدودية غير الهادئة التي كانت تمثل للأشخاص الطموحين الكثير من الفرص لتحقيق طاقتهم الزائدة. وعلى الرغم من وجود اتفاق سلام على الحدود الجنوبية مع التتار، لكنها كانت مضطربة نتيجة غارات قبائل النوجاي. في منطقة الفولغا كانت هناك حروب مستمرة مع موردوفا وبورطاس والتتار القوزاق، ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأنها كانت حروبا دينية، فبعض الوثنيين كان يدعم الروس، ووثنيون آخرون دعموا التتار.

لم تكن هناك حرب على الحدود الشمالية، وكان الروس قد ضمنوا الأراضي الواسعة الممتدة إلى البحر الأبيض في الشمال، والمترامية في الشرق حتى سلسلة جبال الأورال وما وراءها، استحوذوا عليها بالفعل لكن الطبيعة القاسية كانت تتطلب قدرًا هائلاً من الطاقة، طاقة وقوة يمكن فقط العثور عليهما عند شخص أراد تحقيق شيء مميز في الحياة. تم توفير الثروة والاستقلال هنا ليس بالقوة العسكرية، ولكن عن طريق "الخردة الناعمة"(٦)– الفراء الثمين، والذي كان سعره يعادل الذهب. كان من الممكن الحصول على الفراء بطريقتين: إما أن تصطاد بنفسك، أو "إجبار" الأجانب على ذلك، ولكن لم يكن هذا أو ذاك أمرًا سهلاً. وأخيرًا، على الحدود الغربية، كان يجب باستمرار صد هجمات الليتوانيين والألمان الليفونيين.

ونلاحظ أن مفهوم "الحدود" ذاته في القرن السادس عشر كان مختلفا عن اليوم. طبقا للمفهوم الحديث فإن الحدود هي نوع من الفواصل الطبيعية (نهر أو سلسلة جبال) أو الاصطناعية (شريط من التحصينات) التي تفصل بين ماهو "لنا" وما هو "للآخرين". لكن في ذلك الوقت في ظروف السهوب السيبيرية أو السهوب الجنوبية الروسية، كان من المستحيل في كثير من الأحيان تعريف الحدود بهذه الطريقة. كانت المساحات الشاسعة من الميدان البري[٧] وسيبيريا تمثل حدود روسيا الناهضة في القرن السادس عشر (وحدث وضع مشابه في القرن التاسع عشر عند قيام الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كان ينظر الأويكي "اليانكي" إلى كل الأراضي الشاسعة من المسيسيبي إلى كورديليرا على أنها حدودهم).



بالطبع كانت الدولة الروسية مهتمة للغاية بمعالجة قضية المناطق الحدودية، وكان من الضروري تحديد الحدود الصالحة للدفاع عنها، لأن بناء حواجز في المناطق من تشرنيجوف إلى قازان ونيجني نوفغورود كان أمرا صعبا ومكلفا للغاية. وكان من الضروري وضع عدد كبير من الجنود على الحواجز، وتنحصر مهامهم في مراقبة السهوب طوال الوقت.

كان الرجل يجلس أعلى الشجرة ويراقب إذا ما هاجمت فرقة فرسان تتارية (الشامبول) خلال العشب العالي. وعندما كان يرى العدو، كان عليه أن يشعل على الفور شعلة على الشجرة لينتبه إليها "الحارس" في الموقع التالي، ثم ينزل ليقفز فوق حصانه ويندفع بأقصى سرعة إلى أقرب حامية،

لأن التتار كانوا عندما يرون النار يحاولون دوما اللحاق بالحراس. وعادة ما كان يقوم بالحراسة اثنان: أحدهما كان يراقب السهوب، والآخر يراقب الخيول المجهزة. وفي الحاميات، عندما كانوا يرون شعلة، يدقون ناقوس الخطر، ويرسلون رسلاً إلى المدن الأخرى، وإلى موسكو لتجهيز القوات بسرعة. ولكن خلال هذا الوقت كان التتار ذوو الخيول الخفيفة يتمكنون من القبض على الأسرى في القرى المحيطة ويبدأون بالفعل في التراجع، وكان الروس يطاردونهم على الخيول غير المتعبة، مستغلين ميزة أن خيول التتار قد تعبت من طول السفر، وكانوا يقتلون التتار المهاجمين ويطلقون سراح الأسرى ليعودوا لمنازلهم.

وفقط بعد ٢٠٠ عام، في القرن الثامن عشر، تمكنت روسيا من حل المشكلة الأكثر أهمية وهي إيجاد الحدود الطبيعية. وخلال هذين القرنين قام ذوو الهمم العالية بتجديد صفوف المدافعين عن حدود الوطن الأم. ولسبب ما في القرن السادس عشر نرى مجموعات من أصحاب الشغف الخلاق ليس فقط في العاصمة، ولكن أيضًا على الحدود الروسية.

ويعد هذا التقسيم لأصحاب الشغف الخلاق سمة مميزة للمرحلة الجديدة من التكوين العرقي (ذروة التكوين).

أدت زيادة الشغف الخلاق في العاصمة وفي أطراف النطاق العرقي إلى نفس النتائج، حيث ازداد عدد الجماعات البشرية ذات المصير المشترك، حيث كان أصحاب الشغف الخلاق يشعرون بـــ "تفردهم" فيتحدون معا. وقد ذكرنا من قبل أن سكان موسكو النشيطين انقسموا الى أحزاب.

كان أصحاب الشغف الخلاق الموجودون على الحدود يتميزون بتكتلات أكثر تنظيما مقارنة بنظرائهم في موسكو، لأن العلاقات مع النبلاء الأغنياء منهم لم تعد لها أي أهمية أثناء الحرب مع التتار أو النوجاي. على سبيل المثال ، تشكل عرق فرعي على نهر الدون، وأصبح فيما بعد عرقية "القوزاق". كانوا يستوعبون جميع الفلاحين الفارين ويشعرون بالاستقلالية التامة. وعلى الرغم من اعترافهم بأمير موسكو الأكبر ملكا، فإنهم كانوا يكرهون النبلاء (البويار) وموظفي البيروقراطية آنذاك رسخ سكان الدون استقلالهم في صيغتين: "لن ندفع ضرائب" و"لا نرضخ لأحد باستثناء الملك". لم يكن القوزاق يميلون إلى الاعتداد برأي حكومة موسكو، وغالبا ما كانوا يصنعون إرادتهم الخاصة وكان يطلق عليهم في الرسائل الملكية "قطاع طرق"، "لصوص"، " قتلة"، و"خونة الأمير". ومع ذلك ظل موظفو موسكو والقوزاق يرون بعضهم بعضًا كأقارب، وبالتالي كانت تأتي الى نهر الدون القوافل التي تحتوي على الحبوب والفودكا والبارود والرصاص تلبية لطلبات الاتامانات[٨] لإقرار قدر ما من النظام.

الجوزيفيون[٩] وغير الحائزين [١٠]

جنبا إلى جنب مع "خدم" البويار والقوزاق، الذين كانوا يسعون إلى الثروة، والانتصارات والنجاحات كان في موسكو في القرن السادس عشر أولئك الذين كان لديهم نزوع عاطفي للسعي إلى المثل العليا للمعرفة، والى النضال من أجل معتقداتهم. لم يكونوا عبيدا أو سكان حدود. وفقا لظروف الزمن كان الفكر في القرن السادس عشر كنسيا. كانت مسائل الإيمان ذات أهمية كبيرة، حيث كان يقترن شكل الاعتقاد بسلوك معين، وببرنامج أيديولوجي معين، ويتحول بسهولة إلى السياسة والحياة اليومية. كانت مسألة

حرية الضمير هي التي حددت الاتجاه الثالث لتطبيق قوى الروس ذوي الطاقة الخلاقة.

ولفهم الأحداث اللاحقة، سيتعين علينا العودة بالزمن وتذكّر ظهور التصورات السلبية للعالم، حيث أدى إدخال التعاليم، التي كانت تحتوي في جوهرها على تلك التصورات السلبية للعالم، إلى نفس النتيجة السلبية في فرنسا الكاثوليكية، حيث نشبت حروب ألبيجينسي، وفي بلغاريا الأرثوذكسية، حيث ضعف العرق البلغاري الكبير وتعرض للهزيمة على يد بيزنطة. وكان للدعاية الأيديولوجية في العالم الإسلامي نفس النتيجة السلبية، حيث رافقت حركات القرامطة والإسماعيلية مجازر ومهالك وتعسف وظلم.

وتغلغلت في روسيا التصورات السلبية للعالم في نهاية القرن الخامس عشر تحت ستار هرطقة "المتهودون"[١١]، والتي كانت علاقتها الوراثية مع اليهودية مشكوكًا فيها إلى حد كبير، ولكن المهم هو شيء آخر. كان أساقفة الكنيسة الروسية في القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر ذوى تعليم جيد ومدركين لفهم الخطر المحتمل من هذه الهرطقات على مستقبل البلاد. ولكن للأسف، لم تكن آراء قادة الكنيسة حول كيفية القضاء على المهرطقين موحدة. واتخذ تطور الأحداث طابعا مأساويًا بعد وفاة إيفان الثالث (مرض إيفان الثالث بمرض خطير في عام ١٥٠٠ تقريبا، وكان فاسيلي إيفانوفيتش، ابنه من زوجته الثانية صوفيا باليولوج حاكما فعليا للبلاد خلال السنوات الخمس الأخيرة من حكمه).

كان غير الحائزين ممثلي أحد الاتجاهات الكنسية، وهم أنصار قس الفولغا "نيل سورسكي" وسلفه فاسيان باتريكييف. وكان غير الحائزين يرفضون بشكل قاطع إمكانية قتل المهرطقين، مستشهدين بأن "الله لا يريد موت الخاطئ بل توبته"، وبالتالي فإن واجب الكنيسة توجيه الخاطئين

وإرشادهم. في رأي غير الحائزين ينبغي عزل ونفي أولئك الذين يصرون على الهرطقة، ولكن لا يجب إجبار الضمير الإنساني تحت تهديد الموت. كان معارضو غير الحائزين في النزاع الخاص بالهرطقة هم أنصار جوزيف فولوتسكي، ومن ثم كان اسمهم (الجوزيفيون) الذين أصروا على اتخاذ تدابير صارمة للقضاء على الهرطقة، وصولاً إلى تطبيق تجربة أوروبا الغربية في الحرق العلني للكفار.

كان النصر في هذا النزاع من نصيب جوزيف فولوتسكى. وفي عام ١٥٠٤ تم الحكم على المهرطقين بالموت بقرار مشترك لإيفان الثالث، أي الحاكم الفعلي للبلاد فاسيلي، ومجلس الأساقفة. وأقيمت المحارق في موسكو ونوفغورود. وتم إحراق العديد من المفكرين الأحرار والمسؤولين الحكوميين الكبار، الذين دعموا الهرطقة، وتم سجن إيلينا فولوشانكا زوجة ابن الأمير الأعظم وحفيده دميتري، ولقوا حتفهم في السجن.

لم تكن مسألة محاربة المهرطقين هي فقط التي فرقت بين الجوزيفيين وغير الحائزين والحقيقة هي أن فاسيلي الثالث لم يكن لديه ما يكفي من الأراضي لتوزيعها على العديد من النبلاء لخدمته، وكان الأمير الأكبر في حاجة ماسة إلى الأموال. ولمعرفتهم ذلك عرض غير الحائزين على الأمير أخذ جميع ممتلكات الكنيسة لصالح الخزانة، وبالتالي دفع ثمن خدمة النبلاء وتعزيز حدود روسيا. وفي المقابل طالبوا بالحق في حرية التعبير عن المعتقد. كان الجوزيفيون من جانبهم مستعدين لدعم الأمير الأكبر فاسيلي الثالث، ولكن بشرط أن يترك للكنيسة جميع ممتلكاتها: الزخارف الغنية للكنائس، والمكتبات الرائعة واقتصاد الأديرة المزدهر.

في هذه اللحظة الحرجة كانت الظروف الأسرية للأمير الأكبر حاسمة. كانت "سولومونيا سابوروفا" هي الزوجة الأولى لفاسيلي الثالث، وكان الزواج

بلا أطفال، وتحت هذه الذريعة طلق فاسيلي الثالث سابوروفا، التي كانت ساخطة، لكن الأمير الأكبر كان مصرا على ذلك، وتزوج من الجميلة "إيلينا جلينسكايا".

تستحق منا سلالة الجلينسيكيين أن نستعرضه بتفاصيل أكثر. كان مؤسس هذه السلالة هو "كوساك ماماي(١٢)"، أي سليل ماماي نفسه، الذي هزمه الروس في معركة كوليكوفا. وفي مكان ما في فولينيا اعتنق الأرثوذكسية سليل هذا الأمير المرعب. وبعد أن حقق مستقبل مهني جيد، حظي على لقب أمير وصار مساويًا لافراد سلالة روريك وسلالة جيدمينوفيتش(١٣)، وكان يخدم الأمراء الليتوانيين بهذه الصفة. ولم يتماش سلفه فاسيلي لفوفيتش جلينسكي مع الليتوانيين، وانتقل إلى موسكو في عام ١٥٠٨، واستقبل هناك بأذرع مفتوحة. كانت إيلينا جلينسكايا ابنة هذا الأرستقراطي الليتواني. وأنجب منها فاسيلي الثالث ولدان، على الرغم من أن الألسنة الشريرة كانت تقول إن الأب الحقيقي هو الأمير أوفشينا تليبنيف أوبولينسكي الشاب الوسيم قائد فوج الحراسة.

تدخلت الكنيسة بالطبع في مسألة طلاق سابوروفا، لأنه وفقا للقوانين المسيحية، لا يجب تطليق امرأة دون ذنب منها. هكذا أدان رئيس جماعة غير الحائزين فاسيان باتريكييف بجرأة، من وجهة نظر دينية، الطلاق غير المبرر، وبالطبع لم يكن الأمير الأكبر راضيًا عن رأي فاسيان باتريكييف.

وتبع الصراع الأول مع غير الحائزين صراعًا ثانيًا، حيث استدعى فاسيلي أمراء تشرنيجوف المستقلين إلى موسكو لإجراء محادثات. وكانوا قد تلقوا رسالة أمان، ولكنهم جاءوا وسُجنوا غدرا. ومرة أخرى أدان فاسيان باتريكييف فعل الأمير الأكبر باعتباره انتهاكا لكلمة الشرف، وهو ما لا يليق

بمسيحي، ولكن هذه المرة نفد صبر فاسيلي، وتم إرسال فاسيان باتريكييف إلى دير جوزيف من أجل الطاعة الصارمة وبعدها مات، وانتصر الجوزيفيون.

إلى الجنوب والشرق

في عام ١٥٣٣ توفي فاسيلي الثالث، وترك وريثه البالغ من العمر ثلاث سنوات – إيفان فاسيليفيتش. وكما هو معتاد كان الطفل مع والدته، ولكن في عام ١٥٣٨ ماتت إيلينا جلينسكايا فجأة، والسبب الحقيقي لوفاتها كان غير معروف، ولكن بين المعاصرين كان هناك أشخاص يؤكدون أن الدوقة الكبرى سُممت. ولكن المؤكد تماما كان شيئا آخر، وهو تعذيب الشخص المفضل لها الأمير إيفان أوفشينا حتى الموت. وانتقلت السلطة الى مجلس النبلاء "البويارشينا"، الذين تولوا الوصاية الجماعية حتى بلوغ الأمير الأكبر. وعلى رأس تلك المجموعة من البويار كان الأمراء الشويسكيون.

في وقت لاحق تذكر إيفان فاسيليفيتش بحزن الإساءات التي قام بها الشويسكيون تجاهه. من وجهة نظر رجل في عصرنا هذا، فإن الكثير من تصرفات الشويسكيين يمكن التسامح معها تمامًا، فمثلا دخل الأمير إيفان شويسكي إلى الغرفة العليا، حيث كان إيفان الصغير يلعب مع أخيه، واتكأ على سرير الملك. ليس بالأمر الجلل! ولكن أنماط السلوك تتغير بشدة، وما يعتبر تافه بالنسبة للشخص المعاصر، يمكن أن يكون "وصمة عار" لرجل من القرن السادس عشر. وكان أصحاب الشغف الخلاق يتعاملون مع هذا النوع من الأشياء، وفقا لآداب السلوك، على محمل الجد. مثل هذا الفعل كان يعتبر في بعض الأحيان "كبرياء" فج (وهذا كان تقييم إيفان الرهيب نفسه) بشكل عام، لم يكن إيفان على وفاق مع الشويسكيين، وبمجرد أن اصبح أكبر سنا،

أمر بقتل زعيم عشيرتهم، الأمير أندريه. حدث هذا في عام ١٥٤٣، بعد وفاة المغرور إيفان فاسيليفيتش شويسكي.

وهكذا بدأ الحكم الجديد، وكان أمام الحاكم الشاب مشكلتان للسياسة الخارجية: ترسيخ الحدود الشرقية وتنمية العلاقات الاقتصادية مع أوروبا الغربية. بدأ الحل لأولى هذه المشاكل بالحرب مع خانة كازان، التي كانت، ربما، الحلقة الدموية الوحيدة في حركة روسيا "لمقابلة الشمس".

كان هناك طرفان في كازان: طرف موالٍ لروسيا، استسلامي، وطرف مناهض لروسيا، وذو توجه نحو السلطان التركي. ومن الأصح تسمية الطرف المناهض لروسيا بالحالم، لأن السلطان التركي، الذي كانت ممتلكاته في أوروبا الشرقية مقتصرة على حوض البحر الأسود، لم يكن يستطيع تقديم المساعدة العسكرية بأي شكل من الأشكال: كان جيشه ببساطة غير قادر على الوصول إلى كازان، ومع ذلك كان لأنصار تركيا اليد العليا. أثاروا حربًا مع روسيا ودفعوا حياتهم وكازان نفسها ثمنا لطموحاتهم (١٥٥٢م). وتم إقامة مدينة روسية مكان قلعة كازان التتارية، ولكن نجا جزء كبير من الشعب التتاري.

ضمت روسيا الشعوب الأخرى، التي كانت خاضعة لخانة كازان بشروط أبسط كثيرا. بطبيعة الحال لا ينبغي لنا أن نجعل من أسلافنا مثاليين، ولكن الاضطهاد الإسلامي مع العبودية وتجارة الرقيق المستمرة على طول نهر الفولغا كان أكبر وطأة بكثير من الجزية التي فرضتها موسكو على شعوب التشوفاش والمارييل. نحن نتفق على أن دفع الجزية ليس أمرا لطيفا، ومع ذلك بوصول الروس، على الأقل، لم يكن أحد يُخطف ويُباع إلى بلاد فارس أو تركيا. أما بالنسبة للروس فقد كان الاستيلاء على كازان بالنسبة لهم

ضرورة جلية. وبالطبع بنهاية الحرب على أراضي خانة كازان تم تحرير حوالي ١٠٠ ألف أسير روسي، وجميعهم أخذوا نصيبهم من غنائم الحرب وأعيدوا الى الوطن.

وكان الاستيلاء على أستراخان هو الخطوة التالية في السياسة الشرقية. وقد تم بشكل سلمي دون إراقة دماء والى الأسفل على نهر الفولغا نزلت السفن الروسية مع الرماة والجنود، وخرجت القوات أمام قلعة "حاج تارخان" وعرضت على الحامية الاستسلام. قبل المحاصرون العرض، وبعد ذلك تم استبدال الحكومة، وبدأ بناء قلعة أستراخان على الضفة المقابلة من نهر الفولغا (١٥٥٦م)[١٤].

قاد غزو الفولغا بأكمله الروس إلى بحر قزوين، وإلى القوقاز، وسهل للغاية التجارة مع بلاد فارس، حيث كان نهر تيريك يمثل حدود مجال النفوذ الفارسي: فقد كان الفرس يعتقدون أن التحرك أكثر نحو الشمال غير ضروري. ونتيجة لذلك خضعت معظم شعوب الفولغا وشمال القوقاز لدولة موسكو. وكان الاستثناء الوحيد هو النوجاي، الذين كانوا يشغلون أراضي إقليم ستافروبول المعاصر المتاخم لبحر آزوف.

كان من الصعب على روسيا أن تقيم علاقات مع جزء آخر من القبيلة الكبرى – خانة القرم، التي كانت تعتمد على تركيا. منذ بداية القرن السادس عشر دخلت القرم مجال نفوذ الإمبراطورية العثمانية، التي نفذت التوسع الإسلامي. اختارت تركيا أتباعها – حكام القرم من عشيرة جراي – كأداة للعدوان في جنوب شرق أوروبا. كان الصراع، الذي انخرط فيه أيضا الاتحاد البولندي الليتواني، قاسيًا ودمويًا ولم ينته إلا في القرن الثامن عشر بانتصار روسيا.

الحرب الليفونية

كان الوضع صعبًا أيضًا على الحدود الغربية، حيث كانت تحدث باستمرار صراعات مع الألمان. تارة كان الألمان يهاجمون الحدود الروسية وينكلون بالأسرى، وتارة يقوم أجدادنا بالهجوم على الألمان بالسكاكين التي تحمل في الأحذية. لم يحب أي منهما كل هذا، ونما العداء المتبادل. وأثناء إحدى الصدامات شتم سكان إيفانجورود في البداية الألمان عبر نهر ناروفا الضيق، ثم فجأة وبصيحة "اضربوا الألمان!" اندفع الروس بشكل عفوي على جذوع الأشجار والطوافات والبراميل للعبور إلى الشاطئ المقابل وضرب الألمان بالفعل، واستولوا على مدينة نارفا. وبهذا الحادث البسيط، الذي وقع في عام ١٥٥٨م، نشبت الحرب الليفونية الثقيلة التي طال أمدها.

الذي يهمنا هنا في دراسة التاريخ العرقي لروسيا أن الفورة الشعورية لسكان إيفانجورود لاقت دعما من قبل حكومة موسكو، وأيد العديد من البويار غزو ليفونيا وضمها إلى روسيا، وكان لدى موسكو قوات كافية لعمل ذلك. وقد أعطى المستوى العالي من الشغف الخلاق الكثير من الناس الذين تعلموا منذ الطفولة شيئًا واحدًا فقط، القتال، والذين لم يعرفوا مهنة أخرى غير الخدمة العسكرية لسيدهم. وكان لا يمكن مواجهة كل هؤلاء الشجعان (المختارين من سلاح الفرسان الروسي النبيل، وقوزاق الشمال وريزان، والنبلاء قليلي الشأن) إلا من قبل أشخاص على نفس القدر من الشغف الخلاق مثلهم.

ولكن في ليفونيا من منتصف القرن السادس عشر لم يكن هناك مثل هؤلاء الناس، ولم تستطع بمفردها الدفاع عن نفسها. وإدراكًا لذلك تبنى الألمان بسرعة حلا دبلوماسيًا ولجأوا إلى مساعدة القوات الأجنبية، حيث

تمت دعوة السويديين إلى إقليم إستلاند، والدانماركيين إلى جزيرة إيزل (ساريما الآن)، كما كان هناك مكانا للبولنديين (١٥٦٠-١٥٦١م). وعلى الرغم من ذلك تمكن الروس من الاستيلاء على نصف ليفونيا، ولكن لم يكن هناك وحدة في حكومة موسكو فيما يتعلق بما يجب عمله بعد ذلك. ولا بد من القول إن السويديين كانوا قد عارضوا في البداية الهجوم الروسي، ولكنهم لم يحققوا نجاحات حاسمة، ولذلك اتخذوا موقفا أكثر تحفظا. وعرض البولنديون إعطاء الروس ذلك الجزء من ليفونيا، الذي استولت عليه موسكو بالفعل. وفي هذه الحالة سيذهب الجزء المتبقي من ليفونيا، بما في ذلك مدينة ريجا، للبولنديين أنفسهم، وهذه المدينة، التي كانت ذات أهمية إستراتيجية كبيرة، كانت تفتح الطريق التجاري على طول نهر دفينا الغربي.

في عام ١٥٥٦م ظهر رجل رائع في موسكو – الأمير دِميتري فيشنيفتسكي. وهو ينحدر من أمراء توروف بينسك، وبالتالي ينتمي إلى نسل روريك. وكان الأمير دِميتري نفسه رجلاً شجاعًا ونشطًا. واحتراما لهذه الصفات، انتخبه القوزاق الزابوروجيين "آتامانا". وذهب إلى موسكو باقتراح القوزاق الزابوروجيين الاستيلاء على خانة القرم. أيد القيصر فيشنيفتسكي، وفي ١٥٥٨-١٥٥٩م قام الأمير دِميتري وقائد البلاط القيصري دانيلا أداشيف بعدة غارات على شبه جزيرة القرم.

في عام ١٥٦١م كان على حكومة إيفان الرهيب أن تقرر ما إذا كانت ستوقف العمليات العسكرية في ليفونيا، وتنقل جهودها إلى الحدود الجنوبية، أم تحاول القضاء على رأس جسر أوروبا الغربية؟ وسنقوم هنا بتقييم الأمور: كانت الرغبة في إخضاع شبه جزيرة القرم وإيقاف الخطر المستمر عليها من الغارات التترية حلما وهميا في الظروف الحقيقية للقرن السادس عشر، الى جانب أن روسيا لم تكن لتستطيع القتال على جبهتين. كان السعي إلى القضاء

على التهديد الألماني وبالتالي مواصلة سياسة ألكسندر نيفسكي أمرا طبيعيا وممكنا. اختار القيصر القتال في الغرب، لكن الحرب في ليفونيا طالت وكانت بعيدة كل البعد عن النجاح بالنسبة للروس.

في الوقت نفسه في بولندا في عام ١٥٧٢م انتهى حكم آل ياجيلون، وتم تغيير نظام الدولة. تحول البولنديون إلى نمط قريب من الحكم الجمهوري، حيث أبقوا على "وظيفة" الملك، ولكن جعلوه منتخبًا. وبعد أن حدد النبلاء البولنديون إجراء انتخاب الملك، قاموا بانتخاب الأمير الفرنسي "هنري فالوا". جاء هنري، ونظر إلى الأمور في بولندا و ... فر عائدا إلى باريس. قد يبدو لنا مثل هذا العمل وكأنه جنون، ولكن طبقا للوضع في زمنه كان "هنري فالوا" محقا تماما.

في القرن السادس عشر لم يكن العرش الملكي مطمعا، بل كان الملك مسؤولية ثقيلة للغاية، وكانت حياة الحاكم محفوفة بالمخاطر. وكان المواطنون يطالبون الملك بإدارة فعالة، ولكن في الوقت نفسه كان يجب عليه أن يراعي مزاج رعاياه، لأن التاج الملكي كان عادة ينتزع مع رأس صاحبه. وهذا هو السبب في أن الأمير الفرنسي لم يرد أن يجادل النبلاء البولنديين. (ومع ذلك، كان السبب وراء رحيله المفاجئ هو أن العرش الفرنسي أصبح شاغرا، وقام هنري بشغله).

بعد أن حُرم البولنديون من "هنري فالوا"، اختاروا عام ١٥٧٥ ستيفن باتوري ملكا عليهم، وهو نبيل ترانسيلفاني[١٥] ليس ذا أصول مجرية أو رومانية. ولكن رغم كونه بولنديا، كان باتوري قائدًا عسكريا جيدًا وتمكن بفضل موهبته من الانتصار في الحرب الليفونية من أجل رعاياه. في النهاية هُزمت القوات الروسية، وتمكنوا من إيقاف باتوري فقط تحت جدران مدينة بسكوف (١٥٨١م).

في عام ١٥٨٢ انتهت الحرب، التي كانت صعبة على الجانبين بعقد اتفاقية سلام "يام زابول"، وبعد عام ونصف تم توقيع هدنة مع السويد. وهكذا انتهت الحرب الليفونية التي فقدت كثيرًا من طاقتها وهو ما كان مؤسفا لروسيا. فقدت روسيا ليفونيا، واستولت السويد على مصب نهر النيفا وأراضي البلطيق (تم استرجاعهم فقط في عام ١٥٩٠م، ثم فقدانهم مجددا في حقبة الاضطرابات، ثم استرجاعهم مرة أخرى في عهد بطرس الأول).

الكروميشنيكيون (١٦)

لم تكن الظروف الخارجية هي العائق أمام انتصار روسيا في الحرب الليفونية بقدر ما كانت التغيرات الكبرى داخل البلاد.

سبق أن ذكرنا أنه في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر في موسكو ظهر جنبا إلى جنب مع اتجاهي الفكر الديني المتمثلين في التيارين الكنسيين: غير الحائزين والجوزيفيين، تيار ثالث، والذي كان في جوهره معادٍ للكنيسة والذي أطلقنا عليه تسمية غير موفقة وهي "المتهودون"، واعتبرناه فرقة مهرطقه والخطأ مرده أنه لم يكن لهم أية علاقة باليهود، وللتبسيط سنطلق عليهم مسمى النظام المضاد لروسيا.

كان "فيودوسي كوسوي" أحد أبرز دعاة آراء النظام المضاد في روسيا. كان وعظه سهل الفهم، حيث تم الاعتراف بالكتاب المقدس فقط، وتم رفض عقائد الكنيسة، ومبادئها، والتسلسل الهرمي للكهنة بالكامل. تم القبض على كوسوي، ولكنه هرب إلى ليتوانيا، حيث استمر في إلقاء تعاليمه، ثم انضم إلى تيار الإصلاح البروتستانتي "اللاثالوثيين"(١٧).

كان النشاط الوعظي لكوسوي ظاهرة ملحوظة: كان المؤلفون المعاصرون له يضعون كلا من "باحمد" الشرقي، أي بنى الإسلام محمد،

و"مارتن" الغربي، أي لوثر، والروسي "فيودوسي كوسوي" جميعا على قدم المساواة. ولكن يجب قول إن هذه المقارنة كانت مجرد صيغة ديماجوجية، حيث لم يكن محمد ولوثر وفيودوسي كوسوي متشابهين على الإطلاق من حيث مضمون تعاليمهم ولا مكانتهم في التكوين العرقي.

كان محمد مؤسس لدين عالمي جديد ارتبط بمرحلة صعود الشغف الخلاق لعرق سوير ضم العالم الإسلامي.

لوثر، على العكس، كان فاعلا في مرحلة تراجع التوتر العاطفي – مرحلة الانهيار، ولم يكن وعظه كلاما جديدا على الإطلاق، حيث إن العظات الداعية إلى الإصلاح البروتستانتي - تصحيح عيوب الكنيسة الكاثوليكية – كانت موجودة في أوروبا الغربية من قبل لوثر: "جوس" في التشيك و"ويكليف" في إنجلترا كانوا يقولون الكلام ذاته. علاوة على ذلك حتى خصوم لوثر من كبار الكنيسة الكاثوليكية اعترفوا بصحة كلامه. لم يجادل أحد بحقيقة أن تقديم صكوك الغفران تحول إلى تجارة، وأن التعيين في وظائف الكنيسة "بالمحسوبية" هو شر، وأن جهل الكهنة ليس أقل شرًا. ولكن على الرغم من اتفاقهم مع حجج لوثر، أكد الأساقفة الكاثوليك أن علاج قرح الكنيسة من اختصاص الكرسي البابوي. ولم يفعلوا شيئًا لتصحيح الموقف، وبسبب هذا تحديدا بدأت الخلافات. كان الانشقاق في وحدة "العالم المسيحي" الناجم عن الانخفاض الحاد في عاطفيته بعد الخروج من مرحلة الذروة هو الأساس "الفيزيائي" للإصلاح البروتستانتي. وانقسمت أوروبا إلى بروتستانتية وكاثوليكية، وقد حدث هذا التقسيم في خاتمة التكوين العرقي في أوروبا الغربية، وليس في بدايته.

في روسيا كان القرن السادس عشر هو بداية مرحلة الذروة، وبالتالي فإن خطب فيودوسي كوسوي، وكذلك سلفه ماتفي باشكين، وجدوا استجابة

فقط بين جزء صغير من السكان، الذين شكلوا طوائف مهرطقة. كان إنشاء طوائف للنظام المضاد في مرحلة الذروة يشبه كثيرا حروب "ألبيجينسي" في فرنسا، وحركات "بوجوميل" و"البافليين" في بيزنطة، وخطب القرامطة في العالم الإسلامي، ولكن ليس أحداث الإصلاح البروتستانتي الأوروبي. في أفكار جوس، وويكليف، ولوثر لم يكن هناك ما يشكل جوهر هرطقة نوفغورود، التي تم قمعها في بداية القرن السادس عشر، وكذلك لم يكن هناك شيء مشابه لما يعظ به كوسوي. لم يكن وعظ كوسوي مأخوذا من الغرب أو الشرق، ولكنه كان تعبيرا خاصا عن ذاك التصور السلبي للعالم، الذي هو دائما نتيجة لاتصال وثيق بين عرق أعلى وآخر.

يقترن التصور السلبي للعالم، وكذلك الإيجابي، بخلق مفاهيم فلسفية أو دينية أو سياسية خاصة، والتي قلما تستخدم لإثبات صواب شخص ما أو إقناع الخصوم. بالتأكيد، غير مطلوب أدلة منطقية للتعبير عن النظرة للعالم. على سبيل المثال، يعتقد بعض الناس أن الكلاب يمكن ويجب أن تُضرب، بينما يعتقد آخرون أنه لا يجب ضرب الحيوانات التي لا حول لها ولا قوة. ولن يعطيك هؤلاء أو أولئك أية أدلة، حيث إن كل شخص صوابه واضح له، ويشعر به. ويقول أحدهم: "حسنًا، يا له من خنزير! أخذ كلبًا وضربه"، فيعارضه شخصا اخر ويقول: "هل أنت مجنون، أم ماذا؟ لماذا لا يضربه، إنه مجرد كلب.".

يبدو أن الموقف من الكلب تافه، ولكن من مثل هذه التفاصيل السلوكية الصغيرة يتكون التعاطف العالمي والنفور بالنسبة للأعراق والأعراق العليا. لذلك، من المستحيل عن طريق الحجج المنطقية التوفيق بين الناس، ممن لهم وجهات نظر حول أصل وجوهر العالم، لأن كلاً منهم ينطلق من تصور

للعالم مختلف جوهريا. يشعر البعض بالعالم المادي وتنوعه باعتباره نعمة، والبعض الآخر يشعر به كشر مطلق. التصور الأخير للعالم، الذي تجسد في روسيا تارة في حركة ستريجولنيكي[١٨] نوفغورود، وتارة في هرطقة "اليهوديون"، كان له في القرن السادس عشر تعبيرا أوضح في الأوبريتشنيا[١٩] (١٥٦٥-١٥٧٢م).

لقد اجتذبت ظاهرة الأوبريتشنينا، مثلها مثل غيرها، اهتمام مؤرخي ما قبل الثورة (وأهمهم كارامزين، وسولوفيوف، وبلاتونوف)، وكذلك المؤرخين المعاصرين (فيسلوفسكي، وزيمين، وسكرينيكوف، وألشين). تم وصف الأحداث الفعلية للأوبريتشنينا بشكل جيد للغاية في عدد من الأعمال الرئيسية، ونحن لن نتوقف عند هذه الحقائق المعروفة جيدا للجميع، ولكننا سنشير الى التفاصيل واللحظات المتعلقة مباشرة بالتاريخ العرقي.

ويجدر القول إن المؤرخين في القرن العشرين ووفقا لروح العصر حاولوا اكتشاف معنى اجتماعي ما في ظاهرة الأوبريتشنينا، لأنه كان يُعتقد أن الشخص لا يجب أن يقوم بأفعال غير مبررة اجتماعيًا وغير مربحة اقتصاديًا لطبقة أو فئة ما. ولكن كانت محاولات تحديد التكوين الاجتماعي للأوبريتشنينا غير ناجحة، حيث إنه بين القائمين عليها كان هناك البويار، و"الروحيون"، والعبيد، وجميعهم، على العكس، كانوا "ذرات حرة"، انفصلت عن مجموعاتهم الاجتماعية وعن نظمهم العرقية. بالانفصال تماما عن حياتهم السابقة، لم يكن القائمون على الأوبريتشنينا يستطيعون الوجود في أي مكان غير جوار القيصر إيفان الرابع، مستغلين موقعه. وما هو المعنى الاجتماعي الذي يمكن أن ينطوي عليه سلوكهم؟

الحقيقة أنه تم إنشاء الأوبريتشنينا من قبل إيفان الرهيب في نوبة من الجنون في عام ١٥٦٥م واستمرت رسميا لمدة ٧ سنوات. كانت مهمة

القائمين على الأوبريتشنينا هي "التخلص من خونة القيصر"، إلا أن القائمين على الأوبريتشنينا هم أنفسهم من كان يقوم بتحديد "الخيانة". وهكذا كانوا يستطيعون قتل أي شخص بزعم أنه خائن. كانت تهمة واحدة كافية جدا لتنفيذ أي حكم، والتعرض لأي عقوبة، وكانت أخف العقوبات هي قطع الرأس والشنق. ولكن بالإضافة إلى ذلك كان القائمون على الأوبريتشنينا يحرقون ويعدمون عن طريق قطع الأطراف ثم الرأس، وينزعون الجلد عن المذنبين، ويجمدون الناس في الثلج، ويجعلون الكلاب تطاردهم، ويضعونهم على الخازوق ...



تعرضت نوفغورود لتنكيل بشع في عام ١٥٧٠م، حيث تم القضاء على جميع السكان تقريبا، حتى الرضع ألقى بهم في الماء المثلج لنهر فولخوف. كما أخذ القائمون على الأوبريتشنينا على عاتقهم تحسين الأخلاق، فمثلا كان سكان نوفغورود يحبون شرب الخمر في الأعياد، لكن تم الإعلان عن منع السكر، وأولئك الذين كان يتم القبض عليهم في حالة سكر، يجلدون ويلقى بهم في الحفر المفتوحة بنهر فولخوف المتجمد.

خلال التنكيل بنوفغورود، كما هو الحال مع أفعال أخرى مماثلة، مات العديد من البويار، لكن الأمر الأكثر أهمية (الذي لفت المؤرخون المعاصرون الانتباه إليه، على عكس مؤرخي القرن التاسع عشر)، هو أن الناس العاديين مثل صغار الموظفين التجار والحرفيين والفلاحين، عانوا أيضا. عندما كان القائمون على الأوبريتشنينا يقومون بإعدام أحد البويار، كانوا يقومون بتقطيع خدمهم معهم، أما الفلاحون فكانوا يأخذونهم وينقلونهم إلى أراضيهم الخاصة.

ونتيجة للأوبريتشنينا تشكل وضع لا يطاق، قال عنه الكونت أ.ك تولستوي:

رنين من شيء نحاسي يدق فوق موسكو

الملك في لباس الحداد يدق الأجراس

هل يعيد السلام السابق؟

أم يدفن الضمير إلى الأبد؟

ولكنه باستمرار وثبات يدق الجرس

وشعب موسكو يسمتع للرنين باهتمام،

ويصلي، وهو مليء بالخوف،

لكي يمر يوم دون إعدام.

وردا على الحاكم تدق أبراج المنازل،

ويدق معه أيضا فيازمسكي الدموي،

والظلام الدامس يدق لكل القائمين على الأوبريتشنينا،

فاسكا جرزنوي، وماليوتا،

يفتخرون بمجدهم،

بابتسامة فتاة، وروح ثعبان،

المحبوب يدعو يوحنا،

وباسمانوف المرفوض من الرب.

وهكذا، كان القتل البشع هو المحتوى الرئيسي للأوبريتشنينا. ولكن السمة الإثنية الأكثر فظاعة وأهمية في الأوبريتشنينا هي أن كلا من القيصر والقائمين على الأوبريتشنينا كانوا على يقين تام من خيرية فظائعهم الوحشية. أولا، كان إيفان بقتله للجسد يسعى أيضا "لقتل الروح"، حيث إنهم كانوا يقطعون الجسد إلى أجزاء صغيرة، وفي الأرثوذكسية الروسية الشعبية البسيطة كان هناك ولا يزال حتى الآن اعتقاد بأنه "بدون الجسد" لا يمكن للمتوفى أن يُبعث في يوم الحساب. بعد ذلك بدأ الملك بكتابة أسماء ضحاياه في السينودك[٢٠]، وصلى عليهم الصلاة الجنائزية، وكان مقتنعا تماما بأن توبته كافية ليكون مسيحيًا أرثوذكسيًا مثاليًا. وعلاوة على ذلك، أنشأ جروزني مفهومًا خاصًا جدا للسلطة القيصرية، حيث كان يعتقد أن العظمة القيصرية متساوية مع عظمة الإله، وبالتالي حرم رعاياه من الحق في مناقشة أفعاله بأية صورة.

وهكذا، في الأوبريتشنينا تبادل الخير والشر الأماكن، وتجسدت طبيعة النظام المضاد لتصور القائمين على الأوبريتشنينا للعالم ليس فقط في سلوكهم، ولكن حتى في الاسم، حيث إن الكلمة الروسية القديمة "أوبريتش"، التي تعني كلمة كرومي[٢١]، أعطت سببا للمعاصرين لإطلاق كلمة كروميشنيكيون[٢٢] على مؤيدي جروزني، وكانت لهذه الكلمة معنى فلسفي طبيعي محدد، حيث إنه في نظر المسيحيين، هناك مفهوم الجحيم – مكان

عذاب الخطاة. الجحيم هو "ظلام حالك"، أي كما نقول اليوم "فراغ"، لا يوجد فيه ولا يمكن أن يكون فيه أي شيء مادي "مخلوق". في تلك الأيام كان يطلق مسمى "العدم" على أنه جوهر الشر. هذا يعني أن الكروميشنيكيين هم أناس مهووسون بالكراهية للعالم، خادمو الشر الميتافيزيقي المطلق. وكما نرى، كان أسلافنا قادرين على فهم جوهر الأشياء جيدا.

ومن الغريب أن من أنقذ روسيا من رعب الأوبريتشنينا كان خاقان القرم، حيث إنه في ذروة الحرب الليفونية تمكن "جروزني" من صنع سلام مع أهل القرم. وكان الاتفاق ينص على أن الخاقان لن يهاجم روسيا، ولذلك أمر إيفان الرهيب بتحريك معظم القوات النظامية من الحدود الجنوبية وإرسالها إلى الغرب، إلى ليفونيا. لكن خاقان القرم خرق المعاهدة؛ حيث قامت فصائل الفرسان بعمل ثغرة عبر الحدود الضعيفة، وتجاوزت الحواجز الموجودة حول موسكو، وهاجمت العاصمة (١٥٧١م). أطلق التتار على موسكو السهام الحارقة، ونتيجة لذلك احترقت المدينة الخشبية في غضون ثلاث ساعات. كان الحريق بمثابة كارثة هائلة، حيث فقد الناس كل ممتلكاتهم، حتى الذين نجوا، ومات كثيرون في النيران أو اختنقوا في الدخان. كان من الضروري صد هجوم القرميين، وباسم القيصر صدر أمر بجمع كل من يستطيع حمل السلاح، بما في ذلك بالطبع القائمين على الأوبريتشنينا. وهنا أظهر "الأشخاص المميزون" عن معدنهم، حيث إنهم إما ببساطة فروا من الجندية، أو ادعوا أنهم ضعفاء أو مرضى، أو كما قالوا وقتها "ليسوا موجودين"، وهكذا لم يكن قتلة العزل قادرين على قتال عدو قوي مسلح.

طارت رؤوس قادة القائمين على الأوبريتشنينا، الذين خافوا من أقواس وسيوف التتار. تم إعدام الأمراء: فيازمسكي، ميخائيل تشيركاسكي، فاسيلي

جرزنوي، والقائد أليكسي بسمانوف. وعرضَ على فيودر ابن اليكسي باسمانوف النجاة، إذا وافق على قطع رقبة والده، ووافق على ذلك. وأوفى إيفان بوعده وأبقى على حياة فيودر، حيث تم تكبيله بالأغلال وإرساله إلى الشمال ووضعه في السجن، وتركه ليموت هناك.

"صهر ماليوتا"

لم تكن نهاية الأوبريتشنينا (١٥٧٢م) تعني نهاية النظام المضاد، إذ تم فقط إعدام قادة الأوبريتشنينا، وهذا لم يكن كل شيء. على سبيل المثال، لقي ماليوتا سكوراتوف، وهو أفظع القائمين على الأوبريتشنينا، مصرعه في الحرب الليفونية بعد القضاء على الأوبريتشنينا. وعلى الرغم من القضاء على الأوبريتشنينا كمؤسسة، فإنها تركت عواقب. معظم القائمين على الأوبريتشنينا نجوا، وبعضهم تم تعيينه ضمن النبلاء العسكريين، والبعض الآخر تحول للرهبنة، وآخرون عملوا في الدوائر الحكومية. وفي غضون ذلك ظل القائمون على الأوبريتشنينا السابقون كما هم، فبعد أن حافظوا على رقابهم ظلوا ويفكرون بنفس الطريقة. بالإضافة إلى ذلك، بقي العديد من البويار، الذين كانوا على صلة بطريقة أو بأخرى بالقائمين على الأوبريتشنينا، في البلاط وفي السلطة.

أحد هؤلاء البويار كان بوريس فيدوروفيتش جودونوف. الجميع يعرف وصفه عند الشاعر الكبير ألكسندر بوشكين، الذي على لسان بطله الأدبي قيم آفاق عهد بوريس كالتالي:

يا له من شرف لنا، ولروس بأسرها!

الذي كان عبدًا الأمس، التتاري، صهر ماليوتا،
صهر الجلاد وهو نفسه ذو روح جلاد،
أخذ تاج وحزام مونوماخ[٢٣] ...

بهذا الوصف أغفل بوشكين الكثير، على الرغم من أنه فيما بعد كمفكر دقيق وشاعر لامع سيرسم صورة لجودونوف قريبة جدا من الشخصية التاريخية الواقعية.

ينحدر بوريس جودونوف من التتار، لكن أحفاده تركوا القبيلة الذهبية في عهد إيفان كاليتا، أي قبل مائتي عام من ولادته، وبالطبع لم يكن أصله أمرا حاسما. ينتمي "عبد الأمس" إلى عائلة بويار كبيرة وكان هو نفسه أكولنتشي في عهد إيفان الرهيب. والأكولنتشي هو المرتبة الثانية بعد البويار، وكانت هذه تسمية الأشخاص ذوى الثقة في القيصر، والمستشارين. كان بوريس جودونوف رجلاً ذكيًا، وإداري ممتاز، وهذا هو السبب وراء ترقيه في عهد إيفان الرهيب، وبعد وفاته رأس الحكومة، وساعد على ذلك حقيقة أن شقيقة بوريس كانت في ذات الوقت زوجة لابن إيفان القيصر "فيودر".

كان فيدور ضعيف الإرادة عديم الورع، وكان يبدأ يومه فقط بدعاء: "اللهم لا تجعل أحد يعمل أي شيء خاطئ" - تحت "الإرادة الكاملة" لجودونوف، الذي كان عمليا الحاكم الفعلي للبلاد نيابة عنه. التدابير الأولى التي اعتمدها جودونوف بعد وفاة إيفان الرهيب كانت تعزيز الحدود، والتوقيع على اتفاق سلام مشرف مع الاتحاد البولندي الليتواني، واستعادة الاقتصاد الزراعي. بالإضافة إلى ذلك، تم شن حرب ناجحة على السويديين. مع بداية عهد بوريس "استراح" الشعب، وفقا لمؤرخي تلك الفترة.

كانت معارضة سياسة جودونوف تتمثل، من ناحية، في معارضي الأوبريشنينا، ومن ناحية أخرى في مؤيديها، ولكن معارضي جودونوف نفسه. بالتأكيد في العرق الفرعي ذو الطاقة الخلاقة، أي بوياري القرن السادس عشر، كل شخص ذو طاقة خلاقة هو عدو لجميع أصحاب الشغف الخلاق الآخرين، وعندما يعوقونه، فإنه يدفعهم بعيدا دون وخز من الضمير. تمكن بوريس فيودوروفيتش من التعامل مع جميع خصومه، على الرغم من أنه أمر لم يخل من الصعوبات، وعندما حاول البويار بوجدان بيلسكي الاستيلاء على السلطة في موسكو، وحتى استولى على الكرملين مع عبيده، جاعلا من نفسه وصيا على العرش، قام جودونوف بنفيه إلى نهر الفولغا الأدنى.

كانت السياسة الداخلية النشطة وتقوية حدود الدولة تتطلب المال باستمرار، وبالتالي أجبر جودونوف في عام ١٥٧٩م على إدخال نظام القنانة[٢٤]، أي إلغاء يوم يورييف، الذي كان يستطيع فيه الفلاحون الانتقال من سيد إلى آخر. تقرر أن كل فلاح يجب أن يعيش ويعمل بشكل دائم حيث عاش وعمل في الوقت الذي صدر فيه المرسوم. بطبيعة الحال حظر على تغيير السيد ضرب الفلاحين بقوة. وفي محاولة للتعويض عن هذا الضرر سمح بوريس فيدوروفيتش للفلاحين بكتابة أي عدد من الشكاوى ضد أسيادهم وأمر بالنظر فيها. الآن إذا قال بويار ما لعبده: "إيفان، أنت تعمل بشكل سيئ، هل تسمي هذا حرثًا؟ ماذا فعلت، هل نمت نصف اليوم؟"، فالعبد يعترض بهدوء:" لا شيء من هذا القبيل، يا سيدي، لماذا تزعجني؟"- ويتلقى نظير ذلك لكمة في الأسنان. بعد ذلك كان يذهب إيفان إلى شخص متعلم، ونظير"رشوة صغيرة" سرعان ما كان يتم كتابة شكوى بأن البويار أهان القيصر وأراد الهرب إلى ليتوانيا.

من كل هذا يتضح أن بوريس جودونوف كان مصلحا حقيقيا، وعادلا بطريقته الخاصة، رغم أنه كان صارما: كان يريد أن يكون الجميع على نفس الدرجة من السوء. وبالطبع كان النظام الذي وضعه جودونوف خاليا من التطرف والفظائع التي وقعت في عهد إيفان الرهيب. ولكن النظام في فترة حكمه، التي بدأت رسميا عام ١٥٩٨ بعد موت فيودر، يمكن تسميته بالبوليسي، حيث كان نظاما قاسيا على كل سكان البلاد. لم يكن يشعر أحد بأنه في أمان لمدة دقيقة واحدة، إذ كان دوما يمكن للأصدقاء والخدم والأقارب أن يقوموا بالوشاية، وقد تكون العواقب بالغة السوء. صحيح أنه كان هناك عدد قليل جدا من عمليات الإعدام، وكان يتم إرسال "اللصوص" بالأساس إلى المنفى، ولكن لا يمكنك تسمية المنفى بالحظ السعيد. من المثير للاهتمام أن أول من تم إرساله (في عهد فيودر) إلى المنفى خلف سلسلة جبال الأورال، في توبولسك، لم يكن إنسانا، ولكن جرس كاتدرائية أوجليتش. وكان "ذنب" الجرس كله أنه دق لوفاة القيصر دميتري. وبعد الجرس ذهب الناس أيضا الى المنفى.

وهكذا، فإن حكومة بوريس جودونوف، على الرغم من سياستها الخارجية العقلانية، وعلى الرغم من ضبط الحياة الاقتصادية للبلاد، وعمل احتياطيات كبيرة للدولة، وتبسيط نظام الضرائب، لم تكن ذو شعبية بين الناس. كان عدم الرضا عن سياسة بوريس ينمو في جميع الطبقات وكان سببه في المقام الأول "بقايا الماضي"، أي الإبقاء في عهد بوريس على إرث عهد إيفان الرهيب في شكل غرف التعذيب ونظام الوشاية الجمعي. وكان لا بد للسخط العام من إيجاد مخرج، ووجده في دعم مدعي وراثة العرش.

الهـوامـش

(١) العرق الأعلى في نظرية جوميليوف هو أعلى مراحل التسلسل الهرمي العرقي المؤلف من عدة أعراق ظهرت في وقت واحد في منطقة واحدة ويربط فيما بينها علاقات اقتصادية وأيديولوجية وسياسية. (المترجم)

(٢) اسم يطلق على الخانة التتارية والتي تعتبر من بقايا القبيلة الذهبية بعد انفصال عدة خانات عنها في منتصف القرن الخامس عشر. (المترجم)

(٣) إحدى مراحل تطور الأعراق طبقا لنظرية جوميليوف (المترجم)

(٤) أعلى طبقة من المجتمع الإقطاعي في الفترة من القرن العاشر وحتى القرن السابع عشر. (المترجم)

(٥) الأشخاص المتكيفون في نظرية جوميليوف هم من يتساوى لديهم دافع الشغف الخلاق مع دافع غريزة البقاء.(المترجم)

(٦) الخردة الناعمة هي الترجمة الحرفية للتسمية القديمة للفراء والذي كان يستخدم في القرن الخامس عشر وحتى النصف الأول من القرن الثامن عشر كسلعة رائجة ومكافئ للنقود.

(٧) الميدان البري هو الترجمة الحرفية للتسمية الروسية للإقليم التاريخي الواقع في سهول البحر الأسود وبحر آزوف بين نهر دنيستر في الغرب ونهر الدون ونهر خابيور في الشرق. (المترجم)

(٨) الآتامان هو لقب لقادة القوزاق، والكلمة أصلها تركي وتعني حرفيا "أنا والدكم". (المترجم)

(٩) أتباع جوزيف فولوتسكي، ممثلي الاتجاه السياسي الكنسي في الدولة الروسية في نهاية القرن الخامس عشر – منتصف القرن السادس عشر، وكانوا يدافعون عن حق

الأديرة في ملكية الأرض وحيازة الممتلكات من أجل تنفيذ أنشطة تنويرية وخيرية واسعة النطاق. (المترجم)

(١٠) غير الحائزين هي حركة رهبانية في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في نهاية القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر، والتي يرتبط ظهورها بالنزاع حول تملك الأديرة للأراضي، وكانوا مناهضين لذلك. (المترجم)

(١١) تيار ديني كان يعتقد بعدم الطبيعة الإلهية للمسيح ويتبع بعض الشعائر اليهودية.

(١٢) شخصية في مسرح العرائس وتمثل رمزا للفارس القوزاقي والمثل الأعلى للحلم الأوكراني في تلك الحقبة.

(١٣) الأسرة الحاكمة لإمارة ليتوانيا العظمى، واسم لسلالة أمراء في ليتوانيا وبيلاروسيا وبولندا وروسيا وأوكرانيا.

(١٤) كرملين استراخان هو "كنز أثري مهدر" بحق. تم بناؤه من الطوب التتاري، الذي تم صنعه في عهد باتوخان وتم أخذه من أنقاض عاصمة القبيلة الذهبية - ساراي. ولكن الشيء الأكثر إثارة للاهتمام هو أنه عند بناء مدينة ساراي تم استخدام أنقاض عاصمة خازاريا - إتيل. وكان هذا هو التتابع الثقافي في منطقة الفولغا.

(١٥) ترانسيلفانيا هو إقليم تاريخي على حدود المجر ورومانيا المعاصرتين. (المترجم)

(١٦) هي كلمة روسية تعني الشخص الذي يساعد الحكومة على تطبيق سياسة ظالمة وهي ترادف أيضا القائم على الأوبريتشينينا. (المترجم)

(١٧) جماعة مهرطقة كانت تنكر الثالوث المقدس .

(١٨) حركة دينية في القرن الرابع عشر، نشأت في بسكوف ثم انتشرت إلى نوفغورود. (المترجم)

(١٩) كانت الأوبريتشنينا جزءًا من سياسة الدولة في الدولة الروسية من عام ١٥٦٥ إلى ١٥٧٢، والتي تتمثل في تنفيذ إجراءات قمعية استثنائية، ومصادرة الممتلكات

الإقطاعية والأراضي لصالح الدولة، ومكافحة الخيانة المزعومة بين النبلاء الأمراء. (المترجم)

(٢٠) كتاب مدون به أسماء المتوفين لذكرهم أثناء الصلاة. (المترجم)

(٢١) كرومي هو حرف جر في الروسية يعني "ما عدا" أو "إلا". (المترجم)

(٢٢) هي كلمة روسية تعني الشخص الذي يساعد الحكومة على تطبيق سياسة ظالمة وهي ترادف أيضا القائم على الأوبريتشينينا. (المترجم)

(٢٣) فلاديمير فسيفولودوفيتش مونوماخ (١٠٥٣ – ١١٢٥) هو أمير سمولينسك (١٠٧٣ – ١٠٧٨) وأمير تشرنيهيف (١٠٧٨ – ١٠٩٤) وأمير بيرياسلاف (١٠٩٤ –١١١٣) والأمير الأكبر في كييف (١١١٣ – ١١٢٥) وكان رجل دولة وقائدًا عسكريًا عظيم وكاتبًا ومفكرًا. (المترجم)

(٢٤) نظام القنانة هو مجموعة من القواعد القانونية التي تحظر على الفلاحين مغادرة أراضيهم بدون إذن من السلطات (أي ربط الفلاحين بالأرض وكان الهاربون منهم عرضة للإعادة القسرية)، وتحظر على الفلاحين تملك العقارات، وأحيانا تعطي الفرصة للسيد الإقطاعي ترك الفلاحين بدون أرض. (المترجم)

الفصل الثاني

حقبة الاضطرابات: ادعاء وراثة العرش الروسي

روسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر

- انتفاضة بولوتنيكوف
- عدم التوافق
- منقذو الوطن
- إقرار النظام

اتبعت حكومة بوريس جودونوف منذ البداية سياسة جادة لعزل روسيا عن الدول الغربية المجاورة أي الاتحاد البولندي الليتواني السويدي. ومع ذلك، انعكست الأحداث في أوروبا الغربية بصورة بالغة الحساسية على تاريخ شعوب بلدنا. في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر قويت شوكة الرجعية الكاثوليكية، المعروفة باسم الاصلاح الكاثوليكي. نجح الكاثوليك – على الرغم من التحلل الذي كان يرقد فيه الكرسي البابوي – في تنظيم صفوفهم لصد البروتستانت ووجدوا قادة شجعان ومؤيدين مخلصين، ساعدهم في ذلك إئتلاف القوى الذي شكله أباطرة وملوك الإسبان من سلالة هابسبورغ، ودوقات بافاريا، وآل جويز اللورييون(١)، الذين كانوا يرأسوا الحزب الكاثوليكي في فرنسا. ولكن شخصيات الإصلاح البروتستانتي، التي انتصرت في هولندا وألمانيا الشمالية واسكندنافيا وإنجلترا، لم تضيع الوقت هباء. فجميعهم كانوا مستعدين للصراع، وكانت الضحية الأولى لهذا الصراع، على نحو غريب، روسيا، التي لم يكن لديها أي شيء مشترك، مع الإصلاح البروتستانتي، ولا مع أوروبا الغربية.

كان النبلاء البولنديون الليتوانيون، الذين شكلوا حكومة الكومنولث البولندي الليتواني، يراقبون عن كثب تطور الوضع في روسيا. لقد أدركوا تماما مدى عدم شعبية القيصر بوريس، الذي، لسوء حظه وحظ أقاربه، حاول الجمع بين عادات الأوبريتشنينا والنظام التقليدي للأرض الروسية. كان من المستحيل جمع ما لا يمكن جمعه، وكانت نتيجة تلك المحاولة مؤسفة.

ونتيجة لذلك تولد لدى البولنديين على ما يبدو خطة لاستغلال ضعف مواقف جودونوف لمصلحتهم الخاصة. ولكن وفقا لظروف ذلك الوقت كانت الحاجة ماسة لبزوغ رمز للنضال السياسي والعسكري. كان الكومنولث البولندي الليتواني في حاجة إلى مرشح للعرش الملكي، كانت الحاجة آنئذٍ ماسة لشخصية من شأن اسمها وحده أن يجمع في مجمله جميع طموحات الشعب السياسية والاقتصادية والأيديولوجية وغيرها من الطموحات. من الواضح أن مثل هذا الشخص يجب أن يكون شخصًا يدعي حقه الشرعي في العرش، وهذا الحق كان يُمنح فقط عن طريق الولادة.

من وجهة نظر معاصرينا لا تلعب حقوق السلالات الملكية أي دور، ولكن الناس في القرن السابع عشر كانت تعطي لهذا الأمر أهمية حاسمة. لم يكن بوسع من يدعي حقا غير شرعي في العرش أن يجد مناصرين يسيرون خلفه. ومن الطبيعي أن أحفاد إيفان الرهيب كان لهم الحق الشرعي في العرش الروسي. وفي ذلك الوقت كان قد مات ميتة هادئة الابن الوحيد – القيصر فيودر، أما الابن الآخر – دميتري صغير السن – كان قد طعن في أوجليتش على يد أشخاص مجهولين وفي ظروف غامضة (١٥٩١م) (ما يزال لغز موته محيرًا حتى الآن).

وهكذا ظهر أحد مدعي الحق في العرش، الذي وصف نفسه بأنه الأمير دِميتري، الذي تمكن من النجاة، وأصبحت راية تحرير روسيا من سلطة الشخص المستمر في سياسة الأوبريتشنينا: جودونوف. صاغ بوشكين في مأساته الشهيرة دور المدعي جيدًا. كان دِميتري المزيف (سنسميه الاسم المعروف للجميع دِميتري "المزيف") نفسه يقول لمارينا منيشيك – سيدة قلبه:

لكن اعلمي،

لا الملك ولا البابا ولا النبلاء –

يفكرون في حقيقة كلماتي.

هل أنا دِميتري أم لا – لماذا يهتمون؟

لكني حجة للشقاق والحرب.

وهذا ما يحتاجونه فقط ...

في الواقع، كان الجميع غير مبال تماما بمدى صدق كلامه. عندما ظهر دِميتري المزيف –الراهب جريجوري أوتريبيف – في عام ١٦٠١م في بولندا، كان رد الفعل الأول على ظهوره متحفظًا للغاية. عندما تلقى البابا أنباء عن المُدعي، سخر من "القيصر الروسي الشرعي" الذي أعلن عن نفسه. ولكن بما أن دِميتري المزيف وعد بتحويل روسيا إلى الكاثوليكية في حالة توليه العرش الروسي، قرر البابا بعد بعض التردد دعم المشروع المشكوك فيه، وأعطى مباركته لكل من أراد المشاركة في حملة دِميتري المزيف.

تجمع حول المدعي جمهور شديد التنوع عازم على تحرير روسيا من سلطة بوريس جودونوف. كان منهم المهاجرون السياسيون الروس الساعون للعودة إلى وطنهم، وقوزاق الدون وسيفيرسك غير الراضون عن حب سيطرة القيصر، وبكل بساطة المغامرون البولنديون المتعطشون لجمع المال، والذين رأوا في خطط دِميتري المزيف فرصة جيدة لذلك. وبشكل عام، كانت قوات دِميتري المزيف قليلة للغاية، وأعدادها لا تقارن بالمرة بالقدرات العسكرية لحكومة موسكو.

ومع ذلك، عندما عبر دِميتري المزيف مع قواته نهر الدنيبر، الذي كان يمثل آنذاك الحدود، وهاجم إقليم سيفيرسك[٢] (١٦٠٤م)، استسلمت له القلاع دون قتال. وإذا حاول قائد ما أداء واجبه في تنظيم الدفاع، صاح الناس والرماة قائلين: "ماذا تفعل يا ابن الساقطة؟ أنت ضد ابن قيصرنا، ضد القيصر، ضد دِميتري إيفانوفيتش؟!" كان الناس يسلمون المدعي "رؤوس" قادة الحصون وجميع مؤيدي جودونوف، وهم يؤدون القسم – "تقبيل الصليب"، وكان دِميتري المزيف يعفو عن أسرى الأعداء.

وهنا يجب قول بضع كلمات عن شخصية دِميتري المزيف. إذا حكمنا عليه من سلوكه، وخاصة التعامل مع الأسرى، فسنجده شخصا تافها إلى حد ما، ولكنه لم يكن شرير مطلقا. كانت تمتزج فيه الطيبة والكرم مع القدرة على الفوز بتعاطف الناس. ولكن لم تكن هذه الصفات كافية لرجل أراد لعب دور قيصر موسكو.

وكما نعلم، لم ينته الأمر بالاستيلاء على الحصون، وواجهت قوات دِميتري المزيف قوات نظامية، التي تفوق قواته لعدة مرات فسحقتها وأختبأ دِميتري المزيف في "بوتيفل"، وأنقذه من الهزيمة النهائية انتفاضة السيفيرسكيون، الذين لم يكن يشغلهم شرعية المدعي في طلب العرش. في تمردهم كان هناك مفارقة عرقية بين أحفاد السيفيرسكيين – السكان القدماء لأقليم سيفيرسك – والروس العظماء[٣]. أقام المتمردون في قلعة كروما وأعلنوا أنهم سيواصلون الحرب من أجل "القيصر الشرعي" دِميتري، على الرغم من أن هدفهم الحقيقي كان النضال ضد موسكو. قام القائد كاريلا بتنظيم الدفاعات جيدا، ولم يستطع قادة القيصر الاستيلاء على كروما. وفي ذلك الوقت انضمت لدِميتري قوات بولندية جديدة. ولكن لم يصمد البولنديون سوى في المعركة الأولى فقط، وعندما رأوا الخطر القادم، تركوا المدعي وهربوا.

في هذه الأثناء زاد عدد الروس في جيش دِميتري المزيف، حتى إنه حقق بعض النجاحات في الاشتباكات مع قوات موسكو. والأهم من ذلك أن تعاطف الناس مع المدعي بدأ ينمو، وسرعان ما فقدت حكومة جودونوف ونظامها البوليسي الدعم في جميع الطبقات. كانت النهاية مأساوية. ففي شتاء ١٦٠٤-١٦٠٥م هرب جزء من الجيش الذي تم تحريكه لمحاربة دِميتري المزيف، لأنه كان غير راغبا في القتال، وتحول جزء آخر إلى جانب المدعي وتوجه تحت قيادته إلى موسكو. لم يكن أحد يريد أن يدافع عن العاصمة – لا البويار، ولا العبيد، ولا سكان الباساد، ولا التجار. لم يفكر أحد في المخاطرة بحياته لإنقاذ بوريس جودونوف وأنصاره. نتيجة لذلك، توفي غودونوف، كما قلنا، من الصدمة، وتم القبض على ابنه فيودر وقُتل مع والدته (ابنة ماليوتا سكوراتوف). واضطرت الأميرة كيسينيا بوريسوفنا تعيسة الحظ إلى أن تصبح محظية للمدعي، ثم صارت بعد ذلك راهبة. وتوفيت في عام ١٦٢٢م.

وهكذا أصبح دِميتري المزيف على العرش. ولا يمكننا القول إن البلد بأسرها كنت تدعمه بل على الأرجح أن البلد بسلبيتها لم تدعم جودونوف: الجميع تذكر الكثير من الأوبريتشنينا. في حين أن المساعدة النشطة للمدعي قُدمت من ثلاث أعراق فرعية فقط:

- السيفيرسكيون؛
- سكان نهر الدون الأدنى – أحفاد الخزر، الذين يتحدثون الروسية، ولكن مثل السيفيرسكيين، الذين لم يكونوا يعتبروا أنفسهم من الروس العظماء؛
- والريازانيون – السكان المحاربون من ضواحي السهوب. الذين كانوا يصدون باستمرار غارات التتار، ويردون عليها بهجمات لا

تقل عنها قسوة، وبشكل عام اعتادوا على الحرب لدرجة أن الجميع كانوا بالنسبة لهم أعداء: تتار السهوب، والموردفيون، وأهل موسكو، وأهل كازان.

بالإضافة إلى إقليم سيفيرسك والدون وريازان، رفضت منطقة الفولغا بأكملها، من كازان إلى استراخان، دعم بوريس جودونوف. ولكن بما أن سكانهم كانوا قليلين، وكانت مدن الفولغا (ساراتوف، وسمارة، وسيزران، وتساريتسين) في ذلك الوقت عبارة عن مدن دفاعية صغيرة مع بعض الضواحي، لم يكن لها تأثير كبير على مسار الأحداث. أظهر الجزء المركزي من البلاد سلبية تامة في المواجهة مع دِميتري المزيف، وهو أمر مفهوم، حيث كان مركز الشغف الخلاق للمركز كانت "غارق" بالكامل في الدماء، التي سُفكت على يد الأوبريتشنينا. أصبح أصحاب الشغف الخلاق هنا قليلين جدا، ونظرا لكونهم غير قادرين على التزحزح من مكان جيرانهم المتكيفين، لم يتمكن أصحاب الشغف الخلاق الباقون من المشاركة في صراع عام.

وهكذا حاز المدعي عرش موسكو. ولكن بما أنه وصل إلى هناك بدعم بولندي، وكانت خطيبته مارينا منيشيك، فكان من الطبيعي أن يأتي معه البولنديون (حيث ظهر الكثير منهم في وقت لاحق، في "قطار" العروس). كان دِميتري المزيف يعتقد أن من واجبه رد جميل حلفائه، وهو ما يعني أنه بحاجة إلى إظهار السخاء لهم. ومع ذلك كان ملزما أيضا بالالتزامات المباشرة. ويجدر القول إنه في عهد إيفان الرهيب وبوريس جودونوف كانت ميزانية دولة موسكو متوازنة بشكل جيد: الإنفاق قلما تجاوز الإيرادات، وعادة لم يكن هناك عجز في الميزانية. ولكن مع عهد دِميتري المزيف كان المال يُسكب من خزانة الدولة أنهارا، وكانت تُقدم الهدايا والجوائز دون حساب. استُنزفت الخزانة، وبدأ الناس يتعجبون من سلوك القيصر الجديد.

وهنا لعب الاختلاف في أنماط سلوك الروس والأوروبيين الغربيين دوره القاتل. كان البولنديون في القرن السابع عشر شعبًا شجاعًا جدا، وموهوبًا، ومحاربًا، لكنهم متغطرسون للغاية وصانعوا مشاكل. بدأ النبلاء البولنديون، بعد أن وضعوا قيصرهم في موسكو، في التعامل مع سكان موسكو بازدراء شديد. أثار هذا استياء الروس، وهكذا كانت تتشب الصراعات طوال الوقت. كان القيصر، بطبيعة الحال، يدعم البولنديين. وظهر استياء الشعب لسبب "سلوكي" أكثر جوهرية، حيث إنه من المعروف أن الكاثوليك لديهم أيقونات، ينحني لها المؤمنون، بينما يُقبل المسيحيون الأرثوذكس الأيقونات باحترام.

كانت زوجة المُدعي مارينا منيشيك نبيلة بولندية، ومن أين لها أن تعرف بالضبط كيفية تقبيل الأيقونة. بعد أن أنهت مارينا الصلاة أمام أيقونة السيدة العذراء لم تُقبل يد العذراء، كما كانت العادة في موسكو، بل شفتيها. وتسبب هذا السلوك بصدمة لشعب موسكو: "الملكة تقبل العذراء على الشفاه، يا له من أمر عجيب!".

ازداد السخط ضد دميتري المزيف في جميع الطبقات، وانتهى بشكل مأساوي ولكن عادل. نظم البويار الروس النشطين بقيادة فاسيلي شويسكي مؤامرة ونجحوا. ورغم الحراس البولنديين ألقي القبض على دميتري المزيف وقُتل، وأحرقت جثته، ووضعوا رماده في المدفع القيصري وأطلقوا النار – الطلقة الوحيدة من المدفع القيصري في التاريخ، وانتهى عهد المُدعي الأول.

انتفاضة بولوتنيكوف

كان من الضروري اختيار قيصر جديد، وكما متوقع كان هذا القيصر هو رئيس المؤامرة: الأمير فاسيلي شويسكي. تم الاعتراف به بحماس في موسكو، لأن الشويسكيين كانت تربطهم علاقات وثيقة بدوائر التجار. ليس

فقط التجار، ولكن أيضا الموظفون، والعمال، كانوا جميعًا على علاقة بالشويسكيين ودعموهم. تم الاعتراف بفاسيلي شويسكي دون الكثير من الحماس في جميع أنحاء شمال البلاد، ولكن في الجنوب رفضوا الخضوع لسلطته رفضا قاطعا. في بوتيفل قام الأمير جريجوري شاخوفسكوي، المنفي هناك، بتزعم الانتفاضة، وفي تشرنيجوف أثار الانتفاضة الأمير المغضوب عليه أندريه تيلياتيفسكي. لكن الأثر الأكثر أهمية في تاريخ مقاومة سلطة شويسكي تركه عبد الأمير تيلياتيفسكي – إيفان بوليتنيكوف.

في بداية القرن السابع عشر كان العبيد في روسيا فئتين. الفئة الأولى هم العبيد غير الطوعيين، الذين كان يتم إجبارهم على القيام بالعمل الشاق، ويعطونهم تغذية سيئة وغالبا ما كانوا يعاقبونهم. ولكن كان هناك عدد قليل من هذه الفئة، لأنه بدا أكثر ملاءمة لأي بويار، وكذلك أسهل وأرخص التعامل مع فلاحي نظام القنانة، بدلا من أن يُعيل باستمرار حياة هذا العبد وتوقع المتاعب منه. لكن كان هناك عبيد آخرون، يدعون "أهل البيت". كان البويار، بالتأكيد، بحاجة إلى حماية موثوق فيها، وكان هناك حاجة إلى أشخاص موثوق بهم يمكن أن يعهد إليهم بنقل رسالة سرية أو تنفيذ نوع ما من المهام الحميمة. وكان من الخطورة أن نوكل هذه الأشياء إلى شخص حر، لأنه من المستحيل التحكم في سلوكه المستقبلي. أما العبد فكان تحت السلطة الكاملة لسيده. ولكن، بما أن السادة كانوا في حاجة إلى الخدم المخلصين، فكانوا يعتنون بأهل البيت. مثل هؤلاء العبيد كانوا يلبسون قفاطين فخمة، ويركبون على خيول رائعة ويأكلون حتى الشبع.

من الصعب القول إلى أي الفئتين من العبيد كان ينتمي إيفان ايسيفيتش بوليتنيكوف. ولكن بما أننا نعرف عن ثقة أنه حارب ووقع في الأسر عند

التتار، فهو على الأرجح عبدا كان يركب الخيول وليس عاملا بالرفش في الحقل. كان مصيره حزينا، إذ باعه التتار للأتراك، وأصبح عبدا من عبيد السفن وعمل على السفينة عدة سنوات بمجداف ثقيل. تم الاستيلاء على هذه السفينة بواسطة سفن نمساوية، وتم إعدام جزء من الأتراك، وتحول جزء إلى عبيد سفن، وتم تحرير المسيحيين. وهكذا أصبح بولوتنيكوف في أوروبا – أولاً في البندقية، ثم في بولندا مع زوجة القائد الساندوميري(٤) ميشنيك، وهناك التقى بولوتنيكوف مع مُدعي جديد – دِميتري المزيف الثاني. وحصل بولوتنيكوف منه على رسالة توصية إلى المتمرد جريجوري شاخوفسكوي، وعند وصوله إلى بوتيفل، سرعان ما قاد العبد السابق قوات جبهة الانتفاضة.

عندما نقول "جبهة التمرد" ، فإننا، بالطبع نقصد الثلاثة أعراق الفرعية المذكورة من قبل: السيفيرسكيون، وسكان نهر الدون، والريازانيون. كانوا غير راضين عن التبعية لموسكو، وبالتالي أيدوا المدعي الثاني بعد المدعي الأول. وهذا هو الأساس العرقي للظاهرة المعروفة في الأدب التاريخي تحت مسمى "حرب الفلاحين ١٦٠٦-١٦٠٧م". ربما يكون من الصعب التوصل إلى اسم مختلف يعكس بنفس القدر القليل جوهر المسألة. والسبب نجده في السطور التالية.

تحدث أثناء التكوين العرقي انتفاضات مستمرة للسكان الأكثر نشاطًا في الضواحي ضد المركز، الذي فقد الطاقة الخلاقة، كما حدث في فرنسا عندما انتفض جاسكوني وبروفانس وبريتاني ضد سلطة باريس، وكما حدث في الإمبراطورية الرومانية عندما نهضت المقاطعات ضد الأمراء. كان الشغف الخلاق في ريازان أو إقليم سيفرسك في بداية القرن السابع عشر أعلى بكثير مما كانت عليه في موسكو، لأن الكثير من أصحاب الشغف

الخلاق نجوا من الإبادة الجماعية في أواخر القرن السادس عشر على أطراف روسيا. وبالطبع في إقليم سيفرسك، "بعيدًا عن السلطات"، كان من الممكن العيش في أمان من الأوبريتشنينا. كان التتار هم التهديد الوحيد هناك، ولكن هل كان هذا تهديدا مقارنة بالقائمين على الأوبريتشنينا؟!

وهكذا تحرك أصحاب الطاقة الخلاقة، الذين نجوا في الجنوب، برئاسة الأمراء شاخوفسكوي وتيلياتيفسكي وتحت القيادة العسكرية لبولوتنيكوف، إلى موسكو. لم يكن نجاح هذا الجيش بأي حال من الأحوال بسبب دعم الفلاحين، بل العكس. عندما اقترب بولوتنيكوف من تولا، ذاب الجيش القيصري، حيث عاد النبلاء الى ديارهم وتركوا قادتهم. وعلى خطا قوات النبلاء أعلنت تولا نفسها العصيان على القيصر، حيث "استاء" سكان المدينة من الحكومة. ولكن الأمر الأكثر أهمية كان تحول قوات النبلاء الى معسكر المتمردين. وأصبح قادة النبلاء الروس الجنوبيين من ريازان: العقيد جريجوري سومبولوف، والعقيد بروكوبي ليابونوف والملازم إستوم باشكوف. كان نبلاء ريازان، الذين كانوا يقومون بحراسة نصف الحدود الجنوبية الشرقية تقريبا، يمثلون نخبة القوات الحكومية. وبمساعدة هؤلاء العسكريين المحترفين تحديدا، وليس الفلاحين، وصل بولوتنيكوف إلى موسكو، وحاول أن يحاصرها ويجتاحها. بدأ الحصار الوحيد للعاصمة في تاريخ البلاد من قبل متمردين، واستمر خمسة أسابيع.

من الواضح أن البويار وعبيدهم في موسكو لم يكونوا كافيين لحماية المدينة. إدراكًا لذلك، كون القيصر فاسيلي شويسكي جيشًا كبيرًا، يتكون من أفراد من الجيش و"الجنود الدائمين[٥]". والأهم، أنه تم تجنيد القوات في وسط وشمال البلاد من عدد من الفلاحين المملوكين من قبل الأديرة وملاك

الأراضي. وبالتالي، من المفارقات أن من دافع عن موسكو ضد ميليشيا "الفلاحين" كان الفلاحون الذين ظهروا عند دعوة القيصر، بينما في جيش "الفلاحين" كانت القوة الضاربة هي أفواج نبلاء الحدود.

ولتفسير هذا التناقض الاجتماعي وفهم أحداث حقبة الاضطرابات يجب أن ننزل من المستويات العليا للتسلسل الهرمي العرقي (العرقي الأعلى) إلى مستوى الأعراق الفرعية، الذي يحدد البنية الداخلية للعرق. كل عرق به أعراق فرعية، على سبيل المثال، كان أنصار بوليتنيكوف يعتبرون أنفسهم روس بالنسبة للبولنديين والتتار والألمان، ولكن كانوا لا يعتبرون نفسهم موسكوفيين، وكانوا يقولون "لا، نحن لسنا موسكوفيين، نحن سيفيرسكيون". وهكذا أيضا كان يقول أهل ريازان والدون.

وعندما كُشف النقاب عن ضعف الحكومة المركزية، تبين أن هذه المفارقة المتصورة بشكل طبيعي كافية لأن تطالب الأعراق الفرعية الطرفية بموقع رائد في العرق الروسي والعرق الروسي الأعلى. إن الصراع من أجل السلطة بين ممثلي الأعراق الفرعية المختلفة من شمال وجنوب البلاد، التي كانت في مرحلة ذروة التكوين العرقي، تسبب في أول فتنة روسية.

انتصرت روسيا العظمى، وتم ابعاد بولوتنيكوف عن موسكو. وبعد الهزيمة تحت جدران العاصمة حدث في جيشه انقسام، حيث بقي نبلاء تشرنيجوف وكورسك مع بولوتنيكوف، بينما انشق نبلاء ريازان والقوزاق، وتصرفوا بشكل مستقل تمامًا. تم عزل بولوتنيكوف مع بقايا مؤيديه في تولا من قبل قوات من تفير، وفيليكي أوستيوج، وكوستروما، وفلاحي ياروسلافل وصغار ملاك الأراضي. استسلم إيفان إيسافيتش فقط عندما سد المحاصرون نهر أوبا الصغير وأغرقوا نصف المدينة بالمياه. كان بولوتنيكوف المأسور

يتصرف بتحدي، ويصيح في المنتصرين: "انتظروا، سيأتي وقتي، سأقيدكم في الحديد، وسأضعكم في جلد الدب وأعطيكم للكلاب!". وكان الناس في القرن السابع عشر لا يتحملون الإهانات وتصرفوا بشكل قاسي: أغرقوا بولوتنيكوف.

عدم التوافق

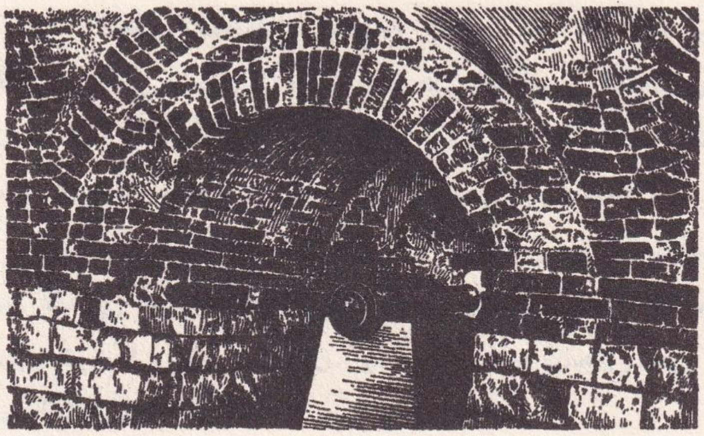
اكتسبت الحركة التي سببها ظهور دميتري المزيف الثاني، والذي سمي لاحقًا لص توشينو[٦] زخمًا. في نفس وقت تمرد بولوتنيكوف تقريبا كان في بولندا تمرد لزيبجيدوفسكي، حاكم كراكوف السابق كان الحق في التمرد عنصر متعارف عليه لنمط سلوك النبلاء البولنديين في القرن السابع عشر. وكان يعتبر أمرا مفروغا منه: تشاجر زيبجيدوفسكي مع الملك، فتمرد، وفقا لأعراف الحرية البولندية غير أن التمرد قُمع، وتعرض جميع المشاركين فيه للعقاب. وسعيا لتجنب الحساب، عبروا الحدود واتحدوا حول دميتري المزيف الثاني.

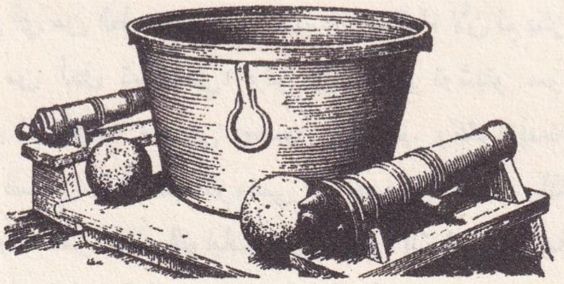
قاد دميتري المزيف الثاني القوات البولندية، مثل سلفه، من أجل الذهاب إلى موسكو والإطاحة ب "المغتصب" (فاسيلي شويسكي). كانت الاتهامات باغتصاب السلطة، بشكل عام، عادلة تماما. كان فاسيلي شويسكي في الواقع رئيس السخط مثل بولوتنيكوف: قاد أحدهم مؤامرة في موسكو، والآخر انتفاضة في بوتيفل. ومع ذلك، كانت بينهم أيضًا اختلافات مهمة، فإذا كان شويسكي قد اعتمد على سكان موسكو وسكان شمال روسيا، ففي نشاط بولوتنيكوف يمكن رؤية الاعتماد السري على بولندا. أما لص توشينو فقد جاء إلى السلطة على رماح المتمردين البولنديين، الذين وجدوا مرة أخرى عملا مربحا، بعد أن قرروا وضع رجلهم على عرش موسكو ومن ثم

الحصول على "العطايا" المنتظرة. بطبيعة الحال، كان من الصعب على دِميتري المزيف الثاني النجاح بالاعتماد فقط على المغامرين البولنديين. ولكن عندما اقترب هو وأتباعه من موسكو وعسكروا في توشينو، أخذ الكثير من الروس من القوزاق والنبلاء والفلاحون بالقدوم إلى معسكره، وعرض خدماتهم في مقابل المكافأة المالية والرحمة. وكانوا بعد حصولهم على الجائزة من المدعُي الجديد يذهبون ببساطة إلى موسكو ويعرضون خدماتهم على فاسيلي شويسكي بنفس المقابل. وسُمي هؤلاء الباحثين عن العطايا والفوائد ب "المتحولين".

لم يستطع أي من الطرفين تحقيق انتصارا نهائيا، لأن لم يكن أحد يريد أن يضحي برأسه من أجل شويسكي، ولم يؤيد لص توشينو سوى البولنديون والقوزاق، الذين لم يكونوا مهتمين بمصير راعيهم. وكانوا يستغلون الفرصة ويقومون بنهب السكان. والشعب الروسي لا يحب ان يُنهب، ولذلك "حاصرت المدن نفسها"، حيث قاموا ببناء البوابات ولم يسمحوا للتوشيين (نسبة الى توشينو) بالدخول. لم يستطع الناس العاديون مقاومة بلطجية محترفين. استولى التوشيون، وخاصة البولنديون، على المدن واحدة وراء الأخرى، وحصن وراء حصن. أحرقوا القلاع الخشبية الصغيرة والقرى، ونهبوا جميع ممتلكات الفلاحين، باختصار، تصرفوا كجنود فاسدين في بلد مهزوم.

واجه التوشيون مقاومة جادة مرة واحدة فقط. فقد حوى دير الثالوث وسيرجي، الذي أسسه سيرجي رادونيجيسكي، ثروات كبيرة نجت من اضطرابات أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. وعندما قرر أنصار دِميتري المزيف الثاني الاستيلاء على هذا الدير، استمر الحصار حوالي ثمانية أشهر. حاربت ببطولة حامية صغيرة من الرماة والرهبان والمتطوعين، وصدت هجوم الجيش البولندي المكون من ٣٠ ألف جندي. واضطر البولنديون في النهاية إلى رفع الحصار والتحرك بحثا عن فريسة أسهل.





المدافعون الشجعان عن دير الثالوث وسيرجي، الذين أوقفوا ٣٠ ألف شخص من أنصار دميتري المزيف الثاني، أعطوا الفرصة لفاسيلي شويسكي لإعادة تجميع القوات. إلى الشمال تم إرسال رجل رائع، وموهوب جدا – ميخائيل فاسيليفيتش سكوبين شويسكي ابن شقيق القيصر. وبعد أن جمع في المدن الشمالية ميليشيا من النبلاء والفلاحين وسكان الباساد والتجار، تحرك إلى لص تووشينو وهزمه. هرب دميتري المزيف الثاني، وتخلى عنه البولنديون. بقي معه فقط بعض القوزاق، وتتار مدينة كاسيموف ومارينا الرفيقة الوفية للمُدعين. أدى الخلاف مع الحلفاء المتبقين بلص توشينو الى الموت. بعد ان تلقي المدعي وشاية عن "القيصر قسيموف" – أمر الخاقان أوراز محمد بقتله. لم ير شيئًا خاطئا في تصرفه – فهكذا كان يفعل السياسيون في أوروبا، لكنه أخطأ في

حساباته، لأن التتار شعب جاد، ونظر إلى فعل المدعي بطريقة مختلفة تمامًا. بعد الانتظار بصبر لبعض الوقت، قام الأمير التتاري أوروسوف، صديق القتيل، بذبح لص توشينو (ديسمبر ١٦١٠م).

للأسف، أثار سكوبين-شويسكي، بطل روسيا الوطني ومنقذ موسكو، حسد بعض البويار في موسكو وقاموا بتسميمه (مايو ١٦١٠م). أعقب وفاة القائد مصيبة أخرى. فالجيش الروسي، اضطر لإنقاذ سمولينسك التي كانت حتى خريف عام ١٦٠٩م لا تزال محاصرة من قبل الملك البولندي سيجيسموند فازا (بعد أن بدأ عدوانا مفتوحا ضد روسيا). استقبل الجيش الروسي القائد جولكيفسكي بالقرب من قرية كلوشينو. وأدت خيانة المرتزقة الألمان، العاملين في خدمة موسكو، إلى هزيمة الجيش الروسي. وقوضت هذه الهزيمة المصيرية وموت "المحارب العظيم" سكوبين شويسكي موقف القيصر فاسيلي تماما.

في يونيو ١٦١٠م، أخذ المتمردون شويسكي من قبل المتآمرين وجعلوه راهبا. انتقلت السلطة في موسكو إلى "البويار السبع[٧]" برئاسة الأمير فيودور مستيسلافسكي. لكن البويار السبعة، كما ذكرت "رواية أخرى"، "تمتعوا بالسلطة لمدة شهرين فقط". وفي نهاية سبتمبر سمحت حكومة البويار للبولنديين بدخول موسكو، وأصبحوا أسياد الوضع منذ تلك اللحظة.

قام البولنديون بأعمال عسكرية نشطة على أرض واسعة. استولى أخيرا سيجيسموند على سمولينسك، التي استمر دفاعها بقيادة البويار "شين" لأكثر من عام. وفقط بعد هذا الحصار الطويل تم الاستيلاء على المدينة، التي تألفت حاميتها من حوالي ألف من الرماة فقط.

في الفترة نفسها بدأ الملك السويدي جوستاف-أدولف الأعمال الحربية. وفتح الخونة أبواب نوفغورود للقوات السويدية، وتم الاستيلاء على المدينة ونهب

سكانها (١٦١١م). حاول غوستاف – أدولف، (الذي كان يسعى لإنشاء مملكة مستقلة عن موسكو في نوفغورود) الاستيلاء على بسكوف، لكنه فشل. ومع ذلك كان السويديون يستعدون بشكل مكثف للحرب مع البولنديين في روسيا. وهكذا في غضون سبع سنوات أصبحت الدولة، التي كانت في عام ١٦٠٤م صخرة لا يمكن تدميرها، ساحة ملائمة لمعركة بين دول أوروبية متنافسة.

في ذلك الوقت كانت العلاقات بين بولندا والسويد متوترة للغاية، حيث كانت بولندا معقلاً للكاثوليكية في عملية الإصلاح البروتستانتي المضاد، وكانت السويد تعتنق اللوثرية. لكن الملك السويدي سيجيسموند فازا كان كاثوليكيًا متحمسًا، واستبدله السويديون بكل سرور بشخص لوثري. وحينها اختار البولنديون سيجيسموند ملكا عليهم نكاية في السويديين. ونتيجة لذلك أصبح الملك السويدي المحمي بالعرش البولندي، يحضر للحرب مع السويد. بهذه السهولة في تغيير الحكام اتضحت ظاهرة العرق الأعلى. على الرغم من العداوة السياسية القوية لا يزال البولنديون والسويديون ينتمون إلى نفس العالم العرقي: أوروبا الغربية. وبنفس الطريقة كان يشعر الفرنسيون في ألمانيا، والألمان في فرنسا، والإيطاليون في الدنمارك، والإسبان في إيطاليا. أما في روسيا فكان كل الأوروبيين غرباء، مثلما كان الروس في أوروبا. وللتأكد من هذا يكفي النظر إلى عواقب محاولة وضع ملك بولندي على عرش موسكو.

كان وضع موسكو ميئوسًا منه تمامًا. تم إزاحة فاسيلي شويسكي من العرش، ونُقل إلى بولندا وهناك توفي. وقُتل لص توشينو، ولم تكن هناك أي حكومة في البلاد. قرر البويار في موسكو عرض العرش على الأمير البولندي فلاديسلاف، ومنذ ذلك الحين بدأت التعقيدات. وبما أن روسيا كانت تمثل عرق أعلى مختلف، كان من شروط تنصيب القيصر أن يكون المرشح معتنقا

للأرثوذكسية. لكن فلاديسلاف لم يستطع حتى التفكير في اعتناق الأرثوذكسية، لأن والده كان زعيم الحزب الكاثوليكي. على رأس أولئك الذين أصروا على اعتناق الأمير للأرثوذكسية كان بطريرك موسكو جيرموجين، الذي وزع في جميع أنحاء البلاد رسائله التي تدعو إلى الانتفاضة وطرد اللاتين.

ونظرًا لصمود جيرموجين، قام البولنديون، الذين كانوا متمركزين في موسكو في حامية، بالقبض عليه وتجويعه حتى الموت. ولكنهم لم يتمكنوا من إيقاف المبادرة، حيث أن الرسائل العديدة للبطريرك حققت الهدف. كانت تُنسخ وتُوزع وتُقرأ في الميادين والمعابد. تمكن جيرموجين من تكوين رأي عام لصالح الانتفاضة، ولكن لم تكن هناك قوة لاتخاذ إجراء حاسم: كان شمال روسيا ينزف، وكان الجنوب يتمرد، واستولت بولندا على الغرب كله، واستولت السويد على نوفغورود.

في هذا الوضع انبرى نبلاء ريازان بقيادة بروكبي لوبونوف وشقيقه زخار، الذي أجبر شويسكي على التخلي عن العرش، مرة أخرى أنفسهم. ولإدراكهم عدم كفاية قواتهم، حاول آل لوبونوف التحالف مع القوزاق. ومع التسليم بأنه في القرن التاسع عشر كان النبلاء والقوزاق أعراق فرعية مختلفة عن أعراق الروس العظام، ففي القرن السابع عشر، عندما كان الشغف الخلاق لكل من النبلاء والقوزاق أعلى بكثير، كان كلاهما يمثل شعبا مختلفا في روسيا. ولأنهم كانوا أعراق مختلفة، فقد كان لديهم أنماط سلوكية مختلفة. وعندما دعا القوزاق بروكبي لوبونوف للتفاوض في مقر القوزاق، ذهب بهدوء الى هناك، معتبرا أنه ذو حرمة. ولكن عندما واجه القوزاق تعنت لوبونوف، وقاموا بتقيطعه بالسيوف الضالعة، لأنهم رأوا فيه تهديدا محتملا لحرية القوزاق. بعد وفاة لوبونوف تفرقت قوات ريازان، وفشلت المحاولة الأولى لتوحيد القوات الروسية ضد الغزاة.

منقذو الوطن

عانت أطراف شمال شرق روس، القريبة من نيجني نوڤغورود، أقل من الآخرين خلال حقبة الاضطرابات. وبما أنها كانت تضم العديد من أصحاب الشغف الخلاق، فقد جاء من هناك منقذي روسيا: الأمير دِميتري باچارسكي، وكوزما مينين. وكان كوزما مينين، الملقب بسوخوروك، تاجرًا عاديًا من نيجني نوڤغورود، أما الأمير دِميتري باچارسكي فقد كان عسكريا محترفا، وشارك في جميع حروب حقبة الاضطرابات.

يعلم الجميع أن مينين وباچارسكي أنقذوا روسيا، ولكن عددًا قليلاً جدا من الناس يعرفون ما كان عليهم فعله من أجل ذلك. في الواقع كان مينين وباچارسكي من المؤيدين المتحمسين للانتفاضة الوطنية ضد البولنديين والسويديين. تبنى المجلس العسكري (زيمسكي سوبور[٨]) القرار بالإجماع الذي اقترحه مينين وباچارسكي، والذي كان جوهره هو ضرورة إنقاذ الوطن، الذي كان يتطلب شيئين: اشتراك الناس في الجيش والمال لتنظيم الحملة. كان الناس كافيين، وكانت الأموال موجودة لدى سكان نيجني نوڤغورود الغنية. وعلى ما يبدو، تبقى فقط جمع الأموال وتشكيل الأفواج، ولكن هذا لم يحدث. عندما طُلب من مواطني نيجني نوڤغورود إعداد قائمة بأموال السكان، قال السكان: "لكن ليس لدينا نقود". قال أحدهم إن بضائعه ربما ذهبت إلى بحر قزوين، وأقسم آخر أن خزنته في أرخانجيلسك، وثالث قال: إن الباعة غادروا إلى سيبيريا، ولم يعطوه المال.

وحينها أطلق كوزما مينين، وهو يعرف مواطنيه بشكل جيد، صرخته الشهيرة: "سنرهن زوجاتنا وأطفالنا، لكننا سننقذ الأرض الروسية!". ومرة أخرى لم يكن أحد معارض لذلك. ولما كان الأمر كذلك، فإن مينين مع أشخاص مختارين أخذ بالقوة زوجات وأطفال جميع مواطني المدينة الأثرياء

وعرضهم للبيع كعبيد. لم يكن أمام رؤساء العائلات أي خيار سوى الذهاب إلى حدائق منازلهم، ونبش صناديق المال المخبئ وشراء أسرهم الخاصة. وهكذا تم إنقاذ روسيا الأم.

وهنا نتحول إلى موضوع آخر، ونستغل المثال المذكور، ونقول بعض الكلمات حول آلية "الطاقة الخلاقة" في العملية العامة للتكوين العرقي. ليس من الضروري أن نعتقد أن صاحب الشغف الخلاق بالضرورة يكون على درجة عالية من التسلسل الهرمي الاجتماعي ويظل اسمه في التاريخ. نفس الأشخاص المنتخبين، الذين دعموا كوزما مينين، كانوا أصحاب طاقة خلاقة. لكننا لا نعرف أسماء الكثير منهم، لأنهم لم يكونوا "قادة للجماهير"، بل كانوا جزءًا من الشعب. لم يقودوا، ولكن بالأحرى "هزوا" الناس، ودفعوهم إلى العمل. إن أصحاب الطاقة الفعالة هؤلاء هم العنصر الأكثر أهمية في التكوين العرقي. ولأنهم لا يتصرفون بالقوة بقدر ما على سبيل المثال الشخصي، والحماس، وليس عن طريق الخضوع، كانوا يُظهرون للمحيطين أنماطًا جديدة للسلوك، ويجبرون الكثير من الناس على القيام بالعمل الحيوي والضروري للغاية.

أصحاب الشغف الخلاق "المجهولون" هؤلاء تحديدا هم من كفلوا لمواطنيهم وأسرهم وأولادهم الحياة، باجبارهم على نسيان الكسل والجبن. وكانوا يتصرفون ليس بقسوة بقدر ماهو بحزم، ولكنك لا تستطيع أن تشرح للجميع أن مصلحته في استقلال روسيا وألا تتحول إلى مستعمرة بولندية وسويدية. المناقشات هي عمل طويل ومكلف ولا طائل منه، ولا يمكنك مجادلة الجميع.

بالإضافة إلى ذلك، يفضل دائمًا عدم المجادلة، بل التصرف. ولكن يصبح من الممكن التصرف فقط عندما يبدأ الشغف الخلاق للنظام في التكوين بعد الوصول إلى الحد الأقصى في الهبوط، مما يسمح على الأقل بتنظيم الناس.



كان لمؤيدي مينين وباچارسكي أنفسهم رأيهم الخاص، ولكنهم كانوا يقولون: "حسنًا، كوزما، أنت تعرف أفضل منا، وإذا قادنا الأمير باچارسكي، فسنذهب" وأخذوا رماحهم وذهبوا لملاقاة البولنديين. تعامل الأمير دِميتري ميخائيلوفيتش باچارسكي مع مهمته: قاد القوات إلى موسكو، وحاصر الكرملين، لأن موسكو نفسها كانت قد أحرقت بالفعل، واستولى البولنديون على حي "كيتاي جورد" وأجبروا الناس على الاستسلام.

بعد انتصار القوات، التي جاءت إلى موسكو متحررة من جميع تقاليد الأوبريتشنينا وبدون جميع الأشخاص الذين كانوا على اتصال بطريقة أو بأخرى بها، تشكل وضع صعب إلى حد ما. هزم ممثلو الطرف الوطني الدخلاء الأجانب (البولنديين والسويديين) بالاعتماد على القوات المشتركة لميليشيا النبلاء بقيادة مينين وباچارسكي، وجيش القوزاق بقيادة الأمير دِميتري تيموفيفيتش تروبيتسكي. ولكن حدث انقسام بين القوزاق، لأنه كان لا يزال لدى جزء من القوزاق تقاليد "النظام المضاد"، الذي كان يدعم في وقت ما لص

توشينو. وكان الاتمان ايفان مارتينوفيتش زاروتسكي هو رئيس هذا الجزء من القوزاق، الذي تزوج مارينا منيشيك بعد وفاة زوجها دِميتري المزيف الثاني. كانت علاقات زاروتسكي بشخصيات الفتنة قوية للغاية، وهو ما أدى إلى عزلته هو وقوزاقه. ولإدراكه الوضع، تراجع الأتامان إلى الدون، ولكن الدون أيضا لم يدعمه. لم يكن أمام زاروتسكي أي خيار سوى التراجع أكثر، إلى أطراف الأرض الروسية في ذلك الوقت – إلى أستراخان.

احتل زاروتسكي استراخان وبدأ في وضع خطة لإنشاء دولة مستقلة خاصة. ولكن سرعان ما أدرك أهل أستراخان هويته فشرعوا في ضرب القوزاق وحاصروا زاروتسكي نفسه في كرملين استراخان. في هذه الأثناء وصلت قوات موسكو إلى أستراخان، واستقبلها السكان بالبهجة والسرور. فر زاروتسكي مع مارينا وابنهما الملقب بـــ "اللص الصغير" إلى يايك، ولكن في الطريق تم القبض عليهم ونقلوا إلى موسكو. تم شنق الابن، وتوفيت مارينا في السجن في ظروف غامضة، أما زاروتسكي نفسه فوضع على الخازوق.

كان إعدام زاروتسكي وعائلته آخر حلقة دموية في حقبة الاضطرابات، لكن الحرب مع بولندا استمرت. في ذلك الوقت كان الملك البولندي سيجيسموند، الذي بدأ الحرب، قد توفي في ذلك الوقت، واختار البولنديون للعرش ابنه فلاديسلاف – "قيصر موسكو" الفاشل. كان معظم كبار رجال الأعمال والنبلاء البولنديين يعتقدون أنهم ليسوا في حاجة للحرب مع موسكو، ورفضوا رفضًا قاطعًا دعم الملك بالمال والرجال. ونظير أموال متواضعة من التاج استطاع فلاديسلاف جمع عدد قليل من جنود الفرسان الألمان، وتحرك معهم إلى موسكو لكنهم لقوا الهزيمة. ووفقا لهدنة ديولينا في عام ١٦١٨ انسحب البولنديون، تاركون المدينتين الروسيتين سمولينسك وتشرنيجوف، وكذلك زابوروجي. قام السويديون بإخلاء نوفْغورود، لكنهم احتفظوا بمصب

نهر النيفا وساحل خليج فنلندا بأكمله، وأغلقت على روسيا الوصول إلى بحر البلطيق بإحكام.

وهكذا انتهت حقبة الاضطرابات، وكانت نتائجه مخيبة للآمال للغاية بالنسبة لروسيا، حيث تقلصت الأراضي الأوروبية للبلاد بشكل ملحوظ.

إقرار النظام

بعد طرد الأجانب ونهاية حقبة الاضطرابات، اتضح أن المسألة الأساسية هي تقييم مبدأ المسؤولية الشخصية الأكثر إلحاحًا بالنسبة للشعب الروسي واستعادة نظام الدولة: والذي يعني ضرورة انتخاب قيصر جديد.

تبدى لأصحاب الشغف الخلاق في مرحلة الذروة أنه للثقة في المستقبل لا مفر من قيام حكومة متميزة وحاكم واحد يكون رمزا للسلطة ويمكن التعامل معه كإنسان. لذلك كان انتخاب قيصر جديد أمرا حيويا للجميع.

لم يستطع الفائزون – قوات نبلاء القوزاق – الاتفاق في الرأي إذ تم رفض جميع المرشحين. لم يرغب النبلاء في رؤية دِميتري تروبيتسكوي على العرش، لأنه، على الرغم من كونه أميرًا، كان قائدًا للقوزاق. ولم يرد القوزاق أن يكون سيدهم الأمير دِميتري باچارسكي، لأنه بالطبع كان زعيم قوات النبلاء. ولكن كان هناك مرشح آخر – شاب هادئ وعديم التميز تماما، ميخائيل فيدوروفيتش رومانوف البالغ من العمر ١٦ عاما.

دبر والد ميخائيل، فيودور نيكيتيش رومانوف، مؤامرة ضد بوريس جودونوف وجعلوه راهبا (تحت اسم فيلاريت). بناء على تعليمات من مجلس دوما البويار، وبعد أن قبلت موسكو الصليب من أجل الولاء لفلاديسلاف في

٢٧ أغسطس ١٦١٠، ذهب فيلياريت مع السفارة إلى "سيجيسموند فازا الثالث"، لكنه فشل: ألقى البولنديون القبض عليه وعاملوا السفير بشكل سيئ تماما. في الأوقات الصعبة من حقبة الاضطرابات، ارتبط رومانوف الأكبر بالتوشيين، لكنه لم يلعب أي دور كبير هناك.

الآن اتضح أن لقب عائلة رومانوف يناسب الجميع، على وجه التحديد لأنه لم يظهر نفسه في الماضي، وبالتالي لم يكن لديه أي دعم. كان القوزاق يؤيدون ميخائيل، لأن والده، الذي كان صديقا للتوشيين، لم يكن عدوا للقوزاق. وكان البويار يتذكرون أن والد المرشح ينحدر من عائلة بويار نبيلة، بالإضافة إلى أنه يرتبط بصلة قرابة لفيودر إيفانوفيتش (آخر قياصرة أسرة إيفان كاليتا). ودعم أساقفة الكنيسة "رومانوف" لأن والده كان راهبًا، وفي رتبة مطران. وهكذا وافق الجميع على الملك "المحايد" الهادئ.

كانت الراهبة مارفا والدة الشاب ميخائيل فيدوروفيتش هي المعترضة الوحيدة. لدرايتها بالتاريخ لم تسمح هذه المرأة لابنها بأن يكون قيصرا، قائلة إن هذا الأمر سيجلب المتاعب وأنها لا تريد ان يُقتل ميشينكا (اسم التدليل لميخائيل)، كما قُتل أوتريبييف ولص توشينو. ولكن بما أن الجميع وعد "بحراسة السيد"، لم يكن أمامها خيار سوى أن تصبح أم قيصر موسكو. كان "صاحب السيادة العظيم" القادم يجلس في كوستروما ولم يعرف شيئًا: تم تحديد مصير الشاب دون مشاركته. في فبراير ١٦١٣ أعلن الشعب في الميدان الأحمر ميخائيل فيدوروفيتش رومانوف قيصرا.

كان الاختيار موفقا للغاية، لأن في فترة حكم ميخائيل فيدوروفيتش في الفترة من ١٦١٣ إلى ١٦٤٥، لم يتخذ أي قرار. في البداية كانت مجالس زيمسكي هي من تقوم بالعمل على بناء الدولة. كانت مجالس زيمسكي تضم

ممثلين منتخبين من جميع الطبقات. وهكذا جمع أسلافنا الجزء الأكثر احتراما وتفكيرا من سكان البلاد وقاموا بحل القضايا الملحة (الاقتصادية، العسكرية، الدبلوماسية) بمساعدتهم. وبعد ذلك تم إنشاء التشكيل الدائم للحكومة، وتم إقرار النظام النسبي في الدولة، واختفت الحاجة إلى مجالس زيمسكي، حيث إن وظائفهم أصبح يقوم بها بنجاح جهاز الدولة آنذاك: الإدارات، التي كان يعمل فيها الكتبة.

ظل الوضع السياسي الداخلي في عهد ميخائيل رومانوف مستقرا. وخلال أكثر من ثلاثين عاما من حكمه كان هناك اعتراض واحد خطير من قبل الفلاحين (١٦١٥)، عندما اقترب عشرون ألف شخص من موسكو وقدموا مطالب أصلية للغاية. لم يكن المعترضون يهدفون إلى الإطاحة بالحكومة، هم فقط أرادوا ألا يكونوا "فلاحين" وطلبوا أن يتم تجنيدهم للخدمة العسكرية. كان الطلب منطقيًا، حيث كان يُدفع للخدمة العسكرية. ولكن بما أن الحكومة كان لديها قوات كافية، ولم تكن هناك أموال زائدة، فقد تم تفريق المعترضين، وإلقاء القبض على قادتهم وأمروهم أن يعيشوا في منازلهم دون أن يزعجوا السلطات بمبادرات غير مصرح بها. هذا المشهد مضحك جدا من وجهة نظرنا، وكان مميزا جدا لبداية القرن السابع عشر ويعكس مستوى عاليًا من الشغف الخلاق للشعب.

في الربع الأول من القرن السابع عشر بدأت المجموعة الجينية للعرق الروسي الأعلى في تعويض الضرر الذي ألحقته اضطرابات نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر بالشغف الخلاق. وهكذا تكرر وضع بداية مرحلة الذروة (الربع الأول من القرن السادس عشر)، عندما تراكم عدد كبير من أصحاب الشغف الخلاق في العاصمة وعلى الحدود. تماما كما فعل أجدادهم من أصحاب الشغف الخلاق الروس في عشرينيات القرن السابع

عشر، عندما لم يريدوا أن يحفروا في الأرض، وسعوا للعيش على الحدود، للقتال، للدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية أو أي مصالح سياسية - فقط للعثور على استخدام لطاقاتهم الزائدة. ويمكن تفسير هذا التشابه بشكل جيد من وجهة نظر النظرية العامة للتكوين العرقي.

الفترة الزمنية من وفاة إيفان الثالث في عام ١٥٠٥ وقبل عهد ميخائيل رومانوف في عام ١٦١٣ تمثل أول حد أقصى للطاقة الخلاقة في مرحلة الذروة، وفي النصف الأول من هذه الفترة ازداد الشغف الخلاق ثم بدأت في الانخفاض. وكان الارتفاع الجديد للطاقة الخلاقة فقط في العشرينيات من القرن السابع عشر، وبطبيعة الحال، كان مشابها لارتفاع مرحلة ذروة أوائل القرن السادس عشر. ولذلك، فإن حقبة الاضطرابات، من وجهة نظر التكوين العرقي، لم تكن من قبيل الصدفة، والدم الذي أريق، والحرائق التي أحرقت أرضنا نجمت عن عواقب كبت الشغف الخلاق بعد الارتفاع الهائل في منتصف القرن السادس عشر. وكان سعي الشعب للتخلص من النظام المضاد، الذي اخترقنا تدريجيا من الغرب في عهد إيفان الرهيب، أمرا طبيعيا أيضا.

كان لانحدار الشغف الخلاق وصعوده تأثير مختلف تمامًا ليس فقط على التوزيع السياسي للقوى في البلاد، ولكن أيضًا على حالة مواردها الطبيعية. في منتصف القرن السادس عشر استقبل "التغريبي" إيفان الرهيب (الذي كان يخطط في وقت ما للهروب إلى إنجلترا) البحار الإنجليزي ريتشارد تشانسلر، الذي فتح الطريق عبر البحر الأبيض إلى أرخانجيلسك. وفي وقت لاحق قدم إيفان الرهيب للبريطانيين امتيازات مربحة للغاية لتصدير حبال القنب والخشب والفراء، وسمك السلمون، وغيرها من المنتجات إلى أوروبا الغربية. في الواقع، استخدم البريطانيون هذه الامتيازات بما يضر ببلدنا. كان التجار

الروس غير راضين بشكل رهيب، ولكن، بطبيعة الحال، لم يكن هناك إمكانية للتشكيك في قرار إيفان الرهيب. وبالإضافة إلى ذلك، أشرك إيفان الرهيب عددًا كبيرًا من "المتخصصين الأجانب" في الأوبريتشنيا: الألمان، السويديين، الليفونيين والذين حاولوا الحصول بالطبع على مكاسب للعودة إلى ديارهم. وكان تنفيذ الامتيازات، والدفع "للمتخصصين" على حساب موارد البلاد، التي لم تكن خاضعة للرقابة بأي شكل من الأشكال. لذلك، انعكست فترة انخفاض الشغف الخلاق في مرحلة الذروة على الطبيعة بصورة سيئة للغاية. لحسن الحظ لم تكن التقنية في القرن السادس عشر متطورة بما فيه الكفاية بحيث يؤدي الاستغلال الشرس للموارد الطبيعية خلال ٥٠ عامًا إلى استنزافها الكامل، ويصبح من المستحيل العيش على الأرض. كانت الطبيعة حينها أقوى من التكنولوجيا وكانت قادرة على استعادة كل من المناظر الطبيعية والموارد بصورة سريعة الى حد كبير.

عندما صعد مجددًا الشغف الخلاق، أظهر العرق الروسي موقفا مختلفا تماما تجاه طبيعة بلده الأم. على عكس إيفان الرهيب ومن حوله من المحتالين، فرضت الحكومة في عهد ميخائيل رومانوف قيودًا صارمة على التجار الأجانب، وفرضت عليهم ضرائب كبيرة، وأعادت التفاوض على جميع معاهدات الاستعباد السابقة. في التجارة الخارجية بدأت الدولة الروسية التوجه دون قيد أو شرط لصالح التجار الروس. وعندما أعرب الأجانب عن رغبتهم في السفر عبر روسيا إلى بلاد فارس، من أجل منافسة الروس، الذين يتاجرون مع الشرق الأوسط والشرق الأدنى، منعت الحكومة مثل هذه الرحلات منعا باتا. تجدر الإشارة إلى أن هذا التقليد استمر في روسيا خلال كامل فترة صعود الشغف الخلاق في مرحلة الذروة – حتى بداية عهد ألكسي ميخائيلوفيتش.

دعونا نقتصر على مثال واحد. في أوروبا احتدمت حرب الثلاثين عاما بين البروتستانت والكاثوليك، والتي بدأت في عام ١٦١٨ بالانتفاضة التشيكية ضد الحكومة النمساوية، واستمرت حتى عام ١٦٤٨. وبطبيعة الحال، شاركت إنجلترا فيها إلى جانب البروتستانت. لكن في إنجلترا، بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك ثورة بدأها الملك ضد البرلمان. من الشائع الاعتقاد أن البرلمان هو من يقوم بالثورات على الملك، ولكن في إنجلترا كان الأمر على العكس تماما. كان البرلمان الإنجليزي منذ القرن الثامن يحدد ميزانية البلاد، وطالب الملك بإمكانية التحكم في خزانة الدولة دون رقابة. لم يرفض البرلمان فقط، بل أيضا أعدم أنصار الملك، الذين أيدوه في السعي ليصبح حاكما مستبدا. ردا على ذلك، أثار الملك انتفاضة ضد البرلمان الذي يعد السلطة الشرعية لبلده. وقمعت الانتفاضة في ١٦٤٨، وفي عام ١٦٤٩ أُعدم الملك، وجاء اللورد أوليفر كروmويل إلى السلطة. ثم قام كروmويل بحل البرلمان وأخذ كل السلطات في يده.

وتحديدا في هذا الوقت، في عام ١٦٥٠، انتهت الاتفاقية التجارية بين إنجلترا وروسيا، وهي واحدة من عدد قليل من الاتفاقيات التي أبرمت في عهد إيفان الرهيب. وعندما جاء السفراء الإنجليز إلى موسكو وطلبوا من حكومة ألكسي ميخائيلوفيتش تجديد الاتفاقية لمدة أخرى، كان الرد باسم القيصر كالتالي: "بما أن هؤلاء الألمان الإنجليز ضربوا ملكهم كارولوس حتى الموت، فإن قيصر موسكو العظيم وروسيا بأسرها قد أمروا بعدم دخول هؤلاء الألمان الإنجليز الأراضي الروسية". وتم إبرام اتفاقية تجارية بشروط صارمة ليس مع الإنجليز، ولكن مع الهولنديين.

وجه آل رومانوف أنظارهم للاستحواذ الإقليمي الوحيد في أرض القوزاق الدون. وجه القوزاق في فترة ما بعد حقبة الاضطرابات جهودهم

لنهب شبه جزيرة القرم وشمال الأناضول في تركيا. وقامت الحكومة التركية من أجل تجنب غارات أساطيل القوزاق ببناء قلعة آزوف في المناطق السفلى من نهر الدون، التي أعاقت بشكل كبير أعمال القوزاق، ولكن في عام ١٦٣٧ استولوا على القلعة، وبالتالي فتحوا لأنفسهم طريقا للوصول إلى البحر الأسود. في عام ١٦٤١ قام السلطان إبراهيم بتحريك جيش ضخم تحت جدران آزوف. قاوم القوزاق الحصار الطويل، وتوجهوا إلى موسكو طلبا للمساعدة، وتلقوا الدعم. في عام ١٦٤٢ اضطر القوزاق لترك القلعة على الرغم من أن الأمر لم ينته بضم آزوف إلى الدولة الروسية، يكمن في تعزيز عملية الاندماج العرقي لقوزاق الدون في العرق الروسي الأعلى. ومنذ ذلك الحين لم يدعم أهل الدون قوات معادية لروسيا.

الهوامش

(١) جويز عشيرة فرنسية من منطقة لورين .

(٢) منطقة تاريخية من القرن الثامن وحتى القرن السابع عشر، وتقع حاليا في الشمال الشرقي من أوكرانيا، وجنوب شرق روسيا البيضاء وجنوب غرب روسيا. (المترجم)

(٣) الروس العظماء هو مفهوم يستخدم للتعبير عن المجموعة الشمالية من السلافيين الشرقيين. (المترجم)

(٤) ساندومير: مدينة في بولندا. (المترجم)

(٥) أفراد يتم إلحاقهم بالجيش بصورة أبدية. (المترجم)

(٦) توشينو هي منطقة شمال غرب موسكو، وسمي دِميتري المزيف بهذا الاسم؛ نظرا لوجود مقر إقامته في تلك المنطقة في الفترة من منتصف ١٦٠٨م حتى بداية ١٦١٠م وهي الفترة التي نشط فيها خلال فترة حكمه القصيرة. (المترجم)

(٧) البويار السبع هو الاسم الدارج للحكومة المشكلة من سبعة بويار واستمرت في الفترة ١٦١٠ - ١٦١٢م. (المترجم)

(٨) زيمسكي سوبور أو مجلس زيمسكي هو أعلى مؤسسة تمثيلية في روسيا القيصرية من منتصف القرن السادس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر، وكان يضم ممثلين عن جميع طبقات السكان (باستثناء فلاحي نظام القنانة) لمناقشة القضايا السياسية والاقتصادية والإدارية. (المترجم)



الفصل الثالث

لم الشمل: الروس والأوكرانيون

- الآتمان والشعب
- عواقب الاختيار

وفقا لاتفاقية سلام ستولبوف (١٦١٧م) وهدنة ديولينا (١٦١٨م) انتقلت الأراضي الروسية الغربية إلى السويد وبولندا. ولكن إذا كان هناك عدد قليل من السكان الروس في الممتلكات السويدية، ففي الممتلكات البولندية أكثر من ذلك بكثير. كان الكومنولث البولندي الليتواني يضم ليس فقط روسيا البيضاء وأوكرانيا، ولكن أيضا جزء من روسيا العظمى: "سمولينسك"، فصلاً عن ليتوانيا وجزء من لاتفيا. في بداية القرن السابع عشر واجهت بولندا نفس المشاكل التي مرت بها جميع الدول الأوروبية، وكانت هذه المشاكل تسمى الإصلاح البروتستانتي المضاد. صحيح أن بولندا نفسها لم تشارك في حرب الثلاثين عاما بين التحالفات الكاثوليكية والبروتستانتية، لكنها اضطرت إلى كبح جماح روسيا، التي كانت داعمة للتحالف البروتستانتي. وهكذا أصبحت بولندا وروسيا من جديد متنافستين في صراع سياسي.

ولم يمر وقت طويل حتى بدأت الأعمال العدائية. ففي عام ١٦٣٢م قامت القوات الروسية بمحاولة لاستعادة سمولينسك. تألف الجيش الروسي تحت أسوار سمولينسك من أربعة أفواج من سلاح فرسان النبلاء وقوزاق الأطراف الجنوبية الروسية، وتم تعليمهم الفنون العسكرية الغربية من قبل عسكريين ألمان. حاصر الروس المدينة، لكن سمولينسك، التي كانت ذات تحصينات دفاعية ممتازة، نجحت لفترة طويلة في الدفاع عن نفسها. وعندما تمكّن البولنديون من إثارة غارة أخرى لخاقان القرم على جنوب روسيا، غادر أطفال البويار (النبلاء) جدران سمولينسك للدفاع عن الحدود الجنوبية الروسية حيث كانت هناك حاجة إليهم بصورة أكبر.

أصبحت أفواج المشاة الغربيين بمثابة القوة الرئيسية. ولكن عندما اقترب الملك فلاديسلاف من سمولينسك ومعه جيش قوامه عشرون ألف جندي، استسلم الألمان ببساطة، وانتقلوا للخدمة في صفوفه. وكانت القوات الروسية المتبقية فعليا بدون قيادة محاطة بالبولنديين، ومعزولة، ومضطرة للاستسلام، وسلمت المدفعية وطوت الرايات أمام الملك البولندي (١٦٣٤م).

أطلق البولنديون سراح البويار شين قائد الجيش الروسي، بطل الدفاع عن سمولينسك في عهد الملك سيجيسموند الثالث ولص توشينو، وأرسلوه إلى موسكو. وفي موسكو اتهم شين سيئ الحظ، الذي لم يكن له ذنب في الهزيمة بجميع الخطايا وتم إعدامه. وعلى الرغم من أن إعدام شين كان ظلمًا صارخًا – الحرب هي الحرب، ولا أحد محصن من الفشل – فإنه من أجل الحقيقة، يجب أن يقال: إن القسوة تجاه شين كانت تعبيرا عن السخط الذي ساد في موسكو بعد فشل سمولينسك. وسرعان ما تم إبرام اتفاقية سلام بوليانوفسكي مع البولنديين. تخلى الملك فلاديسلاف إلى الأبد عن مطالبته بعرش موسكو، لكنه احتفظ بسمولينسك وتشرنيجوف. وهكذا بعد حرب ١٦٣٢-١٦٣٤م ظلت أراضي روسيا إلى جانب عدد كبير من السكان الروس بين أيدي بولندا.

كان الروس العظماء والروس البيض والروس الصغار، الذين أصبحوا رعايا للكومنولث البولندي الليتواني، موالين للحكومة البولندية. ولكن كان البولنديون يعاملون رعاياهم الأرثوذكس بتعالٍ بل وحتى بازدراء. ولا يجب أن نعتقد أن السبب الحقيقي هو الخلافات الدينية. إن الأرثوذكس، من وجهة نظر الكاثوليك، "منشقين"، لكن خطيئتهم أقل بكثير، على سبيل المثال، من البروتستانت، الذين تعتبرهم الكنيسة الكاثوليكية هراطقة. وبالتأكيد، بعد

الإصلاح البروتستانتي، ظهر العديد من الأريوسيين[1] -اللاثالوثيين، وكذلك الإنجيليون وممثلو الحركات الدينية الإصلاحية الأخرى في بولندا. اعتنق الأشخاص الموقرون من مختلف الطبقات غالبا الآريوسية والكالفينية. على سبيل المثال، فإن أمراء عائلة رادزويل ذات الأصل الليتواني – وهي واحدة من أغنى العائلات وأكثرها نبلاً في بولندا – انقسمت أيضًا إلى بروتستانت وكاثوليك، لكنهم لم يتخاصموا فيما بينهم وكانوا على وفاق مع بعضهم بعضًا في مسائل الإيمان. ولكن بمجرد أن كان الحديث عن الأرثوذكس، لم يتبق أي أثر للتسامح البولندي.

حُرم النبلاء الروس من الأراضي التي أخذها البولنديون، ومن جميع الحقوق في الرتب، ومن ثم الحرمان من أي فرصة لتحقيق مستقبل مهني. وتم إقصاء طبقة التجار الروسية والحرفيين بشكل كامل من التجارة من قبل اليهود، الذين كانوا يتمتعون بحماية الكنيسة الكاثوليكية والنبلاء البولنديين. وكانت آلية علاقتهم بسيطة للغاية. لم يكن كبار الأغنياء البولنديين (الذين حصلوا على إقطاعيات كبيرة في الأراضي الروسية المستولى عليها) يرغبون في الاشتغال بالزراعة على الإطلاق، بل كانوا يفضلون السفر عبر عواصم أوروبا الغربية الرائعة. وفي بولندا نفسها – في وارسو، وكراكوف – لم يكن الأمر مملا: كانت هناك عروض في المسارح، وحفلات راقصة، وولائم. وبما أن مثل هذه العطلات كانت باهظة الثمن، وتأخذ الكثير من الجهد والوقت، كان النبلاء بحاجة إلى وسطاء قادرين على توفير تدفق مستمر للأموال، ووجدوا هؤلاء الوسطاء اليهود، الذين دُعوا إلى بولندا في القرن الرابع عشر من قبل الملك كازيمير الأعظم. استقر اليهود جيدا في هذا البلد، وافتتحوا الحانات والمحلات التجارية، وكانوا يعملون في الربا وتبادل

الأموال. وأصبحوا في الإقطاعيات أمناء النبلاء البولنديين – وسطاء – وكانوا يمصون الأموال من الفلاحين الروس المستأجرين.

باختصار، واجه السكان الروس في الكومنولث البولندي الليتواني خيارًا غير ثقيل بقدر ما هو غير أخلاقي: إما أن يتحولوا إلى الكاثوليكية ويصبحوا بولنديين، أو يتحملوا كل أنواع الإذلال. لقد ضحى الروس والأوكرانيون والبيلوروسيون، الذين عاشوا في الأراضي التي احتلتها بولندا، تضحيات كبيرة من أجل الحفاظ ليس حتى على حرية الضمير (لم يكن لديهم هذه الحرية)، ولكن الإيمان الأرثوذكسي ذاته. واعتنق عدد قليل جدا الكاثوليكية و البابوية. ورفض معظم السكان الأرثوذكس استبدال العقيدة اليونانية باللاتينية. وبالتأكيد لا يمكنك القول إن القوزاق الأوكرانيين الأميين أو الفلاحين البيلاروسيين كانوا يفهمون الاختلافات اللاهوتية بين الأرثوذكسية والكاثوليكية. لم يخطر ببال أي منهم أن يهتم بمثل هذه الاختلافات، لأن بالنسبة للكثير من الأشخاص كانت العقيدة في المقام الأول مؤشراً على الانتماء إلى جماعة محددة. أولئك، الذين من حيث نمط سلوكهم وتصورهم للواقع كانوا أقرب إلى الكاثوليك، ارتبطوا بالكاثوليك، وأولئك، الذين كانوا أكثر تعاطفا مع الأرثوذكس، انضموا لصفوفهم.

ولكن هل كان البولنديون، المنتمون الى دائرة شعوب أوروبا الغربية، مقتنعين عن وعي بصحة العقائد التي تبنتها الكنيسة الرومانية؟ لا على الإطلاق. أكثر طبقتين عددا بين البولنديين كانت طبقة النبلاء والفلاحين الأميين – "العبيد". وكان يتم تمييز الحد الفاصل بينهما بسهولة على النحو التالي: "العبيد" هم الأشخاص المعفون من الخدمة العسكرية ويتم فرض ضرائب عليهم، أما النبلاء، على العكس من ذلك، هم رعايا معفون من

الضرائب وتدين للتاج بالخدمة العسكرية. في الواقع، لم يكن الفرق بين "العبيد" وطبقة النبلاء كبيرًا: فالأغلبية العظمى من طبقة النبلاء كانت من طبقة نبلاء الزاستينوك[٢]، وهي تشبه طبقة الادنادفوريتسيين[٣] الروس. عاش ممثلوها في مزارع صغيرة ("الزاستينواكات") ، وكانوا بأنفسهم يحرثون الأرض مع الفلاحين، لأن كل إرثهم النبيل كان غالباً ينحصر في سيف الأجداد و"الشرف البولندي".

وكانت طبقة النبلاء البولنديين الصغيرة تشكل طبقة عسكرية تشبه قوزاق أوكرانيا البولندية، أي الأطراف، وكانت لا تختلف أبدا عنها جوهريا. ولذلك، ليس لدينا أي سبب للاعتقاد بأن طبقة النبلاء البولنديين عرفت المفاهيم اللاهوتية أفضل من القوزاق الأوكرانيين. وبالتالي، فإن أسباب الصراع الدموي الذي اندلع في أوكرانيا في القرن السابع عشر يقع خارج حدود الخلافات الطائفية.

بحلول منتصف القرن السابع عشر، عندما قاتلت موسكو وتخلصت من التدخل البولندي السويدي، وانهار الأمل في توحيد الدولتين تحت حكم الملك البولندي، ظهر في بولندا ممثلو جماعة اليسوعيين الكاثوليكية.

وقد أسس الضابط الإسباني إغناطيوس لويولا جماعة اليسوعيين في عام ١٥٣٤م. وكان الهدف المعلن رسميا للأخوة الجديدة هو مقاومة الإصلاح البروتستانتي – النضال ضد الهرطقة وتوسيع نطاق نفوذ الكاثوليكية. لكن أنماط السلوك، الموجودة في النظام الأساسي لهذه الجماعة، أظهرت أن اليسوعيين هم إصلاحيون للكاثوليكية بصورة ليس أقل أبدا من أتباع لوثر أو كالفن. وسنكتفي بعرض مثال واحد بليغ على ذلك. وفقا للعقائد المسيحية، فإن القاضي الأعلى في كل فعل بشري هو المسيح نفسه، ويتم الكشف عن تقييمه في ضميرنا.

وبعبارة أخرى، فإن أي شخص يعتبر نفسه بإخلاص مسيحيًا، مُلزَم من أجل إنقاذ الروح بربط أعماله بضميره، وعدم تبريرها بحجج العقل. أما اليسوعيون فقد اعتنقوا أطروحة طاعة الصغار المطلقة للكبار، واعتبروا التدريس وسيلة لتشكيل الإيمان. ولهذا السبب تحديدا احتلت أصول التدريس مكانًا كبيرًا في أنشطة اليسوعيين "المجد للرب الأعظم". عمل الإخوة في جميع أنحاء العالم، وفتحوا الكليات والأكاديميات، وأعدوا المحاربين، وقاموا بالتجسس والرشوة، لغرض وحيد هو إعادة أكبر عدد من الهراطقة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية.

وبنفس هذه الأهداف وسع طلاب "لويولا" أنشطتهم أيضا في بولندا. وعلى أراضي بيلاروسيا افتتحت الكلية اليسوعية، التي قامت بالدعاية الكاثوليكية بنشاط. بادئ ذي بدء، أُعلن أن اتفاقية الكنائس الشرقية والغربية قد تم تحقيقها وترسيخها بالفعل من قبل الاتحاد الفلورنسي عام ١٤٣٩م، على الرغم من أن الكاثوليك أنفسهم كانوا قد نسوا في ذلك الوقت هذا الاتحاد. على هذا الأساس الواقعي الهش للغاية تمت دعوة جميع الأرثوذكس لاعتناق العقيدة الكاثوليكية باعتبارها أكثر اكتمالا. وبالطبع، من أجل إثبات "تفوق" العقيدة الكاثوليكية، ساق الدعاة حججهم. فمثلا، تحدث الكاثوليكي بيتر سكارجا – مؤلف كتاب عن تفوق العقيدة الكاثوليكية – عن عالمية اللغة اللاتينية في العبادة وتواصل الكاثوليك، وعن تفوق اللغة اللاتينية على اللغات السلافية. بطريقة ما كان محقًا، فقد كانت اللغة اللاتينية إلى جانب اليونانية لفترة طويلة واحدة من لغات العبادة الرئيسية، وبالفعل في اللاتينية تحديدا كان هناك أدب لاهوتي ضخم.

وجد بيتر سكارجا خصومًا بارعين جدًا بين الأرثوذكس البيلاروس. صحيح أن أسماء الكثيرين منهم غير معروفة؛ لأن الاعتراضات على

الكاثوليك في ذلك الوقت كانت من الممكن أن تكلف الإنسان ثمنا باهظا، لكن معنى الحجة واضح تماما. أشاروا في المقام الأول إلى وجود تقليدهم الآبائي الخاص بالعبادة السلافية، وإلى وجود جميع ترجمات الأدبيات الدينية الضرورية إلى لغة الكنيسة السلافية. وعلى هذا الأساس أنكروا ضرورة دراسة لغة أخرى ليسوا في حاجة إليها عمليا. ويجب أن نعترف بأن الحقيقة هنا كانت إلى جانب الأرثوذكس تماما.

إن إجادة أي لغة بشكل كامل تعني أولاً وقبل كل شيء إمكانية توصيل الأفكار المعقدة بالتفاصيل والفروق الدقيقة المناسبة إلى من نخاطبهم. ومثل هذه المعرفة باللغة لا يمكن تحقيقها إلا عند التعرف على سلوك ذاك العرق، الذي يتحدث ويفكر بهذه اللغة، وعند المعيشة في البيئة العرقية المناسبة. وإذا لم يحدث ذلك يكون المحاورون مجبرين على الاقتصار على القوالب والمقولات البدائية. وبالتالي، فإن استبدال لغة الكنيسة السلافية باللاتينية، التي فرضها الكاثوليك، يمكن أن يؤدي فقط إلى ضحالة أشكال الممارسة الروحية. وهكذا، فإن الكاثوليك، في الواقع، كافحوا من أجل خفض المستوى الفكري لسكان أوروبا الشرقية، وهذا، في الواقع أوقعهم في نقد من كلا الطرفين: الأرثوذكس، والبروتستانت.

تمثلت المشكلة الثانية للخلافات بين الكاثوليك والأرثوذكس في السلطات الكنسية. أكد اللاتين، وللوهلة الأولى (بشكل مقنع جدا) أن رأي أساقفة الكنيسة، كأشخاص متعلمين ومطلعين، أفضل من الرأي العام لأبناء الرعية العاديين (والنهاية المنطقية للتأكيد أعلاه، بالطبع، كانت أطروحة السلطة غير المشروطة للبابا). اعترض خصوم بيتر سكارجا على الكاثوليك، واستندوا إلى عدد من الأمثلة من تاريخ الكنيسة، عندما أصبح أساقفة كبار

(نسطورس، أوطيخا، ومقدونيوس) مؤسسي هرطقات أدانتها المجالس الكنسية. رفض الأرثوذكس الفهم اللاتيني لسلطة الكنيسة مسترشدين بمبدأ الجمعية(٤)، وطالبوا بالحق في تحديد الحقيقة انطلاقا من شعور الضمير الجمعي.

وبتحليل هذه التناقضات بين الأرثوذكس والكاثوليك، يمكننا أن نستنتج أنه في هذه الحالة وتحت غطاءات أيديولوجية دينية كان يختبئ تصوران مختلفان للعالم. ومن المفهوم أنه مع الصدامات التي كانت تحدث، أصبحت حياة السكان الروس في بولندا صعبة(٥). بالطبع، كان يمكن حل المشاكل القائمة، ولكن فقط مع حسن نوايا الجانبين، وهو ما لم يكن متوافرا.

وتجدر الاشارة أن نظام القنانة على هذا النحو لم يكن موجودا في بولندا: كان كل فلاح يستطيع أن يترك النبيل إذا أراد. لكن ترك النبلاء كان يعني التخلي عن جميع الممتلكات، وفقدان الحرية الشخصية في كثير من الأحيان؛ لأن الحرية الشخصية للفلاحين كان يحددها نظام صارم من الضرائب. كانت الضرائب تُدفع لمالك الأرض، وإذا لم يكن لدى الفلاح أية أموال، يصبح خادما في المنزل. كما نرى، فإن غياب نظام القنانة خلق ظروفا للفلاحين أسوأ بكثير من ظروف نظام القنانة، الذي كان قائما في روس موسكو. ومن المفارقات أن عدم وجود نظام القنانة للفلاحين حكم عليهم بالضياع الكامل للحقوق. فرضت الضرائب على الأرض، والماء، وأراضي الصيد، وفلاحة الأرض، ولم تنج حتى الكنائس الأرثوذكسية. وهوما كان يُغضب الروس، حيث كان الوسيط اليهودي يستخدم مفاتيح الكنيسة كما يستخدم مفاتيح الحظيرة، وكان يفتح المعبد للصلاة حسب رغبته وتبعا لدفع أبناء الرعية للمبلغ المناسب.

بالطبع، عانى الفلاحون البولنديون والليتوانيون من ظلم النبلاء البولنديين ووسطائهم اليهود، لكن الفلاحين الكاثوليك كان يمكنهم أن يتوصلوا إلى اتفاق مع طبقة النبلاء ومالكي الأراضي – فقد ظلوا "منهم" على الرغم من الفارق الاجتماعي. لم يكن لدى الأرثوذكس مثل هذه الفرصة: لم يكن النبلاء البولنديون يرغبون في الاستماع إليهم، لأنهم كانوا "غرباء"، "منشقين". وبسبب هذا الاختلاف، لم يقم الفلاحون البولنديون ولا الليتوانيون بأي أعمال شغب أو انتفاضات كبيرة ضد النبلاء، رغم العبء الثقيل للاستغلال. أما الأرثوذكس، فعلى العكس، لم يكن لديهم أي شيء آخر ليفعلوه، ومنذ نهاية القرن السادس عشر كانت انتفاضات الروس تحدث واحدة تلو الاخرى. أول من قام بتمرد كان ناليفايكو (١٥٩٤-١٥٩٦م)، ولكن سرعان ما تم القبض عليه وأعدم في وارسو. تبع تمرد ناليفايكو تمردات أخرى، مثل تمرد بافليوك، وتمرد أوسترنيتسا، وتمرد جوني. ويعتبر بحق تمرد بوجدان خميلنيتسكي، الذي بدأ حرب التحرير في أوكرانيا البولندية، تتويجا للصراع الطويل بين الأرثوذكسية والكاثوليكية.

الآتمان والشعب

كان بوجدان خميلنيتسكي نبيلاً أرثوذكسياً من أصل روسي خدم في القوات البولندية الحدودية. وكأي نبيل كان لدي خميلنيتسكي مزرعته الخاصة وعدة عمال. كان العمدة المحلي (مساعد المحافظ) الكاثوليكي تشابلتسكي لا يحب خميلنيتسكي لدرجة أنه حاول اغتياله. وذات مرة أنقذت الخوذة الآتمان المستقبلي لأوكرانيا من ضربة قاتلة. بعد ذلك أغار تشابلتسكي على مزرعة خميلنيتسكي، وقبض عليه مع عائلته وأخذوا جميع ممتلكاته، بما في ذلك

الخيول والخبز. وعندما هدد خميلنيتسكي بالـذهاب إلـى المحكمـة، أمـر شابلتسكي الغاضب، الذي يرغب في إظهار إفلاته من العقـاب، بجلـد ابـن خميلنيتسكي البالغ من العمر عشر سنوات في السوق. والمنفذون المتحمسون جلدوا الصبي تعيس الحظ، وفي اليوم الثالث مات. ولإدراكه عـدم جـدوى ذهابه للمحكمة، حيث يحكم كاثوليكيون أمثال شابلتسكي توجـه خميلنيتـسكي مباشرة إلى الملك فلاديسلاف في وارسو. كانت ظروف فلاديسلاف صـعبة: فقد كان مجلس النواب، الذي يسيطر عليـه النـبلاء البولنـديون، يحرمـه باستمرار من الاموال للانفاق على الحرب مـع الأتـراك والعمليـات ضـد موسكو. فلاديسلاف استقبل خميلنيتسكي، ولكن بعد سماع النبيل، شكا الملـك فقط من عجزه امام النبلاء. وبعد عدم حصوله على العدالة من الملك، ذهـب خميلنيتسكي إلى زابوروجي.



في القرن السابع عشر كانت زابوروجي، الواقعة على حـدود بولنـدا والميدان البري، تمثل ظاهرة استثنائية، حيث كان يفر الى هنـاك الراهبـات الأرثوذكس الروس هربا من نير النبلاء. كانت زابوروجي نفسها عبارة عـن

شبكة كثيفة من المستوطنات، حيث توجد حرف الحدادة والنجارة والسباكة وصناعة الأحذية وحرف أخرى، وكان السكان ينتجون كل ما يحتاجون إليه. وكانت المستوطنات المنفصلة (الكورينات[٦]) تشكل "تنظيم فرسان" فريد كان يعيش بشكل مستقل تماما. شكلت الشغف الخلاق المرتفعة لسكان زابوروجي ورفضهم للنظام البولندي بحلول القرن السادس عشر نمط خاص من السلوك خلق عرق جديد – قوزاق زابوروجي. وبطبيعة الحال، تعامل البولنديون مع قوزاق زابوروجي بصورة حذرة وغير ودية للغاية.

وبنفس القدر من الريبة والعداء تعامل النبلاء وكبار رجال الأعمال مع القوزاق "المسجلين"، وكانت تطلق تلك التسمية على القوزاق، الذين خدموا التاج البولندي. ولصد غارات التتار تحت راية الآتمان عادة ما تجمع الكثير من القوزاق. ولكن في نهاية الحرب يتم تسريح الجيش، ويكون على محارب الأمس أن يعوَد فلاحًا "إلى المحراث" في مزرعة النبيل. ومن المفهوم أن زيادة عدد المسجلين كان أحد أهم مطالب قوزاق الكومنولث البولندي الليتواني.

وكانت درجة رفض ممثلي عرقين اعليين مختلفين لبعضهم البعض – الأرثوذكس والكاثوليك – في الكومنولث البولندي الليتواني عالية جدا. كانت هناك كراهية للقوزاق على الرغم من أنهم لم يحاولوا على الإطلاق التعدي على أسس الدولة البولندية. وعلاوة على ذلك، كان القوزاق بالنسبة للكومنولث البولندي الليتواني بمثابة حماية موثوق بها من الغارات التتارية، لأن الغارات التتارية كانت تنهب البلاد وصولا إلى كراكوف. ومع ذلك حدد البولنديون عدد جيش القوزاق "المسجل" بستة آلاف جندي (١٦٢٥م). ومثل هذا القرار غير المنطقي لا يمكن أن يرضي أحدا – في القرن السابع عشر

في أوكرانيا البولندية كان هناك حوالي ٢٠٠ ألف شخص أرادوا أن يكونـوا قوزاق وكانوا قوزاق بالفعل.

في ديسمبر ١٦٤٧م رحبت زابوروجي ببوجدان خميلنيتـسكي، الـذي خدع الحراس الذين أمسكوا به على الطريق، وجاء إلى القوزاق وقال: "كفانا تحمل لهؤلاء البولنديين، دعونـا نجمـع الـرادا[٧] ونـدافع عـن الكنيـسة الأرثوذكسية والأرض الروسية!" كان نداء خميلنيتـسكي مطلـوب ومفهـوم تماما. أصبح المسيطر على جميع الإجراءات اللاحقة للقوزاق. ولكـن فـي البداية لم يكن هدف خميلنيتسكي وشركاؤه الانفصال السياسي عـن بولنـدا. كانوا يريدون فقط الحق في العيش طبقا لضميرهم الخاص، وفي نفس الوقت يخضعون لقوانين المملكة البولندية. كانت مطالب القوزاق قليلة: أولاً، تسجيل جميع القوزاق كقوزاق ومـنح القـوزاق امتيـازات النـبلاء، مثـل طبقـة العسكريين؛ وثانيًا، منع الدعاية للاتحاد الكاثوليكي في أوكرانيا، وابعاد جميع الكهنة الاتحاديين، وإعادة الكنـائس الأرثوذكـسية، التـي اسـتولى عليهـا الكاثوليك، للأرثوذكس، والسماح للجميع باعتناق عقيدته بحرية؛ ثالثًا؛ طـرد اليهود من أوكرانيا. كان هذا البرنامج السياسي يعكس تطلعات جميع الـسكان الأوكرانيين المضطهدين في أوكرانيا.

اختارت زابوروجي على الفور خملنيتسكي كهيتمان، وحـصل علـى سلطة هائلة، لأن القوزاق، على الرغم من فوضتهم التامة في وقـت الـسلم، كانوا يلتزمون بانضباط صارم على أساس الطاعة العميـاء لآتمـان أثنـاء الحرب. ومن زابوروجي ذهب خملنيتسكي إلى القرم، حيث حصل على وعد بمساعدة من خاقان القرم. وسرعان ما خرج في حملة مع وحدة من أربعـة آلاف من القوزاق، انضم إليها ثلاثة آلاف قوزاق آخـرون. كانـت القـوات المتمردة ضئيلة للغاية مقارنة بقوة العدو، حيث كـان يمكـن للبولنـديين أن

يقدموا ما يصل إلى ١٥٠ ألف شخص. لكن كان من المستحيل على بولندا تعبئة هذه القوات. كان يسود ارتباك مطلق في البلاد، ورفض النبلاء، كما هو الحال دائما، إعطاء المال للملك من أجل "قوات الكومنولث" (ميليشيا طبقة النبلاء). لذلك، عندما واجه خميلنيتسكي البولنديين في عام ١٦٤٨م، وعلى الرغم من محدودية قواته، حقق ثلاثة انتصارات كبيرة. أولهم – في معركة المياه الصفراء[٨]، حيث مات ابن الآتمان البولندي بوتوتسكي – ستيفان بوتوتسكي؛ ثم جاء النصر في مدينة خيرسون، حيث تم القبض على اثنين من الآتمان البولنديين – بوتوتسكي وكالينوفسكي، وأخيرا، معركة بيليفتسي، حيث هربت قوات الكومنولث مذعورة من القوزاق.

وزادت حدة الصراع ففي خيرسون كان لدى البولنديين مدفعية ألمانية جيدة – كان يمكن للمدافع أن توقف بسهولة هجوم سلاح الفرسان القوزاقي. ومن أجل "تحييد" المدفعية، أرسل خملنيتسكي واحدة من قوزاقه المخلصين ليقع أسيرا لدى البولنديين ويعطيهم مؤشرات بأن هجوم القوزاق كان يتم إعداده من الجهة اليمنى. استسلم القوزاقي وتوفي تحت التعذيب، وهو يكرر الرواية الكاذبة ويعرف حقيقة خطة خميلنيتسكي. ضرب سلاح الفرسان القوزاقي الجناح الأيسر للجيش البولندي، وبينما كان البولنديون المخدوعون يعيدون توجيه المدافع، تم تحقيق النصر. تخيل معي شدة العواطف، حيث ان هذا القوزاقي البطل لم يضحى بحياته فحسب، بل عانى أيضًا من العذاب القاسي لعدة ساعات، وحافظ على قوة الإرادة، مفضلاً شراء انتصار أصحابه على حساب معاناته الخاصة.

لم تدفع انتصارات خميلنيتسكي البولنديين إلى الاتفاق. في نفس عام ١٦٤٨م توفي الملك فلاديسلاف، ونسي النبلاء لبعض الوقت أمر القوزاق: كان البرلمان والمجالس الإقليمية يناقشون ترشيحات الملك الجديد. مستفيدا

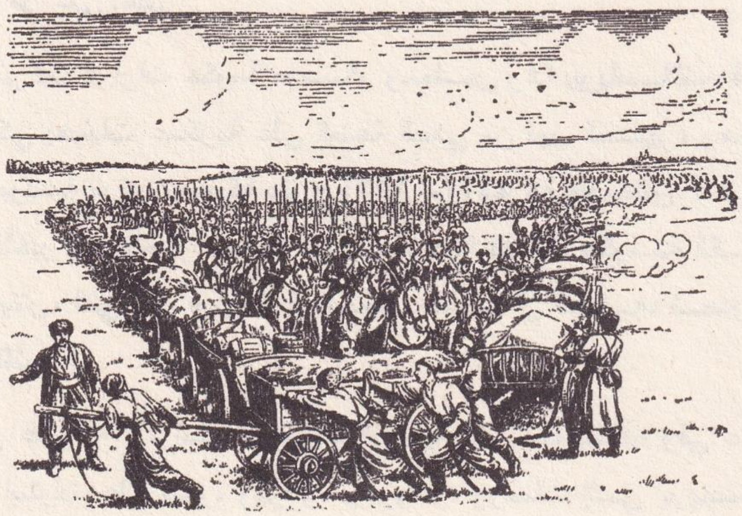
من فترة لالتقاط الانفاس، أصبح خميلنيتسكي أقوى. وباحتلال كييف والأراضي الأوكرانية على ضفتي نهر دنيبر، أصبح في الواقع حاكما مستقلا تماما – "آتمان" أوكرانيا، أو روس الصغيرة.

ولكن بمجرد أن اختار النبلاء ملكا جديدا – يان كازيمير – بدأت الاستعدادات للعمل العسكري ضد القوزاق. في القرن السابع عشر كان هناك عدد كاف بين البولنديين من أصحاب الطاقة الخلاقة: قادة عسكريون موهوبون، وسياسيون ذوو إرادة قوية، ودبلوماسيون أذكياء، ولم يكونوا ينوون على الإطلاق الاستسلام للهزائم. مرة أخرى تم جمع قوات الكومنولث، وتم استئجار رجال مدفعية ومشاة ألمان على نفقة التاج، وتم إرسال عملاء سريين إلى خاقان القرم من أجل حث التتار على كسر التحالف مع خميلنيتسكي. وعندما توقف البولنديون عن الالتزام بشروط الهدنة التي تم التوصل إليها مع خميلنيتسكي، استؤنفت الحرب.

في معركة ١٦٥١م قرب مدينة بيريستيتشكو، ترك حلفاء القوزاق – التتار – خميلنيتسكي فجأة، وعندما حاول إرجاعهم، قبضوا عليه واقتادوه إلى القرم. تم الضغط على الجيش القوزاقي، الذي أصبح دون قائد ودفعه إلى المستنقع. حاول القائد العسكري القوزاقي الموهوب إيفان بوهون اخراج جنوده من المستنقع وأمر بعمل جسر. لكن البولنديون تمكنوا من إحضار المدفعية، وتم تدمير الجسر بسرعة بكرات المدافع ، وقُتل معظم القوزاق.

عاد خميلنيتسكي المحرر توا من الأسر، كما يقولون، إلى لا شئ. وافق البولنديون في ذلك الوقت على تحديد عدد القوزاق "المسجلين" بعشرين ألفًا فقط، وكان خملنيتسكي يعرف تمام المعرفة بأن موافقته على مثل هذه الشروط تعني نهاية العمل الذي بدأه. فكما نتذكر، كان هناك حوالي مئتي

الف قوزاق في أوكرانيا. ونتيجة لذلك، سيضطر ١٨٠ ألف شخص إلى العودة إلى العمل لدى النبلاء، والدفع لليهود مرة أخرى نظير استئجار الكنائس، والحانات، وأماكن الصيد، والحق في الحياة نفسه. لم يكن أي منهم يريد العودة إلى الماضي، وبالتالي استؤنفت الانتفاضة. لكن في الوضع الحالي كان لدى البولنديين ميزة واضحة، وهي أن التحالف مع التتار لم يعد موجودا، وبدت أوكرانيا – شريط حدودي من الأرض – محاصرة بين خانة القرم وبولندا. لم يعد هناك مؤخرة لجيش لخميلنيتسكي، وكان من المستحيل الدفاع. وبعد تقييم الوضع، بدأ الهيتمان الذكي في البحث عن حليف جديد. وكان من الطبيعي أن يلجأ إلى موسكو الأرثوذكسية.



بدأت المفاوضات مع موسكو عام ١٦٥١م، ولكن موسكو ، كالعادة، كانت ترد ببطء، وفقط في أكتوبر ١٦٥٣م، تم اتخاذ قرار بضم أوكرانيا إلى دولة موسكو. أنقذ التوحد مع روسيا الأغلبية الساحقة من سكان أوكرانيا الأرثوذكس. ولذلك في ٨ يناير ١٦٥٤م في بيرياسلاف (الآن بيرياسلاف-خميلنيتسكي) دعم مجلس الشيوخ الأوكراني (الرادا) سياسة الانضمام

إلى موسكو بالكلمات التالية: "نريد ان نكون تحت قيادة قيصر موسكو، الأرثوذكسي".

ولكن بقي القوزاق هنا أيضا صادقين مع أنفسهم، أي نمط سلوكهم. فباعرابهم عن استعدادهم لمنح القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش قسم الولاء، طلبوا من القيصر أن يمنحهم قسما بالحفاظ على حريات القوزاق. ورفض بوتورلين المصدوم من الطلب، والذي كان يمثل قيصر موسكو، رفضا قاطعا، قائلا إنه "ليس من عادتنا أن يقسم القياصرة لرعاياهم، ولكن القيصر سيحترم حرياتكم". وبما أن الوضع كان ميئوسا منه، فإن القوزاق وافقوا وأنهوا الأمر على ذلك.

حتى قبل قرارات حكومة موسكو ومجلس رادا بيرياسلاف، قام خميلنيتسكي بعمليات عسكرية على الضفة اليمنى من نهر الدنيبر، وهزم القوات البولندية مرتين: معركة باتوج (١٦٥٢م) ومعركة جفانتس. تزامن النصر الأخير مع الأخبار السعيدة من موسكو. إذا كانت حكومة ألكسي ميخائيلوفيتش، التي تزن قرارها، لم تستعجل، فبعد أن اتخذته، تصرفت بكامل طاقتها.

في عام ١٦٥٤م استولت القوات الروسية على سمولينسك، وفي عام ١٦٥٥م استولت على فيلنو، وكوفنو، وجرودنو، ووصلت إلى "بريست". هُزمت بولندا على جميع الجبهات. والدولة الضعيفة، كما هو الحال عادة، جذبت "الانتباه": غزا الملك السويدي كارل العاشر بولندا (١٦٥٥م)، وطرد يان كازيمير واعترف به جزء من النبلاء والأغنياء ملكا على بولندا.

الآن اصطدمت مصالح روسيا والسويد في ليتوانيا. خلال الحرب الروسية السويدية التي تلت ذلك (١٦٥٥-١٦٥٩م) لم يحرز أي من الطرفين

نصرا حاسما، لكن بولندا، التي كانت على شفا الانقسام الأول لها، تمكنت من التعافي. كانت مصادر الشغف الخلاق لدى البولنديين كافية لتنظيم صفوفهم، وطرد السويديين، والترانسلفانيين (الرومانيين) وتمكنوا بعد ذلك من استرداد ليتوانيا، التي كانت تحتلها روسيا.

الشعب والآتمانات

في صيف عام ١٦٥٧م توفي بوجدان خميلنيتسكي. وبما أن ابنه يوري كان لا يزال طفلا، تم انتخاب النبيل فيجوفسكى "الكاتب العام" (وزير الخارجية) "آتمانا" على أوكرانيا. وعلى الرغم من أنه كان أحد الأرثوذكس، فإنه لم يستطع أن يتحمل موسكو والموسكويين، وكان يحلم بالاستسلام وان يصبح تحت رعاية الملك البولندي. في عام ١٦٥٨م اندلعت الحرب بين روسيا وبولندا من أجل الاستيلاء على ليتوانيا وأوكرانيا بقوة جديدة. وفي لحظة حاسمة أخذ فيجوفسكي الجانب البولندي وعقد مع بولندا تحالفا سياسيا أعاد أوكرانيا إلى الكومنولث البولندي الليتواني. وهُزم الجيش الروسي (الذي أرسل إلى أوكرانيا تحت قيادة الأمير تروبيتسكوي) شر هزيمة على يد فيجوفسكي بمساعدة التتار في معركة كونتوب (١٦٥٩م). وبدا أن أوكرانيا ضاعت من روسيا إلى الأبد.

لكن لا فيجوفسكي ولا أسياده البولنديون أخذوا في الحسبان الشغف الخلاق للسكان الروس في أوكرانيا، أي استهانوا بقدرات العدو. رشح كبار القوزاق الأكثر مبادرة يوري خميلنيتسكي آتماناً، وجذب الاسم الشهير الناس كالراية. قامت ميليشيا خميلنيتسكي بما فشل الجيش النظامي في القيام به. في سبتمبر ١٦٥٩م التقت قوات الهيتمانان عند الكنيسة البيضاء، وبدأ قوزاق

فيجوفسكي بالانتقال إلى جانب خميلنيتسكي. وهرب فيجوفسكي، الذي تركه الجيش، إلى بولندا وانسحب إلى الأبد من الساحة السياسية.

في العام التالي (١٦٦٠م) تحرك جيش موسكو تحت قيادة البويار شيريميتييف لمساعدة يوري خميلنيتسكي. التقت القوات البولندية-التتارية مع جيش موسكو في فولينيا وحاصرت الروس عند تشودنوف. وهنا، للأسف، ظهرت خفة وضعف يوري، الذي لم يكن يشبه والده العظيم في شيء. خاف من خوض المعركة، وبعد أن خان الروس، خضع للبولنديين. واضطر شيريميتييف للاستسلام وبعد ذلك قضى عشرين عاما في الأسر في شبه جزيرة القرم.

وتحمس القوزاق مرة أخرى. جمع القائدان سومكو وزولوتارينكو وأتامان زابوروجي بريوخوفتسكي "مجلس الرادا الأسود"، الذي أطيح فيه بابن بوجدان خميلنيتسكي. ولكن إذا كان لدى سومكو وزولوتارينكو برنامج التوحد مع موسكو، فإن بريوخوفتسكي تصرف كمغامر بلا مبادئ، وكان أهل زابوروجي يدعمونه. وبعد أن أصبح آتمانا، نصب نفسه بشكل غوغائي كمدافع عن القوزاق الفقراء وعدوا لكبار القوزاق. وفقد العديد من القوزاق ذوى المكانة وكبار القوزاق ممتلكاتهم ورؤوسهم.

في عام ١٦٦٣م تم إعدام منافسي بريوخوفتسكي في الصراع على صولجان الآتمان: القائدان العسكريان: سومكو وزولوتارينكو.

وفي ذلك الوقت أبرم يان كازيمير اتفاقية سلام مع السويديين ونقل العمليات العسكرية الرئيسية إلى أوكرانيا. وأراد بعبور أوكرانيا الضفة اليسرى(٩)، الذهاب إلى الجزء الخلفي من الجيوش الروسية ومواجهة موسكو التي لا حول لها ولا قوة. لكن قوات الحدود الروسية هزمته مرتين: في

معركة جلوخوف ومعركة نوفغورود سيفيرسكي – وألقوا بالبولنديين خلف نهر الدنيبر (١٦٦٤م). كانت بولندا المنهكة مضطرة للبحث عن فترة راحة، وفي عام ١٦٦٧م تم إبرام هدنة أندروسوف، والتي بموجبها ذهبت مدينة سمولينسك الروسية القديمة وكييف وكل أوكرانيا الضفة اليسرى إلى الدولة الروسية.

ولكن النصر على بولندا لم يؤد إلى وحدة القوزاق. مرة أخرى في ١٦٦٥م جمع كبار القوزاق مجلس رادا الضفة اليمنى واختاروا بيتر دوروشنكو هيتمانا، وهو كان يدافع عن فكرة "أوكرانيا الحرة"، أي إنشاء دولة أوكرانية مستقلة عن روسيا وعن بولندا. ودخل دوروشنكو، المتمسك بصرامة ببرنامجه، في نفس الوقت في صراع مع بولندا، وخصمها – الهيتمان بريوخوفتسكي، الذي في ذلك الوقت خان أيضا التحالف مع روسيا واقام علاقات مع الأتراك. حتى إنه حصل على مساعدات التتار، ولكن لم يتسن له استخدامها، لأن القوزاق الغاضبين مزقوا الخائن (١٦٦٨م).

بعد وفاة بريوخوفتسكي أصبح ديميان منوجاجريشني هيتمانا لفترة (١٦٦٨-١٦٧٢م)، وكان يعترف بالسلطة العليا لموسكو. ولكنه أيضا لم ينجح في الحفاظ على صولجان الهيتمان لفترة طويلة، وانتهت مسيرته بشكل محزن – النفى إلى سيبيريا. في ١٦٧٢م أصبح صامويلوفيتش، الذي وجد نفسه في وضع صعب للغاية، هيتمان "كل أوكرانيا" الجديد. غزا الأتراك بودوليا، وانضم دوروشنكو المدافع عن أوكرانيا المستقلة إلى جيش السلطان التركي محمد الرابع. استسلمت بولندا للعثمانيين وتنازلت للأتراك عن جزء كبير من الضفة اليمنى. وظل الهيتمان دوروشينكو سنتان (١٦٧٢-١٦٧٤م) في مدينة تشيجيرين كتابع للسلطان التركي.

وضع الجيش الروسي، الذي خرج لتحرير أبناء دينه، نهاية لذلك. عبر جيش موسكو (إلى جانب أفواج من القوزاق) الضفة اليسرى لنهر الدنيبر. وفي عام ١٦٧٦م استسلم دوروشينكو وعفي عنه، وأصبح صاموليوفيتش آتمان على كلا جانبي نهر الدنيبر. وفي محاولة للبقاء في بودوليا نصَّب الأتراك يوري خميلنيتسكي آتمانا. لكن هذا الوغد أضر تماما بمن كان يرأسهم. للحصول على المال فرض يوري ضريبة حتى على حفلات الزفاف. وبعد عدم تلقيه من إحدى الزيجات المبلغ المقرر، هاجم الآتمان بيت والدَّ العروس وعذب الأم حتى الموت. كان زوج القتيلة – وهو تاجر ثري – في ذلك الوقت في إسطنبول، وعندما علم بما حدث، قدم التاجر شكوى للوزير، وتم التحقيق في القضية. تم القبض على الوحش، وحكم عليه بالإعدام غرقا (١٦٨١م).

لم يكن مقدرا للأتراك البقاء لفترة طويلة في أوكرانيا. كانت أوكرانيا ذات طاقة خلاقة كبيرة، وما نجح فيه العثمانيون في بلغاريا وصربيا بدا مستحيلا في فولينيا وبودوليا. أدت نجاحات القوات النظامية الروسية وأفواج القوزاق، (فضلا عن هزيمة الأتراك في وسط أوروبا في أوائل الثمانينيات من القرن السابع عشر) إلى تحرير أوكرانيا من التهديد العثماني.

ظل صامويلوفيتش آتماناً لوقت طويل، حتى نهاية الحرب الروسية البولندية، عندما تم التوقيع أخيرا على "اتفاقية السلام الأبدي" بين روسيا وبولندا (١٦٨٦م). كانت دسيسة مازيبا سبب نهاية صامويلوفيتش في ١٦٨٧م. اتهم مازيبا، الذي كان محل ثقة الأمير جوليتسين ذو النفوذ الواسع والمقرب للأميرة صوفيا، الهيتمان بالخيانة. ألقي القبض على صامويلوفيتش سيئ الحظ ونُفى، ولكن جوليتسين دفع ثمنا باهظا للتغاضي عن الخيانة. خان مازيبا، الذي انتخب آتماناً، جوليتسين، ومن بعده بيتر، بعد أن أخذ جانب

كارل الثاني عشر، وقرر أنه بمساندة السويديين يمكن أن يصبح حاكما مستقلا. ولكن لم تلق دعوة مازيبا لإقامة أوكرانيا المستقلة دعما شعبيا. وتبع مازيبا فقط حراسه من قوزاق الأفواج المرتزقة والزابوروجيين، الذين كانوا معارضين آنئذٍ للتحالف مع روسيا. دعمت بقية أوكرانيا سلوبودا[١٠] "قيصر موسكو الأرثوذكسي" وحافظت على بولتافا الحصن الرئيسي الذي تحت أسواره تم إلحاق الهزيمة بحليف مازيبا "كارل الثاني عشر" (١٧٠٩م).

تضع معركة بولتافا بشكل خاص نهاية لتاريخ إعادة توحيد أوكرانيا مع روسيا. في ختام هذه القصة من المناسب محاولة تفسير التالي: لماذا خسر البولنديون الحرب مع روسيا من أجل أوكرانيا، ولماذا فشلت كل المحاولات العديدة من الآتمانات الأوكرانيين (من فيجوفسكي إلى مازيبا) الساعية للانضمام إلى بولندا أو الحصول على الاستقلال؟ قدم المؤرخون العديد من التفسيرات، ولكن إذا أخذنا في الحسبان الأسباب العرقية لما حدث، فإن الإجابة على السؤال المطروح لن تكون مشابهة لجميع الإجابات السابقة.

مثل معظم معاصرينا كان النبلاء البولنديون وقادة أوكرانيا مقتنعين بأن إرادتهم ستغير الحياة، ولذلك تجاهلوا التبعية الطبيعية الموضوعية، التي تشكل السلوك البشري. لذا اعتقد البولنديون أن اجتذاب قادة القوزاق، وإعطاءهم امتيازات النبلاء سيجعل جميع القوزاق يخدمونهم بإخلاص. وكذلك اعتقدوا أنه يمكنهم إقناع الشعب الروسي الأرثوذكسي بأن العقيدة الكاثوليكية أفضل، وأن أفراد الشعب سيصبحون كاثوليك متحمسين. وعلى نحو مشابه، اعتقد العديد من الآتمانات أنه طبقا للوضع السياسي واختيارهم من الممكن أن يخضعوا تارة لروسيا وتارة لبولندا، وأن النجاح في النضال من أجل الاستقلال تحدده قدرتهم على خداع بويار موسكو أو في الوقت المناسب الاتفاق على تحالف مع السلطان التركي.

ولكن في الواقع، نحن متأكدون أن انتماء روسيا وأوكرانيا لعرق أعلى واحد والدعم الهائل لـ "ذوينا"، الذين كانوا من نفس الدين، كان لهما الأهمية الأولى. وعلى هذا الشعور العام بالوحدة تحطمت الخطط العقلانية للباحثين عن السلطة الأذكياء وذوي الإرادة القوية، كما تتحطم الأمواج على الصخور. هكذا اتحد اثنان من العرقيات القريبة (الروسية والأوكرانية) رغم الوضع السياسي؛ لأن "الإرادة" أو "عدم الإرادة" الشعبية حطمت تلك المبادرات، التي لا تتماشى مع منطق التكوين العرقي.

عواقب الاختيار

كان الاختيار، الذي تم على أساس التصور الطبيعي للعالم صحيحا. ومن أجل الاقتناع بذلك يكفي أن نقول بضع كلمات عن مصير ودور الشعب الأوكراني في التاريخ الروسي في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

على خلاف البولنديين، الذين، كما نتذكر، كانوا يحدون من عدد القوزاق "المسجلين"، زادت حكومة موسكو عدد المسجلين بـ ٦٠ ألف شخص بالمقارنة مع متطلبات بوجدان خميلنيتسكي. في الواقع، غطى التسجيل جميع سكان أوكرانيا. بالإضافة إلى ذلك، تم الإبقاء على خمسة إلى سبعة آلاف من قوزاق زابوروجي. في ظل الحكم البولندي كان بإمكان أوكرانيا فقط أن تحلم بمثل هذا الوضع. لم يكن هناك داخل روسيا أي حديث عن مسألة التمييز ضد الأوكرانيين. علاوة على ذلك، في القرن السابع عشر زاد بقوة التأثير الفكري للأوكرانيين على سكان روسيا. كان الرهبان والكهنة الأوكرانيون – المتعلمون وذوو الخبرة في المناظرات مع الكاثوليك، والذين يعرفون اللغات – يحظون بتقدير كبير من قبل البطريركية في موسكو. في

وقت لاحق، عند الحديث عن تاريخ انقسام الكنيسة الروسية، ستكون لدينا الفرصة لنرى أن الانشقاق كان صراعاً بين التقاليد الأرثوذكسية لروسيا العظمى (موسكو) والتقاليد الأرثوذكسية الأوكرانية. تمكن الرهبان الأوكرانيون من الفوز في هذا الصراع ومن ثم كان لهم تأثير حاسم على تغيير عادات الكنيسة الروسية. أصبحت أسماء "يبيفاني سلافينيتسكي" و"سيميون بولوتسكي" و"فيوفان بروكوبوفيتش" جزءًا لا يتجزأ من تاريخ الثقافة الروسية.

وفي وقت لاحق، عندما حلت السياسة الإمبراطورية محل السياسة الوطنية لروسيا، لم يخسر الأوكرانيون أيضا. لعبت هنا الاختلافات العرقية بين الأوكرانيين والروس العظماء الدور الحاسم. وهذه الاختلافات تحددت في الركيزة العرقية (دخل التورك الذين عاشوا في وقت ما على حدود السهب ضمن الشعب الأوكراني المستقبلي) وكانت تظهر في بعض ملامح نمط السلوك (على سبيل المثال، كان الأوكرانيون آنذاك عمالاً مجتهدين أكثر من الروس)، وكذلك في طبيعة علاقة العرق مع طبيعة الأرض والبيئة المحيطة. ومن المنطقي أن نتحدث عن هذا بمزيد من التفصيل.

أثناء توسيع مناطقهم العرقية استقر الروس العظماء، مثل قوزاق الدون، عادة على ضفاف الأنهار. كان النهر، وسهل الفيضان، بمثابة قاعدة لاقتصاد الإنسان الروسي وصلته الأساسية مع الطبيعة التي تطعمه. الأوكرانيون، على العكس، تمكنوا من السيطرة على أراضي حدود التصريف النهري. كانوا يحفرون الآبار، ويقيمون السدود على القنوات وكان لديهم كمية كافية من الماء. وهكذا نشأت على حدود التصريف مزارع ذات حدائق، وبما أن الأرض كانت خصبة، لم ينشغل الأوكرانيون بالخبز. وفي عهد

يكاترينا الثانية (١٧٦٢-١٧٩٦) أدت حملتان عسكريتان روسيتان إلى غزو الساحل الشمالي للبحر الأسود ثم شبه جزيرة القرم واختفى تهديد التتار وأصبحت مساحات السهوب الجديدة متاحة للأعمار.

في القرن الثامن عشر ازداد عدد السكان الأوكران بشكل سريع، وفي تكوينه كان هناك العديد من أصحاب الطاقة الخلاقة؛ لأن أسلافهم من أصحاب الطاقة الخلاقة، الذين خاطروا برؤوسهم في صراعات نهاية القرن السابع عشر، تمكنوا من ترك ذرية قانونية وغير قانونية. تم تسجيل الغالبية العظمى من القوزاق الأوكران؛ لذلك كان كل شخص تقريبا لديه الفرصة في مستقبل مهني. وطوال القرن الثامن عشر انشغل الأوكرانيون بذلك. ونتيجة لذلك، تزوجت "أنا إليزافيتا بيتروفنا" ابنة القيصر بطرس الأول من أليكسي رازوموفسكي (كان الزواج غير المتكافئ[١١] سببا في عدم الإعلان عنه).

أصبح شقيق أليكس رازوموفسكي، كيريل الآتمان الأخير لأوكرانيا. وعلى الرغم من أن أوكرانيا خسرت حكمها الذاتي تحت حكم يكاترينا الثانية، فإن موقف الأوكرانيين لم يتزعزع لدى القصر: كان يقوم بواجبات المستشار العظيم للإمبراطورية الكونت بيزبورودكو، الذي صاغ عقيدته السياسية في الكلمات التالية: "ما ستريده الملكة، هو ما سيكون"، لم تكن لهجة أو أصل بيزبورودكو يضايق أي شخص، ولم يمنعوه من أن يصبح المسؤول الأول في الدولة.

ربما، كان هذا التسامح المتبادل بين الأوكرانيين والروس العظماء أهم دليل على صحة الاختيار الذي اتخذه مجلس الشيوخ الأوكراني (الرادا) بانتخاب بيرياسلاف في عام ١٦٥٤.

الهوامش

(١) الآريوسية واحدة من الاتجاهات المبكرة في المسيحية في القرن الرابع – السادس الميلادي، وكانت تؤكد على عدم وحدة الإله الابن مع الإله الأب، وسميت نسبة إلى اسم مؤسس هذا الاتجاه الكاهن السكندري أريوس، الذي توفي عام ٣٣٦م. (المترجم)

(٢) كلمة روسية تعني نوعًا من المستوطنات الزراعية وكانت توجد في إمارة لاتفيا، ثم في الإمبراطورية الروسية بعد ذلك، وضمت بعض مناطق بولندا. (المترجم)

(٣) كلمة روسية تعبر عن طبقة روسية نشأت بعد توسع الحدود الجنوبية الروسية، وكانت تتكون من ملاك الأراضي العسكريين، الذين يعيشون على أطراف الدولة ويحمون حدودها. (المترجم)

(٤) مجموعة من المعايير الأخلاقية والسلوكية داخل المجتمع تدين بشكل قاطع النزعة الفردية ورغبة الفرد في معارضة مجموع "أبناء دينه". (المترجم)

(٥) في ذلك الوقت كان سكان بولندا الأرثوذكس بالكامل يدعون أنفسهم روسًا، في حين أن كلمة "أوكراني" كانت تعني حينها ببساطة أحد سكان الأطراف. في نفس الوقت كان الروس الذين عاشوا في الدولة الروسية يختلفون بوضوح عن روس بولندا وكان يطلق عليهم اسم "روسيسكي". ويمثل هذا الاختلاف تثبيتًا نموذجيا للانتماء للعرق الأعلى المشترك.

(٦) الكورين كلمة روسية، وكانت وحدة التقسيم الإداري لدى الزابوروجيين، وهي قرية تتكون من ١٠٠ منزل. (المترجم)

(٧) الرادا هو اسم لمجلس الشعب أو البرلمان في بعض الدول السلافية. (المترجم)

(٨) مدينة في إقليم دنيبربتروفسكي في أوكرانيا. (المترجم)

(٩) أوكرانيا الضفة اليسرى هي الأراضي الواقعة على الساحل الأيسر لاتجاه نهر الدنيبر. (المترجم)

(١٠) أوكرانيا سلوبودا هي منطقة تاريخية في الشمال الشرقي من أوكرانيا الحديثة. (المترجم)

(١١) الزواج بين الأشخاص الذين لا يتمتعون بوضع متكافئ، حيث لا يحصل الزوج (أو الزوجة) من الطبقة الأدنى نتيجة لهذا الزواج على نفس الوضع الاجتماعي للطبقة الأعلى. (المترجم)

الفصل الرابع

على المساحات الشاسعة لأوراسيا

في عمق دولة جوتشي خان[1]

تجلت بوضوح في العلاقات بين روسيا وأوكرانيا تلك السمة المميزة للإنسان الروسي، وهي التسامح تجاه عادات وتقاليد الشعوب الأخرى. كان مواطننا العظيم الأديب دوستويفسكي محقا عندما قال: إنه إذا كان من سمات الفرنسيين العزة وحب الجمال، ومن سمات الإسبان الغيرة، ومن سمات الإنجليز الصدق وحب المعرفة والتفاصيل، ومن سمات الألمان الدقة، فإن الروس لديهم القدرة على فهم وقبول كل الشعوب الأخرى. وبالفعل الروس يفهمون، على سبيل المثال، الأوروبيين أفضل بكثير من فهم الأوربيين للروس. كان أسلافنا يدركون تمامًا تفرد أسلوب حياة تلك الشعوب التي واجهوها، ولذلك استمر التنوع العرقي في روسيا في الزيادة.

في نفس وقت النضال في أوكرانيا سارت على قدم وساق عملية انتقال العرق الأعلى الروسي إلى الشرق، والتي بدأت في القرن السادس عشر بالاستيلاء على حدود الفولغا (خانات كازان وأستراخان). خرجت روسيا إلى أراضي غابات سيبيريا التابعة لدولة "جوتشي خان". وكانت حدود مملكة موسكو مفقودة في جبال الأورال، التي كان نهر كاما يقسمها إلى المنطقة الشمالية (الغابات) والمنطقة الجنوبية (السهوب). كان هناك شعبان في سهوب الجنوب: البشكير والنوجاي. وفي الشمال، وعلى مسافة آمنة من سكان السهوب، في النصف الثاني من القرن السادس عشر بدأت تنمو المستوطنات التجارية الصناعية: المحطات التجارية. وهنا أظهر آل ستروجانوف[٢] طاقتهم الخلاّقة.

كما نتذكر، كانت دولة جوتشي خان في القرن الثالث عشر تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: القبيلة الذهبية (على نهر الفولغا) والقبيلة البيضاء (على نهر إيرتيش) والقبيلة الزرقاء. في المساحات الشاسعة التابعة للقبيلة الزرقاء والممتدة من تيومن إلى "مانجيشلاك" حاول "شيباني خان" وأحفاده الحفاظ على التقاليد المهجورة لنظام الدولة المنغولية. لكن في القرن السادس عشر كان عليهم مواجهة معارضة الأمراء المحليين.

في عهد إيفان الرهيب كان هناك صراع بين أحد زعماء القبائل، اسمه يديجر، وشيبانييد كوتشوم من أجل الحق في قيادة القبائل السيبيرية. وفشلت محاولة يديجر الاعتماد على قوات موسكو في هذا الصراع. لم يكن لدى "جروزني" المشغول بالحرب الليفونية أي قوات إضافية للقيام بالرحلة السيبيريّة دعما ليديجر. في عام ١٥٦٣م انتصر كوتشوم وأصبح "قيصر" سيبيريا، وتحولت هجمات جنوده إلى تهديد مستمر لـ"مدن" ستروجانوف. ولكن بعد أن بدأ هذا الصراع، بالغ كوتشوم في تقدير قواه الخاصة. في أواخر القرن الخامس عشر شهدت القبيلة الزرقاء تدفق هائل من الطاقة الخلاقة. وغزا حاكمها "شيباني خان" آسيا الوسطى، قاهرا ممتلكات التيموريين[٣]. استطاع، بعد الوصول إلى نهر أمو داريا (جيحون)، الاستيلاء على أراضي شاسعة ذات سكان أثرياء ومثقفين. جنبا إلى جنب مع شيباني غادر الجزء الأكثر نشاطا وقدرة على القتال من سكان القبيلة الزرقاء إلى آسيا الوسطى، وهو الأمر الذي أثر بعد عشرات السنين سلبا على مصير مملكة كوتشوم.

بحلول السبعينيات من القرن السادس عشر أدت صدامات سلالة ستروجانوف مع التتار إلى حرب مفتوحة. ولحماية ممتلكاتهم قام الصناعيون

بتجنيد وحدات من القوزاق وغيرهم من "الراغبين". في عام ١٥٨١م اتجهت وحدة استأجرها آل ستروجانوف وكان يرأسها الأتامان يرماك إلى سيبيريا لمحاربة الخاقان كوتشوم. كان تشكيل تلك الوحدة العسكرية متنوعا. جنبا إلى جنب مع الروس العظماء والقوزاق كان هناك أيضا محاربون آخرون مثل التتار، الليتوانيون، بل والمتطوعون من بين الأسرى الألمان. أما بالنسبة لحجم المفرزة، فقد بدت قوات يرماك متواضعة: كان عدد القوزاق أكثر بقليل من ٥٠٠ شخص، وكان عدد "الأشخاص المحاربين" ٣٠٠.

كما نرى، منذ بداية تعمير سيبيريا لم يذهب القوزاق وحدهم إلى الشرق. في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ذهب بنشاط إلى سيبيريا أيضا سكان الشمال الروسي، وفي المقام الأول سكان أوستيوج العظمى، الذين أرادوا تجربة حظهم وراء الحزام الحجري[٤]. عادة كانت كل وحدة عسكرية مرسلة إلى سيبيريا تتكون من نواة رئيسية مؤلفة من القوزاق والأوستيوجيون الذين انضموا إليهم. كان يطلق عليهم جميعًا اسم "الكشافة". تنقل القوزاق والروس العظماء سوية عبر أماكن برية، وجروا القوارب عبر منحدرات الأنهار، وقاتلوا جنبًا إلى جنب، وتذكروا دومًا من منهم كان قوزاقًا، ومن منهم روسيًا وأوستيوجيًا. وإذا حكمنا من خلال مواد باحث كبير في شئون شمال شرق سيبيريا مثل المؤرخ بوجوراز، فإن الفرق بين أحفاد القوزاق والروس العظماء ظل واضحًا هناك حتى بداية القرن العشرين.

كانت بعثة يرماك ١٥٨١م، على الرغم من قلة عدد مفرزته، ناجحة جدا. استولى المستكشفون على عاصمة كوتشوم – مدينة "اسكر". وتوجهت رسالة من آل ستروجانوف الى موسكو تعلن "زيادة" الدولة الروسية بأراضي

سيبيريا الواسعة. ولإقرار النظام في المناطق الجديدة على الفور جاء القائدان (الأمير بولخوفسكي وجلوخوف). اللذان كانا قد انضموا إلى القوزاق في ١٥٨٣م. كانت الحرب مع كوتشوم طويلة وتسير بنجاحات متغيرة. تمكن كوتشوم في عام ١٥٨٤م من إلحاق هزيمة حاسمة بالقوزاق (قُتل يرماك نفسه حينها)، واستولى على عاصمته مرة أخرى. لاحقا أصبح التقدم الروسي إلى الشرق لا رجعة فيه: كوتشوم تراجع إلى سهوب بارابينسك، ومن هناك كان يزعج الممتلكات الروسية بالغارات. في عام ١٥٩١م تمكن الأمير كولتسوف موسالسكي من إلحاق هزيمة بالخاقان الأخير لسيبيريا، واضطر كوتشوم إلى اللجوء إلى القيصر متوسلاً إرجاع دولته المسلوبة، متعهدًا بالطاعة الكاملة. وهكذا انتهى تاريخ القبيلة الزرقاء.

وقد ينشأ سؤال: لماذا تصرفت شعوب السهوب القوية بذلك القدر من السلبية: الأويرات (المغول الغربيون) والكازاخ؟ لم يلعب أي منهما دورًا نشطًا في صراع كوتشوم مع الكشّافة الروس والقادة العسكريين. ربما يرجع ذلك إلى حقيقة أن قوات الأويرات البوذية وقوات الكازاخ المسلمة كانت مشغولة بصراعاتها الداخلية، وحقيقة أن الروس، الذين تقدموا في غابات سيبيريا، لم يشكلوا أي تهديد لسكان السهوب. وشعوب شمال سيبيريا: الاوستياك (شعب خانتي)، الفوجول (شعب مانسي)، التونجوس (الإيفينك)، الساموي (شعب نينيتس) – لم تدخل أيضا في صراع مع الروس. من الواضح أن أيا من الطرفين لم يعط أي سبب للنزاع.

في نهاية القرن السادس عشر بدأت مدن روسية في الظهور في سيبيريا. وبالفعل في عام ١٥٨٥ أنشأ القائد منصورروف مدينة صغيرة في مصب نهر إرتيش. وسرعان ما ظهرت مدن تيومين، توبولسك، بيليم، بيريزوف، سورجوت، تارا، ناريم.

عندما انتهت حقبة الاضطرابات، استأنف الروس تقدمهم إلى الشرق بقوة جديدة، وبحلول عام ١٦٢١م كان من الضروري إنشاء أبرشية توبولسك الأرثوذكسية.

كان هناك طريقان يؤديان من غرب سيبيريا إلى الشرق الأقصى. كان الأوستيوجيون ينتقلون بالأساس عبر مدينة مانجازيا إلى الشمال الشرقي، بينما كان القوزاق في الغالب يتجهون الى إقليم البايكال. بعد عام ١٦٢٥م التقى القوزاق بشعب قريب منهم "البوريات"، وفي الثلاثينيات من القرن السابع عشر عمر الفارانجيون(٥) الروس حوض نهر لينا. كان الكشافة في النصف الأول من القرن السابع عشر قد أنشأوا تومسك، وينيسكس، وياكوتسك، وكراسنويارسك، وإيركوتسك. ولكن من المعروف أن أفضل مؤشر على كثافة تنمية المناطق الجديدة هو ظهور المدن والبلدات الصغيرة. قاد العقد التالي الروس إلى حدود أوراسيا. نتيجة لبعثة استكشافية لمدة ثلاث سنوات بلغ ف.د بوياركوف بحر أوخوتسك (١٦٤٥م)، بعد أن هبط مع نهر آمور. وفي ١٦٤٨-١٦٤٩م سارت بعثة يروفي خاباروف في التيار المتوسط لنهر امور.

على طول الطريق العملاق "نحو الشمس" لم يواجه المستكشفون عمليا مقاومة منظمة خطيرة. الاستثناء الوحيد كان الصدام بين القوزاق وشعب المانشو (الجورشن) على الحدود الصينية في الثمانينيات من القرن السابع عشر. منذ القرن الثاني عشر وحتى بداية القرن العشرين كان شعب المانشو، الذي تحدثنا عنه في تاريخ الدولة المنغولية، يسيطر على الصين، وكان لديه ما يكفي من الطاقة الخلاقة.

أوقف شعب المانشو – وهو شعب شجاع ونبيل – القوزاق، الذين في محاولة للتعزيز أقاموا قلعة البازين على نهر أمور (١٦٨٦م)، لكن المانشو طالبوا بإخلاء القلعة. رفض القائد تولبوذين وتجددت الحرب مع المانشو. في حامية ألبازين كان هناك عدة مئات، كان ضدهم أكثر من ألف شخص من المانشو. أُجبر المحاصرون على الاستسلام وترك القلعة، وتم تدمير البازين، ولكن القوزاق العنيدين و"الأحرار" في العام التالي، ١٦٨٨م، قاموا ببناء قلعة جديدة في نفس المكان. لم يتمكن المانشو من الاستيلاء على القلعة مرة أخرى، ولكن تم التخلي عن البازين من قبل الروس طبقا لاتفاقية سلام نيرتشينسك (١٦٨٩م).

عمليا على مدى قرن، منذ حملة يرماك تيموفييفيتش (١٥٨١–١٥٨٣م) وحتى الحروب مع المانشو على نهر أمور (١٦٨٧–١٦٨٩م)، عبر المستكشفون المسافة من جبال الأورال إلى المحيط الهادئ، ورسخت روسيا نفسها بسهولة وسرعة في هذه المساحة الشاسعة. دعونا نحاول الإجابة عن السؤال: لماذا حدث هذا؟ أولاً، كان المستكشفون الروس أصحاب طاقة خلاقة كبيرة: كانوا قاسين ومبادرين ومثابرين، ولذلك غالبًا ما كانوا يواجهون مشاكل مع القادة العسكريين.

اجتذبت سيبيريا أشخاصًا أقوياء الإرادة لم يكونوا يخشون سكان سيبيريا الأصليين، والصقيع، والمساحات الشاسعة. لكن، كما رأينا في مثال يرماك، تحرك القادة العسكريون على خطى المستكشفين في محاولة لوقف أعمالهم الوحشية، وأرغموهم على الذهاب أبعد وأبعد. كانت تصرفات المديرين منطقية ومفهومة تمامًا: كانوا يدافعون بكل قوتهم عن الأجانب، الذين كانوا يدفعون ضريبة الياساك[٦] للخزانة في شكل فراء. وكانت

محاولات القادة العسكريين لإقرار النظام مبررة بالمعنى الأخلاقي. كانت شعوب سيبيريا في القرن السابع عشر في مرحلة التوازن العرقي: التوازن مع البيئة الطبيعية. ببساطة لم يكن لديهم ما يكفي من القوة للدفاع عن أنفسهم ضد اضطهاد أصحاب الشغف الخلاق الروس.

ثانيا، أثناء تقدم أسلافنا إلى سيبيريا، لم يتجاوزوا حدود المناظر الطبيعية التي تمدهم بالغذاء أي: وديان الأنهار. فقد بدأوا في العيش على طول ضفاف أنهار أوب، وينيسي، وأنجارا والعديد من الأنهار السيبيرية الأخرى، تماما كما كان يعيش الشعب الروسي على طول ضفاف أنهار الدنيبر، وأوكا، والفولغا.

ثالثا – وهو الأهم من وجهة نظر التكوين العرقي – أقام معظم المهاجرين الروس بسهولة اتصالات مثمرة مع شعوب سيبيريا والشرق الأقصى. ليس من قبيل المصادفة أن مقاومة هجرة الروس كانت لا تذكر. الصراعات مع الروس التي ظهرت في البداية مع "البوريات" و"الياكوت"، سرعان ما تمت تسويتها، ولم يكن لها عواقب وخيمة في شكل صراع وطني. كانت العاقبة العملية الوحيدة للوجود الروسي على السكان الأصليين هي ضريبة الياساك (دفع واحد أو اثنين من فراء حيوان السمور في السنة)، والتي كان يعتبرها الأجانب بمثابة هدية، مجاملة "للقيصر الأبيض". مقارنة بموارد الفراء الضخمة لسيبيريا، كانت الضريبة ضئيلة، بينما في الوقت نفسه كان الشخص المدرج في قوائم "دافعي الياساك" يتلقى ضمانات قوية من الحكومة المركزية بحماية حياته وممتلكاته. لم يكن لدى أي قائد عسكري الحق في إعدام "دافع ياساك" أجنبي: كانت تُرسل جميع القضايا إلى موسكو للنظر فيها، ولم توافق موسكو مطلقًا على أحكام إعدام للسكان الأصليين.

وهناك حالة شهيرة، عندما تم إرسال كاهن بوذي (لاما) بورياتي كأجنبي "دافع للياساك" إلى موسكو، وهناك تم العفو عنه ببساطة، وكان قد حاول إثارة انتفاضة من أجل طرد جميع الروس وتسليم إقليم البايكال الى المانشو.

مع ترسيخ سلطة قيصر موسكو لم يتغير شكل حياة سكان سيبيريا المحليين إطلاقا، لأنه لم يحاول أحد كسره وجعل السكان الأصليين روسًا. بل حدث العكس على الأرجح حين وجد الروس في "الياكوت" شعبا مستقرا في مكان واحد بشكل قريب منهم بعد أن تعلم الروس لغة الياكوت وأتقنوا العادات والمهارات المحلية، اقتربوا نحوهم أكثر مما اقترب الياكوت منهم. إذا كان السكان المحليون يريدون ممارسة شعائر وثنية، فلم تكن هناك عقبات أمام ذلك. بالطبع، كانت المسيحية تبشر لهم، أحيانًا بنجاح، وفي أغلب الأحيان لا، لكن نتائج هذا التبشير كانت تهم الكهنة فقط. كان الأوستياك، والفوجول، والتونجوس يعملون كأدلة للقوات الروسية، ويصطادون، ويطاردون الغزلان، ويمارسون الشامانية وكانوا متأكدين تماما من مصيرهم. وبما أن الروس لم يبدأوا في إعادة تعليم الأشخاص الذين لم يكونوا مثلهم، بل فضلوا إيجاد لغة مشتركة مع السكان المحليين، فقد ترسخ وجودهم في سيبيريا، حيث يعيشون حتى يومنا هذا. مرة أخرى، تم التأكيد على مزايا احترام حقوق الآخرين في العيش بطريقتهم الخاصة.

دعونا نلخص ما سبق. لعقود من الزمان تمكن الشعب الروسي من السيطرة على الفضاءات الضخمة، وإن كانت قليلة السكان، في شرق أوراسيا، مع تقييد عدوان الغرب. لم يكن ضم الأراضي الشاسعة لمملكة موسكو سببه إبادة الشعوب المنضمة أو العنف ضد تقاليد وإيمان السكان الأصليين، ولكن بسبب الاتصالات الودية بين الروس والسكان الأصليين أو

التحول الطوعي للشعوب لسلطة قيصر موسكو. وهكذا، لم يكـن اسـتعمار الروس لسيبيريا شبيها لإبادة هنود أمريكا الشمالية من قبل الأنجلوساكسون، ولا تجارة الرقيق التي قام بها المغامرون الفرنسيون والبرتغاليون، ولا استغلال التجار الهولنديين لشعب جاوة. وفي الواقع في وقت هذه "الأفعال" كان الأنجلوساكسون، والفرنسيون، والبرتغاليون، والهولنديون يعيشون بالفعل عصر التنوير وكانوا يفخرون "بتحضرهم".

الهـوامـش

(١) دولة "جوتشي خان" هي تسمية أخرى للقبيلة الذهبية وجوتشي خان هو الابن الأكبر لجنكيز خان. (المترجم)

(٢) عائلة من التجار والصناعيين الروس، الذين جاء منهم كبار ملاك الأراضي ورجال الدولة في الفترة من القرن السادس عشر إلى العشرين. (المترجم)

(٣) سلالة تيمورلنك. (المترجم)

(٤) "الحزام الحجري" تشبيه أدبي لجبال الأورال. (المترجم)

(٥) المهاجرون من الدول الأسكندنافية والشعوب المجاورة – سلاف منطقة بحر البلطيق، وكان الفارانجيون محاربين مرتزقة أو تجارًا في الدولة الروسية القديمة. (المترجم)

(٦) ضريبة عينية في روس موسكو كان يدفعها بعض شعوب الفولجا وسيبيريا والشرق الأقصى. (المترجم)

الفصل الخامس

الكنيسة والسلطة

أسباب الانقسام

- القيصر والبطريرك
- النيران
- الحكومة والرماة
- الخوفانشينا

في القرن السابع عشر كانت روسيا في انتظار أحداث هزت الأساس الروحي للدولة والكنيسة. لقد ذكرنا بالفعل صراعات القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وفي القرن السابع عشر استمرت النزاعات الفكرية في شكل متطرف لانقسام الكنيسة. وكما هو الحال دائمًا في مرحلة الذروة، ومع الحماس العام للصراع على السلطة يتراجع الاهتمام بالاحتياجات الاقتصادية، والاهتمام بالتعليم والثقافة وغيرها. أصبحت الحياة روتينًا يوميًا، أي عادات، ونمط حياة معتاد، وتقاليد، أما عصر الاضطرابات فقد أغرق البلاد في فوضى عارمة.

ظهرت الفوضى في الكنيسة أيضا، التي لم تستطع أن تؤدي دور "الطبيب الروحي"، وحارس أخلاق الشعب. وبطبيعة الحال، بعد عصر الاضطرابات أصبح إصلاح الكنيسة مشكلة أكثر إلحاحًا. لم يتم تنفيذ الإصلاح من قبل الأساقفة، ولكن من قبل الكهنة وفي مقدمتهم: القمص إيفان نيرونوف، وستيفان فونيفاتييف الأب الروحي للقيصر الشاب أليكسي ميخائيلوفيتش، وأفاكوم ذائع الصيت. وتحرك هؤلاء "الغيورون على التقوى" في اتجاهين. أولاً، في مجال "المسيحية الاجتماعية"، الذي ينطوي على عظات شفوية وعمل مباشر بين الرعية: وفي مقدمتها إغلاق حانات الخمور، وإنشاء دور للعجزة والأيتام. وثانيًا، انخرطوا في تصحيح الطقوس وكتب الطقوس العبادية.

كانت مسألة ما يسمى بالصلاة المتعددة شائكة. في معابد روسيا العظمى، كانت تُمارس صلوات متزامنة لقديسين مختلفين وأعياد مختلفة لتوفير الوقت، لأن الصلوات كانت طويلة جدًا ولم يكن لدى سكان موسكو الوقت لأداء جميع الصلوات: فتارة يذهبون الى القبيلة الذهبية، وتارة إلى تفير، وتارة هناك مناوشات مع التتار. في الأوقات السابقة لم يهتم أحد بالصلاة المتعددة. ولكن في عصر التمردات والمدعين كان ينظر إليها بشكل آخر، فالآن على ما يبدو، وهذا هو السبب، أن أبناء الرعية يخرجون من تأثير كلمة الرب. واستوجب هذا تصحيحا وتم التصحيح، وانتصرت الصلاة الواحدة.

ولكن لم تنته حالة الصراع بهذا، بل على النقيض اتسع الصراع، وكان من أسبابه الاختلافات بين طقوس موسكو والطقوس اليونانية، وفي المقام الأول في تشكيل الأصابع عند التصليب: كان الروس العظماء يصلبون بإصبعين، أما الإغريق فبثلاثة أصابع. أدت هذه الاختلافات إلى نزاع حول الصحة التاريخية. كان من علامات الخلاف التصليب بإصبعين، والصليب الثماني، والصلاة بسبعة برسفورات[١]، وقول "هللويا" مرتين، والمشي في اتجاه الشمس أثناء الطقوس وغيرها.

أثبت بعض المؤرخين (خاصة جالوبينسكي مؤرخ الكنيسة الأكثر موثوقية) أن الروس لم يشوهوا الطقوس على الإطلاق، وأنه في كييف تحت حكم الأمير فلاديمير كانوا يصلبون بأصبعين، تماماً كما كان يتم التصليب في موسكو حتى منتصف القرن السابع عشر. والحقيقة أنه في فترة تنصير روس كان في بيزنطة يُستخدم اثنتان من طرق إقامة الطقوس: طريقة القدس وطريقة ستوديت[٢] اللتان كانتا تتناقضان بعضهم البعض. قَبِل السلاف

الشرقيون الطريقة الأولى والتزموا بها؛ وسادت الطريقة الثانية لدى اليونانيين، وسارت الشعوب الأرثوذكسية الأخرى خلف اليونان، بما في ذلك الروس الصغار[٣].

وبشكل عام يجدر القول، إن الطقوس ليست عقائد. يجب أن تكون العقائد مقدسة وغير قابلة للخرق، أما الطقوس فمن الممكن أن تتغير، وهو ما حدث في روسيا أكثر من مرة، ودون أية صدامات. على سبيل المثال، في عهد المطران كيبرياني: في عام ١٥٥١م حثت كاتدرائية ستوجلافى سكان "بسكوف"، الذين استخدموا التصليب بثلاثة أصابع على العودة إلى التصليب بأصبعين. ولكن بحلول منتصف القرن السابع عشر تغيرت الظروف جذريا. كانت "روسيا المستنيرة" تغادر إلى الماضي بوحدتها النسبية في نظرتها للعالم وسلوك الناس. واجهت البلاد خيارًا من ثلاثة:

- الانعزالية (طريق أفاكوم)؛
- إقامة إمبراطورية أرثوذكسية دينية عالمية (طريق نيكون)؛
- السير في ركب القوى الأوروبية (اختيار بطرس) مع تبعية الكنيسة الحتمية للدولة.

هذا وقد أدى انضمام أوكرانيا لروسيا مسألة الاختيار أكثر إلحاحا؛ لأنه كان من الضروري التفكير في توحيد طقوس الكنيسة. كان رهبان كييف، الذين ظهروا في موسكو قبل انضمام أوكرانيا، وأبرزهم كان يبيفاني سلافينيتسكي، يصرون على تصحيح صلوات الكنيسة والكتب وفقا لأفكارهم.

في هذه اللحظة الحرجة توفي البطريرك جوزيف (١٦٥٢م)، وكان من الضروري انتخاب بطريرك جديد. في ذلك الوقت في موسكو كان من

المستحيل إقامة أي فعالية حكومية أو كنسية دون مباركة البطريــرك. كــان القيصر أليكسي ميخائيلوفيتش نفسه، وهو رجل تقي وورع، مهتما بشكل كبير بانتخاب بطريرك في أسرع وقت، وكــان يريــد أن يــرى علــى العــرش البطريركي "صديقه المقرب" – المطران "نيكون" من نوفغورود، الذي كــان يجله ويحترمه.

القيصر والبطريرك

كان بطريرك موسكو القادم نيكون يسعى للمجد ومتعطــشًا للــسلطة، تعود أصوله إلى الفلاحين الموردوفيين، وقبل الرهبنة كان يحمل اسم نيكيتــا مينيتش. بعد أن حقق مستقبلا مهنيا لافتا، أصبح نيكــون مــشهورًا بطباعــه الصارمة وشدته المميزة لحاكم دنيوي أكثر منه أسقف كنيسة. غيــر مكتــفٍ بتأثيره الهائل على القيصر وبسلطته على البويار، واستنادا لمبدأ "الرب فــوق القيصر"، فكر نيكون في إضفاء الشرعية على حقوقه مــن خــلال اكتــساب سلطة في الدولة مساوية لسلطة القيصر.

وقد تم تقرير قضية انتخاب نيكون للعرش البطريركي سلفًا، حيث أيــد العديد من البويار رغبة القيصر، وأيــد ترشــيح نيكــون بطاركــة الــشرق الأرثوذكس: بطاركة القسطنطينية، والقدس، وأنطاكية، والإســكندرية. كــان نيكون، بالطبع، يعلم هذا، ولكن رغبة في الحصول علــى الــسلطة المطلقــة ضغط مُمارسًا نفوذه. وخلال إجراءات تنصيب البطريــرك رفــض بــشكل استعراضي قبول علامات الكرامة الأبوية في وجود القيصر. شــعر الجميــع بالذهول، وركع أليكسي ميخائيلوفيتش نفسه والدموع في عينيه وتوسل إلــى نيكون لعدم التخلي عن المنصب. وهنا سأل نيكون بشدة عما إذا كــان ســيتم تكريمه كأبٍ ومرشد في حالة انتخابه وما إذا كان ســيُمنح الفرصــة لتنظــيم

الكنيسة وفقًا لرغباته. وفقط بعد تلقي الكلمة الملكية وموافقة جميع الحاضرين على ذلك، وافق نيكون على أخذ رمز السلطة الأبوية: صولجان بطرس أول مطران روسي عاش في موسكو.

نفذ القيصر وعده، حيث حصل نيكون على سلطة هائلة ولقب "الملـك العظيم" المماثل للقب القيصر (١٦٥٢م). ولكن نظـرا لكونـه رجـلاً مـن أصحاب الطاقة الخلاقة، لم يكن نيكون، وفقًا لـروح العـصر، مقيـدا فـي استخدام سلطته على أهل الكنيسة فحسب، ولكن أيضًا على الأمراء والبويار. لذلك، كان على أليكسي ميخائيلوفيتش في بعض الأحيان أن يأخذ قلمه ويكتب رسائل يطلب من نيكون أن يكون أكثر ليونة تجاه هذا النبيـل أو ذاك، الـذي ارتكب مصيبة إغضاب البطريرك.

في البداية لم يشعر " الغيورون على التقوى" بخوف مـن البطريـرك المنتخب حديثًا، لأنهم كانوا على معرفة به لفترة وجيزة وكانوا ينتمون إلـى المذهب نفسه. مثلهم تمامًا، كان نيكون مؤيدًا لتطبيق الصلاة الواحدة، وفـي بداية فترته كبطريرك كان يُصلِّب بإصبعين. لكن يبيفاني سلافينيتـسكي لـم يضيع الوقت هباء: بعد فترة تمكن من إقناع نيكـون بـأن أصـدقاءه كـانوا مخطئين وأنه لا يزال من الضروري تصحيح كتب الكنيسة. أثنـاء الـصوم الكبير في عام ١٦٥٣م، أمر نيكون الناس في مذكرة خاصة بقبول التـصليب بثلاثة أصابع. عارض أنصار فونيفاتييف ونيرونوف هذا، وتم نفيهم من قبـل نيكون. في نفس الوقت وصل إلى موسكو البطريرك مكـاريوس بطريـرك أنطاكية المعجب الشديد بنيكون (وبعد فترة عدو بنفس القدر)، وتم الإعـلان رسميًا عن تطبيق التصليب بثلاثة أصابع في البلاد، وأولئك الـذين واصـلوا استخدام الأصبعين أثناء الصلاة، كانوا ملعونين من الكنيسة. وفي وقت لاحق

(١٦٥٦م) أكد مجلس الكنيسة هذا الأمر، وافترقت مسارات نيكون وأصدقائه السابقين تمامًا.

من المثير للاهتمام أن موقف نيكون من أصدقائه السابقين تحديدا يصف بوضوح بديهيات سلوكه. عندما قرر إيفان نيرونوف، المنفي من قبل نيكون، أن يوافق على الأمور الجديدة، غُفِر له على الفور وتعامل نيكون معه بتسامح مقابل خضوعه غير المشروط لسلطته الأبوية. لكن لم يرغب الكهنة أمثال "أفاكوم" في التضحية بضميرهم والانحناء لسلطة نيكون، استمروا في البقاء في المنفى. هذا هو السلوك الذي يميز شخص ما في مرحلة الذروة، يسعى إلى تحقيق المثل الأعلى للنصر: فهو لا يهتم بالحجج أو البحث عن الحقيقة في النزاعات الفكرية. المهم بالنسبة له أن يعترف الجميع بسلطته وألا يجرؤ أحد على مناقشته.

وهكذا حدث انقسام في الأرثوذكسية الروسية: مؤيدو "التقوى القديمة" وجدوا أنفسهم في معارضة السياسة الرسمية، وأوكلت قضية إصلاح الكنيسة إلى يبيفاني سلافينيتسكي واليوناني أرسيني.

السؤال المثير للاهتمام هو لماذا لم يعتمد نيكون على أصدقائه، واعتمد على الرهبان الأوكرانيين الزائرين؟ والأهم من ذلك، لماذا تم دعم سياسة نيكون هذه من قبل غالبية الرعية، والكاتدرائية، والقيصر أليكسي؟ من وجهة نظر إثنولوجية، فإن الإجابة بسيطة للغاية. دافع أنصار أفاكوم عن تفوق النسخة المحلية للأرثوذكسية، التي تطورت في شمال شرق روسيا في القرن الرابع عشر، على التقاليد الأرثوذكسية العالمية (اليونانية). "التقوى القديمة" يمكن أن تكون منصة لقومية موسكو الضيقة وتتوافق مع المثل الأعلى لـ "روما الثالثة"، و"روس المقدسة".

من وجهة نظر أفاكوم كانت أرثوذكسية الأوكرانيين والصرب والإغريق غير مكتملة، وإلا، لماذا عاقبهم الرب، وجعلهم تحت سلطة أصحاب عقيدة أخرى؟ وبالتالي، لا يمكن أن تكون أرثوذكسية أفاكوم هي الأساس الرابط للعرق الأعلى كتجمع لشعوب قريبة، ولكنها مختلفة. كان ممثلو هذه الشعوب يعتبرون أن المؤمنين القدامى[٤] هم ضحايا ضلالة ويحتاجون إلى إعادة تعليم. بالطبع، لم يكن هذا الأمر يثير لدى أحد تعاطفاً مخلصًا ورغبة في الاتحاد مع موسكو. لقد فهم كل من القيصر والبطريرك هذا الأمر الدقيق تمامًا. ولذلك، سعيًا إلى تنمية وتوسيع سلطتهم، اتجهوا للأرثوذكسية العالمية (اليونانية)، التي لم تكن فيها أرثوذكسية الروس، وأرثوذكسية الأوكران، وأرثوذكسية الصرب سوى أشكال مقبولة لها.

وينحصر الإسهام التاريخي للبطريرك نيكون في تأسيس الطابع العالمي للأرثوذكسية الروسية. ولكن، للأسف، ظل الطبع الصارم لنيكون مؤثرًا، مما أدى تدريجياً إلى خلق العديد من الأعداء بين البويار، الذين حاولوا بشتى الطرق أن يفسدوا العلاقات بين البطريرك والقيصر، ونجحوا في ذلك. وبدأ الأمر من شيء تافه. في عام ١٦٥٨م وأثناء العيد المعتاد، ضرب أحد أعضاء البويار رجلا من البطريركية بالعصا، عندما كان يفسح الطريق للقيصر، كما جرت العادة. استاء رجل البطريركية، واصفا نفسه بـ "الابن البويار البطريركي"، وهنا تلقى على الفور ضربة أخرى بالعصا – على جبهته.

وعندما علم نيكون بالواقعة، غضب غضبا شديدا وطلب من أليكسي ميخائيلوفيتش التحقيق ومعاقبة البويار المذنب. ولكن لم يبدأ التحقيق، وبقي المذنب دون عقاب. ونظرًا لتغير موقف الملك تجاهه، قرر نيكون مرة أخرى

اللجوء إلى الجمع الذي كان قد سبق له أن واجهه أثناء توليه العرش البطريركي. بعد القداس في كاتدرائية الصعود، خلع ملابسه الأبوية وأعلن أنه يترك منصب البطريرك وذاهب للعيش في دير البعث المحبب له بالقرب من موسكو، والمسمى بـ "القدس الجديدة". ولم تنجح محاولات الشعب في منع البطريرك. وعلى الرغم من أن الناس قاموا بفك الخيول من عربته، لم يغير نيكون قراره وذهب إلى "القدس الجديدة" سيرا على الأقدام.

أصبح العرش البطريركي خاليا. عول نيكون على خوف أليكسي ميخائيلوفيتش، ولكن أخطأت حساباته. القيصر لم يأتِ إليه، وبدأت سنوات طويلة من صراع نيكون من أجل العرش البطريركي. وتقلبات هذا الصراع مثيرة للغاية، لكنها ذات أهمية ضئيلة لموضوعنا. حاول القيصر الحصول من نيكون على الرفض النهائي للقب البطريركي وإرجاع السلطات البطريركية، بحيث يمكن انتخاب بطريرك جديد. كان نيكون يحاول إثبات أن له الحرية في العودة إلى العرش البطريركي في أي وقت. كان هذا الوضع، بطبيعة الحال، لا يطاق على الإطلاق.

وحينها لجأ أليكسي ميخائيلوفيتش إلى وساطة البطاركة العالميين. ومع ذلك، لم يكن من السهل انتظار وصولهم: فقط في عام ١٦٦٦م وصل اثنان من البطاركة الأربعة إلى موسكو: بطريرك أنطاكية وبطريرك الإسكندرية، الذين كانوا يملكون، مع ذلك، سلطة البطاركة الأرثوذكس الآخرين: بطريرك القسطنطينية وبطريرك القدس. وعلى الرغم من كل حيل ومقاومة نيكون، فإنه مثل أمام محكمة البطاركة وحُرم من رتبته. ومع ذلك، فإن نفس المجمع ١٦٦٦-١٦٦٧م أكد صحة جميع الإصلاحات الكنسية التي أجراها نيكون. تمت الموافقة على تجديدات البطريرك رسميًا، لكن كان مقدرا لنيكون نفسه

مراقبة انتصار سياسته كراهب بسيط منفى إلى دير شمالي نائي. أما مصير أفاكوم فكان مختلفاً تمامًا.

النيران

لم يوقف الكاهن الموصوم والمنفي إلى بوستوزيركس عمله الوعظي. كان الحجاج الذين يأتون إليه حاملين رسائل كثيرة في عصيهم تفضح اتباع البطريرك نيكون، وتدعو إلى حماية تقاليد "التقوى القديمة". في نفس الوقت، لم يقتصر المنشقون على الدعوة للطقوس القديمة، بل دعا الكثير من الوعاظ إلى حرق النفس باعتبارها السبيل الوحيد لإنقاذ الروح. على الرغم من الاعتقاد الشائع بأن أفاكوم كان صاحب الدعوة لحرق النفس، فإنه في الحقيقة ليس الأمر كذلك. لم يعظ أفاكوم بحرق النفس، معتبرا إياها مجرد وسيلة واحدة في الصراع ضد النيكونيين، ومتاحة لمن يريد. أظهر أ.م بانتشينكو، الخبير الرائع في "قرن التمردات"، أن الدعوة لحرق النفس لم تأت من فراغ. سبق ذلك نظرية "تجويع النفس حتى الموت" للكاهن كابيتو، الذي ظهرت أنشطته في الثلاثينيات من القرن السابع عشر. كانت تعاليم كابيتو واحدة من العديد من الهرطقات التي تنكر الحياة والتي تنبع من الاعتراف بخيرية الانتحار. وبالطبع لا يمكن وصف هذه الآراء بالمسيحية.

كان أفاكوم، بلا شك، الخصم الأكثر أهمية للنيكونية، وبقيت شهرته كشهيد متمسك بالأخلاق ومضطهد عالية جدا حتى في نظر خصومه. وليس من قبيل المصادفة أن القيصر، من أجل التغلب على صراعات الكنيسة، اقترح على أفاكوم في عام ١٦٦٤م أن يكون الأب الروحي له. لكن أفاكوم لم يتنازل، وواصل تقديم الدعوات والفضائح، وكتب سيرته الذاتية بعنوان "حياة

الكاهن أفاكوم"، وبوجه عام، وبكل طريقة ممكنة، أزعج "السلطات" بالتعاليم. وانتهى ذلك بشكل سيئ بالنسبة له.

عندما توفي القيصر ألكيسي ميخائيلوفيتش في عام ١٦٧٦م، جلس ابنه الهادئ سهل الانصياع "فيودور ألكسيفيتش" على عرش موسكو. أولى القيصر فيودور الكثير من الاهتمام إلى مسائل التقوى، التي كان شديد الجدية تجاهها. وبمعرفته شخصية القيصر الجديد قرر أفاكوم استغلال ارتياب فيودور الورع ومحاولة إبعاده عن النيكونية. كتب رسالة إلى القيصر يخبره فيها أنه رأى في الحلم ألكيسي ميخائيلوفيتش يحترق في الجحيم بسبب ذنب ابتعاده عن الإيمان الحقيقي، ودعا فيودور ألكسيفيتش إلى رفض "السحر النيكوني" من أجل تجنب مثل هذا المصير. لكن أفاكوم أخطأ في حساباته. لم يتقبل فيودور فكرة أن والده يمكن أن يكون آثما. صدر الحكم بحرق أفاكوم وحلفائه (١٦٨٢م) بسبب "الإهانة الكبيرة لبيت القيصر".

كان استشهاد أفاكوم تفريقا نهائيا بين النيكونيين والمؤمنين القدامى. إذ إن نمط سلوك المؤمنين القدامى المغاير أخرجهم من التيار الرئيس للشعب الروسي وأنشا عرقا فرعيا أصيلا آخر. لكن في نفس الوقت لم يتم تدمير العلاقات العرقية العامة. وهكذا، ساعد المؤمنون القدامى من خلال أعمال حرب العصابات مينشكوف في الانتصار في ليسنوي (١٧٠٨م). لكن في وقت لاحق، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بعد أن انقسم المؤمنون القدامى إلى العديد من "الطوائف" و"الجماعات"، فقدوا تدريجيا الشغف الخلاق وتحولوا من عرق فرعي نشط إلى كونفيكسي[٥]. وبحلول القرن العشرين بقي لديهم فقط بعض عناصر نمط سلوكهم، التي تذكرنا بالأحداث المضطربة للتاريخ الروسي في القرن السابع عشر.

الحكومة والرماة

تطلبت الحرب مع بولندا للسيطرة على أوكرانيا – فضلا عن إعادة سمولينسك وأعمار سيبيريا – جهودا هائلة من روسيا، والتي تم تعويضها جزئيا بالنتائج المحققة: وصلت البلاد في عهد أليكسي ميخائيلوفيتش في عدد من المناطق الغربية إلى الحدود التي كانت عليها قبل حقبة الاضطرابات. ومع ذلك، اتضح أن تكاليف الشغف الخلاق كانت كبيرة للغاية لدرجة أنه بحلول بداية سبعينيات القرن السابع عشر كان هناك تراجع حاد في الشغف الخلاق بصورة جلية. وسرعان ما قاد إلى نفس العواقب المترتبة على تراجع الشغف الخلاق في النصف الثاني من القرن السادس عشر، إذ بمعنى أنه كان هناك خطر على النظام السياسي للبلاد وحتى على وجودها.

منذ حقبة الاضطرابات كانت المناطق الدنيا من نهر الفولغا تخدم روسيا من عدة نواح. فإلى هناك كان يهرب أصحاب المستوى المتدني من الهمم العالية، الذين يميلون إلى "السرقة" وليسوا بالحيوية الكافية لخدمة الحاكم أو القيام بأعمال الزراعة. كان نهر الفولغا يوفر الأسماك، وكانت المراعي الساحلية الغنية تقدم الكثير من اللحوم. ومع ذلك لم يستطع أصحاب الهمم المنخفضة أن ينظموا وجودهم، ولم يسعوا إلى ذلك. كانت أنشطتهم الرئيسية هي الغارات على الشعوب المجاورة ونهبها. وقد أدى تدفق أصحاب الشغف الخلاق من بين القوزاق وجنود موسكو إلى الحدود الغربية وإلى سيبيريا إلى جعل المناطق الدنيا من نهر الفولغا بلا حماية. وجاءت النتائج سريعا. عندما ظهر زعيم موهوب وحيوي، وهو أحد قوزاق الدون اسمه "ستيبان رازين"، ووقع بين "القوزاق الفقراء" غير المبالين انفجار.

فصول قصة كفاح رازين معروفة جيدًا ولا تتطلب عرضًا. النقطة المهمة في "برنامجه السياسي" هي تحويل كل سكان روسيا إلى قوزاق. من

وجهة نظر إثنولوجية، كان سيؤدي هذا إلى تبسيط النظام ومن غير المرجح أنه كان سيفيد روسيا. بعد كل شيء، بفضل التنوع الطبقي تمكن العرق الأعلى الروسي من مقاومة الأعداء وتشكيل ثقافته الخاصة.

في ١٦٧١م هزمت فرقة نظامية صغيرة بقيادة الأمير باريتينسكي جيش رازين بالقرب من سيمبيرسك. هرب المغامر رازين إلى نهر الدون، وسلمه القوزاق إلى حكومة موسكو.

في العاصمة تسبب تراجع الشغف الخلاق في إضعاف تدريجي لحكومة البلاد. منذ عهد أليكسي ميخائيلوفيتش أصبح تأثير ثقافة الغرب الكاثوليكي بحياته الفخمة الجذابة للطبقات العليا في دولة موسكو ملحوظًا في روسيا. وسط أعضاء البيت الحاكم، وحاشية القصر، والبويار ظهرت موضة تقليد الأثرياء البولنديين في ترفهم ومتعهم. وبطبيعة الحال، كان التقليد يتطلب الكثير من المال، وأولئك الذين لديهم مثل هذه الأموال، بدأوا في تنظيم المسارح المنزلية، وإنشاء مكتبات من الكتب اللاتينية، وجمع اللوحات وترجمات للمؤلفين اليونانيين، وحتى ارتداء اللباس "الألماني". لم يكن بطرس من جلب القفاطين الألمانية من هولندا. كان أفانسي أوردين ناشوكين، البويار المقرب من أليكسي ميخائيلوفيتش، أول من ألبس القفاطين الألمانية للعائلة المالكة وكذلك لأولاده. وعلى الرغم من أن القفاطين الألمانية لم تكن مناسبة لممارسة الألعاب الشعبية الروسية التي كان الأمراء الروس في القرن السابع عشر مولعين بها، فإنه تم التضحية بالاعتبارات النفعية لصالح الموضة.

وبحلول ذلك الوقت كان قد تم افساد التركيب الجيني للطاقة الخلاقة لدى المؤمنين القدامى: فقد وجد أكثرهم نشاطًا أنفسهم في المنفى، أو فروا إلى أطراف الدولة أو خارجها، أو هلكوا في "بقايا الحرائق". وظهر وسط المؤمنين القدماء اتجاه نحو العزلة عن العالم.

قبل خمس سنوات مـن وفاتـه تـزوج القيـصر الأرمـل أليكـسي ميخائيلوفيتش من "ناتاليا ناريشكينا". ولم يبق أبناء على قيد الحياة من زوجته الأولى ماريا ميلوسلافسكيا سوى ابنين، فيودور وإيفان، وخمس بنات، وكانوا جميعا، باستثناء الأميرة صوفيا، أشخاصًا عاديين تمامًا وغير مميـزين بـأي شيء. وأنجب أليكسي ميخائيلوفيتش من زوجته الثانية ناريشكينا ابنة بطرس – صبيًا ذا حيوية ونشاط كبيران.

في عام ١٦٧٦م بدأ عهد فيودور ألكسيفيتش. بالنـسبة لـه ولأطفـال ميلوسلافسكيا الآخرين، وكثير منهم كانوا في نفس عمر ناريـشكينا، كانـت أرملة القيصر الشابة زوجة أب. وزوجة الأب في الحيـاة الروسـية – هـي ظاهرة رهيبة: زوجة الأب غير محبوبة، ولا تحب أبناء الزوجـة الأولـى. وبالطبع لا يحدث ذلك دائمًا بهذه الطريقة، لكن الحقيقة تبقى حقيقة، حيث إنه بين الناريشكيين والميلوسلافسكيين كان هناك عداء مستمر وطويل.

كانت الزوجة محدودة الذكاء "ناتاليا كيرولوفنا ناريشكينا" ذات وضـع ضعيف في القصر، وكانت الأميرة صوفيا شخصية نـشيطة للغايـة، تـشبه والدها في شخصيته، بل أكثر، تشبه جدها الأكبر البطريرك فيلاريت. وكانت هي وأقاربها، وعلى رأسهم البويار إيفان ميلوسلافـسكي، يكرهـون ناتاليـا كيرولوفنا بشدة. ولكن ما الذي يمكن لعائلة بويار غنية أن تفعله ضد عائلـة بويار غنية أخرى؟ القليل جدا: كان من الممكن عمل مكائد، كان من الممكـن حرمان شخصية محسوبة على العائلة الأخرى من منصبها أو إرسـالها إلـى "توتما" أو "توبولسك" البعيدتين، ولكن كان من المستحيل التعامل مع العائلـة المعادية من الناحية الجسدية. فعل الميلوسلافسكيون كل ما في وسعهم، حيث قاموا في البداية بتعيين أقرب مستشاري أليكـسي ميخـائيلوفيتش، البويـار

أرتمون ماتفييف، الذي رتب زواج القيصر مـن ناريـشكينا، قائـدا لمدينـة فيرخوتوري البعيدة وبعد ذلك جردوه من رتبته ونفوه إلـى باوستوزيرسـك. جعلوا إخوة الملكة منبوذين من القصر وأبعدوا مؤيديها القليلين مـن مواقـع الإدارة. لكن لم يحن وقت انتصار الميلوسلافسكيين بعد.

في عام ١٦٨٢م مات القيصر فيودور أليكسيفيتش شـابا. وكـان مـن الممكن تنصيب أحد الأميرين – إيفان أو بطرس – على العرش، ولكن مـن الناحية الشكلية كان لدى إيفان أليكسيفيتش كل المميزات، لأنه كـان الأكبـر. ولكن لم يستطع مجلس دوما البويار ولا الشعب التوصل إلى رأي موحد. وقد تم البت في هذا الموقف من قبل البطريرك "يواكيم"، الذي كان يعتبر رسـميا الشخص الأول في الدولة. أيد يواكيم انتخاب بطـرس ألكـسيفيتش لأسـباب تتعلق بالدولة تماما: كان الأميـر إيفـان طفـلاً مريـضًا. أصـبح مـصير الميلوسلافسكيين بائسًا ما بين غضب القيصر والمنفى. ولعدم رغبـتهم فـي انتظار المصير الذي أعد لهم، كان الميلوسلافسكيون عازمين على التصرف. في هذه اللحظة الحرجة أصبح موقف قوات رماة موسكو هو العامل الحاسم.

وبما أن غالبية السكان من الذكور كانوا في ذلك الوقت مرتبطين بشكل أو بآخر بالخدمة العسكرية ففي كل مكان مأهول كانت حاميته تلعـب الـدور الرئيسي. وبطبيعة الحال كانت أكبر حامية في العاصمة. كان عـدد القـوات الخاصة للمدينة يبلغ ٤٠ ألف شخص وكان يتألف من الرماة. ظهر الرماة في روس بعد أن انضم ٥٠٠ ليتوانيا من المستسلمين للخدمة العسكرية الروسية، وقاموا بتدريب سكان موسكو على المعارك بسلاح البيشال (البندقيـة غيـر المكتملة) والتي تطلق النار على مسافة قصيرة. وبـسبب المـدى القـصير لإطلاق النار، لم يكن الرماة بالبيشال فعالين في المعارك الميدانيـة، ولكـن

بالنسبة للدفاع عن المدن، كانت أفواج الرماة مناسبة تمامًا، حيث كانت تؤدي مهام عسكرية وشرطية بحتة. وكان "المتطوعون" الروس يلتحقون بصفوف الرماة. صحيح أن رواتب الرماة كانت صغيرة، ويتم دفعها بشكل غير منتظم، ولكن كان يُسمح لهم بممارسة التجارة دون دفع رسوم، وممارسة الحرف اليدوية، وزراعة بساتين صغيرة، وأيضًا امتلاك منازل خاصة في المدن التي يحمونها. كل هذا جعل من الرماة جيشا رخيصا وقويا.

أظهر الرماة في حقبة الاضطرابات معجزات في الشجاعة والتحمل والإقدام والقدرة القتالية أثناء حماية دير الثالوث والقديس سرجيوس من البولنديين، وحماية موسكو من لص توشينو، والمشاركة في ميليشيا نيجني نوفغورود الرسمية. ولكن في الأعوام السبعين التالية (١٦١٠-١٦٨٠م) بدأ رماة موسكو يعيشون حياة مختلفة تمامًا. بحثًا عن الخدمة السهلة وغير المرهقة كان أصحاب الهمم المنخفضة (المتسوى المتدن من الشغف الخلاق) يسعون ليصبحوا رماة (وهم كثر من أولئك عشاق الطعام الجيد والنوم الحلو وتناول الخمر على نفقة الخزانة العامة). نتيجة لذلك انخفض للغاية مستوى الشغف الخلاق لجيش الرماة. وكان قادة الرماة يتصرفون مثل مرؤوسيهم. كانوا يستغلون عدم سيطرة الحكومة، ويقومون بتأخير رواتب الرماة، ويتقاضون الرشاوى من أجل امتيازات في الخدمة، ويجبرون الرماة وزوجاتهم على العمل لديهم. وبالطبع، لم يكن الرماة يحبون استخراج اللفت وجمع الخيار في حدائق القادة: لماذا يجب عليهم العمل لدى الغير، بينما يمكنهم العمل لأنفسهم.

مستغلين انتخاب قيصر جديد تقدم الرماة عن طريق مجموعة مختارة منهم بشكوى للحكومة ضد رؤسائهم. طالب الرماة بدفع جميع الرواتب المستحقة لهم، والدفع مقابل العمل القسري لدى قادتهم بالمعدلات التي

ترضيهم، وعزل ومعاقبة جميع "الرؤوس" التي لا تعجبهم. باختصار، طالب الرماة بكل ما قد يطلبه الجندي عندما يشعر أنه سيد الموقف[٦]. ولخوفها من تمرد الرماة لبت حكومة الناريشكيين، التي كانت تتكون من أشخاص ذوي عقليات ضيقة، جميع مطالب الرماة. لم يتم فصل القادة المتهمين من مناصبهم فحسب، بل أُنزل عليهم عقاب بالجلد. وفرضت عليهم غرامات هائلة نظير الأضرار التي يُزعم أنهم تسببوا بها للرماة، وتمت مصادرة ممتلكاتهم.

قرر الميلوسلافسكيون (بعد رؤية ضعف الناريشكيين) استغلال الرماة لمحاربة خصومهم. وحتى هذا الوقت لم يقم الناريشكيون والميلوسلافسكيون بتقديم برنامج سياسي جاد. كانوا جميعهم ضمن حاشية القيصر أليكسي ميخائلوفيتش، أي من الأشخاص الذين تأثروا بنفس القدر بالتغيير الذي بدأ في العادات حسب النمط الغربي. بالنسبة للرماة والناس العاديين فإن كليهما كان من البويار. كان غالبية سكان موسكو، بشكل عام، غير مبالين بمسألة من سينتصر. الآن تغير الوضع بشكل كبير.

الخوفانشينا[٧]

نشر الميلوسلافيسكيون من خلال المحرضين وسط أفواج الرماة شائعة بأن الناريشكيين يريدون الفتك بالأمير إيفان. ولما كان الرماة يسعون لإملاء شروطهم على السلطات، فإنهم لم يكونوا مهتمين على الإطلاق بما إذا كان الميلوسلافيسكيون يقولون الحقيقة أم لا. في ١٥ مايو ١٦٨٢م تلبية لنداء ناقوس الخطر اقتحم الرماة الكرملين مطالبين بتسليمهم الأمير إيفان. تم إخراج كلا الأميرين إلى الشرفة وقُدما إلى الحشد. ولكن حتى بعد التأكد من

سلامة إيفان، لم يهدأ الرماة، وبدأوا في المطالبة بأن يتم تسليمهم "خونة البويار" وفقا للقائمة التي أعدها الميلوسلافيسكيون، وبدأت المجزرة.

استقبل رئيس إدارة الرماة "يوري دولجوروكي" الرماة المنتخبين، وقدم لهم كئوس الخمر محاولا تهدئة تمردهم. ولكن عندما غادر المنتخبون، قال البويار العجوز دولجوروكي: "سنعلقهم على أسوار كيتاي جورد!". أبلغ خادم دولجوروكي هذه الكلمات للرماة، فعادوا وذبحوه ولم يشفع لهم سنه الطاعن. وتم إلقاء ابن دولجوروكي، الذي هدد المتمردين بعقوبات، من شرفة الكرملين على رماح الرماة. وتم قتل البويار "أرتمون ماتفييف" العائد للتو من المنفى كما قتلوا البويار "إيفان يازيكوف" وشقيق الملكة أفانسي ناريشكين وآخرين كثيرين. تحررت أحقر غرائز عامة الشعب ذوى الهمم المنخفضة. قام الرماة الملطخون بالدماء بسحب جثث البويار على الأرض وصاحوا قائلين: "ها هو البويار أرتمون سيرجيفيتش مع دولجوروكي يمشون، أفسحوا الطريق!". مهددين بذبح العائلة الملكية بأسرها طالب الرماة بقتل الأخ الآخر للملكة – إيفان كيريلوفيتش المختبئ. سلم البويار الجبناء ناريشكين، الذي قام بأداء سر التناول(٨) وخرج لملاقاة الرماة ومعه أيقونة. عذبوا البائس لفترة طويلة حتى حصلوا على اعترافه بالخيانة، ثم مزقوه بالسيوف. وتم إرسال جميع الناجين من الناريشكيين إلى المنفى. تم إعلان صوفيا حاكمة في وجود "السيدين الكبيرين" إيفان وبطرس.

ولكن السلطة الحقيقية لم تحصل عليها صوفيا ولا الميلوسلافيسكيون. ولكن أخذها الرماة، الذين كانوا يقومون بالهجوم على مزارع ومخازن البويار. أدركت صوفيا أنه، على الأقل لفترة، يجب إشباع الشهية المتزايدة للعسكر، وإلا فإن الميلوسلافيسكيين سيلحقون بالناريشكيين. أمرت الحاكمة

بالاستيلاء على الفضة من السكان في المدن والبلدات، وعمل نقـود معدنيـة منها للدفع للرماة على الفور.

استغل المؤمنون القدامى هذا الموقف. طالب أتبـاع أفـاكوم بـإجراء مناظرة حرة بضمانات أمن من الرماة للتوضيح النهـائي للمـسألة الملتهبـة الخاصة بصواب العقيدة. كان على الحكومة أن توافق، وعُقدت المناظرة بين البطريرك والكاهن "نيكيتا دوبرينين" من سوزدال. ولكن بما أنه لم يحدث في أي مناظرة منذ عهد آدم وحواء أن فاز أي من طرفي المناظرة قط، فقد أعلن كلا المشاركين أنه الفائز. أخبر البطريرك الأميرة صوفيا بانتصاره، وأعلـن المؤمنون القدامى، الذين خرجوا إلى الساحة، عن فوزهم للرماة. لكن عنـدما أمرت صوفيا بالقبض على الفور على المؤمنين القدامى لأنهم لم يثبتوا صحة موقفهم، قام الرماة بالتخلي عن "الشيوخ" بسهولة قائلين: "بماذا سـتفيدنا العقيـدة القديمة، دع الكهنة يتجادلون!". وبعد ذلك طالبوا مرة أخرى بـ "أموال المكافأة". ولم يهدأ الرماة إلا بعد أن تم دفع هذه الأموال لهم (في الواقع هي ثمن حيـاة المؤمنين القدامى الذين وثقوا بهم). قطع الرماة رأس "نيكيتا دوبرينين"، وتـم إرسال بقية المؤمنين القدامى إلى المنفى.

كما نرى، لم يكن لدى الرماة أية أهداف تميز حركة لأشـخاص ذوي طاقة خلاقة. ومثل جميع معدومي الشغف الخـلاق، لـم يـسع الرمـاة إلا للحصول على الفوائد بأقل جهد، وهو ما كان يحققونـه بـابتزاز الحكومـة باستمرار. ولكونهم بقايا طاقة خلاقة منخفضة، كان الرماة أداة مريحة للغايـة في أيدي أي مغامر. وكان الأمير إيفان خوفانسكي، الملقب بتـاراروي، هـو ذاك المغامر. حصل رئيس إدارة الرماة الجديد على لقبه لميله إلـى الوعـود الفارغة. ينحدر الأمير إيفان أندريفيتش من أسرة جيديمينوفيتش النبيلة، ولـم يبد كفاءة خلال الحرب مع بولندا، ولهذا تم نقله إلى مؤخرة الجـيش – إلـى

موسكو. كان رئيس إدارة الرماة بعد وفاة دولجوروكي طوال الوقت يقنع الرماة ويدفعهم إلى طرح مطالب جديدة.

ناور خوفانسكي بمهارة بين صوفيا والجيش، بينما في الوقت نفسه كان يثير سخط الرماة على الحكومة. فمثلا، اشتكى خوفانسكي للرماة من نقص المال في إداراته، الأمر الذي يزعم أنه لا يسمح له بمكافأتهم كما يجب نظير خدمتهم. من جانبهم، كان الرماة يريدون بشتى الطرق تعزيز موقفهم وإضعاف موقف البويار. إضعاف البويار يمكن أن يكون بحرمانهم من الخدم المخلصين – خدم المنزل. لذلك أعلن الرماة عن تحرير أولئك الذين "تعهدوا" بالعبودية خلال العامين الأخيرين، على الرغم من أن العبيد أنفسهم كانوا معارضين لمثل هذا التحرير القسري الذي يحرمهم من اللقمة المشبعة ويخلع عنهم القفطان النظيف ويجبرهم (كعمال أحرار) للعمل في فلاحة المزارع، واستبدال السيف والحصان بمجرفة ومذراة.

وبما أن خوفانسكي لم يكن يمنع الرماة من تنفيذ الإصلاحات وفقًا لأذواقهم وميولهم، نمت شعبيته وسط قوات الرماة. في صيف عام ١٦٨٢م تصاعد الموقف الى أقصى حد. كانت الحاكمة صوفيا تدرك جيدا أن الخطر الذي يهددها من خوفانسكي والرماة ينمو كل ساعة. وحينها قامت بخطوة حاسمة، حيث غادرت موسكو مع الأميرين إيفان وبطرس وبصحبة الحاشية، وذهبت إلى قرية "كولومينسكوي" في ضواحي موسكو. ومن "كولومينسكوي" توجهت صوفيا إلى دير الثالوث والقديس سيرجيوس الشهير، بعد أن أمرت بجمع قوات النبلاء هناك.

أربكت مغادرة الأميرة حسابات الرماة، حيث كان "مشاة المحيط الخارجي للقصر" مدركين تمامًا لمدى عدم شعبية أعمالهم بين الوحدات العسكرية الحدودية، والتصادم مع قوات النبلاء كذلك لم يكن يبشر بالخير.

كان الخلاص الوحيد بالنسبة لهم هو الحفاظ على النظام القائم، والذي يمكنهم فيه ابتزاز الحكومة. لذلك توجه وفد من الرماة إلى كولومينسكوي لإقناع صوفيا بعدم وجود نوايا شريرة لديهم ويعيدونها إلى موسكو. رفضت صوفيا بحكمة العودة. ولكن، في محاولة لكسب الوقت، طمأنت وفد الرماة، متظاهرة بأنها لا تشك في شيء، وبأنها امرأة غبية. وفي الوقت نفسه، بحجة لقاء ابن الآتمان الأوكراني ساموليوفيتش تمت دعوة جميع البويار للمجيء إلى قرية فوزدفيجينسكي، حيث توقفت صوفيا في طريقها إلى الدير. توجه إلى هناك خوفانسكي، الذي لم يكن يتوقع الخدعة. في ذلك الوقت تلقى البويار ميخائيل ليكوف، وهو شخص شجاع ويائس من قوات الحدود، أمرا من صوفيا بالقبض على خوفانسكي، وهاجم معسكره بفصيلة صغيرة من النبلاء. بعد أن سحق خيمة خوفانسكي بحصانه، أمسك القائد بالأمير النائم إيفان من عنقه، وربطه في السرج، وأحضره إلى الأميرة صوفيا. ودون تأخير قطع رأس خافونسكي على الفور بالقرب من الطريق.

وخوفا من احتمال الحرب مع قوات النبلاء لم يفكر الرماة في النهوض للدفاع عن قائدهم. ولشعورهم بقوة وتصميم صوفيا وافقوا على جميع شروط الحكومة، وسلموا مثيري الفتن، وقبلوا بفيودور شاكلافيتي، المخلص لصوفيا والصارم في العقاب، رئيسا جديدا لإدارة الرماة. وهكذا انتهت الخوفانشينا.

الهوامش

(١) الخبز الطقسي الليتورجي المستخدم في الأرثوذكسية من أجل سر القربان المقدس وللاحتفال خلال بروكوسيوميديا الأحياء والأموات. (المترجم)

(٢) ثيودور ستوديت (826-759) راهب بيزنطي وزاهد وشخصية كنسية وكاتب (المترجم)

(٣) سكان روسيا الصغرى، التي تعتبر الاسم التاريخي لعدد من المناطق في إقليم أوروبا الشرقية، وخاصة أوكرانيا الحالية وبيلاروسيا وبولندا.

(٤) المؤمنون القدامى هو الاسم الذي يطلق على ممثلي التيارات الدينية التي كانت ترفض الإصلاحات التي قام بها نيكون (المترجم).

(٥) الكونفيكسيا في نظرية جوميليوف هي مجموعة من الناس يجمعهم نظام حياتي واحد وعلاقات أسرية، وهي العنصر الأدنى في التسلسل العرقي. (المترجم)

(٦) لا تجدر الإشارة إلى أنه في القرن السابع عشر لم تكن مشكلة انخفاض الهمم (المستوى المتدني من الشغف) حاضرة في القوات الحدودية، ولا سلاح الفرسان البوياري غير النظامي، ولا القوزاق، ولا النبلاء، بل كانت هذه المشكلة في المركز، وليس في أطراف البلاد.

(٧) الخوفانشينا هي التسمية الروسية التاريخية لتمرد الرماة ١٦٨٢، وسميت كذلك نسبة لإيفان خوفانسكي قائد إدارة الرماة آنذاك. (المترجم)

(٨) هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية أو أحد السرين المقدسين في الكنيسة البروتستانتية. وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه. الاحتفال يكون بصيغة تناول قطعة صغيرة ورقيقة من الخبز (تعرف بالبرشان) التي تمثل جسد يسوع وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع. (المترجم)



الفصل السادس

على أعتاب الإمبراطورية

- قُبيل الإصلاحات
- أسطورة بطرس

بقمع تمرد الرماة بدأ الحكم الصريح لصوفيا، التي كانت تستند إلى عشيرة الميلوسلافيسكيين. أصبح الأمير فاسيلي فاسيليفيتش جوليتسين رئيسا للحكومة، وهو من الأشخاص المفضلين لدى الأسرة الحاكمة. كان الأمير جوليتسين، وهو رجل متعلم ودبلوماسي وسياسي ممتاز، من المؤيدين المتحمسين لمشاركة روسيا في الشؤون الأوروبية إلى جانب الدول الكاثوليكية: النمسا والكومنولث البولندي الليتواني والبندقية. لكن هذه السياسة لم تكن فقط غير شعبية في البلاد، بل أيضا غير مفهومة وغير معتادة بالنسبة لمعظم الشعب الروسي. فحتى وقت قريب، في عهد البطريرك فيلاريت والقيصر ميخائيل فيدوروفيتش، وفي عهد البطريرك نيكون والقيصر ألكسي ميخائيلوفيتش، كانت السياسة الخارجية الروسية عكس ذلك. كانت روسيا تقف ضد بولندا، التي كانت تمثل الغرب الكاثوليكي بأسره، من أجل "انتصار الأرثوذكسية". علاوة على ذلك كانت هذه السياسة لروسيا تلقى تأييدا من قبل الأوكرانيين والبيلاروس، حيث كانت تعتبر سياسة أرثوذكسيّة من وجهة النظر المسيحية. وبالتأكيد، لم يكن هناك أي وجه للمقارنة بين المعاملة القاسية للأرثوذكس من قبل الكاثوليك، وبين معاملة مسيحيي البلقان في الإمبراطورية العثمانية.

كان الأتراك، الذين كانوا يسيطرون على معظم البلدان الأرثوذكسية: صربيا وبلغاريا واليونان ومولدافيا والأفلاق، بالإضافة إلى سوريا ومصر، حيث توجد نسبة كبيرة من المسيحيين، يعاملون المسيحيين برفق الى حد

كبير. بطبيعة الحال لم يكن المسيحيون يستطيعون الخدمة في الجيش، وكانوا لا يحملون السلاح إلا في حالات استثنائية، ولم يكن في استطاعتهم بناء مستقبل مهني إلا باعتناق الإسلام. ولكن أولئك الذين لا يريدون بناء مستقبل مهني، ولا يريدون اعتناق الإسلام، كان يمكنهم العيش والعمل بسلام، والذهاب للمعابد المسيحية بحرية، وقراءة وحتى نشر الكتب الدينية الأرثوذكسية. كانت حرية الاعتقاد تعتبر واحدة من مبادئ هيكل الدولة في الإمبراطورية؛ لأنه لدى الأتراك هناك اعتقاد عقلاني في القرن السابع عشر كان بأنه من الأفضل جمع ضرائب إضافية من المسيحيين بدلاً من إثارة حرب أهلية في بلادهم. وكان المال ضروريا للغاية بالنسبة للأتراك من أجل الإنفاق على القوات، حيث كانت الإمبراطورية العثمانية لديها ما يكفيها من الحروب الخارجية.

كان الصراع المسلح بين الدول الكاثوليكية وتركيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر شبه مستمر. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر حافظ الأتراك العثمانيون، على الرغم من بعض الهزائم الكبيرة من القوى الأوروبية، على "بودوليا" وجزء من المجر، وفي عام ١٦٨٣م هاجموا الإمبراطورية النمساوية وحاصروا فيينا. رأى الملك البولندي "يان سوبيسكي"، أن ترك النمسا في مثل هذا الوضع أمر خطير جدا، ولذلك شارك بفاعلية في الدفاع عن المدينة. ووفقًا لمصادر أوروبية، فإن القوات التركية المحاصرة لفيينا كانت تقدر بحوالي ٢٠٠ ألف جندي بينما لم يكن يصدهم سوى أربعين ألف جندي نمساوي و٢٦ ألفاً من سلاح الفرسان البولندي. بهذه القوات هُزم الأتراك شر هزيمة. وكانت الهزيمة ساحقة لدرجة أن السلطان أعدم وزيره الأعظم. لكن نجاح النمسا والكومنولث البولندي الليتواني تحقق فقط بفضل بطولة الفروسية البولندية، وكلف بولندا غاليا.

كان استمرار النضال ضد الأتراك يتطلب توحيد الدول الأوروبية، وفي عام ١٦٨٤ تم إنشاء الرابطة المقدسة، التي كانت تضم الإمبراطورية النمساوية، والكومنولث البولندي الليتواني، وجمهورية البندقية وفرسان مالطة. سعى أعضاء هذا التحالف لإشراك روسيا في الصراع مع تركيا، بهدف إثقال كاهل الأخيرة بأعباء الحرب في الميدان البري. مما لا شك فيه أن فكرة تحالف الدول المسيحية من أجل النضال ضد المسلمين لم تكن أكثر من مجرد غلاف، حيث إن الكومنولث البولندي الليتواني عشية الغزو التركي لأوكرانيا في عام ١٦٧٦م قام بخيانة روسيا، وسارع إلى إبرام سلام مع السلطان العثماني. وواجهت روسيا (التي دعمت قبل فترة وجيزة الكومنولث البولندي الليتواني وطالبت العثمانيين بوقف الهجمات على بولندا) جيشا تركيا مكونًا من ١٠٠ ألف جندي. وبفضل الجهود البطولية لقوات الرماة ووحدات القوزاق تمكن الروس من الدفاع عن كييف وأوكرانيا.

كان الأشخاص الأذكياء في روسيا يدركون كل هذا تماما. وعندما أخبر يميليان أوكرينتسيف رئيس إدارة السفراء الآتمان "صامويلوفيتش" بقرار جوليتسين بالانضمام إلى ائتلاف الكاثوليك الأوروبيين ضد تركيا، أشار الهتمان إلى أنه من الغباء الحرب من أجل مصالح أعدائه، وأنه لا يوجد سبب لخرق السلام مع الأتراك والتتار، وأن الآمال المتعلقة بالاستيلاء على شبه جزيرة القرم وهمية تماما. ومما لا شك فيه أن كلاً من صوفيا وفاسيلي جوليتسين كانوا يعلموا برأي صامويلوفيتش، ومع ذلك استسلموا لحجج البولنديين اليسوعيين خلافا لرأي قائد عسكري من ذوي الخبرة مثل صامويلوفيتش. وفي عام ١٦٨٦م انضمت روسيا إلى الرابطة المقدسة، وحصلت في مقابل وعدها بالمشاركة في الحرب على "السلام الأبدي" مع

بولندا وملكية دائمة لكييف (التي، وفقا لهدنة أندروسوف في ١٦٦٧م، انتقلت إلى روسيا لمدة عامين، وهكذا لم يتم إرجاعها إلى البولنديين).

حاولت دول أوروبا الغربية بشتى الطرق جر الروس إلى الحرب ليس مع تركيا بقدر ما هو مع حليفتها – خانة القرم، لأن النمساويين والبولنديين كانوا يخشون من الهجمات السريعة لسلاح الفرسان التتاري أكثر مما يخشون من الجيش التركي النظامي. وكان لا بد من مشاغلة القرم بالقوات الروسية.

وهكذا، كان على روسيا أن تدخل الحرب دون وجود أي ضمانات بالحصول على أراضٍ في شبه جزيرة البلقان في حالة الانتصار، ومع ذلك كان عليها الوفاء بالتزاماتها. وفي عام ١٦٨٧ قام الجيش الروسي المكون من مائة ألف جندي بقيادة الأمير جوليتسين بحملة على شبه جزيرة القرم. كان قدامى محاربي السهوب والنبلاء والقوزاق يدركون الطابع المغامر لتصرف الشخص المقرب من صوفيا. لم يكن لدى جوليتسين أي مواهب في القيادة العسكرية، وكان على الجيش الضخم أن يمر في فصل الصيف عبر السهوب الجافة والخالية من الماء من بولتافا إلى بيريكوب، وكان عليه الاستيلاء على برزخ شديد التحصين دون وجود مؤخرة للجيش يُعول عليها. ولذلك ليس من المستغرب أن تنتهي حملة "القرم" هذه، وكذلك الحملة التالية لها (١٦٨٨م)، بفشل مخزٍ. أما فاسيلي جوليتسين نفسه فاكتفى بخوف طفيف، فقد أنقذت علاقاته الحميمة مع صوفيا من تعرضه لغضب القصر وعقابه. بمساعدة مؤامرات "إيفان مازيبا" أعلن أن صامويلوفيتش هو المتسبب في الفشل، على الرغم من أنه كان أقلهم ذنبا في الفشل وعارض في البداية مغامرة جوليتسين. وحُرم الآتمان من منصبه ونُفي إلى سيبيريا بتهمة ملفقة، وكما سبق أن ذكرنا، حصل "مازيبا" على صولجان الآتمان.

قُبيل الإصلاحات

تسبب فشل حملات القرم في نشوء سخط عام في البلاد. وقبل ذلك كان معظم الناس العاديين يتعجبون من سلوكيات وعادات القصر الملكي. كانت رؤية الحاكمة في الملابس البولندية، ورؤية صديقها المفضل بالقفطان البولندي أو الاستماع إلى اللغة البولندية واللاتينية للنبلاء، تجعل الناس في حيرة (كانت اللغة البولندية في ذلك الوقت قد أصبحت موضة عصرية وكانت تستخدم على نطاق واسع في الكرملين). وبعد إخضاع السياسة الخارجية الروسية لمصالح النمسا وبولندا وحتى البندقية، وبعد فرض ضرائب باهظة والتسبب في وقوع ضحايا دون فائدة، فقدت الحكومة كل شعبيتها. وازدادت الكراهية لها أيضا بسبب السياسة الوحشية للغاية تجاه المؤمنين القدامى. في عام ١٦٨٥ تم إصدار "الاثني عشر مادة" سيئة السمعة ضد المنشقين، وهي واحدة من أكثر الأعمال القانونية قسوة في الممارسة العقابية الروسية (بالمناسبة، في نفس العام ألغى لويس الرابع عشر مرسوم "نانت" الخاص بالتسامح الديني، وفي كلتا الحالتين قام اليسوعيون بدور المحرضين).

وكانت الخاتمة في عام ١٦٨٩ عند عودة جوليتسين من شبه جزيرة القرم. بدأ الأمر بالشائعات، حيث سارت أحاديث بأن الرماة، بتحريض من صوفيا ورئيس إدارة الرماة فيودور شاكلوفيتي، يخططون مرة أخرى لقتل بطرس وأرملة القيصر ناتاليا كريلوفنا. خوفا من هذه الأخبار هرب بطرس البالغ من العمر سبعة عشر عاما من مقر إقامته إلى قرية "بريابرجينسكي" تحت حماية جدران دير الثالوث والقديس سرجيوس. وهنا اتخذت المواجهة بين الناريشكيين والميلوسلافسكيين، وبين بطرس وصوفيا طابعا صريحا

تماما. ولكن تصرف الرماة هذه المرة بشكل سلبي للغاية، ولم يدقوا ناقوس الخطر، وباتت الحكومة دون أنصار. البطريرك، الذي خرج لإجراء محادثات مع بطرس، لم يعد إلى موسكو مرة أخرى. وخلف البطريرك سار البويار، وكذلك غادرت أفواج الفرسان والمشاة برايات مرفوعة. ببساطة لم يرغب أحد في دعم صوفيا وجوليتسين، وسلم الرماة شاكلوفيتي إلى بطرس بسهولة. ونتيجة لذلك تم قطع رأس شاكلوفيتي، ونُفي جوليتسين، وسُجنت صوفيا في دير.

وهكذا جاء حزب الناريشكيين إلى السلطة نتيجة شدة الاستياء الوطني من النفوذ الغربي. ومن الممكن دون أي مبالغة أن نقول: إن البلد بأكملها بتعاطفها رفعت بطرس الأكبر مع حزبه وحاشيته الى العرش. إن سياسة الإحياء الوطني التي أعلنوها، إذا كان يمكن تسميتها هكذا، استمرت وقتًا طويلاً – من ١٦٨٩م إلى ١٧٠١م. وهي الفترة التي وصل فيها إلى السلطة البطريرك "يواكيم"، وأرملة القيصر، وشقيقها ليف ناريشكين، وتيخون ستريشنيف قريب بطرس من ناحية الجدة، والأمير بوريس جوليتسين مُربي القيصر، وبعد ذلك الأمير فيودور رومودانوفسكي، الذي أصبح رئيسا لادارة بريابرجينسكي(١).

وكان على الحكومة الجديدة أن تستمر في الحرب، التي تم جرها إليها، وترك بطرس الراحة والدعة، وخرج في حملتين مع قوزاق الدون في أعوام ١٦٩٥ و١٦٩٦م للاستيلاء على قلعة آزوف التركية، التي كانت تغلق الخروج من الدون إلى بحر آزوف. وكانت آزوف بمثابة نقطة متقدمة جيدة التحصين للأتراك. ولم يحلم بطرس –الذي لم يكن لديه أسطول– بالاستيلاء على قلعة تحصل حاميتها على تعزيزات جيدة. لكن القيصر الشاب ورفاقه

كانوا واثقين من أن حصار أزوف لن يكون أكثر صعوبة من "الحملات البحرية" في بحيرة بيريسلافسكي أو اقتحام القلعة الموجودة بالقرب من قرية كوجوخوفو بضواحي موسكو. بطبيعة الحال، انتهت الحملة الأولى ١٦٩٥م بالفشل. وانسحب الروس متخلين عن الحصار.

قضى بطرس فصل الشتاء بأكمله في فارونيج لبناء الأسطول وإعداد الحملة الثانية. تم إرسال عشرات الآلاف من الأشخاص إلى أحواض بناء السفن الجديدة في فارونيج، وعلى حساب تضحيات هائلة للشعب وتكاليف للخزانة تم بناء العديد من السفن الكبيرة بحلول فصل الربيع. وشارك الأوكرانيون، وقوزاق الدون، فضلا عن سلاح الفرسان الكاليميكي، إلى جانب الروس في الحملة على قلعة آزوف. وتجدر الإشارة إلى أن نجاح الهجوم الثاني على آزوف لم يكن بفضل السفن الكبيرة المصنوعة حديثًا، ولكن بفضل مراكب المناورة الصغيرة للقوزاق. تمكن قوارب القوزاق المتنقلة بهجومها المفاجئ إلى بعثرة وتفرق السفن التركية ومكنت الأسطول الروسي من الخروج من الدون إلى بحر آزوف دون عوائق. تم تقرير مصير القلعة، حيث إنه بعد شهرين من الحصار غادر الأتراك آزوف طبقا لشروط استسلام مشرف.

ولكن كانت ضرورة الاستيلاء الى آزوف أكثر من المشكوك فيها، لأن بحر آزوف يتصل بالبحر الأسود عبر مضيق كيرتش، وكانت كيرِتش وتامان في أيدي الأتراك والتتار. وهكذا، إذا استولينا على أزوف، سيكون من المنطقي أن نبدأ في الاستيلاء على مخرج من بحر آزوف إلى البحر الأسود، أي، مثل جوليتسين، سنبدأ في محاولة الاستيلاء على شبه جزيرة القرم. ولكن حتى بعد الاستيلاء على شبه جزيرة القرم والوصول إلى البحر

الأسود، لن تصبح روسيا قوة متوسطية، لأنه للمنافسة الحقيقية في منطقة البحر الأبيض المتوسط مع أسطول فينيسيا والأسطول الإنجليزي كان على الروس أن يستولوا على مضائق البوسفور والدردنيل، أي بمعنى أدق الاستيلاء على إسطنبول. وهذا أمر كان لا يمكن حتى أن يقال في نهاية القرن السابع عشر.

لم تكن نتائج الحرب الروسية التركية رائعة بالنسبة لبلادنا. أبرمت النمسا اتفاق سلام مع تركيا، تاركة روسيا وحدها تدفع ثمن كل الإخفاقات، بينما حصلت لنفسها على المجر الغنية. وحصل الكومنولث البولندي الليتواني على بودوليا الضرورية بالنسبة لها، والتي شكلت حاجزًا في طريق الأتراك إلى المناطق الداخلية في بولندا. وضمت روسيا إليها الميدان البري من الدون إلى زابوروجي. وكما سبق أن ذكرنا، كانت هذه الأرض بالفعل ساحة معركة مستمرة بين تتار النوجاي، الذين كانوا يقومون بهجمات على أوكرانيا الروسية والبولندية، وبين مفارز القوزاق، التي كانت تأتي من الشمال لشن هجمات على الممتلكات التركية والتتارية. كان كل من القوزاق والتتار قتلة قساة، وبالطبع لم تستطع روسيا استعمار وزراعة هذه الأراضي الخصبة. لقد أدرك الأوروبيون جيدا الشروط الكاملة لهذا الاستحواذ ودون تردد اتفقوا على اعتبار الميدان البري روسيًا.

وهكذا، يستطيع جميع العقلاء رؤية النتائج السلبية لاتحاد جوليتسين مع الكاثوليك. على الأرجح بتأثير أقرب مستشاريه، قرر بطرس تغيير الأولويات في السياسة الخارجية وحاول إقامة اتصالات مع دول أوروبية أخرى. في عام ١٦٩٧م توجهت "السفارة العظمى" إلى أوروبا، والتي سافر خلالها الحاكم الروسي الشاب متخفيًا تحت اسم "الرقيب بيتر ميخائيلوف". كان خط

سير السفارة بشكل رئيسي في بلدان شمال أوروبا البروتستانتية: كورلاند، براندنبورج، هولندا، إنجلترا.

من هذه الرحلة، التي عقدت خلالها مفاوضات (وإن كانت غير رسمية) مع الملوك الأوروبيين، عاد بطرس إلى روسيا ولديه فكرة جديدة عن السياسة الخارجية الروسية – وهي التحالف ليس مع الدول الكاثوليكية ولكن مع الدول البروتستانتية. ويجدر القول إنه بالنسبة إلى هولندا القريبة لقلب بطرس وإنجلترا التجارية كانت المهمة الأكثر إلحاحًا هي الصراع ضد فرنسا الكاثوليكية وحليفتها السياسية السويد. لذا حاول السياسيون الأوروبيون استغلال بطرس في القتال ضد السويد، تماما كما استخدموا من قبل جوليتسين وصوفيا في القتال ضد تركيا.

وكما نرى فإنه مع استبدال صوفيا ببطرس لم تكتسب السياسة الخارجية الروسية الطابع المستقل، الذي فقدته في عهد صوفيا، بل فقط تمت إعادة توجيهها إلى مجموعة أخرى من بلدان أوروبا الغربية.

استحوذت على بطرس الشاب، الذي تركت الحياة المنظمة والمريحة في هولندا انطباعًا عميقًا عليه، خطط كبيرة لجعل روسيا دولة عظمى "متحضرة" مماثلة، وبناء أسطول مماثل، وتطوير التجارة. صحيح أنه لتحقيق الحلم الملكي، كان لا بد من محاربة السويد للوصول إلى بحر البلطيق، لكن هذه كانت تعتبر مهمة مناسبة لذلك الوقت ونبيلة.

من وجهة نظر إثنولوجية يعد ظهور حلم بطرس أمرا طبيعيا للغاية. كان بطرس، مثل شركائه، ينتمي إلى مجموعته العرقية، التي كانت في القرن السابع عشر تعايش أقصى درجات الشغف الخلاق – مرحلة الذروة، والتي تعد غير مرضية بالشكل الكافي لحياة الناس العاديين، ومليئة للغاية

بالصراعات وجميع أنواع المساوئ. كانت الحياة الهادئة في هولنـدا، التـي كانت في مرحلة القصور الذاتي، يجب أن تبـدو كقصة خرافيـة بالنـسبة للشخص، الذي كان يرى وهو طفل مجازر الرماة الدموية، والذي كان يسمع جدلاً عنيفا حول العقيدة، والذي كان مضطرا طوال الوقت أن يكافح من أجل حياته في مؤامرات القصر. كان طموح بطرس في روسيا في نهايـة القـرن السابع عشر – وأوائل القرن الثامن عشر لتقليد الهولنديين يشبه تصرف فتـاة تبلغ من العمر خمس سنوات، وتضع قبعة أمها وتضع أحمـر شـفاه علـى شفتيها لتبدو مثل أمها الحبيبة. ولكن كما أن القبعة وأحمر الـشفاه لا تجعـل الطفلة امرأة بالغة، كذلك لا يمكن للأعراف الأوروبية المـستوردة أن تغيـر مراحل التكوين العرقي الروسي. وتاريخ "السفارة العظمى" يؤكد ذلك، حيـث لم يستطع بطرس أن يزور فينيسيا. لقد اضطر أن يترك كل شـيء، ويعـود على وجه السرعة إلى روسيا، حيث حدث تمرد الرماة الأخير.

قامت حكومة الأمير رودومانوفسكي بإبعاد رماة موسكو عن العاصمة وإرسالهم إلى الحدود. لم تعجب الرماة الخدمة العسكرية المليئـة بالمخـاطر والشدائد، وكان مريحا لهم أكثر العيش فـي موسـكو، والقيـام بأنـشطتهم الاقتصادية الخاصة. في عام ١٦٩٨م غادر أربعون ألفاً من الرمـاة الحـدود وذهبوا إلى العاصمة. كانت حامية موسكو بقيادة الجنرال باتريك جـوردون تتألف من خمسة آلاف رجل فقط. بعد أن صوب المدافع نحو الرماة، خـرج الجنرال جوردون للقائهم واقترح وقف هذا الفعل المشين. لكـن بـدلاً مـن التحول إلى تشكيل المعركة، أو التراجع، أو حتى الاستسلام، بدأ الرماة تبادل الشتائم عبر النهر مع جوردون. أغضبت الشتائم الجنـرال، وأمـر بـإطلاق النار. وبعد الدفعة الأولى من إطلاق النار، ركـض الرمـاة واستـسلموا – أربعون ألفا من الرماة أمام خمسة آلاف جندي من القوات النظامية!



أمر بطرس الغاضب العائد من الخارج، بإجراء تحقيق جديد وأخضع عددًا كبيرًا من الرماة للتعذيب والإعدامات. تعامل الرماة مع الإعدامات بخضوع كامل، ولم يكن هناك أي حديث عن المقاومة نتيجة لاستنفاد الشغف الخلاق لدى الرماة. وهذا ليس أمرا مفاجئا، لأن الرماة الأكثر نشاطا ماتوا خلال الاضطرابات: تم القضاء على المحرضين أولا عن طريق صوفيا وشاكالوفيتي، ثم بطرس مع الأمير الرهيب الأمير رومودانوفسكي. وليس من قبيل المصادفة أن تصرف جيش الرماة عند مواجهة جيش جوردون أثناء تمرد ١٦٩٨ يشبه تماما تصرف الأربعين ألفًا من جنود نوفغورود من فاقدي الشغف الخلاق في عام ١٤٧٨ في معركة شيلوني عندما واجهتهم فرقة فرسان من موسكو تتكون من خمسة آلاف شخص.

بعد اضطرابات عام ١٦٩٨م انسحب جيش الرماة من المشهد التاريخي، على الرغم من إلغائه رسميا في وقت لاحق. وهكذا انتهت حياة فرقة رماة موسكو، التي تحولت من مجموعة من الناس يوحدهم مصير مشترك (كونفيكسيا) أي مجموعة من الناس يربطهم نظام حياتي واحد – ثم دُمرت قبل أن تتحول إلى عرق فرعي، كما حدث مع المنشقين، أو قبل أن تصبح عرقية كالقوزاق.

أسطورة بطرس

تعتبر هزيمة تمرد الرماة عام ١٦٩٨م التاريخ الأخير في تاريخ روس موسكو، والتي بدأت بعد ذلك في التحول السريع إلى الإمبراطورية الروسية. وفي عهد يكاترينا الثانية ولدت أسطورة بطرس: أسطورة القيصر المصلح الحكيم الذي فتح نافذة على أوروبا وفتح روسيا لتأثير الثقافة والحضارة الغربية القيمة. وللأسف لم تُدحض الرواية الأسطورية، التي أصبحت رسمية في نهاية القرن الثامن عشر، لا في القرن التاسع عشر ولا في القرن العشرين. وحتى يومنا هذا تتعامل الأغلبية العظمى من الناس مع الكذبة الدعائية عن يكاترينا، القيصرة الروسية ذات الأصل الألماني التي اغتصبت العرش، كأنها واقع تاريخي.

في الواقع، لم تكن الأمور كذلك تمامًا، أو بالأحرى، لم تكن كذلك على الإطلاق. فعلى الرغم من كل الابتكارات الزخرفية التي أدخلها بطرس، بعد عودته من هولندا: الحلاقة، وتدخين التبغ، وارتداء الثوب الألماني، لم ينظر إليه أي من معاصريه على أنه منتهك للتقاليد. وكما رأينا من قبل، فإن التقاليد في روسيا كانت تنتهك طوال الوقت، فمثلا إيفان الثالث، وإيفان الرهيب، وأليكسي ميخائيلوفيتش مع نيكون، كل هؤلاء أدخلوا ابتكارات مهمة. لم تتوقف علاقات روسيا مع أوروبا الغربية قط، على الأقل منذ عهد إيفان الثالث. كان الشعب الروسي ينظر بشكل عام إلى استقدام المتخصصين الأجانب للعمل على أنه شيء مألوف. ومنذ القرن الرابع عشر كان يتم اجتذاب الأجانب المتميزين للعمل في روسيا – في (التتار آنذاك).

وفي القرن الخامس عشر كان يُستأجر الألمان وبأعداد ليست قليلة. ولكن كما هو الحال في القرنين الخامس عشر والسابع عشر، كان الروس

يشغلون جميع المواقع الرئيسية في الدولة في عهد بطرس أيضا. كان الألمان يحصلون على أجور جيدة، ويعملون بنجاح، ويتمتعون بحماية القيصر، ولكن لم يفكر أحد في أن يسمح لهم بالوصول للسلطة. ظل الروس في القرن الثامن عشر كما هم، حتى وإن كانوا يرتدون القفاطين والشعر المستعار. وظلت إلى حد ما علاقة القيصر بطرس مع أوروبا بكل حماسها، إذا جاز لي القول، استهلاكية. وهناك عبارة مشهورة للقيصر: "نحن بحاجة الى أوروبا لمدة مائة عام، ثم سنعود إليها من الخلف". ولكن كان بطرس مخطئا هنا. لقد احتاجت روسيا إلى أوروبا فقط لمدة ٢٥-٣٠ عامًا، لأن الروس استوعبوا جميع الإنجازات الأوروبية بكل سهولة. وبحلول منتصف القرن الثامن عشر أصبح من الممكن "الاستدارة من الخلف"، وهو ما قامت به إليزافيت ابنة بطرس في عام ١٧٤١م.

كانت جميع إصلاحات بطرس في الواقع استمرارًا منطقيًا للأنشطة الإصلاحية التي قام بها أسلافه: أليكسي ميخائيلوفيتش وأوردين- ناشوكين، وصوفيا وفاسيلي جوليتسين – وكان يقوم بحل نفس المشاكل. وظلت الأطراف ذات الشغف الخلاق هي الصعوبة الرئيسية التي يواجهها بطرس في السياسة الداخلية، مثله مثل والده وأخته غير الشقيقة.

انتفضت أوكرانيا، وقام الآتمان الاوكراني "مازيبا" بخداع بطرس، واستسلم إلى كارل الثاني عشر. وانتفض الدون، الذي كان ساخطا من تعسف مسؤولي بطرس، الذين أرادوا إعادة الفلاحين الهاربين من هناك. وقال الآتمان كوندرتي بولافين "ليس هناك تسليم من الدون"، وقاوم لمدة عامين حتى اضطر إلى إطلاق رصاصة في جبينه في شيركاسك المحاصرة. وانتفض الباشكير، واستغرق الأمر أربع سنوات للتعامل معهم. بشكل عام،

تسبب السكان المتمردون في جنوب شرق البلاد في الكثير من المتاعب لروسيا، كما كان الحال في زمن الاضطرابات.

في هذا الوضع كان تحالف الروس مع ساكني السهوب مرة أخرى يبدو فعالا. اتفق بطرس على التعاون مع "أيوكا" خاقان الكالميك، الذي كان يقف وراء الباشكير وقوزاق الدون، وبمساعدته تم قمع الانتفاضات. بالإضافة إلى ذلك، في بداية القرن الثامن عشر أوقف الكالميك عمليا غارات النوجاي على روس: كسادة لحرب السهوب قاموا بسرعة بتقييد حركة النوجاي، وأجبروهم على الانتقال من الهجوم إلى الدفاع.

ومع ذلك، فإن إصلاحات بطرس، التي تعتبر في جوهرها استمرارًا لسياسة التغريب في روسيا، كانت بالطبع أعمق من كل السياسات السابقة في تأثيرها على أنماط السلوك الروسية، لأن في بداية القرن الثامن عشر كان مستوى الشغف الخلاق للعرق الأعلى الروسي أقل بكثير مما كان عليه في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر. لكن في عهد بطرس أيضا استمر إلى حد ما التقليد الروسي للقرن السابع عشر. بعد وصولها إلى السلطة في عام ١٦٨٩م استطاعت زمرة البويار الناريشكيين بقيادة بطرس أن تحكم البلاد بالطريقة التي كانت تعرفها. ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة للحكم في روسيا معروفة منذ عهد الشويسكيين والجلينسكيينن وهي أن القيصر كان ينفذ سياسته معتمدا على القوات الموالية والمسؤولين الحكوميين، وبالتالي كانت الدولة الروسية بأكملها عبارة عن مجموعة من الطبقات مرتبطة بطريقة أو بأخرى بخدمة "السيد".

بعد القضاء على تمردات الرماة أدى انخفاض الشغف الخلاق وتدني الرماة إلى تحولهم لمعارضين للسلطات القائمة. لذا كان بطرس في حاجة إلى

جيش خاص به للحفاظ على عرشه وحياته. من ذا الذي كان بطرس يستطيع جذبه إلى صفه؟ لم يكن ليفكر في تعبئة البشكير بعد هزيمة الانتفاضة، وفي أوكرانيا لم يكن هناك قوات زائدة عن الحاجة، وتوقعت شعوب الدون بعد انتفاضة بولافين عن دعم العرش. ونتيجة لذلك، كان لدى بطرس في بداية الحرب مع السويد القليل من القوات القادرة على القتال. ولذلك، تمكن الملك الشاب كارل الثاني عشر بسهولة من إلحاق هزيمة ساحقة بالروس في معركة نارفا، وقرر أنه لن يفكر في روسيا، لأن كل جيشها قد دُمر.

كان لدى بطرس حل وحيد، وهو زيادة عدد القوات الأجنبية، وتحديدا أفواج جنود المشاة وأفواج الفرسان. وبالتالي، فإن الإصلاح الرئيسي لبطرس – الإصلاح العسكري – كان اضطراريا. تم زيادة عدد القوات النظامية من ٦٠ إلى ٢٠٠ ألف شخص، ولكن لعمل ذلك كان من الضروري البدء في "مجموعات التجنيد". تم أخذ الفلاحين والخدم من البويار وتجنيدهم لمدة ٢٥ عاما، أي تقريبا للأبد. كانوا يدربون المجندين بحزم، بل وحتى بقسوة، مسترشدين بمبدأ "اقتل سبعة لتعلم واحدًا". بالطبع، كان الجنود المحترفون ذوى قدرة قتالية كبيرة، وكانوا أقوياء في المعركة، لكن الشغف الخلاق للعرق لم تسمح لهذا الجيش بالاكتفاء الذاتي، كما كان الحال مع سلاح فرسان النبلاء أو الرماة. لم يكن يسمح للجنود بتوفير طعام لأنفسهم، كانت تبدأ عمليات النهب والسرقة، لأن الجندي، الذي كان بيته الثكنات.

لم يكن يميل إلى الندم على القاطنين الغرباء بالنسبة له. كانت أفواج الأجانب، على خلاف الرماة، غير مرتبطة بالبيئة التي توفر الطعام، وبالتالي كانت تحتاج إلى إعالة كاملة. ولذلك كانت هذه الأفواج تكلف الخزانة كثيرا، فهي تحتاج إلى معسكرات، ومخازن أغذية، وإمدادات ضخمة. وضع الإنفاق العسكري عبئا ثقيلا على الشعب، وهرع الشعب الروسي إلى الهرب.

عندما كان الجيش في حاجة لمدافع، سرعان ما أتقن الروس تقنية تصنيعها، وخاصة أن هناك رواسب من خام الحديد اللازم لصب المدافع بالقرب من تولا وفي جبال الأورال، حيث كان التاجر ديميدوف يقوم ببناء المصانع. كانت مصانع ديميدوف تنتج مدافع لا تقل عن المدافع السويدية، وكان الحديد والسلاح السويدي في ذلك الحين يعتبران الأفضل في العالم. ولكن كان هناك عجز في الأيدي العاملة. لذلك تم إلحاق قرى بأكملها للعمل في مصانع ديميدوف. صدرت تعليمات لسكانها بالإسهام في القضية العامة – الحرب – عن طريق عملهم. ولكن لم يكن القرار موفقا، فالفلاحون لم يكونوا يعملون بقدر ما كانوا يذهبون إلى العمل ويعودون، لأن القرى كانت بعيدة عن المصانع، وكان وقت الرحلة يدخل في مدة العمل.

أثر الانخفاض في المستوى العام للطاقة الخلاقة أيضا على "أفراخ عش بطرس[٢]". كان الأشخاص الجدد، الذين جاءوا مع بطرس لإدارة البلاد، انتهازيين ومختلسين. وصلت الرشاوى والفساد في عهد "المصلح" تلك الدرجة من الانتشار التي لم يكن يتخيلها البويار في القرن السابع عشر. ويكفي أن نذكر حادثة واحدة من سيرة القائد الموهوب ألكسندر مينشيكوف، الذي كان محبوبا من بطرس، فعند بناء العاصمة الجديدة – سانت بطرسبرج – أصبح مبنى الوزارات الاثنتى عشرة الرائع، الذي كان من المفترض أن يزين ضفة نهر النيفا، يطل على النهر من ضلعه الأصغر، فقط لأن الحاكم العام لسانت بطرسبرج مينشيكوف قرر بناء قصر لنفسه في مكان المبنى الحكومي. وبطبيعة الحال، تم أخذ تكاليف البناء من الخزينة.

ومن الطبيعي جدا أن يتسبب الإنفاق على الجيش والأسطول والفساد في عجز دائم في ميزانية الدولة. (ومع ذلك، ترك بطرس لورثته الشؤون

المالية في حالة جيدة للغاية – دون قرش واحد دينا على الدولة). وفي عام ١٧١٤م طبق الإصلاحيون القانون البغيض لفرض الضريبة على الرأس أي على جميع من يعيشون في روسيا لمجرد أنهم أحياء. ولكن تحصيل هذه الضريبة لم يكن ممكنا. رفض الناس الدفع تحت ذرائع مختلفة. وهنا طبق بطرس مبدأ المسئولية الجماعية. وتم تسجيل جميع سكان المدن والبلدات، وتم تحديد مقدار الضرائب على كل مدينة وكل بلدة، وأصبح آباء المدينة وكبار رجالها – أغنى الناس – مسؤولين عن توريد تلك الضرائب للخزانة في موعدها. كانوا مضطرين لجمع الأموال بأنفسهم، وتحصيل المبلغ المطلوب من الفقراء، وكانوا يدفعون المتأخرات من ممتلكاتهم الخاصة. لم يكن هناك مفر، حيث كانت هناك حاميات من القوات القيصرية في المدن.

يبدو أنه لم يكن مجديا أخذ ضريبة الرؤوس فقط من الفلاحين، الذين يعملون لدى ملاك الأراضي. كان الفلاحون يخدمون ملاك الأراضي والنبلاء، والنبلاء في عهد بطرس كانوا يخدمون في الجيش ما لا يقل عن ٤٠ عاما (في فترات حكم خلفاء بطرس تم تخفيض هذه الفترة). ولكن تم الإعلان عن مسئولية ملاك الأراضي عن جمع الضريبة من الفلاحين. وردًا على الشكاوى العديدة لملاّك الأراضي حول استحالة جمع الضرائب وهم يؤدون الخدمة العسكرية، نصحتهم حكومة بطرس "التقدمية" بإشراك أقاربهم في هذا الأمر، وألا يشعروا بالخجل في اختيار وسائل تحصيل الأموال من الفلاحين البؤساء. ومن مرسوم الضريبة على الرؤوس تولد الشكل الخسيس والمثير للاشمئزاز من نظام "القنانة"، الذي ألغي فقط في عام ١٨٦١م. وكما نرى، كان هناك وجهان لـ"النافذة على أوروبا".

ولكن لم تظهر تبعات إصلاحات بطرس على الفور، فبعض نتائجها لم يعاني منها معاصري بطرس بقدر ما عانى منها أحفادهم. طوال القرن الثامن

عشر كانت الشعوب المجاورة تعتبر روسيا دولة التسامح القومي – وهذه هي الطريقة التي قدمت بها نفسها دولة موسكو في القرن الخامس عشر والسابع عشر. ولذلك أراد الجميع الانطواء "تحت ذراع" قيصر موسكو، والعيش في سلام وفقا لعاداتهم الخاصة وقوانين البلاد. وما حصلت عليه أوكرانيا، التي لم تبخل بدماء من أجل الانضمام إلى روسيا، حصل عليه دون أي جهد القوزاق والبوريات والجورجيون، الذين كانوا يعانون من غارات جيرانهم. وهكذا جذبت تقاليد موسكو القديمة عددا من الأعراق، التي دخلت بشكل عضوي في العرق الأعلى الروسي الموحد، الذي يمتد من الكاربات إلى بحر أوخوتسك.

كان القرن الثامن عشر هو القرن الأخير في مرحلة الذروة للتكوين العرقي الروسي. في القرن التالي دخلت البلاد زمنا عرقيًا مختلفًا تمامًا – مرحلة الانهيار. اليوم، ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين نحن قريبون من نهايتها. وسيكون من قبيل الثقة الزائدة بالذات الحديث عن العصر، الذي نحن جزء منه. ولكن إذا كان افتراضنا صحيحًا، ونحن لا نعرف حتى الآن حقائق تتعارض معه، فهذا يعني أن روسيا تنتظرها مرحلة القصور الذاتي – ٣٠٠ عام من الخريف الذهبي، عصر قطف الثمار، عندما يخلق العرق ثقافة فريدة تبقى للأجيال القادمة! وإذا ظهر في المساحات الشاسعة لبلدنا دفعات جديدة من الطاقة الخلاقة، فإن أحفادنا، على الرغم من أنهم لا يشبهوننا قليلا، سوف يواصلون تقاليدنا المجيدة وتقاليد أجدادنا الجديرين. الحياة لا تنتهي ...

الهوامش

(١) تأسست إدارة بريوبراجينسكي في عام ١٦٨٦ في قرية بريوبراجينسكي بالقرب من موسكو، تم إنشاؤها لإدارة أفواج بريوبراجينسكي وسيميونوفسكي، وكان بطرس الأول يستخدمها باعتبارها كيانًا سياسيًا في الصراع على السلطة مع الأميرة صوفيا.

(٢) هكذا وصف بوشكين في قصيدته بولتافا المقربين من بطرس.

الخاتمة

لقد تتبعنا منطق الأحداث الرئيسية للتاريخ العرقي لـــروس وروســـيا. ومن السهل أن نرى أن عرض هذا المنطق لا يشبه علـــى الإطـــلاق ســـرد تاريخ اجتماعي، فلا يجب أن يُدرس التاريخ العرقي لروسيا بنفس الطريقـــة التي تُدرس بها العلاقات الاقتصادية والنزاعات الـــسياسية وتـــاريخ الثقافـــة والفكر. وليس التاريخ العرقي لروسيا استثناءً، إذ لا يمكـــن تخيلـــه كعمليـــة خطية من عهد رورك إلى عصر جورباتشوف.

لقد شكلت أحداث التكوين العرقي لوطننا الأســـاس التـــاريخي لحيـــاة ما لا يقل عن نوعين مختلفين من الأعراق السوبر. ولذلك، من الـــضروري التمييز بين:

- تاريخ روس كييف القديمة الممتد من القرن التاسع إلى الثالث عشر، بما في ذلك تاريخ نوفغورود، حتى سقوطها في القرن الخامس عشر.

- وتاريخ روس موسكو الممتد من القرن الثالث عشر حتى يومنا هذا.

يمكننا النظر إلى القرون الثلاثة، من الثالث عـــشر وحتـــى الخـــامس عشر، باعتبارها الفترة الأساسية لفهم المصير التاريخي الوطني، وهي الفترة التي تشكل فيها الواقع الروسي نتيجة تـــداخل عمليتـــين مختلفتـــين للتكـــوين العرقي، حيث تم الجمع بين المرحلة النهائية من التكـــوين العرقـــي لـــروس كييف مع فترة الحضانة الأولية من تاريخ روسيا المستقبلية.

وهذا الجمع أعطى صبغة مأساوية لفترات حكم ألكسندر نيفسكي، ودِميتري دونسكوي، وفاسيلي تيومني. هل كان يدرك معاصرو هؤلاء الحكام العظماء أنهم يعيشون في عصر تغير التقاليد؟ بالطبع لا فانهيار الدولة الروسية القديمة، وصراعات الأمراء، والغارات الليتوانية والتتارية، وضرورة دفع ضريبة الخاقان ورسوم الأمراء كانت تقول: إنه لن يكون هناك زمن أصعب من ذلك.

وانعكست هذه النظرة اليومية للعصر على المصادر الأدبية للقرن الثالث عشر، وانتقلت إلى الأعمال التاريخية اللاحقة. من وجهة نظر التأريخ التقليدي، كان هذا صحيحًا، ولكن الحقيقة هي أنه كان من المستحيل الحصول على أي نتيجة أخرى باستخدام مناهج العلوم الإنسانية. عندما ينطلق المؤرخ مما هو مكتوب في النص الذي يدرسه، فإنه يستخلص استنتاجات تعمم آراء مؤلف هذا النص.

ويبدو أنه من الواجب علينا من أجل تعميم حقائق الواقع التاريخي أن ندرس هذه الحقائق في شكل "نقي" منفصل عن المصادر الأدبية وخاضعة للنقد التاريخي المقارن. ومثل هذا المنهج لا ينتمي إلى العلوم الإنسانية، ولكن إلى العلوم الطبيعية، وهو الذي يطبق في علم الجغرافيا التاريخية للأعراق والإثنولوجيا، الذي يقوم على نظرية الشغف الخلاق للتكوين العرقي.

عند استخدام منهجية العلوم الطبيعية يمكن رؤية ما لم يستطع المعاصرون رؤيته – الطبيعة الحقيقية لهذه الحقبة أو تلك، والتي تتجلى للباحث عند النظر لسلسلة طويلة من الأحداث من فترة زمنية معروفة.

وبتقييم فترة التاريخ الروسي الممتدة من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر بتلك الطريقة يمكن للمرء أن يتقين من أن الطبقات الأولى من

تاريخنا تكمن في تلك الفترة. بالنسبة لهم كل ما سبق هو تقليد تاريخي منتهٍ للتكوين العرقي السلافي، وكل ما يلي هو تحول للأنماط السلوكية والأفكار الثقافية المهيمنة.

عند تحليل التاريخ العرقي لروس وروسيا علينا الأخذ في الاعتبار التكوين العرقي لجميع شعوب وطننا. فقد أثر كل عرق من هذه الأعراق بما لديه من عمر عرقي وقدرات من الشغف الخلاق على مسار التكوين العرقي للعرق الأعلى بالكامل. وبالأخذ في الاعتبار الطيف الكامل للعلاقات العرقية وعواقبها الاجتماعية يمكن الاقتراب من التصور الحقيقي لماضي الوطن.

باستخدام السمة الرئيسية للتاريخ العرقي – مستوى توتر الشغف الخلاق – من السهل تعميم الاختلافات بين روس كييف وروس موسكو، والإشارة إلى مسارين مختلفين للتاريخ الروسي. سنحاول تقديم هذا في شكل جدول، والذي يوضح أكثر أن التكوين العرقي لروس موسكو وروسيا فقط في القرن العشرين يقترب من تلك المراحل النهائية التي مر بها تاريخ روس كييف بأكمله. لم تتبع موسكو تقاليد كييف، كما فعلت نوفغورود. بل دمرت تقاليد الفيتشي[١] ونزاعات الأمراء، واستبدلتها بقواعد سلوكية أخرى أخذتها إلى حد كبير من المغول، إذ تعلمت موسكو من المغول نظام الانضباط الصارم مع التسامح العرقي والتدين العميق.

بالنسبة للقارئ غير المُعد بالتأكيد يبدو عرض مفهوم التاريخ العرقي غير اعتياديا، وهناك بالفعل بعض الأسباب لمثل هذا الرأي.

تمر جميع ظواهر العالم المحيط عبر الوعي وتنعكس في إبداعات العقل والأيادي البشرية: الأطروحات الفلسفية، اللوحات الزيتية الرائعة،

الاكتشافات العلمية والإنجازات التقنية. تعيش التقاليد الثقافية فيما خلقه الإنسان، والتقاليد الثقافية هي مجموع المعارف والأفكار التي تنتقل في الزمن من عرق إلى آخر. وكتقاليد ثقافية وصلت إلينا أعمال الكتاب الروس القدامى والمعابد الجميلة الموجودة في تشرنيجوف وكييف وبوجوليوبوف. وبما أن التقاليد الثقافية القائمة على الأرثوذكسية أخذتها موسكو بالأساس من روس القديمة وتم تعديلها بصورة شكلية فقط، فإنه تم الحفاظ على الاستمرارية التاريخية بالنسبة للشعب في الفترة من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين. بالنسبة لنا تم دمج إرث روس كييف وإنجازات روس موسكو معا، الأمر الذي يثير الحديث عن مسار التاريخ الروسي من القرن التاسع إلى القرن العشرين.

في الواقع، إذا كنا نعني الثقافة، أي كل ما خلقه البشر، فحينها يمكن الموافقة على أطروحة التتابعية مع الخطيئة مناصفة. ولكن إذا كنا نتحدث عن التكوين العرقي، فإن هذه الأطروحة غير قابلة للتطبيق. فعلى خلاف التقاليد الثقافية، ليست التقاليد العرقية استمرارية لأشكال ميتة خلقها الإنسان، بل وحدة سلوك بشر أحياء مدعومة من طاقتهم الخلاقة. أما بالنسبة لأنماط سلوك الناس في روس كييف وفي دولة موسكو، فإنها، كما رأينا، كانت مختلفة بشكل كبير للغاية.

جدول لمقارنة التاريخ العرقي لروس وروسيا

مرحلة التكوين العرقي أو التحول المرحلي	عمر العرق بالسنين	السلاف – روس القديمة		روس موسكو – روسيا	
		الفترات والتواريخ	الأحداث الرئيسية	الفترات والتواريخ	الأحداث الرئيسية
دفعة الطاقة الخلاقة	–	عام ١ ميلاديا	انفجار التكوين العرقي من جنوب السويد حتى الحبشة (أكسوم) – عصر الهجرات	عام ١٢٠٠ م. تقريبا	انفجار التكوين العرقي في ليتوانيا، وروس، وآسيا الصغرى، وإثيوبيا
فترة الحضانة لمرحلة تزايد الطاقة الخلاقة، تشكل عرقًا جديدًا	١٨٠–٢٠٠	١–٢٠٠ م.	غير معروف	١٢٠٠–١٣٨٠ م.	ظهور عرق جديد – الروس – على أساس اندماج الشعوب السلافية والتتارية والليتوانية والأوغورية الفنلندية. إمارة موسكو العظمى، معركة ساحة كوليكوفو
الفترة الواضحة لمرحلة تزايد الطاقة الخلاقة، بداية التحول لمرحلة الذروة	٢٠٠–٣٠٠	٢٠٠–٣٠٠ م.	غير معروف	١٣٨٠–١٥٠٠ م.	توحد روسيا العظمى. بداية تشكل العرق الأعلى. تدمير الجزء الأخير من روس كييف – نوفغورود

مرحلة ذروة التكوين العرقي – تشكل العرق الأعلى وانتشارهم في حدود نطاق المناظر الطبيعية الخاص به	٣٠٠-٦٠٠	٣٠٠-٦٠٠ م.	هجرة القبائل السلافية. انتشار السلاف على أراضي جنوب وشرق أوروبا	١٥٠٠-١٨٠٠م.	توحد شعوب أوراسيا من البلطيق حتى المحيط الهادئ تحت سلطة موسكو، تشكل العرق الأعلى
مرحلة الانهيار، انخفاض حاد في الشغف الخلاق للعرق الأعلى	٦٠٠-٨٠٠	٦٠٠-٨٠٠ م.	انهيار الوحدة السلافية. تنمية الأراضي التي شغلتها الشعوب السلافية. تكون دول سلافية مبكرة منفصلة	١٨٠٠-٢٠٠٠ م.	زيادة الصراعات الداخلية: الحروب الأهلية، الثورات، الإلحاد. (انشقاق الحقل العرقي)
مرحلة القصور الذاتي، انخفاض سلس للطاقة الخلاقة الخاصة بالعرق الأعلى	٨٠٠- ١١٠٠	٨٠٠-١١٠٠ م.	قيام الدولة السلافية في شرق أوروبا – روس كييف، اعتناقها للمسيحية مع ازدهار الثقافة ونمو الثروة	بعد عام ٢٠٠٠	؟
مرحلة التعتيم، انخفاض حاد في الطاقة الخلاقة، انهيار علاقات النظام	١١٠٠- ١٣٠٠	١١٠٠-١٣٠٠م.	تفكك الدولة السلافية إلى إمارات منفصلة، تزايد الصراعات الداخلية. انقسام البلاد بين دولة القبيلة (الشمال الشرقي) وليتوانيا (الجنوب الغربي)	–	–
مرحلة الذاكرة – ضياع وحدة الانتماء العرقي وتحول التقاليد الثقافية. محو تام للبقايا العرقية	١٣٠٠- ١٥٠٠	١٣٠٠-١٤٨٠ م.	فقدان نوفغورود العظمى استقلالها السياسي	–	–

بالطبع يلعب الشغف الخلاق دورا في تشكيل الثقافة، لكنه ليس دور دفة القيادة، ولكن المحرك. كما تنعكس المشاعر البشرية المرتبطة بمظاهر الطبيعة في أعمال وإبداعات البشر، سواء في المؤسسات السياسية أو الأعمال الأدبية. وكما هو معروف، فإنه إذا كان من الصعب تعلم الرسم أو الكتابة بصورة جيدة لكن مع بعض القدرات يمكن بالطبع تعلم مثل هذه الحرف لكن تظل الحرفة حرفة: فمن دون البصيرة الإبداعية من المستحيل تجاوز حدود التقليد أو النسخ. ولكن الدفعة العاطفية الإبداعية لا تكفي، لأنه من دون السعي الدؤوب لتحقيق الهدف من المستحيل إنجاز عمل كامل. يتطلب الفن تضحيات من مبدعيه، والقدرة على التضحية بالنفس من أجل المُثل العليا مظهر من مظاهر الطاقة الخلاقة.

وبالتالي، لدينا في إبداعات الإنسان تركيبة من ثلاثة عناصر: العمل الحرفي، الشغف الخلاق لمبدع العمل، والتقاليد الثقافية. وهكذا، فإن أي إبداع لأيدي الإنسان هو إلى حد ما طاقة خلاقة متبلورة لمبدعه.

يتعامل المؤرخون بطبيعة الحال مع الظواهر الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة – الآثار بمختلف خصائصها. وهنا تختبئ إمكانية استبدال المفاهيم: إبداعات الإنسان تتساوى مع مبدعيها، واستمرارية التقاليد الثقافية تنتقل مباشرة إلى التقاليد العرقية. ولكن إذا فكرت في الأمر مليا، يتضح أن المعالم الثقافية لا تخبرنا كل شيء عن الأشخاص الذين صنعوها. على سبيل المثال، عندما نُعجب بتماثيل ورسومات رائعة لعصر النهضة، فإننا نغفل الكثير من النقاط، وعلى وجه الخصوص، حقيقة أن المحتوى الثقافي الكامل لعصر النهضة قد تم ابداعه من خلال أعمال العديد من الفنانين الموهوبين المفتونين بالعصور القديمة في الوقت الذي كان فيه القتل بالنسبة لسكان أوروبا الغربية عملاً يوميًا وكان منتشرًا على نطاق واسع. ولكن لا لوحة "مادونا سيستين" لرافائيل ولا تمثال "داود" لمايكل أنجلو سيخبران المؤرخين عن فظائع عائلة بورجيا البابوية أو العنف الذي ارتكبه دوقات عائلة سفورزا. لذلك، من الأفضل للشخص الذي يهتم بما حدث بالفعل ألا يخلط بين أعمال الثقافة ونظام السلوك العرقي.

ونظام السلوك الجديد، الذي تم إنشاؤه على أساس أيديولوجي قـديم – الأرثوذكسية – هو تحديدا الذي سمح لروسيا بأن تقول كلمتهـا فـي تـاريخ أوراسيا[٢]. وهذه القارة توحدت ثلاث مرات خـلال الفتـرة التـي ندرسـها تاريخيا. تم توحيدها لأول مرة على يد الشعوب التوركيـة، الـذين أنـشأوا خاقانية كانت تضم الأراضي من البحر الأصفر إلى البحر الأسـود. وجـاء المغول من سيبيريا ليحلوا محل الترك. ثم بعد فترة مـن الانهيـار الكامـل والتفكك أخذت روسيا زمام المبادرة: منذ القرن الخامس عشر تحرك الروس إلى الشرق ووصلوا إلى المحيط الهادئ. كانت الدولة الجديدة بمثابة "وريـث" للخاقانية التوركية ودولة المغول.

كانت أوراسيا الموحدة بقيادة روسيا تواجـه بـشكل تقليـدي أوروبـا الكاثوليكية في الغرب، والصين في الشرق الأقصى، والعالم الإسـلامي فـي الجنوب. على خلاف المناظر الطبيعية لأوروبـا الغربيـة، فـإن المنـاظر الطبيعية لأوراسيا متنوعة للغاية. وبالنسبة لأي شعب من المهم للغايـة تتبـع العلاقات مع المناظر الطبيعية لموطنه، التي تحدد نظام الاقتـصاد. يتكيـف العرق مع المناظر الطبيعية، ويشعر بالراحة فيها. أما إذا تغيـرت المنـاظر الطبيعية بشكل جذري فإن العرق يتغير بشكل جذري بالمثـل. وعنـد تغيـر المناظر الطبيعية بشكل يتعدى درجة حرجة معينة، يظهر عرق جديـد فـي مكان العرق القديم.

كان لتنوع المناظر الطبيعية في أوراسيا تأثير مفيـد علـى التكـوين العرقي لشعوبها. كان لدى الجميع مكان مقبول وجميل بالنسبة له: فـالروس سكنوا وديان الأنهار، والشعوب الفينو-أوغرية والأوكرانيون سكنوا منـاطق مستجمعات المياه، والترك والمغول سكنوا حـزام الـسهوب، والآسـيويون

القدامى[٣] سكنوا سهول التندرا الجليدية. ومـع التنـوع الكبيـر للظـروف الجغرافية كان التوحد دائمًا يبدو بالنسبة لشعوب أوراسيا أكثـر فائـدة مـن الانفصال، الذي يجرد من القوة والقدرة على المقاومة. الانفصال فـي ظـل ظروف أوراسيا يعني الاعتماد على الجيران، الذين لم يكونوا دائمًـا شـرفاء ذوي رحمة. لذلك، طورت الثقافة السياسية في أوراسـيا رؤيتهـا الأصـلية الخاصة لطرق التنمية وأهدافها.

قامت الشعوب الأوراسية ببناء دولة مشتركة، انطلاقا من مبدأ أولويـة حق كل شعب في نمط معين من الحياة. تم تجسيد هذا المبدأ في روسيا فـي مفهوم "الجمعية[٤]" وتم الالتزام به بدقة. وهكذا، تم ضمان حقوق الفرد أيضا. دعونا نتذكر مثلاً أنه بعد ضم منطقة الفولغا والأورال وغرب سيبيريا كـان في جيش قياصرة موسكو "قوات من عامة الشعب" جنبا إلى جنب مع أفـواج الأجانب والرماة وسلاح فرسان النبلاء. إن البدو الرحل، الذين خـدموا فـي الجيش، لم يتقاضوا أي أموال تقريبًا، وكانوا يعيشون على غنائمهم، وكـانوا ناجحين إلى حد كبير في حروب المنـاورة. وبمسـاعدتهم حـرر أليكسـي ميخائيلوفيتش أوكرانيا من بولندا وبذلك أنقذها من الدمار.

لقد أظهرت التجربة التاريخية أنه ما دام احتفظ كل شعب بالحق في أن يكون نفسه، فإن أوراسيا الموحدة نجحت في صد هجـوم أوروبـا الغربيـة والصين والمسلمين. تخلينا في القرن العشرين لسوء الحظ عن هذه السـياسة الأصيلة العاقلة والتقليدية بالنسبة لبلدنا وبدأنا في اتباع المبادئ الأوروبيـة – حاولنا جعل الجميع متشابهين. ومن يريد أن يكون مثـل الآخـر؟ إن النقـل الميكانيكي لتقاليد سلوك أوروبا الغربية إلى ظروف روسيا لم يؤد إلى شـيء جيد، وهذا ليس مفاجئًا. نشأ العرق الأعلى الروسي بعد الأوروبي بنحو ٥٠٠

سنة. لقد شعرنا نحن والأوروبيون الغربيون دائمًا بهذا الاختلاف، وكنا مدركين لذلك، ولم نكن نعتبر بعضنا البعض "أقارب". وما دمنا أصغر بنحو ٥٠٠ عام، فمهما درسنا التجربة الأوروبية، فإننا لن نتمكن من تحقيق الرخاء والأخلاق المميزة لأوروبا. إن عمرنا ومستوى طاقتنا الخلاقة يفرض مسلمات مختلفة تمامًا للسلوك.

هذا لا يعني أنه يجب رفض كل ما هو غريب سريعا. إن دراسة تجربة أخرى ممكنة وواجبة، ولكن يجب تذكر أن هذه تجربة شخص آخر. تنتمي البلدان المسماة بالمتحضرة إلى عرق أعلى مختلف – عالم أوروبا الغربية، الذي كان يُطلق عليه سابقًا اسم "العالم المسيحي"، الذي ظهر في القرن التاسع، وبعد ألف عام وصل إلى النهاية الطبيعية لتاريخه العرقي. ولهذا بالضبط نرى لدى الأوربيين الغربيين التكنولوجيا المتقدمة للغاية، والمعيشة المرتبة، وسيطرة النظام المبني على القانون. كل هذا هو نتيجة لتطور تاريخي طويل.

بالطبع، يمكنك محاولة "الدخول إلى دائرة الشعوب المتحضرة"، أي في عرق أعلى آخر. ولكن للأسف، لا يتم تقديم أي شيء دون مقابل. يجب أن ندرك أن ثمن اندماج روسيا مع أوروبا الغربية سيكون التخلي عن التقاليد الوطنية حتميًا والامتصاص داخل الثقافة الأوروبية لا مفر منه.

هذا الاستنتاج، الذي على ما يبدو بسيطا، لا يمكن أن يتم إلا على أساس المقدمات الأولية الصحيحة. ونحن لسبب ما لا نريد إطلاقا أن نعترف بما هو واضح، وهو أن أساس العلاقات العرقية يكمن خارج نطاق الوعي – إنه في المشاعر: التعاطف–عدم التعاطف، الحب–الكراهية. واتجاه مشاعر

التعاطف-عدم التعاطف هذه له أسباب عند كل عرق. ويمكنك تقييم هذه الظاهرة كما تشاء، ولكنها نتيجة ذلك لن تصبح أقل واقعية.

ويترتب على ذلك أن علينا دراسة تاريخ وجغرافية السلوك البشري بنفس الطريقة التي ندرس بها على سبيل المثال تاريخ الدبلوماسية وجغرافية النقل. وانطلاقا من هذا الاعتقاد تحديدا حاول المؤلف أن يكتب هذا الكتاب عن التاريخ العرقي لروسيا في شكل موجز وسهل الفهم. ولكن ما مدى نجاح هذه المحاولة - الحكم للقراء.

الهوامش

(١) الفيتشي هو مجلس الشعب في روس القديمة والوسطى، ولدى جميع الشعوب من أصل سلافي لمناقشة الشؤون العامة وللمعالجة المباشرة للقضايا الملحة في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وهو أحد الأشكال التاريخية للديمقراطية المباشرة في أراضي الدول السلافية.

(٢) نقصد بأوراسيا هنا ليس فقط القارة الضخمة، ولكن أيضا العرق الأعلى الذي تكون في مركزها وكان يحمل نفس الاسم.

(٣) الأسيويون القدامى اسم يطلق على عدد من الشعوب الشمالية الصغيرة، التي تقطن شمال وشمال شرق سيبيريا، وكذلك جزر كوريل والجزر اليابانية.

(٤) مجموعة من المعايير الأخلاقية والسلوكية داخل المجتمع. هذه القواعد تدين بشكل قاطع النزعة الفردية ورغبة الفرد في معارضة مجموع "أبناء دينه". ترفض الجمعية فكرة مثل "السعادة الشخصية"، مؤكدة أنه "من المستحيل أن يكون المرء سعيدًا بمفرده".

وصية الأوراسي العظيم

تعقيب على الكتاب

بقلم : سيرجيه لافروف

رئيس الجمعية الجغرافية الروسية

عندما بدأت قراءة كتاب من تأليف ليف جوميليوف "من روس إلى روسيا: مقالات عن التاريخ العرقي" – الكتاب الذي بين أيديكم الآن – شعرت بعدم الثقة. فالموضوعات، التي يدور عنها الحديث في الكتاب، تناولها المؤلف مرارًا وتكرارا، ناهيك عن العلماء والكتاب الآخرين. كيف يمكن في هذه الحالة تجنب التكرار، وقبل كل شيء تكرار نفسك؟ حسنًا، على سبيل المثال شخصية جنكيز خان، في الواقع هي مكتوبة بالفعل، وببراعة وفنية عالية كتبها جوميليوف في كتاب "البحث عن مملكة وهمية". لكن الخوف من رؤية التكرار تبدد عندما قرأت – لقد كان من دواعي سروري أن ألاحظ أنه في كل مكان تقريبًا توجد فرص نادرة لإخبار ما هو معروف بطريقة جديدة تمامًا.

إن طريقة جوميليوف في العرض فريدة تماما. هنا في كتاب "من روس إلى روسيا" يدور الحديث عن أحداث بعيدة جدًا، وفجأة تجد كلمة حديثة تماما. ولكن هل يبدو هذا تنافرا فجا أو شعبويا؟ لدى جوميليوف هذا دائمًا في موضعه، وطبيعي، وعضوي. الكتاب مكتوب بطريقة تخلق تأثير القصة العاطفية الحية، وتأثير المحادثة مع المؤلف. ويبعث الكتاب في الذاكرة مناقشاته على التلفاز، المناقشات التي كانت إلى حد ما متمهلة ومنزلية، وفي الوقت نفسه عميقة للغاية ومليئة بالمعلومات.

في نفس الوقت كتاب "من روس إلى روسيا" ليس كتاب تاريخ مدرسي. إنه بالأحرى "خطوط عريضة" لتاريخ روسيا، وبطريقة ما يشبه

العمل الكلاسيكي الذي قدمه فرنادسكي بعنوان "الخطوط العريضة للتاريخ الروسي"، الذي نشر في براج في عام ١٩٢٧م. كتاب "من روس إلى روسيا" هو كتاب تحليل وتفكير، وهو نتاج تفسير شخصي للغاية للتاريخ الروسي، أي تفسير جديد.

القيمة الرئيسية لعمل جوميليوف هذا في رأيي تكمن في اتساقه، وهو ما يعبر عن ولاء المؤلف للفكرة الرئيسية لإبداعه. كانت الأوراسية – وهي اتجاه مهم للفكر التاريخي الروسي نشأ في النصف الأول من هذا القرن، هي الفكرة الرئيسية عند ليف جوميليوف. والتي قالها في مقابلة صحفية: "بشكل عام، فإنهم يسمونني أوراسيًا، وأنا لا أعترض على ذلك.... هذه مدرسة تاريخية قوية. لقد درست أعمال هؤلاء الناس بعناية، ولم أدرسها فقط، بل أيضا عندما كنت في براج التقيت وتحدثت مع سافيتسكي، وكنت أراسل فرنادسكي. وأنا أتفق مع الاستنتاجات التاريخية والمنهجية الأساسية لمعتنقي المذهب الأوراسي" في التاريخ.

أوراسيا من وجهة نظر جوميليوف "ليست فقط القارة الضخمة، ولكن أيضا العرق الأعلى الذي تكون في مركزها وكان يحمل نفس الاسم". مجملا نتائج أبحاثه عن التاريخ الأوراسي كتب ليف جوميليوف يقول "هذه القارة توحدت ثلاث مرات خلال الفترة التي ندرسها تاريخيا. تم توحيدها لأول مرة على يد التورك، الذين أنشأوا خاقانية كانت تضم الأراضي من البحر الأصفر إلى البحر الأسود. وجاء المغول من سيبيريا ليحلوا محل التورك. ثم بعد فترة من الانهيار الكامل والتفكك أخذت روسيا زمام المبادرة: منذ القرن الخامس عشر تحرك الروس إلى الشرق ووصلوا إلى المحيط الهادئ. كانت الدولة الجديدة بمثابة "وريث" لخاقانية الترك ودولة المغول. كانت أوراسيا

الموحدة بقيادة روسيا تواجه بشكل تقليدي أوروبا الكاثوليكية في الغرب، والصين في الشرق الأقصى، والعالم الإسلامي في الجنوب ".

يكمن جوهر مفهوم الأوراسية في الطبيعة الموضوعية لوحدة العرق الأعلى، ووحدة الدولة، التي نشأت على أراضٍ شاسعة من بحر البلطيق وجبال الكاربات إلى المحيط الهادئ. ولذلك تحديدا تعد فكرة الأوراسية بالنسبة لجوميليوف معيارا لتقييم بعض الشخصيات من الماضي الروسي. وهذا هو السبب في كونه "مضادًا لبطرس". ويُستشعر ذلك بالفعل من عنوان الجزء المخصص لمصلح روسيا – "أسطورة بطرس" – ويُستشعر بصور أكثر وضوحا من النص التالي: "وفي عهد يكاترينا الثانية ولدت أسطورة بطرس – أسطورة عن القيصر المصلح الحكيم الذي فتح نافذة على أوروبا وفتح روسيا لتأثير الثقافة والحضارة الغربية القيمة". ولكن وهو ينتقد العديد من خطوات بطرس الأول، يخفف جوميليوف في الوقت نفسه من تقييمه، مشيرا إلى أن موقف المستبد الروسي الروسي تجاه أوروبا ، "بكل حماسه، إلى حد ما ظل، إذا جاز لي القول، "استهلاكي". وحول إصلاحات بطرس يقول جوميليوف إنها جميعا "كانت في الواقع استمرارًا منطقيًا للأنشطة الإصلاحية التي قام بها أسلافه".

علاوة على ذلك، "يعفو" جوميليوف تقريبا عن بطرس الأول. لماذا؟ الإجابة عن هذا السؤال، على ما اعتقد، من الممكن أن تجدها في الكلمات التالية: "طوال القرن الثامن عشر كانت الشعوب المجاورة تعتبر روسيا دولة التسامح القومي – وهذه هي الطريقة التي قدمت بها نفسها دولة موسكو في القرن الخامس عشر والسابع عشر. ولذلك أراد الجميع الانطواء "تحت ذراع" قيصر موسكو، والعيش في سلام وفقا لعاداتهم الخاصة وقوانين البلاد". وهذا

يعني أن عملية تشكيل الإمبراطورية استمرت أيضا في عهد بطرس، وبما أن "مجموعة كاملة من الأعراق، التي دخلت بشكل عضوي إلى العرق الأعلى الروسي الموحد"، انضمت للإمبراطورية، فوسعت أراضي مستوطناتها من الكاربات إلى بحر أوخوتسك، فمن الممكن "العفو" عن "التغريبي" بطرس ...

عند قراءتك لجوميليوف تقتنع استنادا للحقائق بأن السؤال: "الغرب أم الشرق؟" هو السؤال الأزلي لتاريخنا. وها هي روس ألكسندر نيفسكي، حيث كان ألكسندر وباتو حلفاء. "حافظت الإمارات الروسية، التي تحالفت مع القبيلة على استقلالها الأيديولوجي والاستقلال السياسي ... لم تكن روس مقاطعة في الدولة المنغولية، بل كانت بلدا حليفًا للخاقان العظيم". لكن في الوقت نفسه كان هناك أيضًا "برنامج التغريبيين"، وهو توحيد قوى جميع الأمراء الروس وطرد المغول". في غضون ذلك "لم يكن فرسان النظام، وتجار رابطة الهانزا الألمانية، والبابا والإمبراطور يعتزمون على الإطلاق إهدار قواهم على توحيد دولة غريبة بالنسبة لهم". وهكذا، يُظهر جوميليوف بتحليله للماضي أن الوحدة الأوراسية بالنسبة لروسيا دائما أفضل من الاتحاد مع الغرب.

لكن جوميليوف لن يكون جوميليوف إذا اقتصر فقط على تبسيط مفهوم الأوراسية. لم يكن إطلاقا خلفا لأسلافه من المفكرين العظماء. في عام ١٩٨٩م – أي منذ وقت ليس ببعيد – تم نشر أخطر أعمال ليف جوميليوف "التكوين العرقي والمحيط الحيوي للأرض"، والذي فيه، وكذلك في الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة[١]، يتم عرض النظرية الكاملة للتكوين العرقي مع عنصرها الرئيسي – دراسة الشغف الخلاق وحامليها – أصحاب الطاقة الخلاقة.

أصحاب الشغف الخلاق هم الغزاة، الذين اتبعوا كولومبوس عبر المحيط وماتوا هناك. أصحاب الشغف الخلاق هم "جان دارك" و"كوتوزوف" و"سوفوروف". وأصحاب الشغف الخلاق المنخفض، والذين يتفوق لديهم "دافع الغريزة"، هم تقريبًا كل شخصيات تشيخوف. "يبدو أنهم بخير، ولكن لا يزال هناك شيء مفقود؛ شخص لائق، متعلم، مدرس، ولكن ..."في الجراب[٢]"؛ طبيب جيد، يعمل كثيرًا، ولكن "ايونيتش"[٣].

تظهر الشغف الخلاق لدى الشخص كمسعى لا مفر منه للعمل من أجل مثل أعلى مجرد، وهدف بعيد المنال يجب من أجل تحقيقه التضحية بحياة من حوله وحياته الخاصة. إن قوة الشغف الخلاق تحديدا هي التي تخلق مثل هذه المجموعات البشرية المحددة كالأعراق (الشعوب)، والتغير الزمني لعدد أصحاب الشغف الخلاق يحدد أيضا عمر العرق، أي مرحلة التكوين العرقي.

لست بحاجة إلى أن أكرر هنا نظرية التكوين العرقي بكلماتي الخاصة، وبالتالي تبسيطها وجعلها بدائية، لأن جوميليوف عرضها باختصار في "المقدمة البديلة". هنا أود أن أتطرق إلى جانب واحد فقط من نظرية التكوين العرقي. غالباً ما ينظر القارئ غير المُعدَ إلى مفهوم جوميليوف باعتباره مفهومًا تاريخيًا بحتًا، وهذا ليس صحيحًا تمامًا. في رأيي، أن جوميليوف كان جغرافيًا في المقام الأول عند إعداد نظرية التكوين العرقي. ترتبط هذه النظرية ارتباطًا وثيقًا بمفهوم "المناظر الطبيعية التي تقدم الغذاء". فقد كتب جومليوف يقول "لا تنشأ الأعراق الجديدة في المناظر الطبيعية الخالية من التنوع، ولكن على حدود مناطق المناظر الطبيعية وفي مناطق الاتصالات العرقية، حيث يكون التهجين المكثف أمرًا حتميا"[٤]. ولذلك، فإن جوميليوف يرى أن المَعْلَمَة الأولى للتاريخ العرقي بأكمله هي "علاقة كل عرق بالمناظر

الطبيعية التي تغذيه وتحتويه، وفقدان هذه العلاقة أمر لا يمكن إصلاحه، حيث يتم تسطيح أو بالأحرى تشويه كل من المناظر الطبيعية وثقافة العرق"(٥).

في كتابه الذي بين أيدينا يظل جوميليوف وفيًا لهذه الأفكار. فعند دراسته للتقدم الناجح للروس "نحو الشمس"، أي نحو سيبيريا، يشير إلى أن الشرط الأساسي لنجاح حملة يرماك، والرحلات الاستكشافية التي قام بها "دجنييف" و"جاباروف" لم يكن يدفعها فقط الشغف الخلاق للروس في ذلك الوقت، ولكن أيضا أن "أسلافنا أثناء تقدمهم إلى سيبيريا، لم يتجاوزوا حدود المناظر الطبيعية التي تمدهم بالغذاء في وديان الأنهار. فقد بدأوا في العيش على طول ضفاف أنهار أوب، وينيسي، وأنجارا والعديد من الأنهار السيبيرية الأخرى، تماما كما كان يعيش الشعب الروسي على طول ضفاف أنهار الدنيبر، وأوكا، والفولغا". وبالمناسبة، تؤكد الصورة الحديثة للاستيطان، وسلاسل المدن، والطرق السريعة بقاء هذا الالتزام تجاه "المناظر الطبيعية الموفرة للغذاء" على الرغم من التغيرات الهائلة التي شهدها قرن التقدم العلمي والتكنولوجي.

يدعم ليف جوميليوف فكرته عن أوراسيا باعتبارها وحدة واحدة بتصوراته عن " المناظر الطبيعية الموفرة للغذاء"، وهي مختلفة، ولكنها دائمًا موطن لهذا العرق. "كان لتنوع المناظر الطبيعية في أوراسيا تأثير مفيد على التكوين العرقي لشعوبها. كان لدى الجميع مكان مقبول وجميل بالنسبة له: فالروس سكنوا وديان الأنهار، والشعوب الفينوأوغرية والأوكرانيون سكنوا مناطق مستجمعات المياه، والتورك والمغول سكنوا حزام السهوب، وسكن الأسيويون القدامى التندرا. ومع التنوع الكبير للظروف الجغرافية كان التوحد دائمًا يبدو بالنسبة لشعوب أوراسيا أكثر فائدة من الانفصال".

في "زمن العقائد"، الذي لم يمضِ عليه كثيرا، كان من المألوف اتهام جوميليوف بالحتمية الجغرافية على مثل تلك الآراء. لكنني ألاحظ أن الحتمية الجغرافية لا تمثل مفهومًا واحدًا. لقد تغيرت مع مرور الوقت، وضمت مواد جديدة من العلوم الطبيعية. من الممكن أن نقترح على القارئ، الذي يتعامل مع هذه الإشكالية بتحيز، القيام بتجربة غير عادية تسمح له بإلقاء نظرة مختلفة على الصور النمطية: كأن يتناول مقتطفًا عشوائيًا من الكتاب المقترح ومقتطفًا من الجزء الأول من كتاب "مسار التاريخ الروسي" الذي ألفه كلوتشيفسيكي، ويقارنهم بغض النظر عن أسماء المؤلفين، ومن ثم الإجابة عن السؤال التالي: من هو الجغرافي الحتمي بصورة أكبر؟

وبالطبع، فإن وجهات نظر جوميليوف أبعد ما تكون عن الحتمية الجغرافية التقليدية، ولكنها منظومة معقدة للغاية لا تتفاعل فيها الأشياء المحلية، بل يتفاعل فيها الفضاء والمحيط الحيوي للأرض ككل. وفي هذه المنظومة يتم عرض جميع العلاقات بين العرق و"مناظرة" الطبيعية. ومستوى التعميمات والاستنتاجات التي توصل إليها المؤلف ببساطة مدهشة.

لكن الحجم الحقيقي لما قام به ليف نيقولايفتش لا يمكن تقييمه بشكل صحيح دون مراعاة ظروف حياته الشخصية، التي كانت صعبة للغاية. تحدث ليف نيقولايفتش على مضض عن المعسكرات الزراعية الإجبارية والسنوات الأربع عشرة التي قضاها هناك، ولم يتذكر قط معاناته، بل تذكر أكثر الأشخاص الذين قابلهم هناك. ولم يكن لديه غضب ولا نفور من تلك الفترة الرهيبة بالنسبة له. ومن الممكن أن يكون قد "كتب" أطروحته الأولى، مثل كتابه الأول، في المعسكرات، أي أنه فكر في المفهوم، وبنى السرد، واضعا في ذهنه التواريخ، والأسماء، والأحداث ... وبين فترتي المعسكر

مرت الحرب، ووصل ليف نيقولايفتش إلى برلين. ولكن بدلاً من الغضب الشديد، كان لديه طيبة كبيرة تجاه الناس، ورغبة في مشاركة كل شيء يعرفه، وتربية طلاب جديرين.

وبعد تحرره كان هناك العديد من الصعوبات. فعندما ناقش ليف نيقولايفتش ببراعة رسالته الثانية للدكتوراه، والتي كانت في الجغرافيا (حيث كانت الأولى في التاريخ)، تم استدعاؤه إلى اللجنة العليا للتصديق على الدرجات العلمية. وهناك طرح "المُراجِع الأسود" سؤالاً سخيفاً: "ومن أنت؟ مؤرخ أم جغرافي؟" ولم يحصل على درجة الدكتوراه الثانية. لم يفهم علماء البيروقراطية أن عصر تكامل العلوم قد بدأ بالفعل، وأن ليف جوميليوف كان تكامليا بالمعنى الأفضل للكلمة. كان تكامليا ليس فقط في التاريخ والجغرافيا، ولكن أيضا في الإثنوجرافيا، والدراسات الشرقية، وعلم النفس. كان، على النقيض من أتباع العلوم "الصرفة"، موسوعيا وكان يقدر جدا فرنادسكي، الذي قال في الثلاثينيات العبارة الشهيرة: "نحن متخصصون بشكل كبير ليس في العلوم، ولكن في المشاكل".

لم يكن رومانوفسكي لينينجراد أيضا يحب ليف جوميليوف. عاش حتى سنواته الأخيرة في غرفة بالقرب من محطة مترو فلاديميرسكايا، في شقة مشتركة. في زمن العقائد والنقد اللاذع، لم يتنازل أحد "نجوم" العلم الرسمي لمحاولة دحض نظرية هذا العالم، في حين أن العلماء من المستوى الأدنى اقتصروا على "اصطياد البراغيث" – أي البحث عن أخطاء في التواريخ أو الأسماء. وكان هذا الصمت عن النظرية العلمية، الذي كان ذا طابع شمولي، شكلاً من أشد الهجمات الشريرة والقاسية على مؤلفها. ويبدو أن النغمة السائدة في العلم الرسمي آنذاك وهي "لا حاجة لقراءة جوميليوف" كانت وليدة الحسد.

تم نشر عمل حياته الرئيسي - "التكوين العرقي والمحيط الحيوي للأرض" - كما لو كان وثيقة قانونية، حيث تم إيداعه في المعهد الروسي للمعلومات العلمية والتقنية. هناك كان من الممكن حجز هذا الكتاب، ولكن لعمل ذلك كان من الضروري معرفة أنه موجود. أما شراؤه فكان شبه مستحيل. وأتذكر أن ليف نيقولايفتش جوميلوف نفسه كان يفخر بأنه لا يمكن شراؤه إلا بسعر مرتفع جدًا في السوق "السوداء" الفقيرة للكتب في ذلك الوقت.

كان جوميليوف يتلقى دائما دعوات من الخارج من الجامعات والأكاديميات للحضور وإلقاء محاضرات. لكنه لم يذهب إلى أي مكان، في رأيي، إنه ببساطة لم يرغب في تلقي الرفض "من الأجهزة المعنية". وفي رسالة واحدة ووحيدة موجهة إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي، كتبها جوميليوف في الثمانينيات، طلب شيئا بسيطا للغاية، وهو السماح له "أن يكون مثل أي شخص آخر" - أي إلقاء المحاضرات، ونشر الكتب، والدعاية لأفكاره العلمية.

في منتصف الثمانينيات رُفع الغضب عن جوميليوف، ولكن مع انتصار "الديمقراطية" عاد كل شيء إلى ما كان عليه. فقط في السنة الأخيرة من حياته أصبح ليف نيقولايفتش جوميليوف أكاديميًا، لكن في أكاديمية العلوم الطبيعية، وليس في أكاديمية العلوم الروسية، حيث تم تعيين مسؤولين جدد، ومرة أخرى لم "ينظروا" إليه. ومع ذلك، كانت العلامات الخارجية للاعتراف لا تقلق جوميليوف كثيرا. بالنسبة له كان المهم هو شيء آخر، وقد أخبرني به وهو في المستشفى قبل شهر من وفاته: "مع ذلك أنا شخص سعيد، كنت دائمًا أكتب ما أفكر فيه، وما أريده، أما هم (العلماء بالصدفة - على حد تعبير سيرجي لافروف) - كان يفعلون ما يؤمرون به ".

في شبابه، في أوائل الثلاثينيات، حينما كان يعمل في طاجيكستان في الكشف عن الملاريا، تعرف ليف جوميليوف على الشرق. ثم أوقفت ملحمة المعسكر الدراسات الاستشراقية لما يقرب من ثلاثة عقود، وفقط في الستينيات ولدت "ثلاثية السهوب"(٦) الشهيرة.

كان ليف جوميلوف أول من رفع صوته دفاعًا عن أصالة التاريخ التركي المنغولي. وكان أول من عارض الأسطورة الأوروبية حول نير التتار والمغول، وعن العداء الأبدي بين بدو السهوب والمزارعين المستقرين. وكشف أنه لم يكن هناك أي نوع من الحرب المستمرة من أجل الحياة والموت، ولكن كان هناك منظومة للعلاقات السياسية الديناميكية والمعقدة في ظل التعاطف واحترام الخصوصية العرقية للطرف الآخر. وخلص الكاتب إلى أن "ثمار الخيال المتحمس، التي يُنظر إليها حرفيًا، ولدت أسطورة "سوداء" شريرة عن الفظائع المنغولية".

في كتابه الأخير، واستمرارا للنضال ضد "الأسطورة الشريرة"، يقدم المؤرخ جوميليوف الكثير من كل ما هو جديد وغير قياسي. على سبيل المثال، فضح الرواية الراسخة عن أحداث أوائل القرن الثالث عشر في آسيا الوسطى. تلك الرواية، التي تقول إن: "البدو الرحل قد دمروا الواحات الثقافية للشعوب الزراعية في أحواض أنهار سيرداريا وأموداريا". ويشير ليف جوميليوف إلى أن تلك الرواية صُنعت من قبل المؤرخين المسلمين المقربين من البلاط. لكن الواقع مختلف تمامًا. ففي خوارزم القديمة كان الجنود الترك هم القوة العسكرية الرئيسية. وكان يعاني منهم وينتفض ضدهم سكان سمرقند وبخارى ومرو. في نفس الوقت كان الخوارزم شاه محمد نفسه هو من بدأ الحرب مع المغول "فقط لأن سكان السهوب لم يكونوا مؤمنين بالله". وفنّد

أيضا أسطورة المعلومات حول مرو، التي أعادت عـدد وحـداتها المسلحة وانتفضت بعد عام من "الخراب الكلي".

كان ليف نيقولايفتش يكتب دائما الحقيقة عن الشعوب الأوراسية، وكان يشعر تجاههم بحب وتعاطف كبيرين. قال ليف جوميليـوف "إن الاتـصالات الوثيقة مع الكازاخ، والتتار، والأوزبك أظهرت لي شخصيا، أنه من الـسهل أن تكون صديقاً لتلك الشعوب. ما عليك إلا أن تكون حسن النية تجاههم وأن تحترم خصوصية عاداتهم. وبالتأكيد هم أنفسهم لا يفرضون أسلوب سـلوكهم على أحد"(٧). وفي عام ١٩٦٧م كتب في صفحة عنوان أحد كتبه:" أهدي هذا الكتاب لأشقائنا: الشعوب التركية والمنغولية في الاتحاد السوفيتي".

أما فيما يخص المعتقدات السياسية لجوميليوف، فقد تجلت أفـضل مـا يكون في حقيقة أنه كان دائما نفسه. لم يغير قط موقفه تجاه العالم لاعتبارات قصيرة المدى. لم يغير من وجهة نظره عن السلطة السوفييتية، أو موقفه من مفكرينا. لم يكن معارضا دون مبادئ أو منشقا خلال فترات العبادة والركود، ولم يشارك في "الساميزدات(٨)". علاوة على ذلك، لم ينكر مطلقـا مـاركس بالكلية، وحتى في كتبه الأخيرة اقتبس منه مرارا. وهكذا يجب إما أن لا تقبل ليف جوميليوف، أو – من الأفضل – أن تقبله، ولكن بالكلية.

في الكتاب الذي بين أيدينا "من روس إلى روسيا" يكـشف لنـا ل.ن. جوميليوف، في رأيي، أسرار العديد من المواجهات الحديثـة (علـى سـبيل المثال، السنة والشيعة)، التي تكمن جذورها في الماضي البعيد. وفي الـسياق الأوراسي يتناول جوميليوف بطريقته الخاصة أسباب توحـد أوكرانيـا مـع روسيا: "إن انتماء روسيا وأوكرانيا لعـرق أعلـى واحـد والـدعم الهائـل لـ "ذوينا"، الذين كانوا من الدين نفسه، كان لهما الأهمية الأولى". وكما يشير

الكاتب فقد "تجلت بوضوح في العلاقات بين روسيا وأوكرانيا تلك السمة المميزة للإنسان الروسي، وهي التسامح تجاه عادات وتقاليد الشعوب الأخرى". وهنا يؤكد جوميليوف بأمثلة تاريخية جلية مقولة دوستويفسكي بأن الروس لديهم القدرة على فهم وقبول جميع الشعوب الأخرى. وفي عصرنا يبدو هذا أمرا ملحا للغاية.

عند قراءة جوميليوف من السهل أن نرى إلى أي مدى كان تحليله للتاريخ أعمق من بعض التفسيرات الجاهلة الحديثة. يدمر جوميليوف محاولة تصوير التاريخ الروسي على أنه "سلسلة من الفتوحات"، كتاريخ لإقامة "إمبراطورية" قوية للغاية، والتي كان من الطبيعي أن تنهار ... دعونا نتذكر مثالاً جليا آخر من مقابلة جوميليوف الصحفية، والتي كانت تحت عنوان "إنهم يلقبونني بالأوراسي ...". المثال يتعلق بجورجيا: "لفترة طويلة لم يرغب أوائل آل رومانوف، ميخائيل، وألكسي، وحتى بطرس، في قبول جورجيا، ليأخذ على عاتقه مثل هذا العبء. فقط بافيل المجنون استطاع إقناع جيورجي الثالث عشر، وضم جورجيا إلى الإمبراطورية الروسية. وكانت النتيجة كما يلي: كان هناك ٨٠٠ ألف جورجي في عام ١٨٠٠، وفي عام ١٩٠٠ صاروا ٤ ملايين منهم ... وعندما كانت القوات الروسية تدافع عن جورجيا ضد ساكني الجبال، ربحت الكثير"[٩].

لسوء الحظ، "في الأعلى" لم يدركوا إلى أي مدى كان جوميليوف معاصرا، بل حتى مسيسا، إذا جاز لنا قول ذلك، عندما يتحدث عن الماضي البعيد. وبشكل لا إرادي تنشأ هنا فكرة مؤلمة: إذا كان قد تم فهم وجهات النظر الأوراسية لهذا العالم من قبل أولئك الذين يصنعون السياسة الوطنية للبلاد، وإذا كان قد تم فهم على الأقل روح نظرية جوميليوف –روح

الاحترام الكبير لجميع الأمم –، وإذا كان مستشارو الشؤون الوطنية كانوا من طراز جوميليوف؟ هل ربما كانت ستقل الصراعات بين القوميات وستقل حرائق الحروب بين الأشقاء، التي تستعر الآن على حدود روسيا؟

وأكثر معاصرة تبدو أيضا سمة القوى الداخلية، التي عارضت وحدة البلاد في وقت ما: "طالب سكان مينسك وجرودنو ومدن أخرى في الشمال الغربي من الأراضي الروسية أمراءهم باتخاذ سياسة انفصالية. لقد أصبح السعي للاستقلال أمرا عاما، وكان التفكك حتميًا". هل لو لم تكن الفكرة مناسبة للعصر، هل ربما لم تكن لتبدأ "حرب السيادات"، وكان تم الحول دون انهيار قوة عظمى؟ بالتأكيد ليس من قبيل العبث أن نيك نيكولايفيتش كان يحب هذا القول المأثور: "من يملك الماضي – يمتلك الحاضر، والذي يملك الحاضر – يمتلك المستقبل".

يبدو لي بشكل عام أنه في الظروف التاريخية الجديدة قد تكون أفكار الأوراسية التي طورها ليف جوميليوف أكثر أهمية من أي وقت مضى. عند الانعطافات الحادة للتاريخ (ونحن بالتأكيد نشهدها الآن)، يبرز دائمًا السؤال: ما الخط الاستراتيجي الذي يجب أن يكون، ما المعايير التي يجب أن نختارها، مع من يجب أن نكون؟ دعونا نستمع، حتى ولو متأخرين، إلى صوت الأوراسي العظيم الذي غادرنا بالفعل.

يمكن اعتبار فصل "كلمة ختام" من كتاب جوميليوف الأخير بمثابة وصية لعالم بارز، يشاركنا أفكاره ويسعى إلى مساعدتنا في الخروج من هذا اليأس و"الطريق المسدود"، وهو يغادر الحياة في وقت مضطرب وصعب. علاوة على ذلك، يبدو لي أنه لا يمكن الاستغناء عن الاقتباس الطويل التالي:

"لقد أظهرت التجربة التاريخية أنه ما دام احتفظ كل شعب بالحق في أن يكون نفسه، فإن أوراسيا الموحدة نجحت في صد هجوم أوروبا الغربية والصين والمسلمين. لسوء الحظ، في القرن العشرين تخلينا عن هذه السياسة العاقلة والتقليدية بالنسبة لبلدنا وبدأنا في اتباع المبادئ الأوروبية – حاولنا جعل الجميع متشابهين. ومن يرغب في أن يكون مثل الآخر؟ إن النقل الميكانيكي لتقاليد سلوك أوروبا الغربية إلى ظروف روسيا لم يؤد إلى شيء جيد، وهذا ليس مفاجئًا. نشأ العرق الأعلى الروسي بعد نظيره الأوروبي بخمسة قرون. لقد شعرنا نحن والأوروبيون الغربيون دائمًا بهذا الاختلاف، وكنا مدركين لذلك، ولم نكن نعتبر بعضنا البعض "أقارب". وما دمنا أحدث عمرًا بنحو ٥٠٠ عام، فمهما درسنا التجربة الأوروبية، فإننا لن نتمكن من تحقيق الرخاء والأخلاق المميزة لأوروبا. إن عمرنا ومستوى طاقتنا الخلاقة يفرض مسلمات مختلفة تمامًا للسلوك".

هذا لا يعني أنه يجب رفض كل ما هو غريب سريعا. إن دراسة تجربة أخرى ممكنة وواجبة، ولكن يجب تذكر أن هذه تجربة شخص آخر". وتابع قائلا: "بالطبع، يمكنك محاولة "الدخول إلى دائرة الشعوب المتحضرة"، أي في عرق أعلى آخر. ولكن للأسف، لا يتم تقديم أي شيء دون مقابل. يجب أن ندرك أن ثمن اندماج روسيا مع أوروبا الغربية سيكون التخلي عن التقاليد الوطنية، والاستيعاب الثقافي اللاحق".

وأعتقد أن ليف جوميليوف كان له الحق في التوصل إلى مثل تلك النتيجة بعد أن قادنا عبر عشرة قرون من التاريخ الروسي.

الهوامش

(١) روس القديمة والسهل الأكبر. - موسكو، دار نشر الفكر، ١٩٨٩؛ "جغرافيا العرق في الفترة التاريخية" - لينينجراد، دار نشر العلم، 1990.

(٢) هناك قصتان لتشيكوف واحدة عنوانها "إنسان في الجراب" و"ايونيتش"، وهو اسم بطل القصة وكان طبيبا.

(٣) جغرافيا العرق في الفترة التاريخية، ص ٣٦ - ٤١.

(٤) نفس المرجع ص ٣٥.

(٥) نفس المرجع ص ١٢٤.

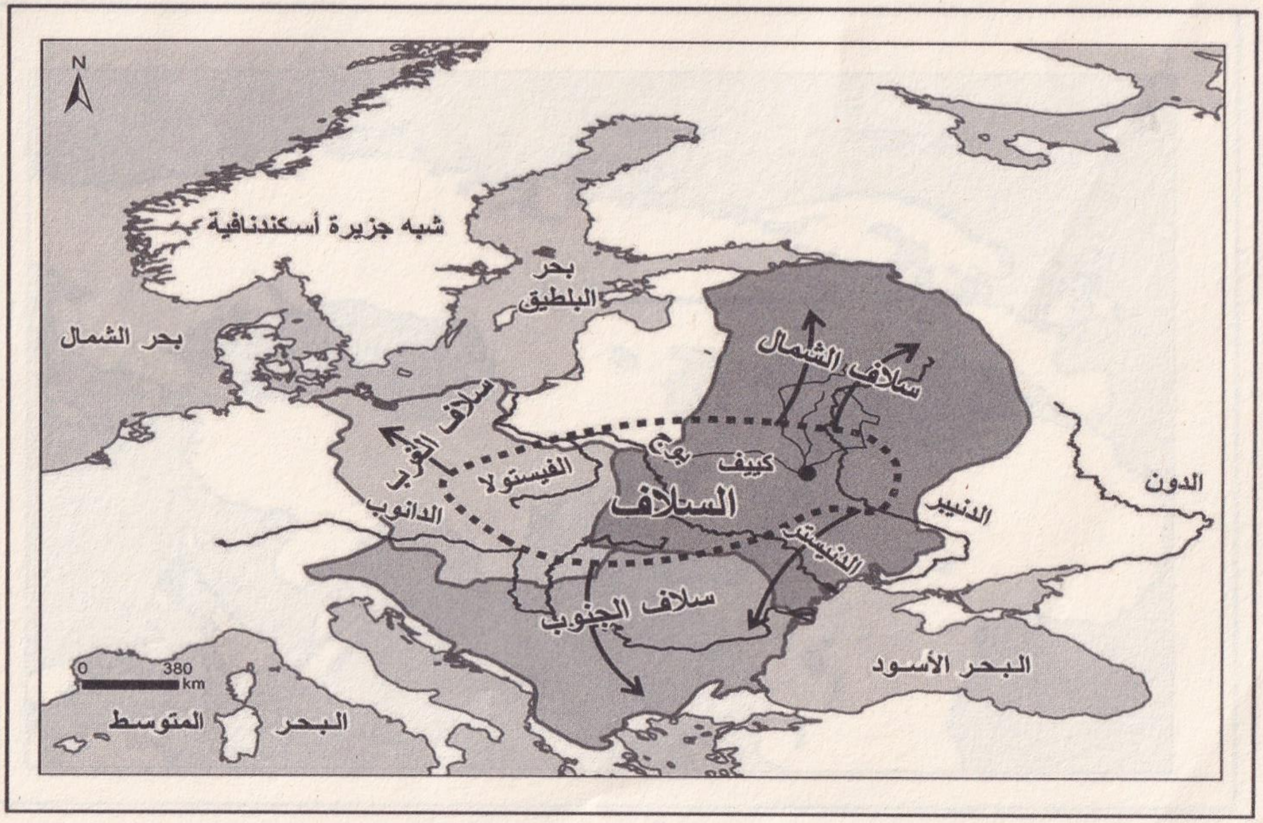
(٦) صدر هذا العمل الكبير لأسباب خاصة بالنشر في شكل أربعة كتب: "شيونغنو". - موسكو، دار نشر الأدب الشرقي، ١٩٦٠؛ "الترك القدماء". - موسكو، دار نشر العلم، ١٩٦٧؛ "البحث عن مملكة خيالية" - موسكو، دار نشر العلم ، ١٩٧٠؛ "الهون في الصين".- موسكو، دار نشر العلم، ١٩٧٤.

(٧) جريدة إزفستيا (الأخبار)، ١٣ إبريل ١٩٨٨

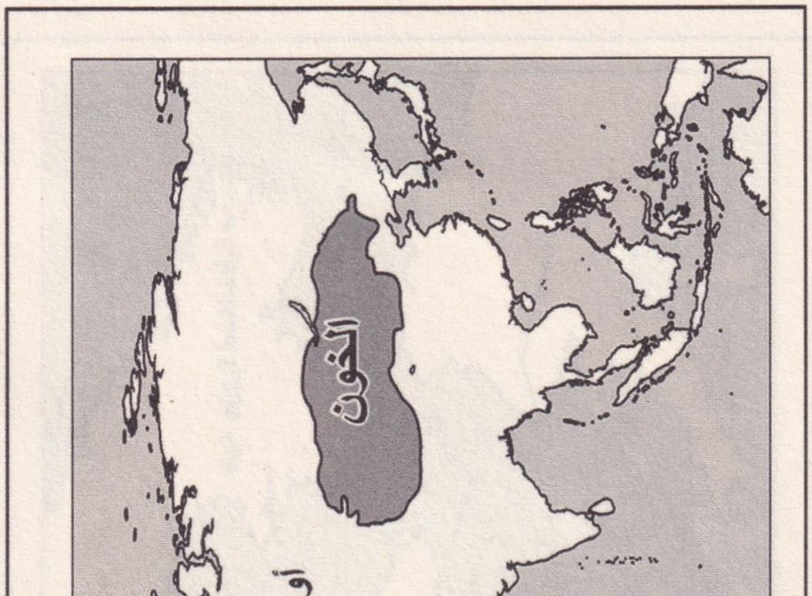
(٨) طرق غير رسمية وبالتالي غير خاضعة للرقابة لإنتاج وتوزيع الأعمال الأدبية والنصوص الدينية والصحفية في الاتحاد السوفيتي. كان يتم نسخ النصوص من قبل المؤلف أو القراء دون علم السلطات الرسمية أو إذنها.

(٩) جريدة ناش سافريمينك (معاصرنا)، ١٩٩١، العدد ١، ص ١٤٠.

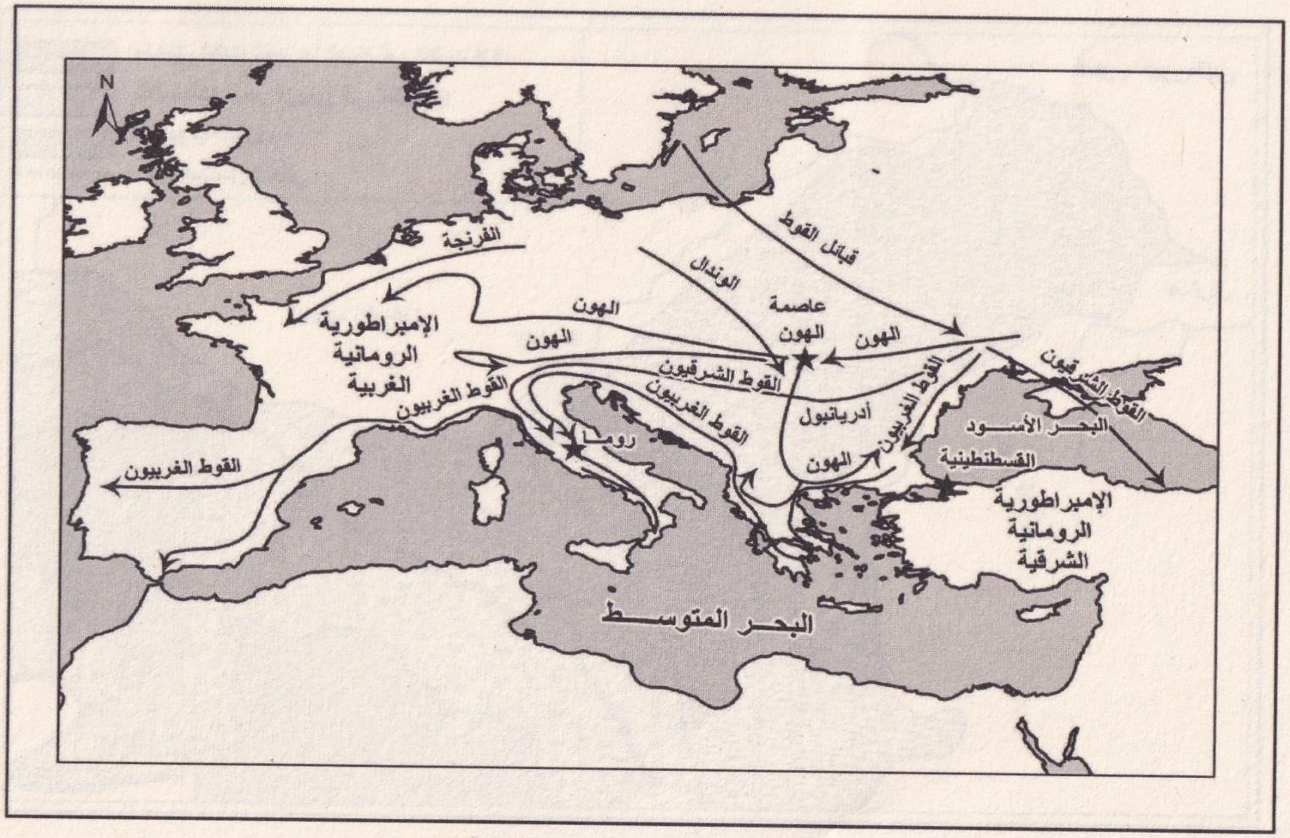
ملحق الخرائط



شكل (١) موطن السلاف



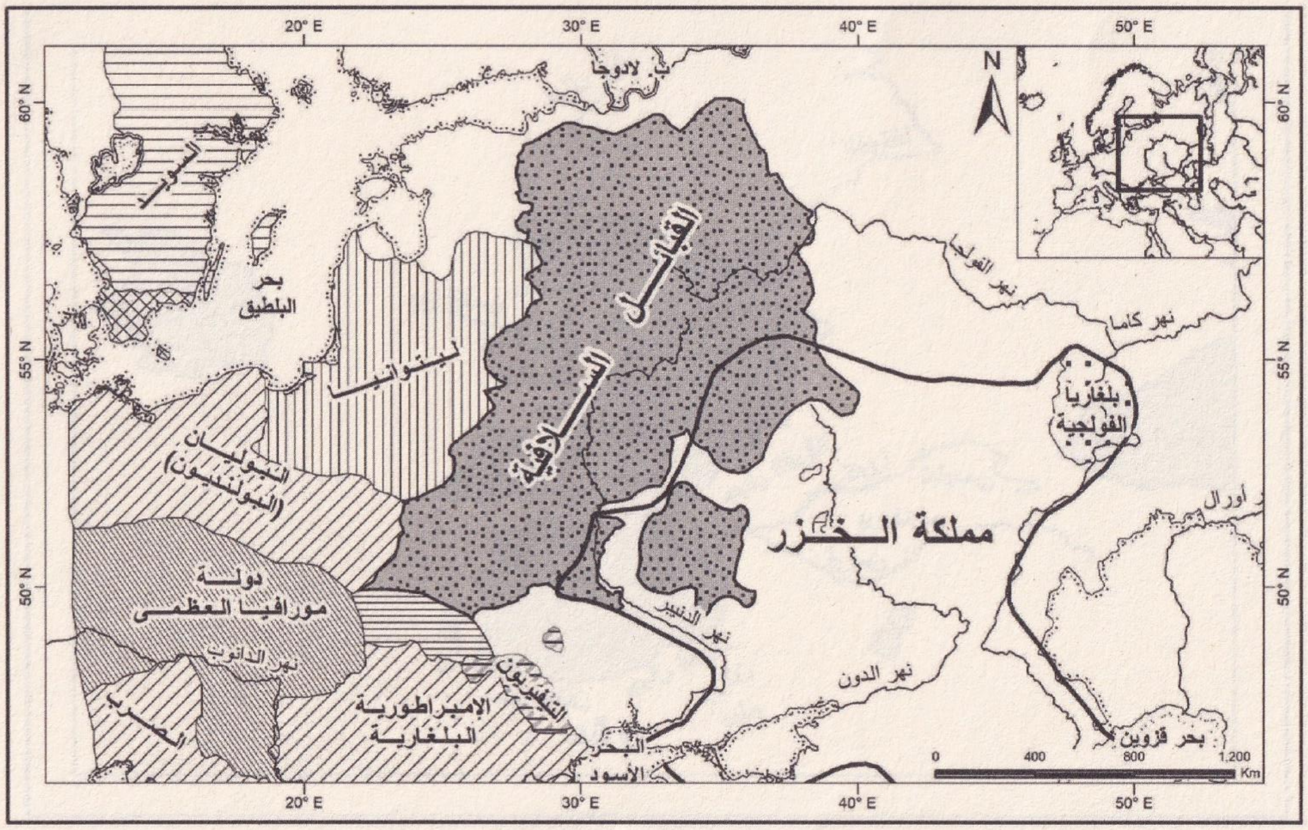
شكل (٢) موطن الخون (أسلاف الهون)



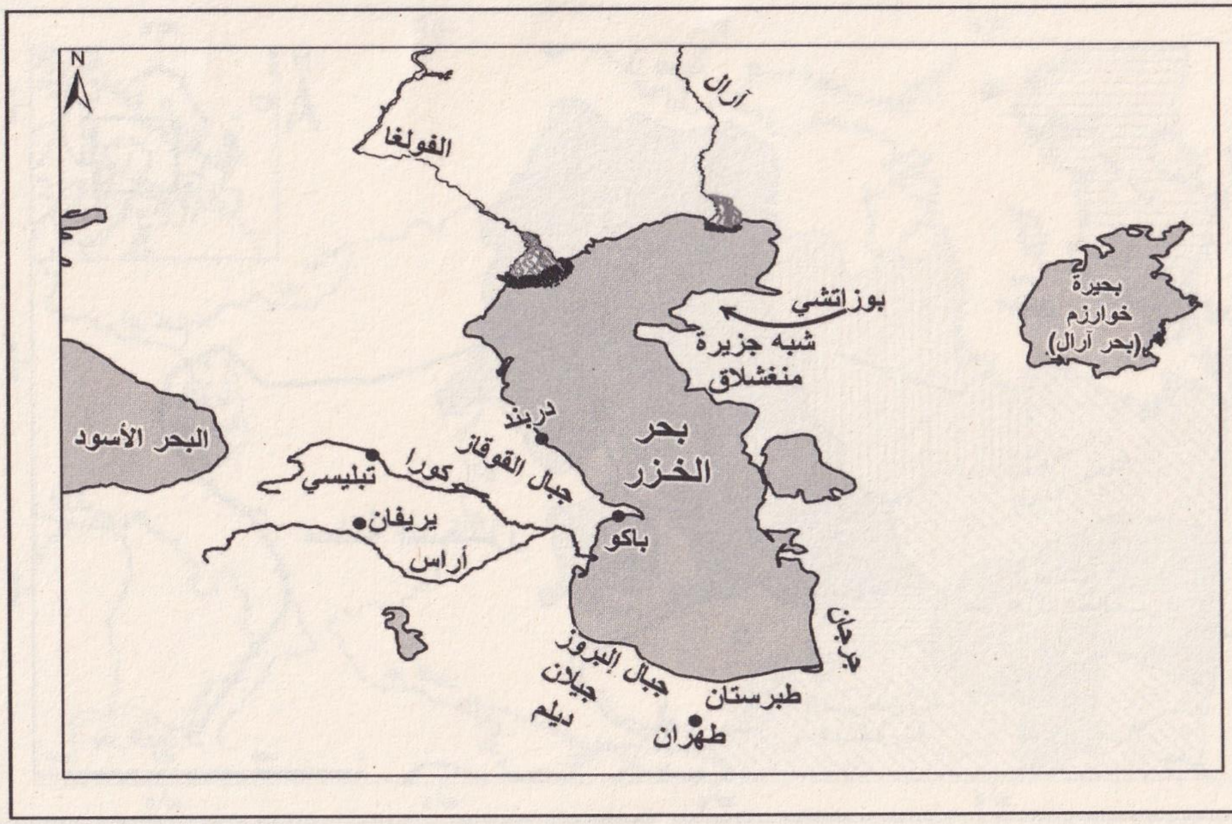
شكل (٣) حملات الهون والقوط في أوروبا



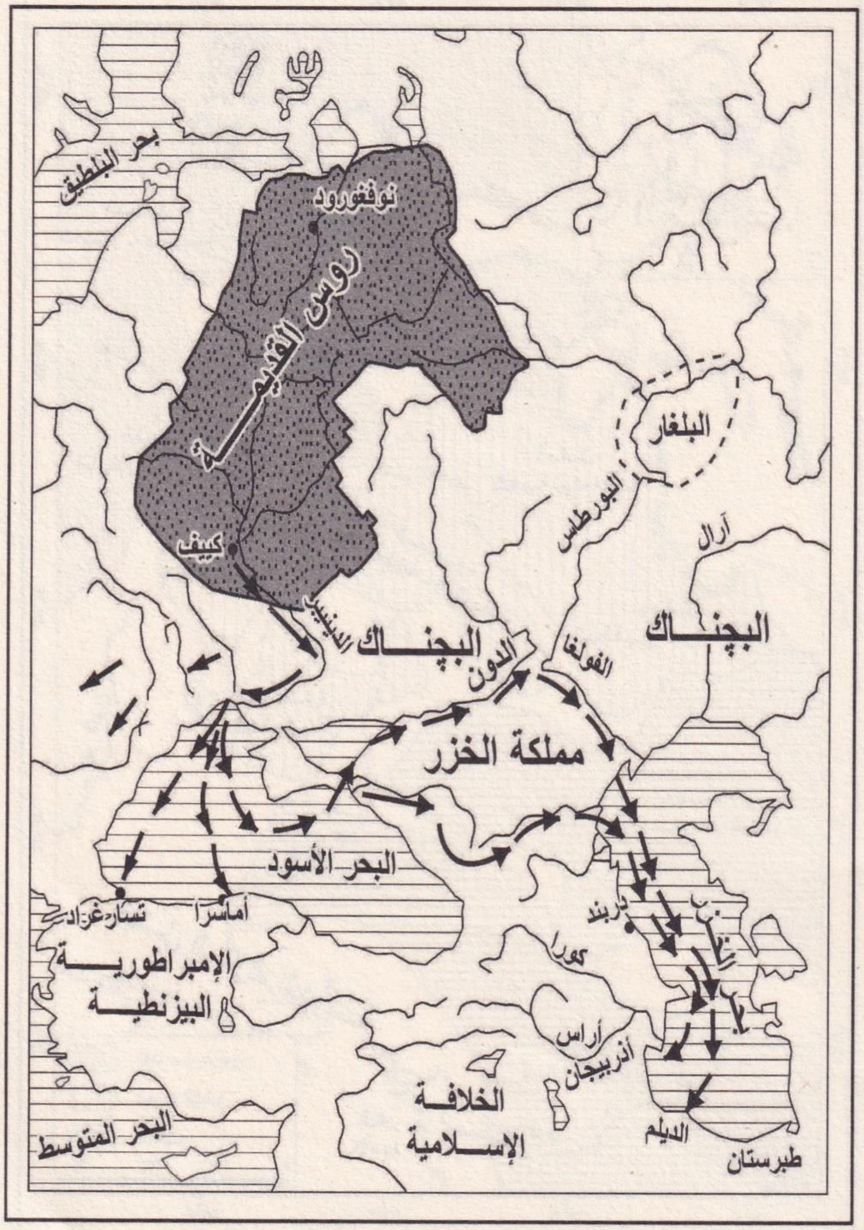
شكل (٤) بحر الخزر (قزوين)



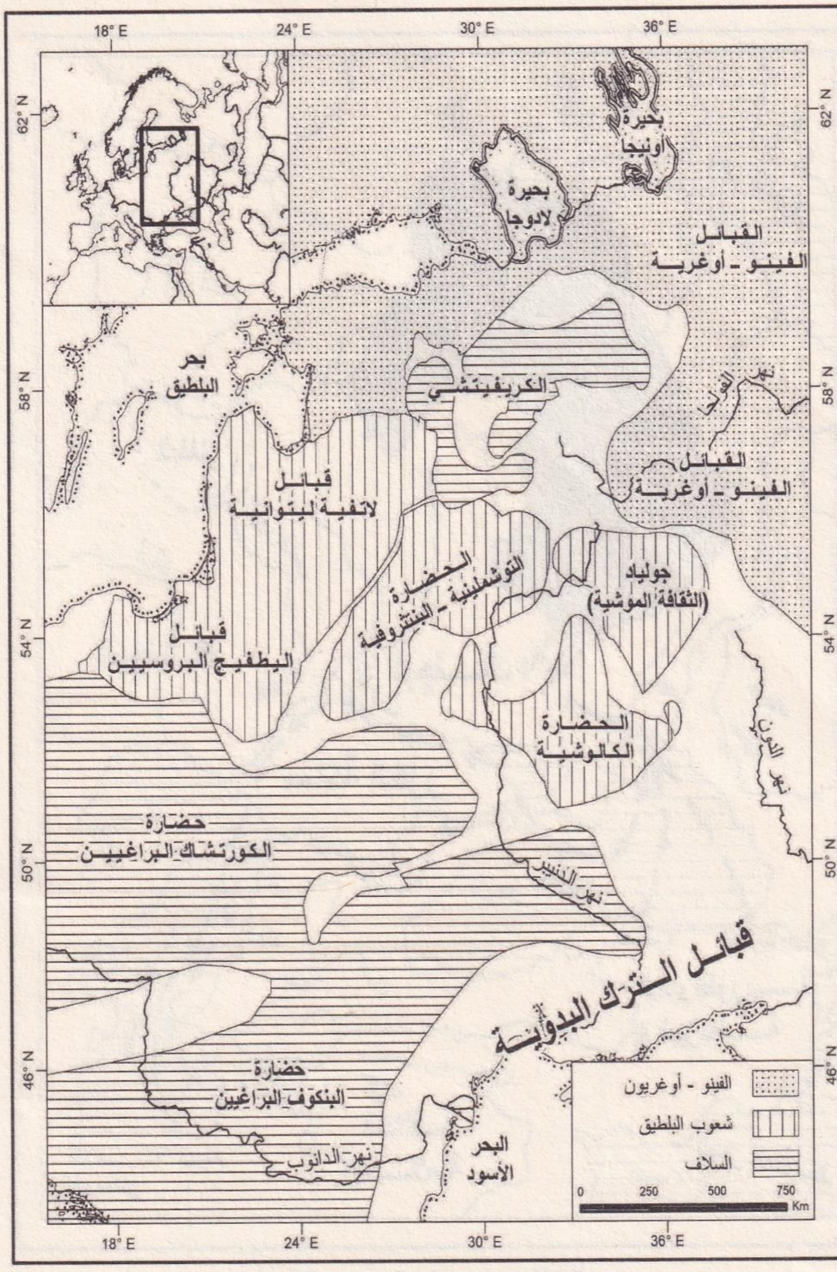
شكل (٥) القبائل السلافية في بداية القرن التاسع وموقع مملكة



شكل (٦) بحر الخزر (قزوين)



شكل (٧) حملات روسيا لحساب مملكة الخزر



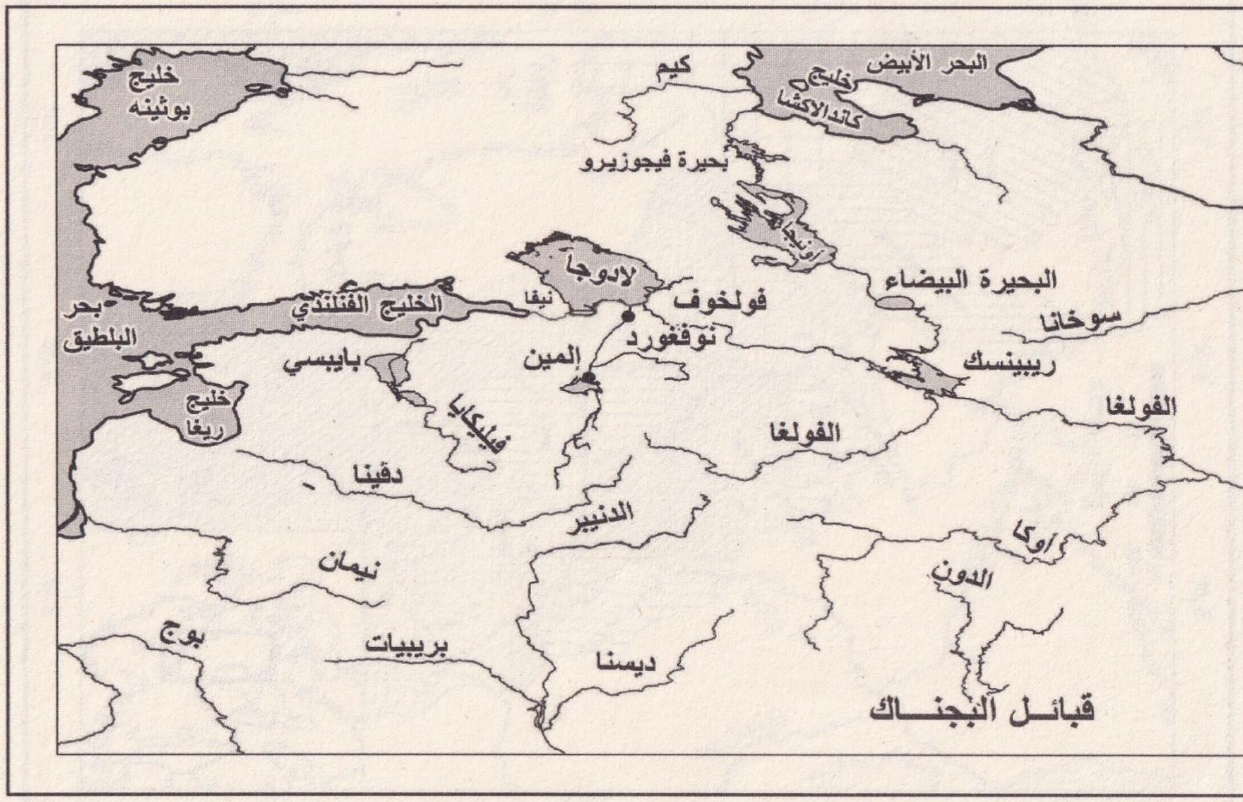
شكل (8) السلاف وقبائل التُرك البدوية



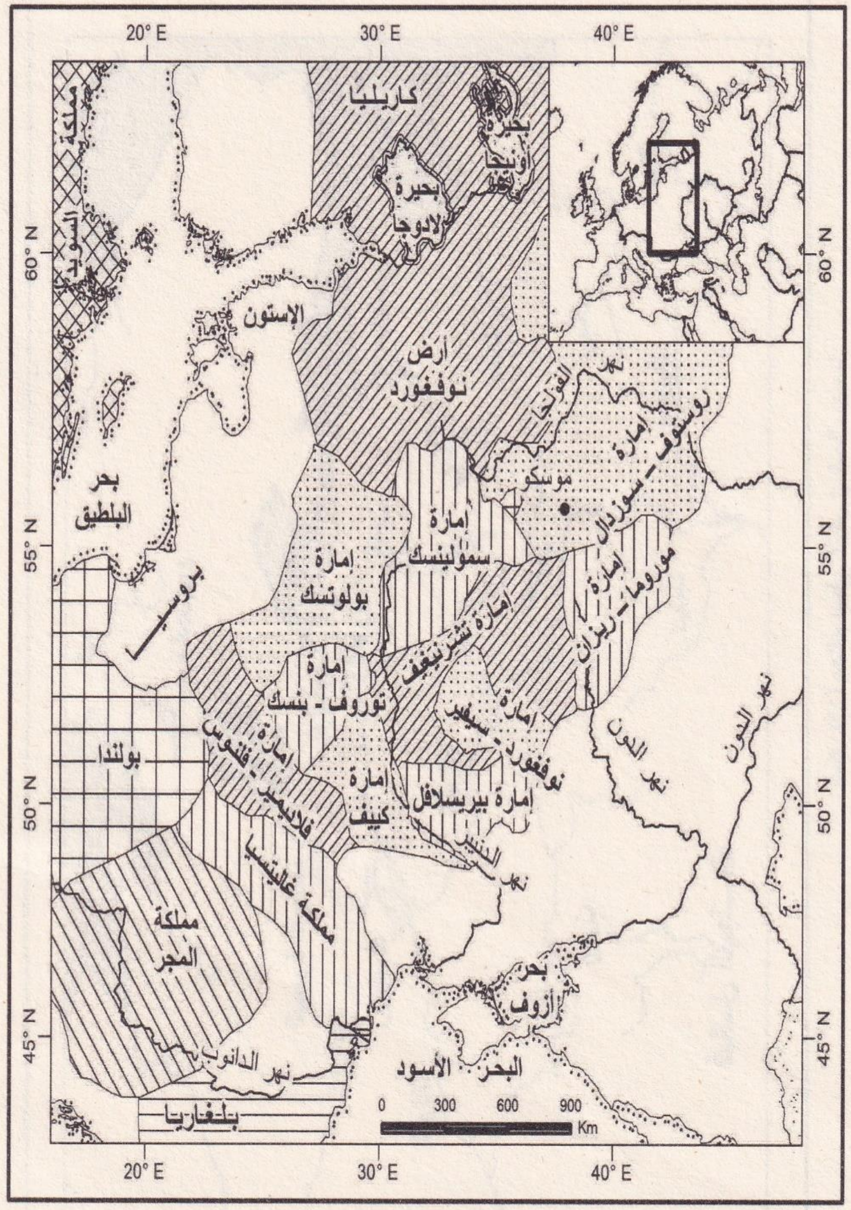
شكل (٩) المراكز الحضرية والسياسية في شرق أوروبا (القرن العاشر)



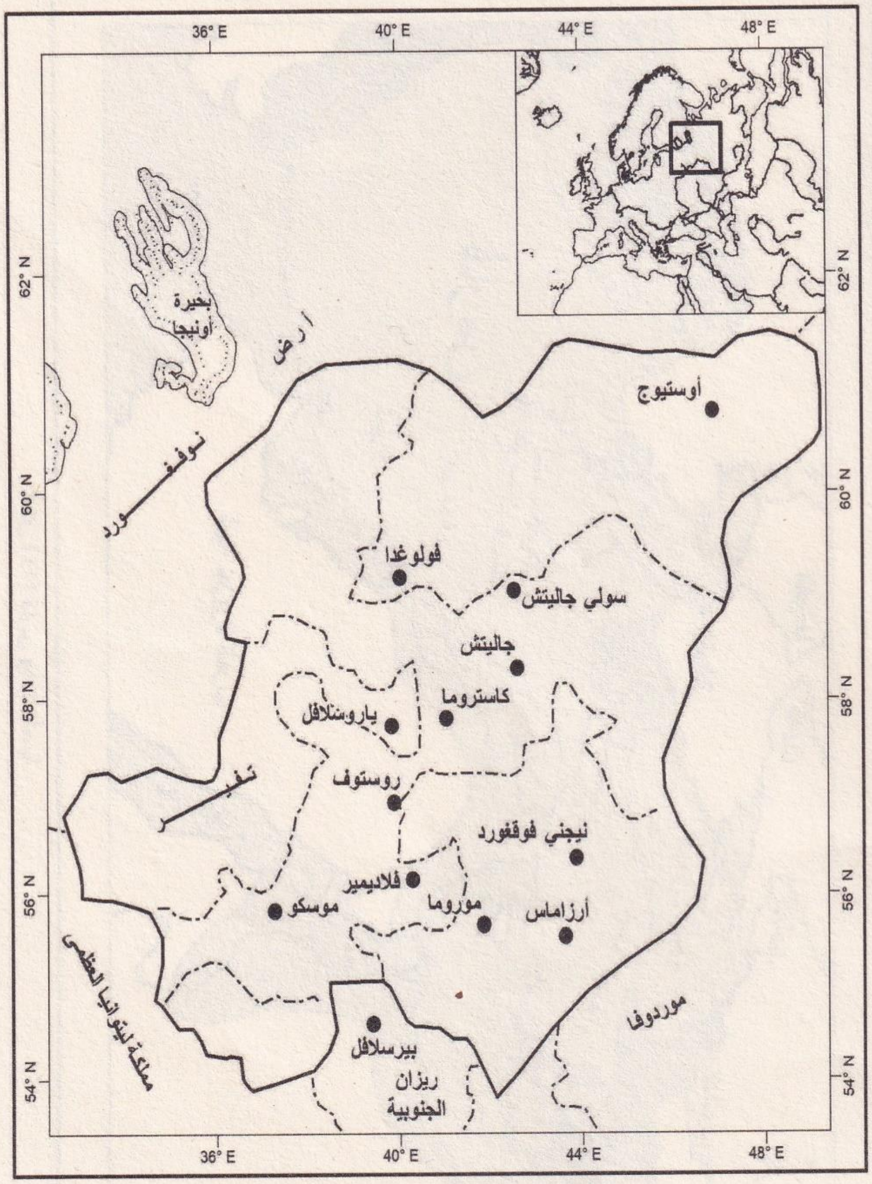
شكل (١٠) معالم سطح الأرض في شرق أوروبا



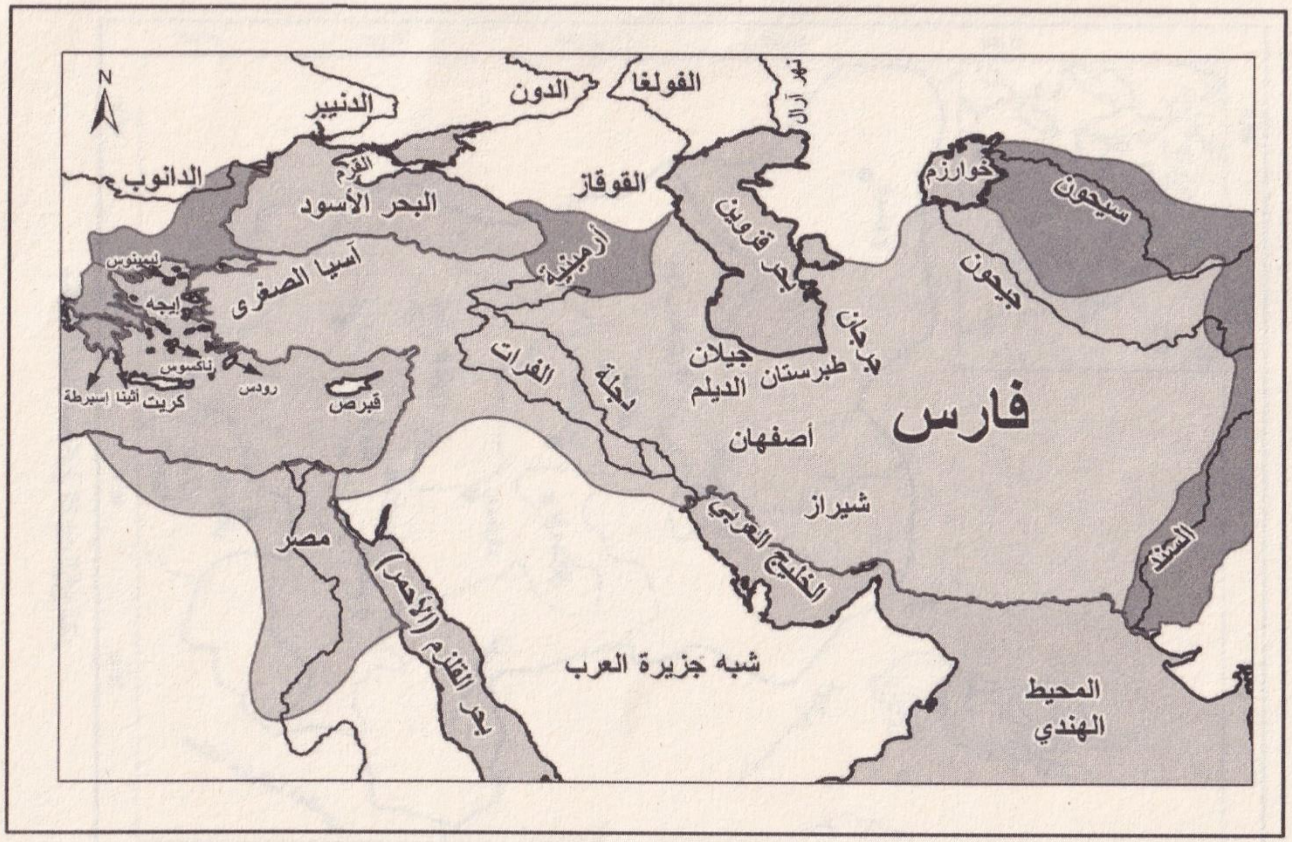
شكل (١١) معالم سطح الأرض في شمال روسيا



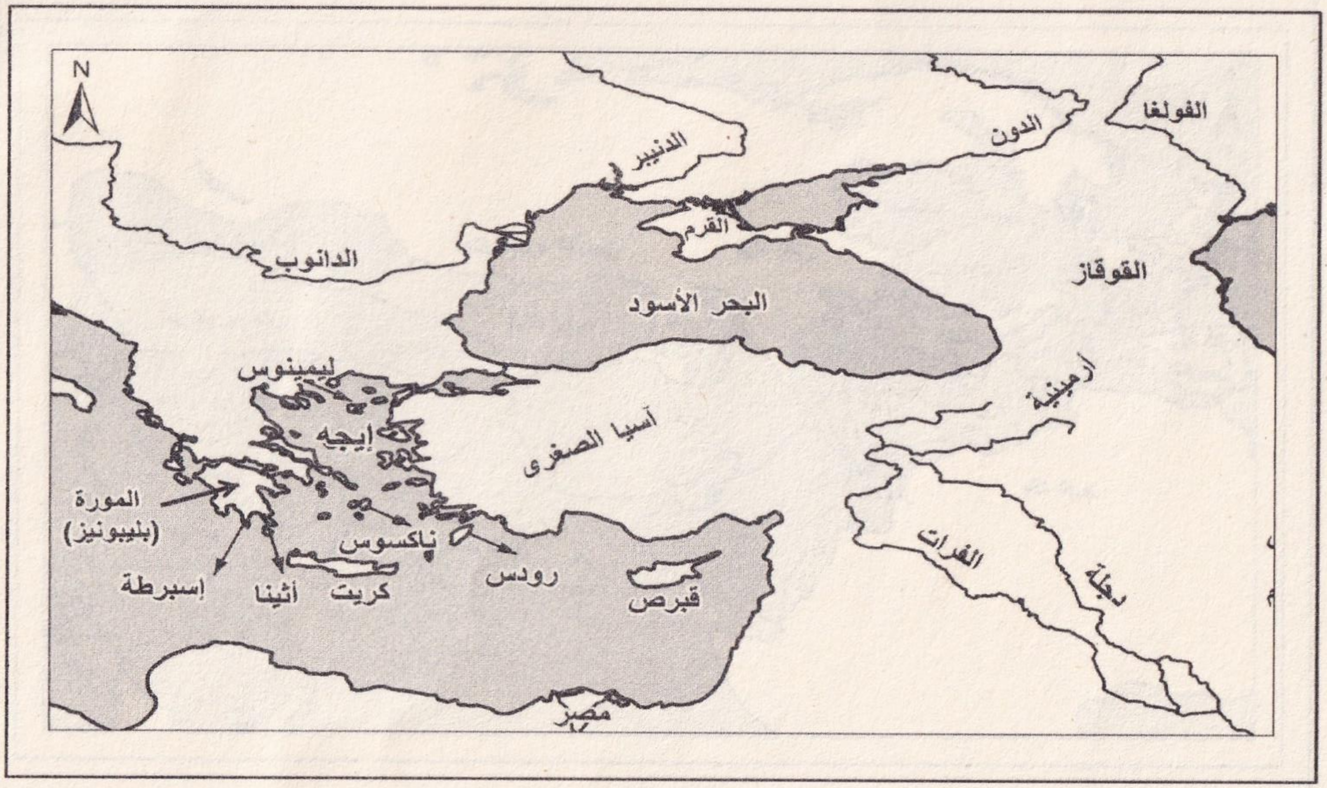
شكل (١٢) الإمارات الروسية في القرن الثاني عشر



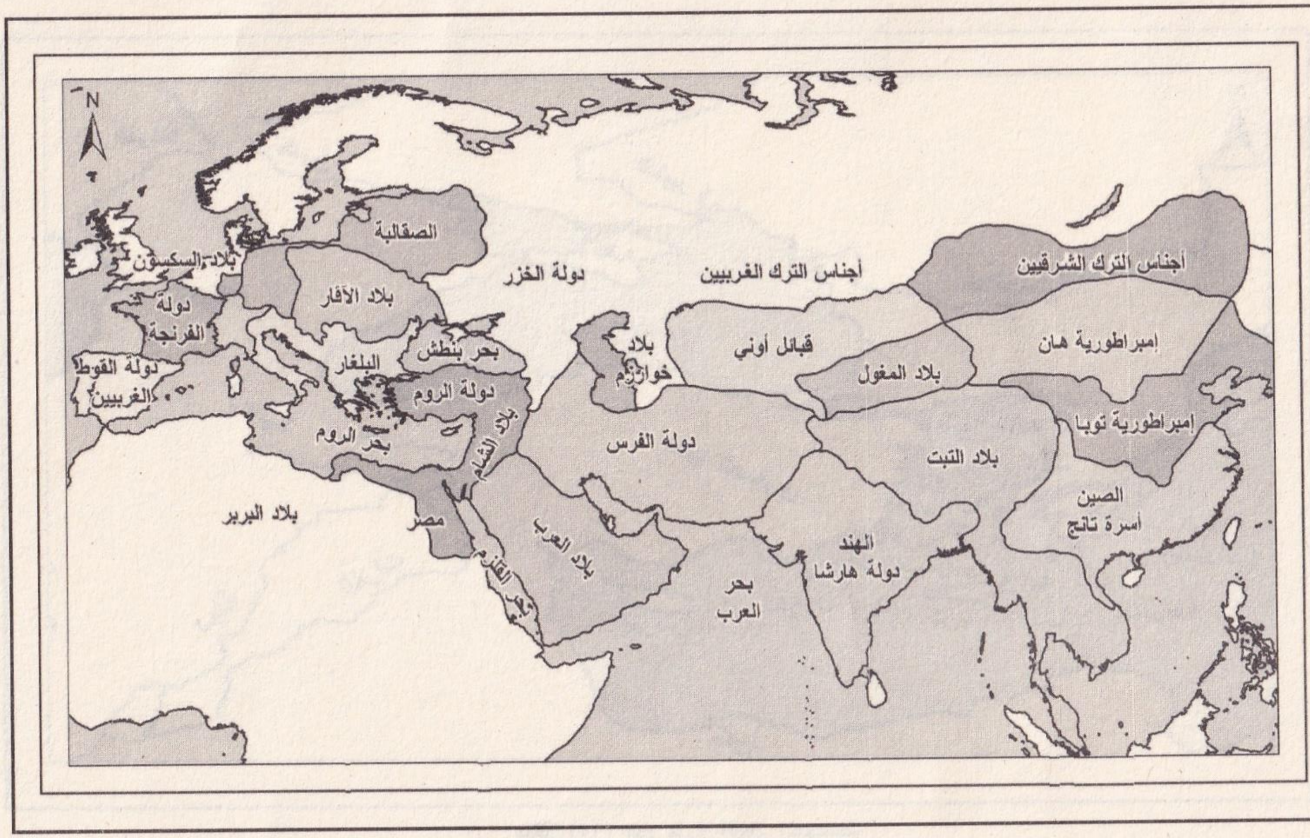
شكل (١٣) إمارة موسكو في القرنين الرابع عشر



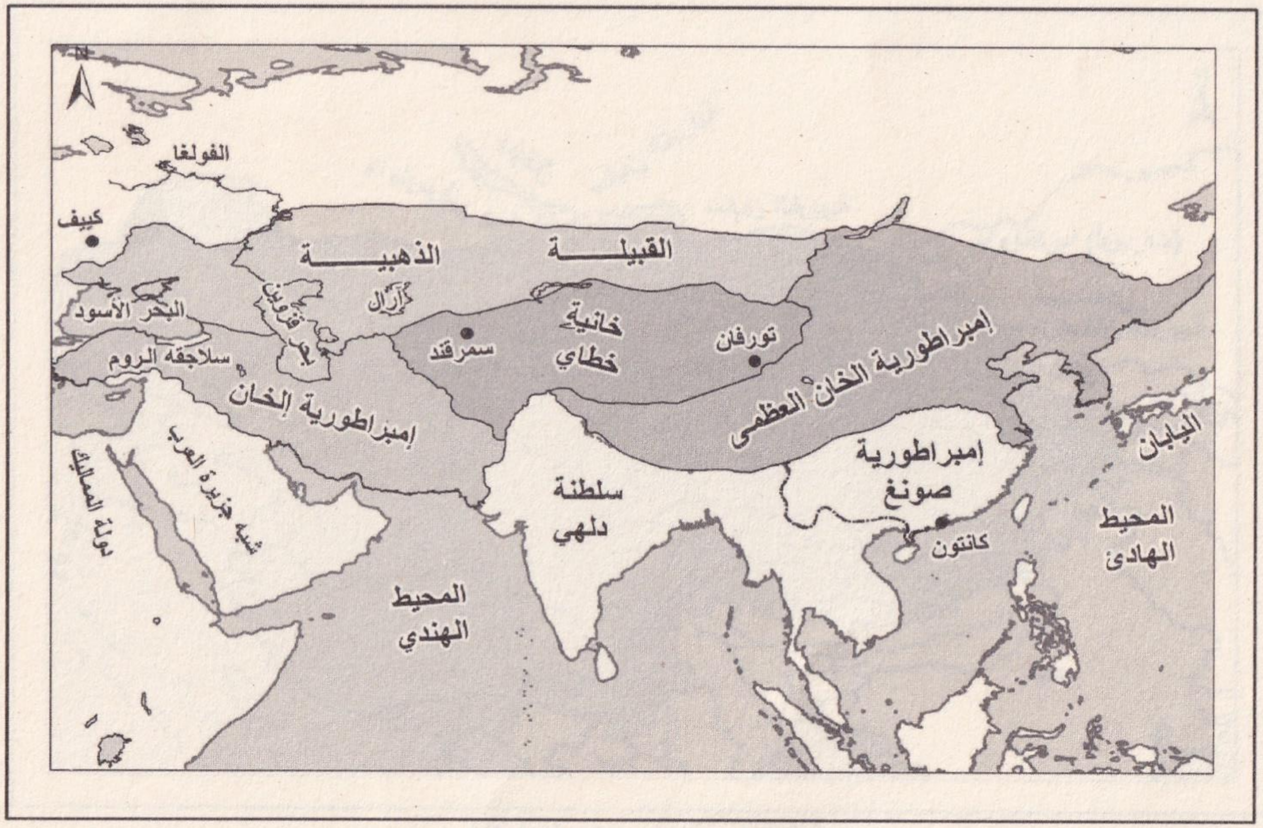
شكل (١٤) فارس وغرب آسيا



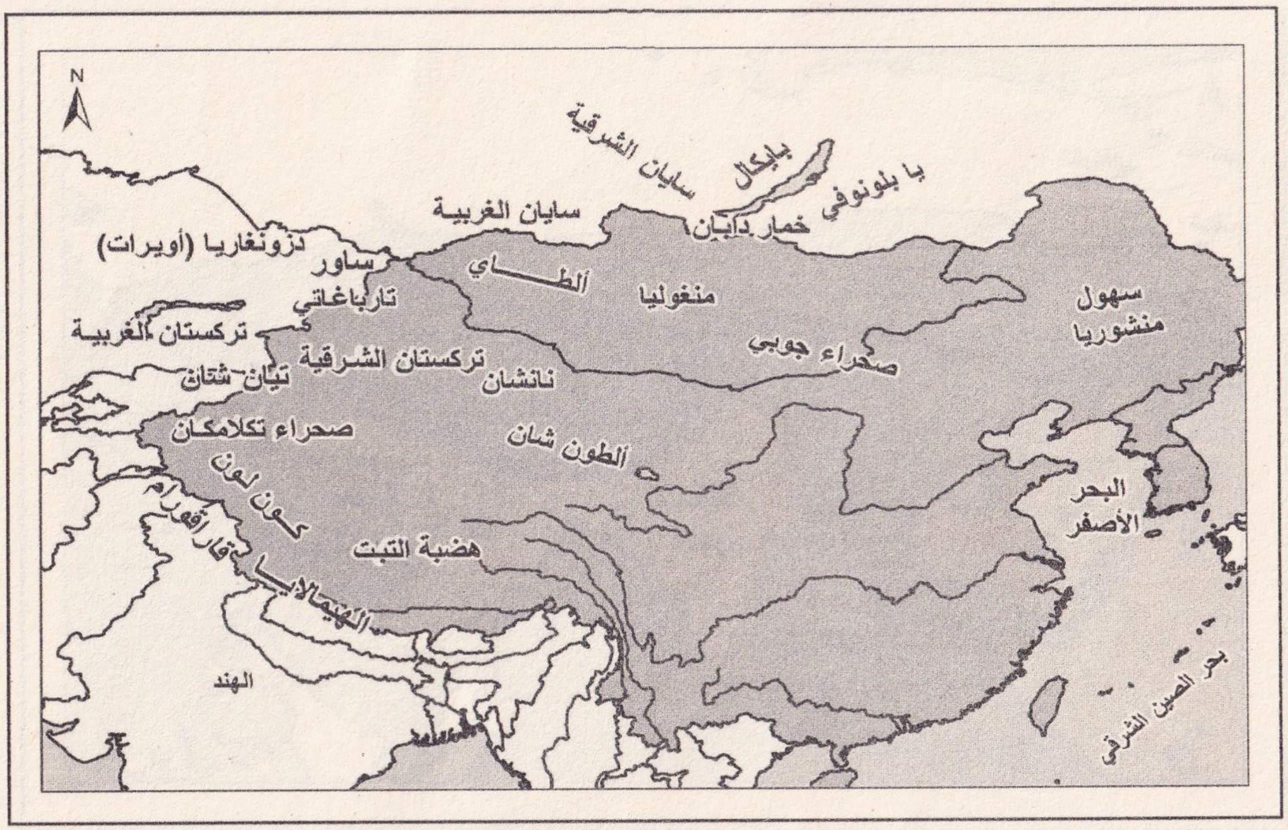
شكل (١٥) جزر شرق البحر المتوسط



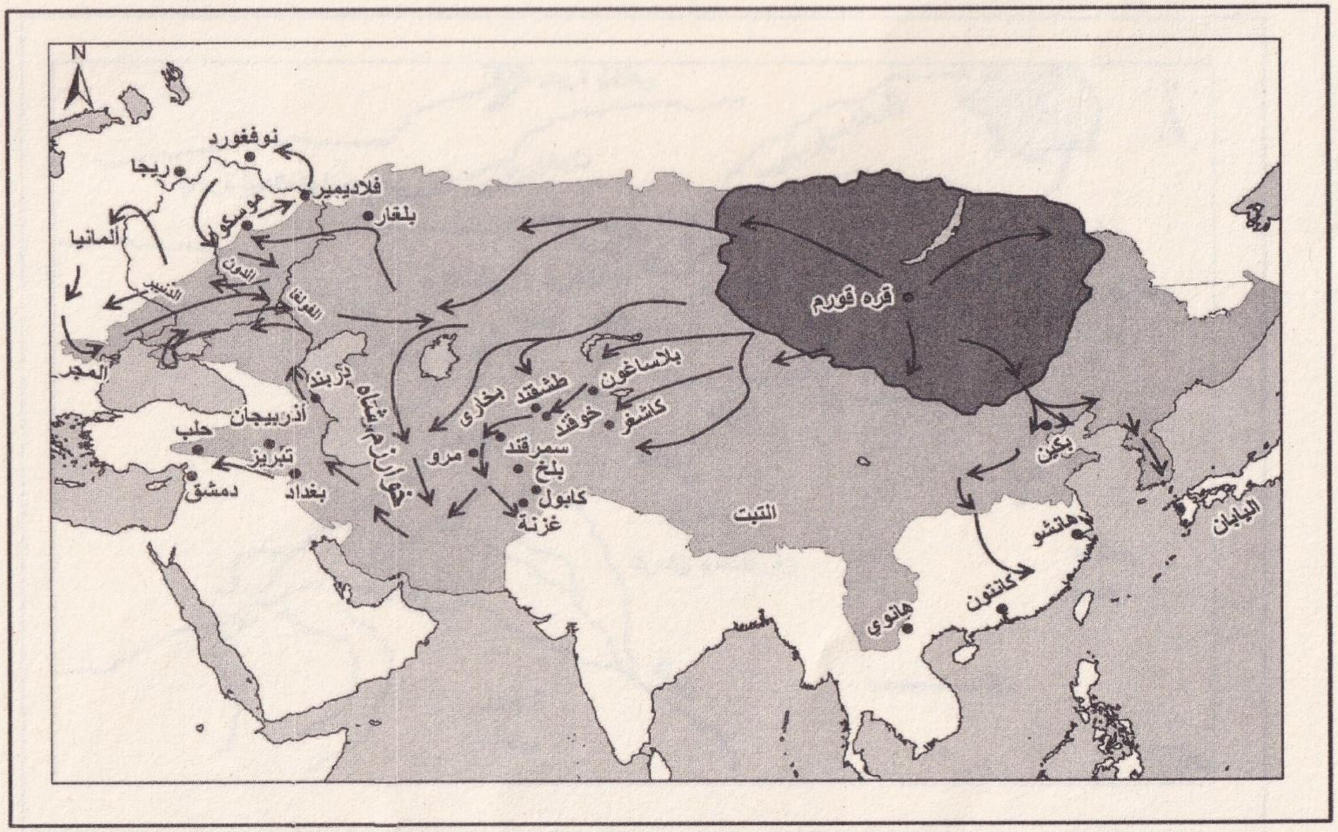
شكل (١٦) أوراسيا في القرن السابع الميلادي



شكل (١٧) المغول في آسيا



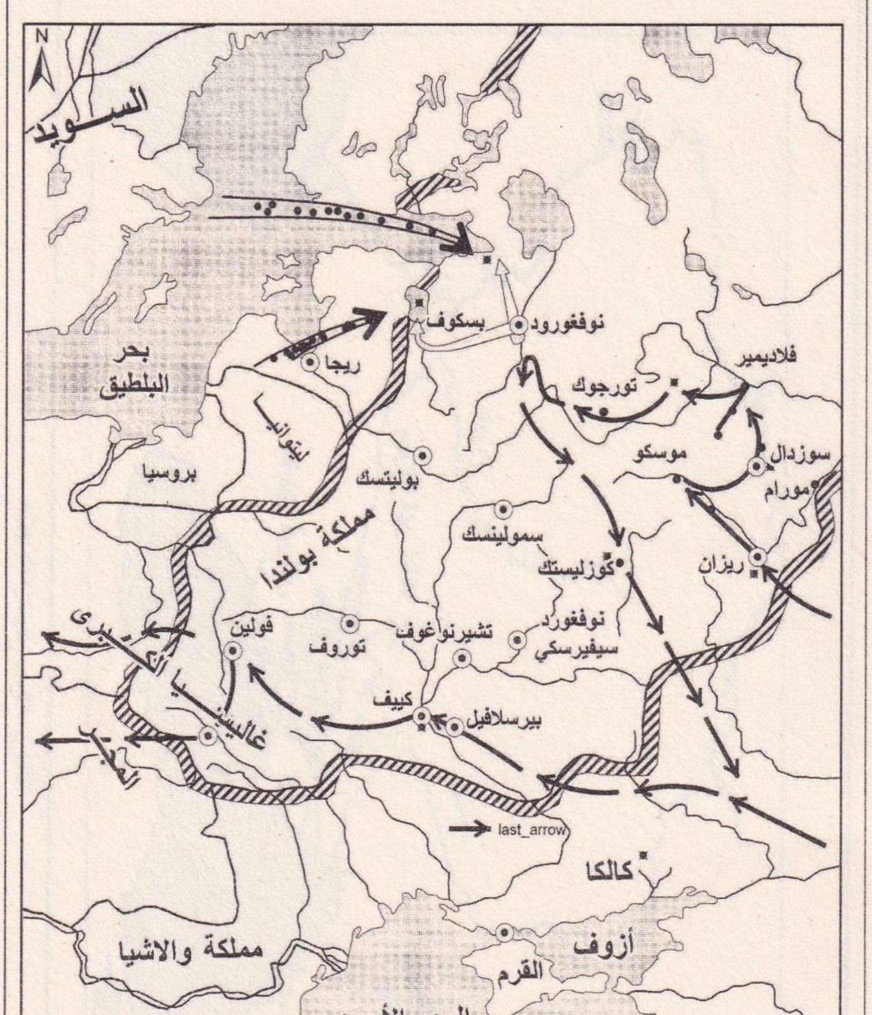
شكل (١٨) معالم سطح الأرض في شرق آسيا



شكل (١٩) الحملات المغولية في أوراسيا



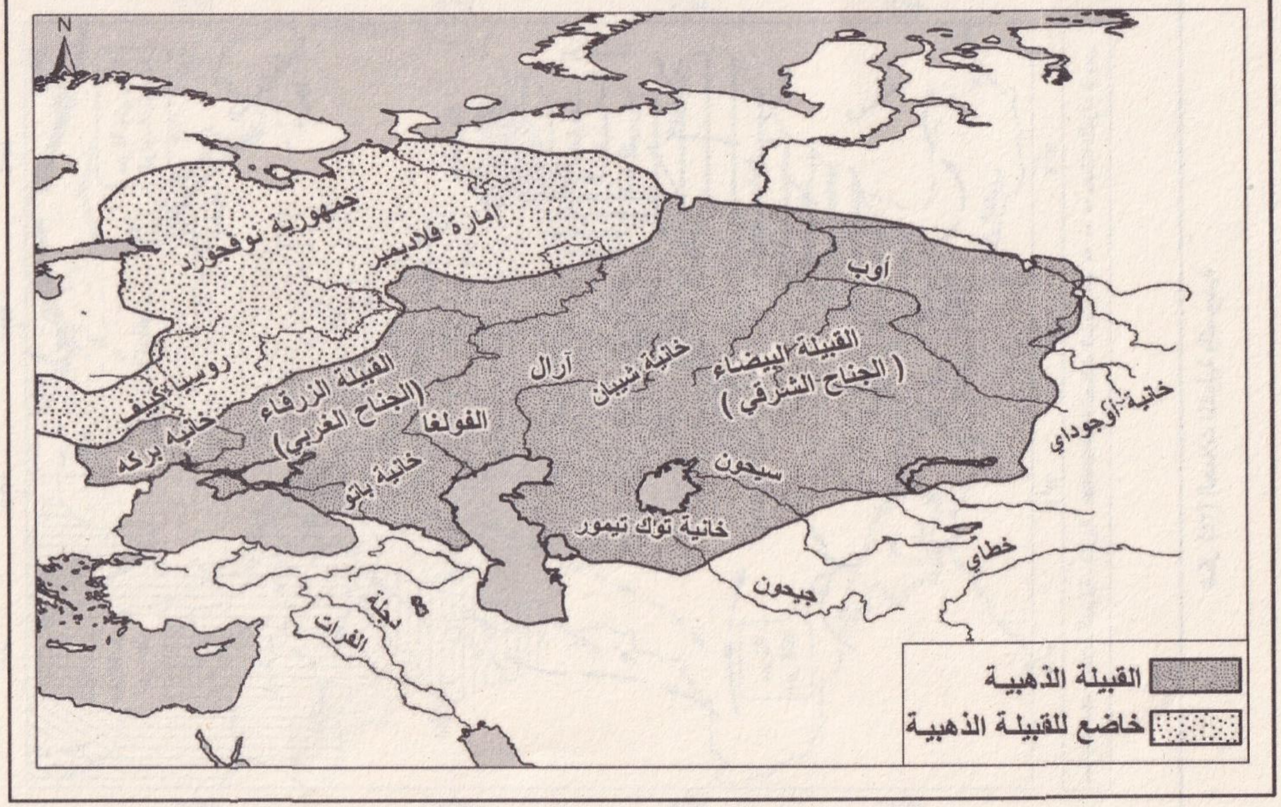
شكل (٢٠) بلاد ما وراء النهر



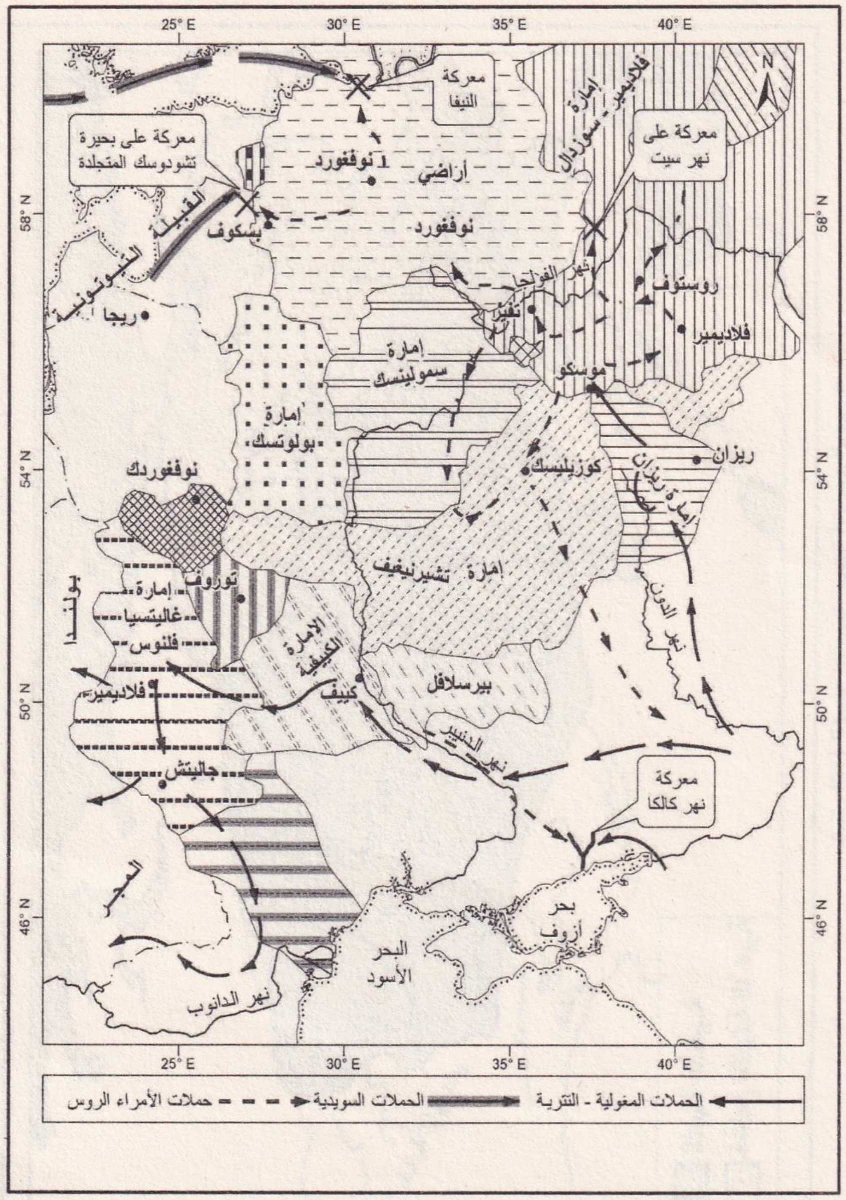
شكل (٢١) الهجوم المغولي والسويدي على روسيا



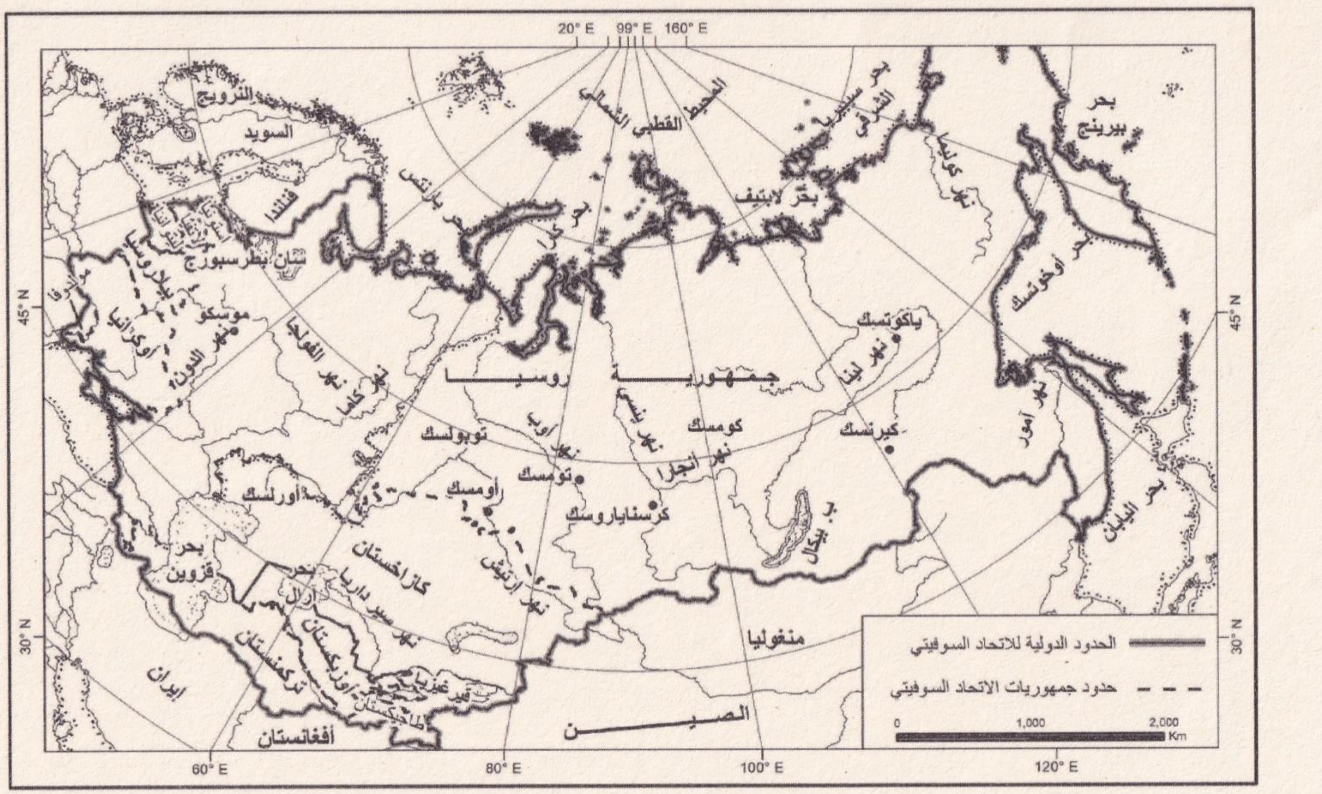
شكل (٢٢) موقع معركة نهر كالكا



شكل (٢٣) القبيلة الذهبية وتبعية الإمارات الروسية



شكل (٢٤) الحملات المغولية والسويدية



شكل (٢٥) الاتحاد السوفيتي في منتصف القرن العشرين

مسرد بأهم الأعلام

- **أتيلا الهوني:** "أتيلا" ملك هوني عاش بين عامي (٣٩٥-٤٥٣م). كان آخر حكام الهون وأقواهم وأسس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطورية كبيرة الاتساع امتدت من نهر الفولغا شرقا وحتى غرب ألمانيا غربا. غزا مدن البلقان مرتين، وحاصر القسطنطينية في اجتياحه الثاني لبيزنطة وفشل الحصار، وفي عهده زحف الهون إلى فرنسا وحاصرت جيوشه مدنها الرئيسة.
- **أرغون خان Arghun Khan:** (١٢٥٨- ١٢٩١) بن أباقا بن هولاكو. ثار على عمه أحمد تكودر حين أعلن إسلامه وعقد صلحًا مع المماليك. انتهت ثورته بمقتل العم وتسلمه العرش.
- **الآلان:** شعب إيراني قديم من البدو الرحل. يعود أصل كلمة آلان إلى إحدى أشكال كلمة آريان Aryan في اللهجة الإيرانية، وهي تسمية ذاتية مشتركة للهندوإيرانيين. بعد هجرتهم غربا وسيطرتهم على الأراضي الواقعة داخل مناطق السارمات. انتشر نفوذهم في شمال البحر الأسود، وشنّوا تدريجيا غارات على إمبراطورية بارثيا والمقاطعات القوقازية بالإمبراطورية الرومانية. ضعفت قوتهم تحت تأثير القوط خلال الفترة من ٢١٥ – ٢٥٠ ميلاديا. بعد هزيمة الهون أمام القوط عام ٣٧٥ ميلاديا هاجر العديدَ من الآلان غربا مع قبائل جرمانية مختلفة. عبروا نهر الراين عام ٤٠٦ ميلاديا حتى وصلوا إلى جبال البرانس في شبه الجزيرة الإيبيرية. عبرَ الواندال والآلان مضيق جبل طارق عام ٤٢٨

ميلاديا وصولا إلى شمال أفريقيا، حيث أسسوا مملكة قوية دامت حتى انهزمت على يد الإمبراطور البيزنطي جوستينيان في القرن السادس الميلادي. أما الآلان الذين ظلوا تحت حكم الهون في القوقاز فقد أسسوا هناك مملكة قوية في العصور الوسطى، التي زالت مع الغزو المغولي في القرن الثالث عشر ميلادي. ويذهب البعض إلى أن هؤلاء الآلان هم أجداد الأوسيت الحاليين. تحدّث الآلان لغة إيرانية شرقية مشتقة من السكيثية السارماتية، والتي تطورت بدورها إلى أوسيتية معاصرة.

- **إلخان Il-Khanate, Il-Khan**: أسرة إلخانات المغولية والتي حكمت في غرب آسيا (إيران وأفغانستان والعراق وشرق تركيا وجنوب القوقاز). كان الملك يدعى إلخان. أسسها هولاكو عام ١٢٥٨. ويلاحظ هنا أن إل ((Il)) المضافة إلى كلمة ((خانات ((Khanat)) كما في إلخانات إيران ((Il-Khanat)) (١٢٥٦- ١٣٣٥) تعني أولئك الذين اعترفوا بسلطة الخان الأعظم في العاصمة قره قورم، على عكس كلمة ((بولخا)) ((Bulgha)) التي تعني الذين رفضوا الخضوع. كان يقصد بشكل عام بالاسم فترة حكم الخان الثانوي أو الفرعي أو التابع للخان الأعظم في منغوليا، وهو اسم أطلقه هولاكو حفيد جنكيز خان على نفسه أثناء حكمه للمنطقة التي تشمل غرب إيران والعراق حتى أناضوليا وبحر آرال.
- **ألوس Ulus**: تشير إلى مجموعة مختارة من الناس أو منتخبة من بين أبناء القبائل يجري اختيار الأمراء من بينهم فقط.
- **إمارة موسكو**: الأمير يوري دولغوروكي تحديدا هو من أسس مدينة موسكو عام ١١٤٧. كما وضع حجر الأساس لمدن مثل دميتروف،

زفينيغورود، بيرياسلافل، يورييف بولسكي...إلخ، بينما كانت مدينة سوزدال هي العاصمة في فترة حكمه التي امتدت من ١٠٩٠ وحتى عام ١١٥٧.

● **الانشقاق الكبير Great Schism**: ويعرف أحيانا باسم East–West Schism هو خلاف أساسي (بعضه متعلق بطبيعة السيد المسيح) أدى إلى انشطار الكنيسة إلى ما يعرف اليوم باسم الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية الشرقية والذي بدأ منذ القرن الحادي عشر الميلادي (بالتحديد في عام ١٠٥٤). كان للكنيسة الشرقية صفة ثقافية وحضارية "يونانية" بينما كان للغربية صفة "لاتينية". وتذهب بعض المصادر إلى أن جذور هذا الشقاق بدأ بالفعل في القرن الخامس بسبب مجمع خلقيدونية (عام ٤٥١م)، فأصبحت كنائس الشرق تحت قيادة كنيسة الإسكندرية المصرية تُعرَف بالكنائس "الأرثوذكسية"، وكنائس الغرب تحت قيادة كنيسة روما وسميت بالكنائس الكاثوليكية. إلى أن جاء القرن الحادي عشر حيث انفصلت كنائس القسطنطينية واليونانية وشقيقاتها عن الكنيسة اللاتينية وأصبحت هي الأخرى تعرف بالكنيسة الأرثوذكسية. وبعد أقل من قرن من هذا الشقاق قام مارتن لوثر (سنة ١٥٢٩) بثورة ضد الكنيسة الكاثوليكية أطلق عليها ثورة الإصلاح، اعترض فيها على بعض التعاليم، وأطلقوا على أتباعه لقب المحتجين (البروتستانت) Protest ومن ثم سيظهر المذهب الثالث البروتستانتي، وداخل الكنيسة البروتستانتية حدثت انقسامات كثيرة وخرجت منها طوائف عدة.

- **أوراسيا Eurasia** : كلمة مؤلفة من ((أوروبا)) و((آسيا))، كانت تـشير في الماضي إلى أراضي أوروبا وآسيا مجتمعتين، تمتد على ما يقـارب ١٠,٦% من مساحة العالم.
- **أوقطاي خان Ogodei**: الابن الثالث لجنكيز خان يعتبر الحاكم الثـاني للمغول من بعد أبيه من زوجته بورته. تولى الحكم في ١٨ أغـسطس عام ١٢٢٧.
- **أويغور Uyghur**: اسم القبائل التركية (من منطقة تركـستان اليـوم) والتي يعتقد بأن سلالة جنكيز خان انحدرت منها. معظمهم يدينون اليوم بالإسلام، كانوا حلفاء للمغول في وقت مبكر واحتلوا مناصـب إداريـة مهمة زمن حكمهم. كانت الأبجديـة الأوغوريـة معتمـدة مـن قبـل الإمبراطورية المغولية.
- **إيفان الرهيب**: إيفان الرابع فاسيليفتش (١٥٣٠ – ١٥٨٤). بدأ تاريخه السياسي زعيما لإمارة موسكو ثم وسع حدودها شرقا وجنوبـا وجعـل منها إمبراطورية شاسعة الأرجاء ضمت عشرات الأعراق والأديـان، واعتلى عرشها ليبدأ الحكم القيصري الروسي.
- **باتو خان Batu Khan**: (١٢٠٥– ١٢٥٥) مؤسـس القبيلـة الذهبيـة وحفيد جنكيز خان.
- **برسفورات**: الخبز الطقسي الليتورجي المستخدم في الأرثوذكسية مـن أجل سر القربان المقدس وللاحتفال خـلال بروكوسـيوميديا الأحيـاء والأموات.
- **بِركة خان Berke Khan**: هو أحد زعماء القبيلة الذهبية، حفيد جنكيـز خان من ابنه الأكبر جوتشي. أخوه باتو وهولاكو ابـن عمـه. أعلـن

إسلامه وتحالف مع الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر والشام أحد سلاطين المماليك. بعد إسلامه بايع الخليفة المستعصم ببغداد، وحارب هولاكو ووقف له بالمرصاد عدة مرات وهزم ابنه "أباقا".

- **البلطيق:** إقليم في شمال شرق أوروبا ينحصر بين بولندا من الغرب وروسيا من الشرق، ويطل على بحر البلطيق، كان طوال التاريخ الوسيط والحديث لأوروبا مسرحا لتكسر القوى الإقليمية. بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في ١٩٩١ ترسخ استقلال الدول القومية بتكوين إستونيا ولاتفيا وليتوانيا كدول مستقلة سرعان ما انضمت للاتحاد الأوربي وحلف الناتو.
- **بورچيغد Borjigit:** وتعرف أيضًا باسم الأسرة الذهبية أو العشيرة الذهبية، وهي عشيرة جنكيز خان المالكة. ما زال الكثير من أمراء آسيا ينحدرون منها إلى اليوم.
- **التتار أو الترتار Tatar, Tartar:** أطلقت الكلمة في الأصل على واحدة من قبائل المغول.، غير أن مسمى "التتار" صار يقصد به كافة قبائل المغول بشكل عام منذ تشكيل إمبراطورية جنكيز خان.
- **تشرنيغوف:** منطقة في أوكرانيا حاليا تقع شمال شرق مدينة كييف.
- **تموتاراكان:** موقع استراتيجي في جنوب "روسيا كييف" في المنطقة التي تمثلها حاليا شبه الجزيرة الفاصلة بين بحر آزوف والبحر الأسود ولا يفصلها عن شبه جزيرة القرم سوى مضيق "كيرتش".
- **تنغري (تنكري):** تنغري Tengri هو الاسم الذي يعطى لأكبر الآلهة لدى كثير من القبائل التوركية والمغولية في كل من سيبيريا ووسط آسيا ومنغوليا وغرب الصين وبعض أجزاء من شمال القوقاز. وتعرف

الديانة المرتبطة به باسم "التنغرية" والقائمة على تأليه السماء (الأب السماوي) والأرض (الأم الأرضية) وتضم التنغرية ديانات منبثقة منها مثل الشامانية والأرواحية والطوطمية وعبادة أرواح الأسلاف.

- **تيمور لنك Timurlane**: قائد مغولي من القرن الرابع عشر، ومؤسس الإمبراطورية التيمورية (١٣٧٠- ١٤٠٥) وتعني كلمة ((لنك)) الأعرج نتيجة إصابته بجرح في إحدى المعارك، أما كلمة ((تيمور)) فتعني الحديد (أي أن الاسم يعني "الحديد الأعرج").
- **جويوك خان Guyuk (١٢٠٦- ١٢٤٨)**: ابن أوقطاي خان ويعد ثالث أعظم خان حكم الإمبراطورية المغولية. ١٢٤٦- ١٢٤٨.
- **الخاتون Khatun**: لقب يوازي لقب الخان، أطلق بداية على زوجات الخانات والأمراء والقادة المغول.
- **الخان الأعظم**: أطلق المغول على رؤسائهم الذين يتولون أجزاء من الإمبراطورية المغولية لقب خان، وهو يختلف عن لقب ((خاقان)) الذي أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه ((الخان الأعظم)).
- **خانية**: كلمة من أصل توركي تخص كيان سياسي أشبه بالإمارة أو المملكة وربما يصل حجمه إلى إمبراطورية. ويحكم الخانية "خان" بمعنى أمير، ملك، أو إمبراطور.
- **خوارزم شاه Khwarazmshah**: لقب كان يطلق على حكام الدولة الخوارزمية وهم من أتراك بلاد ما وراء النهر الذين جاؤوا من خيوة ونشروا سلطانهم بين نهري الكانج ودجلة. وكانت خيوة تسمى خوارزم وهي تابعة لإقليم خراسان الإسلامي وتقع اليوم في غرب أوزبكستان ولد فيها حسب بعض الروايات عالم الجغرافيا والرياضيات المعروف الخوارزمي عام ٨٥٠ م.

● **الخوفانـــشينا:** تسمية روسية تاريخية لتمرد الرماة عام ١٦٨٢، وسميت كذلك نسبة إلى إيفان خوفانسكي قائد الرماة آنذاك.

● **خوقيات:** جمع خوقية، وهي صيغة أخرى من كلمة خانيـــة أو خانـــة. وهي كلمة - كما أشرنا في هامش سابق - من أصل تـــوركي تخـــص كيان سياسي أشبه بالإمارة أو المملكـــة وربمـــا يـــصل حجمهـــا إلـــى إمبراطورية. ويحكم الخانية "خان" بمعنى أمير ملك أو إمبراطور.

● **دوقية ليتوانيا الكبرى:** دولة أوربية شاسعة الأرجاء في شرق أوروبـــا. امتدت بين القرنين ١٢ و١٦ الميلاديين. بدأت كإمارة صغيرة على بحر البلطيق ثم توسعت بالتدريج على حساب أراضي من روســيا وبولنـــدا وأوكرانيا. تناظر أراضيها اليوم الأقـــاليم التـــي تـــشغلها دول لاتفيـــا وإستونيا وليتوانيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وأجزاء من روسيا، وعدت في زمنها أكبر دولة في القارة الأوروبية.

● **زابوروجيه:** منطقة حول نهر الدنيبر إلى الجنوب مـــن كييـــف، يعنـــي الاسم حرفيا "خلف الجنادل المائية"، وذلك نظرا لوجود مسارع مائيـــة وجنادل في نهر الدنيبر شمالي تلك المنطقة.

● **السارمات:** كان السارمات اتحادا كبيرا للشعب الإيراني فـــي العـــصور القديمة، وازدهر من القرن الخامس قبل المـــيلاد إلـــى القـــرن الرابـــع الميلادي. تحدّثوا السكيثية، وهي لغة هندو أوروبية من العائلة الإيرانية الشرقية. ولنشأتهم في شرق أوروبا بين نهر الدون وجبال الأورال، فقد بدأ السارمات هجرتهم نحو الغرب في القرن الـــسادس قبـــل المـــيلاد تقريبا؛ للسيطرة على شعب سكيثيا في القرن الثاني قبل الميلاد. ورغـــم الأصل شبه المشترك بين السارمات والسكيثيين، فقد اختلف الـــسارمات

عن شعب سكيثيا في عبادتهم لإله النار وكـذلك إلـه الطبيعـة، ودور المرأة البارز في الأعمال القتالية والحربية.

- **سر التنـاول:** أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيـستين الكاثوليكيـة والأرثوذكسية أو أحد السرين المقدسين في الكنيسة البروتستانتية. وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشيّة آلامه. الاحتفال يكون بصيغة تناول قطعـة صـغيرة ورقيقـة مـن الخبـز (تعـرف بالـبرشان) التي تمثل جسد يسوع وأحياناً تذوق أو غمس قطعة الخبـز في القليل من الخمر الذي يمثل دم يسوع.

- **السلاف:** مجموعة عرقية/لغوية تتبع العائلة الهندو أوربية، تتركز فـي شرق ووسط وجنوب أوروبا، وصلت مجموعات منها إلى شمال غرب آسيا وسيبيريا. وعادة ما يصنف السلاف إلى سلاف الشرق (ويمـثلهم الروس والبـيلاروس والأوكرانيـون)، وسـلاف الغـرب (ويمـثلهم البولنديون والتشيك والسلوفاك) و"سـلاف الجنـوب" أو اليوغـسلاف (والتي تعني حرفيا "سلاف الجنوب Yug - Slav") في جنـوب شـرق أوروبا. وأحيانا يتم في الغرب المعـادي لروسـيا اللعـب بالكلمـات (لأغراض عنصرية) بين كلمة سـلاف Slav وسـليف (عبـد/رقيـق) Slave خاصة في التهكم على حالة السجن الذي عاش فيه السلاف فـي العهد السوفيتي.

- **الشامانية Shamanism:** ديانة تقوم على الاعتقاد بوجود أرواح خيـرة وأخرى شريرة، تتم السيطرة عليها من قبل الكاهن أو الشامان.

- **الشاهنامة:** الشاهنامة بالفارسية: شاهنامه "كتاب الملـوك" أو "ملحمـة الملوك". كتاب ألفه الفردوسي أبو القاسم منصور في الفتـرة مـا بـين

٩٧٧ م و ١٠١٠ م، وهو شاعر فارسي ذو تأثير عظيم على الأدب الفارسي. أطلق عليه الإيرانيون لقب "سيد الكلمة" و"منقذ اللغة الفارسية". تُعتبر الشاهنامة هي الملحمة الوطنية لبلاد فارس، ويشكل الكتاب ثقلا كبيرا بالنسبة للقوميين الفرس. في وصف الأحداث، تعود محتويات الكتاب وأسلوب الشاعر بالقارئ نحو ألف سنة ويسمحان له باستشعار الأحداث في المسرح السحري للعقل. وهو مبني بشكل رئيسي على نسخة نثرية سابقة، كانت تجمع القصص الإيرانية القديمة والحقائق والخرافات التاريخية. لأكثر من ألف عام واصل الفرس القراءة والاستماع لهذا العمل النادر الذي وجدت فيه الملحمة الوطنية الفارسية شكلها النهائي. هو تاريخ ماضي إيران، مسجل على شكل شعر. ومع أن النص كتب قبل أكثر من ألف سنة، فإن هذا العمل واضح وسهل لفهم القارئ في العصر الحالي.

- **صحراء جوبي Gobi** : أكبر منطقة صحراوية في آسيا. تغطي أجزاء من شمال وشمال غرب الصين، ومن جنوب منغوليا. تعتبر من الصحاري الخمس الكبرى في العالم.
- **طائر الفينيق**: الفينيق طائر أسطوري ذكر هيرودوت أنه يأتي لمصر من الجزيرة العربية مرة كل ٥٠٠ سنة ومعه جثة سلفه ليدفنها في مدينة الشمس. تقوم الأسطورة على أن هذا الطائر الذي يشبه النسر يولد من جديد من رماد جثة سلفه. وسمى بالفينيق ربما لأنه ظهر لأول مرة في الحضارة الفينيقية. وترمز الأسطورة إلى الكائن الحي الذي يعمر طويلا ثم يموت ومن رماد جثته يولد طائر جديد في عنفوان الشباب والحياة، وهكذا. وتحمل هذه الدورة الحياتية الأسطورية أبعادا

دينية وفلسفية وأدبية ورمزية مهمة استعان بها الشعراء والأدباء والمؤرخون عبر العصور.

- **الطقوس الأريوسية**: الآريوسية مذهب مسيحي وإحدى الطوائف التي لم يعد لها وجود في الوقت الراهن، تنسب إلى آريوس (تقريبا ٢٥٠ – ٣٣٦) أحد كهنة الإسكندرية وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث الأقدس ببعضها البعض وطبيعة هذه الأقانيم.
- **العرق السوبر**: العرق الأعلى في نظرية جومليوف هو العرق الأعلى في التسلسل الهرمي العرقي، الذي يتكون من عدة اعراق ظهرت في وقت واحد في منطقة واحدة ويوجد فيما بينها علاقات اقتصادية وايديولوجية وسياسية.
- **الفرنك أو الفرانكس**: اتحاد قبائل جرمانية عرفت منذ القرن الثالث الميلادي في الحوضين الأوسط والأدنى لنهر الراين. قام الفرنك بالاستيلاء على أجزاء كثيرة من ميراث الإمبراطورية الرومانية وبصفة خاصة في شطرها الغربي حتى نهاية القرن الثامن الميلادي، تطور الفرنك لاحقا ضمن الإمبراطورية الكارولنجية. وفي العصور الوسطي استخدم مصطلح الفرنك (الفرنج) في حضارات الشرق مرادفا لأوروبا الغربية، نظرا لسيطرتهم على معظم أوروبا الغربية.
- **قبائل طوران Turan**: كانت تقطن الأرض الممتدة قديمًا بين توركستان شمال نهر أوكسوس (آموداريا) بمواجهة إيران.
- **قبشاق Qipchaq**: حضارة تقوم على الرعي والغزو ينحدر أفرادها من اصل تركي عرفت في روسيا وأوكرانيا باسم بولوفتسي امتدوا على

مساحة واسعة من السهوب الأوراسية، من بحر أورال غربًا وصولاً إلى البحر الأسود شمالاً (الآن في أوكرانيا وشمال غرب روسيا).

- **القبيلة الذهبية:** (Golden Tribe) اسم أطلقه الروس على الغزاة المغول بعد دخولهم أراضيهم ويعتقد أنه مستمد من خيمة زعيمهم باتو خان المصنوعة من الذهب الخالص.
- **قبيلة الكرابيت Kereit:** كانت تقطن الواحات الشرقية لصحراء جوبي وجنوب بحيرة بيكال حتى سور الصين، وكانت هذه القبيلة من أقوى قبائل المغول في القرنين الخامس والسادس الهجريين واستطاعت السيطرة على معظم القبائل حولها، وقد اعتنق رئيس هذه القبيلة الديانة المسيحية عام ٣٩٨ ه/ ١٠٠٨م.
- **قره خيتاي Qara Khitai:** أو كارا خيتان: اسم اطلقه الخيتانيون على أنفسهم وهم قبائل رعوية استقرت في القرن الرابع في الصين.. أسسوا ولاية قره خيتان التي دمرت من قبل المغول عام ١٢١٨. غالبا ما تترجم العبارة بالخيتاي السود، ولكن أصلها غير معروف. حرفيًا تعني في اللغة المغولية ((الصين السوداء))، وهي مقاطعة في شمال وشمال شرق الصين وبدأت تأخذ هذا الاسم تحديدًا بعد الغزو المغولي لها.
- **قره قورم Qaraqorum:** عاصمة الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر وهي بالقرب من مدينة خاخورين الحالية الواقعة في الشمال الغربي من منغوليا.
- **القوريلتاي Quriltai:** اسم أطلق على اجتماعات الجمعية الوطنية العامة في الإمبراطورية المغولية.

● **القوزاق:** شعوب سلافية شرقية، كانت دوما تتألف من محاربين أشداء يسكنون المنطقة الممتدة في أوروبا الشرقية وغرب روسيا فيما بين نهري الدون والدنيبر. ومنذ العصور الوسطى دخل القوزاق في تحالف عسكري واستراتيجي مع الروس وشكلت أراضيهم في بعض الفترات نطاقا عازلا بين روسيا وأعدائها.

● **القوط :** قبائل جرمانية، تركز نطاقها الجغرافي في البداية في شرق أوروبا وبصفة خاصة من شمال البحر الأسود إلى بحر البلطيق ومن نهر الفولجا إلى نهر الدانوب. تمكنوا في نهاية القرن الرابع الميلادي من الإغارة على الإمبراطورية الرومانية وتدميرها. خلال القرون الثلاث من الرابع إلى السادس انقسم القوط إلى شعبتين: "القوط الشرقيون" (في شرق أوروبا إلى الشمال من البحر الأسود) و"القوط الغربيون" (في غرب أوروبا وبالتحديد في شبه جزيرة أيبيريا).

● **قوطيا:** يوجد في جنوب السويد إقليم ما زال يعرف إلى اليوم باسم جوتلاند Gutland.

● **قيصر، مدينة:** مدينة قيصر أو "تسارغراد" هو الاسم الذي كان يطلقه الروس على القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

● **كونفيكسي:** الكونفيكسيا في نظرية جوميليوف هي مجموعة من الناس يجمعهم نظام حياتي واحد وعلاقات أسرية، وهي العنصر الأدنى في التسلسل العرقي.

● **مجلس زيمسكي:** مجلس ضم ممثلي كافة الطبقات في المجتمع الروسي (عدا الفلاحين) في الفترة القيصرية الملكية منذ منتصف القرن ١٦ وحتى نهاية القرن ١٧، كانت مهمته مناقشة المسائل السياسية الدولية

والاقتصادية والإدارية المحلية وما يرتبط بذلك. وفي مجمل المعنى يقصد بكلمة زيمسكي في اللغة الروسية "مجلس محلي مختار يضم عددا من ممثلي طبقات وفئات شعبية".

- **المركيت Markit**: قبيلة من المغول كانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمالي بلاد الكراييت على مجرى نهر ((سلنجا)) وجنوبي بحيرة بيكال، وكان لهم جيش قوي ذو بأس شديد ولهذا شنّ عليهم جنكيز خان حربًا شعواء استعمل فيها القسوة والشدة حتى أباد معظمهم.
- **مملكة سكيثيا الكبرى**: سكيثيا اسم أطلقه الإغريق على سكان البدو البدائيين الآسيويين. وقد استوطن السكيثيون المنطقة التي تحمل اسمهم في أوراسيا منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد حتى القرن الثاني الميلادي. اختلف موقع سكيثيا واتساعها عبر الزمن. امتدت سكيثيا في أوراسيا من وسط آسيا في الشرق حتى أوروبا الشرقية إلى الشرق من نهر فيستولا. أطلق اليونانيون القدماء اسم سكيثيا (أو سكيثيا الكبرى) على كل أراضي أوروبا الشمالية الشرقية والساحل الشمالي للبحر الأسود. لا يُعرف سوى القليل عنها وعن حكّامها سوى من إشارات في تاريخ هيرودوت، رغم أنه من غير المؤكد إن كان قد زار سكيثيا فعلياً.
- **منشوريا Manchuria**: اسم تاريخي أطلق على المنطقة الجغرافية الواسعة الممتدة في شمال شرق آسيا. من المتعارف عليه أن يُشار إليها بوصفها منطقة شمال شرق الصين.
- **مونكو خان Mongke Khan**: (١٢٠٨- ١٢٥٩) تولى العرش وهو في الثالثة والأربعين من عمره. يعتبر أشهر خانات المغول بعد جنكيز خان وهو أخ هولاكو القائد المغولي المشهور وهو من كلفه بغزو إيران والعراق.

- **النزعة السلافية:** نزعة مناصرة السلافية (حرفيا: حُب السلاف "Slavophiles"): مذهب فكري نشأ في القرن ١٩ سعى إلى تنمية الإمبراطورية الروسية بناء على القيم والمؤسسات المستمدة من تاريخها الطويل ، ومناهضة التأثير الثقافي الغربي على روسيا، ويرتبط ذلك بمفهوم آخر هو "الجامعة السلافية Pan-Slavism" والمعبر عن فكر قومي يسعي إلى ممارسة الوسائل والسياسات التي يمكنها ضم كل الأعراق ذات الأصل السلافي تحت سماء واحدة وتشمل روسيا وأجزاء من آسيا الوسطى والقوقاز ومعظم أوروبا الشرقية والبلقان.
- **النسطورية المسيحية Nestorian Christianity:** مذهب يؤمن بأن المسيح يتألف من قسمين: واحد إلهي والآخر بشري، وينكر أصحابه قداسة السيدة مريم العذراء. تقابلها اليوم نسطورية الكنيسة العراقية.
- **النمسا:** في جنوب شرق أوروبا في النطاق الذي يعرف اليوم باسم "البوجوسلاف" أي السلاف الجنوبيين.
- **نهر أوكسوس Oxus:** نهر آسيوي كان يسمى أوكسوس، وهو جيحون عند العرب. ينبع من التقاء نهري فاخش وباندج من جبل بامير في آسيا الوسطى.
- **نيكوليتانس:** النكليكيون واحدة من العديد من الطوائف المناهضة للنظام في العصور الوسطى التي اتبعت عبادة الشيطان.
- **الهون:** شعب بدوي عاش في أوروبا الشرقية، والقوقاز، وآسيا الوسطى في الفترة بين القرن الأول الميلادي والقرن السابع الميلادي. وكما في العُرف الأوروبي، فقد ذُكروا أول مرة باستيطانهم شرق نهر الفولجا، في منطقة كانت جزءا من سكيثيا في ذلك الحين. يرتبط

وصول الهون بهجرة شعب الآلان السكيثي إلى الغرب. قبل عام ٩١ ميلاديا إن الهون سكنوا بالقرب من بحر قزوين، وبحلول عام ١٥٠ تقريبا هاجروا جنوبا إلى القوقاز. في عام ٣٧٠ فرض الهون في أوروبا سيادة واسعة، وإن كانت قصيرة العمر.

- **يأجوج ومأجوج Gog and Magog**: يرد ذكرهما في الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم. ما زال اللبس قائمًا حول أصل الكلمتين، حيث ورد ذكرهما في التوراة والإنجيل والقرآن على أنهما ابنا ليافث بن سيدنا نوح. وغالبًا ما تجري الإشارة إليهما من قبل الأساطير والحكايات الشعبية على أنهما شخصان ينتميان لعالم الشياطين أو العمالقة).
- **ياسا**: يطلق عليه اسماء متعدة منها: ياسا، ياسة، يسق، يساق، اليساق، ياصاي، السياسة الكبيرة، السياسا، كتاب القواعد الكبير أو الحكم والقاعدة والقانون. وكلها أسماء لـ «ميثاق الشرف المغولي»، أي مجموعة القواعد والأنظمة التي وضعها جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية، وهي أقرب لأن تكون الوصايا العشر، وتحولت إلى كتاب مقدس عند الحكام المغول الذين استعانوا بهذه التعاليم في تثبيت سلطتهم.
- **يان Yuan**: وهي سلالة المغول ممكن حكموا الصين (١٢٧١-١٣٦٨) أسسها رسميًا قبلاي خان، ويشار إليها أحيانًا بتسمية إمبراطورية الخانات العظمى وغالبًا ما يطلق على خاناتها اسم الخان الأعظم أو الخاقان.

المراجع

СЛОВАРЬ ТЕРМИНОВ И РЕДКО УПОТРЕБЛЯЕМЫХ СЛОВ

Адаптация — приспособление этноса к ландшафту, происходящее путем выработки новых стереотипов поведения.

Антисистема этническая — сообщество людей, объединенных негативным мироощущением.

Архиерей — высший священнослужитель Православной церкви.

Багатур (*монг.*) — буквально «тот, в ком живет бог»; неофициальное наименование степных богатырей.

Барма / бармы — на Руси: украшение государей и высших духовных лиц в виде широкого ожерелья.

Варяг — в Византии: любой наемный воин; на Руси в IX–X вв.: воин — выходец из Скандинавии.

Василевс / базилевс (*греч.*) — император в Византии.

Вежа — шатер, юрта, разборное переносное жилище степняков.

Гармоничные люди — люди, пассионарный импульс у которых равен по величине импульсу инстинкта самосохранения.

Гомеостаз этнический — устойчивое состояние этнической системы, при котором колебания количества биохимической энергии — пассионарности — незначительны, что определяет этноландшафтное равновесие и отсутствие смены фаз этногенеза.

Гридень — на Руси: воин из личной охраны князя или боярина.

Гулям (*тюрк.*) — профессиональный воин.

Губные старосты — главы небольших административно-территориальных единиц — губ, существовавших на Руси до реформ Петра I.

Джетэ — разбойничья банда.

Джуд — гололед в степи, приводящий к массовой гибели скота.

Дискретность этнической энергии — прерывистость причинно-следственных связей, отмечающая начало и конец любого этногенеза.

Евхаристия (*греч.*) — буквально «благодать»; главный обряд христианской церкви — причащение, одно из семи христианских таинств, при котором происходит превращение хлеба и вина в тело и кровь Господни.

Ересиарх (*греч.*) — создатель учения, отклоняющегося от догматов Церкви и соборно осужденного ею.

Иерарх (*греч.*) — высший священнослужитель; в православии — архиерей.

Ильхан (*монг.*) — хан страны, завоеванной монголами и находящейся в составе Монгольского улуса.

Пассионарии — люди, пассионарный импульс у которых превышает импульс инстинкта самосохранения.

Пассионарность (как характеристика поведения) — избыток биохимической энергии живого вещества, проявляющийся в способности людей к сверхнапряжению.

Пассионарный импульс — поведенческий импульс, имеющий направленность, противоположную инстинкту личного и видового сохранения.

Пассионарный толчок — «микромутация», вызывающая в популяции повышенную абсорбцию биохимической энергии из внешней среды и приводящая к появлению новых этнических систем.

Патерик — сборник рассказов о жизни христианских подвижников.

Популяция — совокупность свободно скрещивающихся особей, в том числе людей, населяющая в течение ряда поколений определенную территорию.

Посполитое рушение — в Польше: шляхетское ополчение, собираемое королем.

Принцепс — в Древнем Риме с I в. н. э.: первый из сенаторов, сосредоточивавший в своих руках всю полноту государственной власти.

Рада (*укр.*) — народное собрание, совет.

Рахдонит (*перс.*) — буквально «знающий путь»; еврей или согдиец, занимавшийся торговлей на Великом караванном пути.

Реликт — этническая система, находящаяся в состоянии гомеостаза.

Рокош — в Польше: восстание шляхтичей против власти короля.

Сардар (*перс.*) — офицер.

Сердюк (*укр.*) — казак из личной охраны гетмана.

Синодик — список имен покойных, составляемый для церковного поминовения.

Смещение — нарушение хода этногенеза вследствие внешнего воздействия.

Старшина — общее название руководителей в казачьих войсках.

Стереотип поведения — специфические правила, стандарты поведения членов этнической системы, передаваемые потомству путем научения.

Стол — на Руси: престол, княжение.

Сторóжи — на Руси в XV–XVI вв.: пограничные наблюдательные пункты.

Стратиг (*греч.*) — военачальник, полководец.

Субпассионарии — люди, пассионарный импульс у которых меньше импульса инстинкта самосохранения.

Субэтнос — этническая система, состоящая из нескольких этносов, возникших в одном ландшафтном регионе, и проявляющаяся в истории как мозаичная целостность.

Схизматик — в Западной Европе в IX–XIV вв.: приверженец Православной церкви.

Императив поведения — принципы отношения коллектива к индивиду; господство тех или иных принципов определяет стереотип поведения этноса, связанный с конкретной фазой этногенеза.

Инкубационный (скрытый) период — часть фазы подъема от момента пассионарного толчка до появления этноса как новой этносоциальной системы.

Инсургент — участник восстания, повстанец.

Исихия (*греч.*) — особый род внутренней молитвы, с помощью которой монахи-молчальники (исихасты) наблюдали так называемый фаворский свет. Фаворский свет считался непосредственной эманацией Святого Духа.

Капище — место языческих поклонений.

Киновия (*греч.*) — монастырь с общежительным уставом.

Клирик — священнослужитель, член клира — сообщества служителей Церкви.

Комплиментарность — подсознательное ощущение взаимной симпатии и общности людей, определяющее деление на «своих» и «чужих».

Конвиксия — группа людей с однохарактерным бытом и семейными связями; низший элемент в этнической иерархии.

Консорция — группа людей, объединенных общей исторической судьбой.

Конунг (*сканд.*) — князь.

Кунтуш — польская мужская верхняя одежда.

Курултай (*монг.*) — собрание представителей всего народа-войска для выборов хана или принятия других важнейших решений.

Легат — посланник папы рим., выполняющий особые поручения.

Логика событий — причинно-следственные связи между событиями, детерминирующие дальнейший ход самих событий.

Магнат — в Польше и Венгрии: богатый вельможа, способный на проведение политики, достаточно независимой от королевской власти.

Мироощущение — фиксированное сознанием отношение человека к идеальным ценностям и материальному миру. **М. негативное** — отношение к идеальным ценностям и материальному миру, проявляющееся в стремлении к упрощению этнических систем. **М. позитивное** — отношение к идеальным ценностям и материальному миру, проявляющееся в стремлении к усложнению этнических систем.

Мурза (*тат.*) — вельможа.

Наварх (*греч.*) — мореплаватель, командующий эскадрой, флотом.

Нойон (*монг.*) — правитель рода, обычно приравниваемый по своему достоинству к князю.

Нухур / нукер (*монг.*) — дружинник-телохранитель.

Окольничий — в Русском государстве в XIII—XVII вв.: один из высших боярских чинов, придворная должность.

Темник — военачальник, стоящий во главе 10 тысяч воинов в монг. войсках.

Тумен (*монг.*) — подразделение численностью в 10 тысяч человек в монг. войсках (по-русски — тьма).

Тысячник — военачальник, стоящий во главе тысячи воинов в монг. войсках.

Улем — в мусульманском мире: ученый, богослов и правовед.

Улус (*монг.*) — стойбище; в широком смысле слова — страна или область, находящаяся под единым управлением.

Ушкуйник — на Руси в XIV в.: участник грабительских походов.

Фаза этногенеза — четко фиксируемый этап развития этноса, характеризуемый определенным уровнем пассионарного напряжения и соответствующим ему стереотипом поведения людей; выделяется шесть фаз.

Ф. подъема характеризуется стабильным повышением уровня пассионарного напряжения системы вследствие пассионарного толчка.

Ф. акматическая наступает после фазы подъема и характеризуется предельным для данной системы уровнем пассионарного напряжения.

Ф. надлома характеризуется резким снижением уровня пассионарного напряжения после акматической фазы.

Ф. инерционная характеризуется плавным снижением уровня пассионарного напряжения после фазы надлома.

Ф. обскурации — снижение уровня пассионарного напряжения ниже уровня, свойственного гомеостазу; при этом происходит либо исчезновение этноса как системы, либо превращение его в реликт.

Ф. мемориальная наступает после фазы обскурации, когда отдельные представители этноса еще сохраняют культурную традицию.

Чамбул (*тат.*) — конный отряд.

Шаньюй — титул хуннского военного вождя.

Этническая история — зафиксированные источниками последствия этногенеза и этнических контактов.

Этническая система — сообщество людей, объединенных мироощущением и стереотипом поведения.

Этническая традиция — совокупность стандартов поведения, передаваемых через механизм условного рефлекса.

Этнический субстрат — исходные этнические компоненты, интегрирующиеся вследствие пассионарного толчка в новый этнос.

Этногенез — процесс возникновения, развития и исчезновения этносов.

Этнология — географическая наука, изучающая этногенез в историческую эпоху.

Этнос — естественно сложившийся на основе оригинального стереотипа поведения коллектив людей, существующий как система, которая противопоставляет себя другим подобным системам, исходя из ощущения комплиментарности.

المؤلف فى سطور:

ليف نيقولايفتش غوميليوف

أحد أشهر الجغرافيين في الاتحاد السوفيتي خلال القرن العشرين (ولد في سان بطرسبرغ في أكتوبر ١٩١٢، وتوفي في نفس المدينة في يونية ١٩٩١). يحظى بشهرة مرموقة باعتباره مؤرخا بمثل ما هو جغرافي رصين وباحث رائد في كل من الأركيولوجيا والأنثروبولوچيا الثقافية.

ولد لشاعرين كبيرين في تاريخ الأدب السوفيتي: الأب نيقولاي غوميليوف، والأم أنًا أخماتوڤا. للأسرة كلها كفاح سياسي بين الصعود والاضطهاد. تعرض ليف بدوره للاعتقال للآراء السياسية المناهضة للاستبداد أربع مرات في عهد ستالين كانت الثالثة منها عقوبة سجن خمس سنوات، وكانت المرة الرابعة في ١٩٤٩ وحكم عليه فيها بالسجن عشر سنوات.

وحين أفرج عنه بعد موت ستالين استأنف ليف غوميليوف منذ ١٩٥٦ مسيرته العلمية والتحق للعمل بكل من متحف الإرميتاچ وجامعة لينينغراد (سان بطرسبرغ).

يعد غوميليوف أحد أشهر من جمع بين وجهيّ العملة في الدراسات الحضارية: الجغرافيا والتاريخ. وطبق ذلك على تاريخ شعوب الخزر وبحر قزوين وقبائل السهوب في وسط آسيا في القطاع الواصل بين قارتي أوروبا وآسيا حتى اشتهر بلقب "الأوراسي العظيم". وما من عجب في ذلك، وقد

حصل على رسالتين للدكتوراه: الأولى في التاريخ (١٩٦١)، والثانية في الجغرافيا (١٩٧٤).

لم يكن التأهيل العلمي لغوميليوف نابعًا من قراءة صامتة في الكتب والمراجع، بل من خلال مشاركته في بعثات التنقيب الأثري، وقد شارك في ٢١ بعثة أثرية خلال الفترة من ١٩٣١ وحتى ١٩٦٧.

كانت واحدة من أهم اكتشافات غوميليوف الأثرية في منطقة مصب نهر الفولغا في بحر قزوين، وهي المنطقة المعروفة في التاريخ بأنها مركز حضارة مملكة الخزر التي قام عليها جانب مهم من تفسير تاريخ روسيا.

ترك ليف غوميليوف تراثا علميا كبيرا، قوامه اثنا عشر كتابا وأكثر من مئتي بحث ومقال علمي.

المترجمون فى سطور:

١ـ عاطف معتمد

حصل على الدكتوراه من روسيا عام ٢٠٠١، يعمل أستاذا بقسم الجغرافيا، كلية الآداب – جامعة القاهرة. باحث ومترجم في الجغرافيا وفي العلاقات الدولية، عمل خلال الفترة من نهاية ٢٠١٤ ومطلع ٢٠١٧ مستشارا ثقافيا لجمهورية مصر العربية، ورئيسا لبعثتها التعليمية في السفارة المصرية في موسكو.

٢ـ سعد سيد خلف

حصل على الليسانس من قسم اللغة الروسية بكلية الألسن جامعة عين شمس، ثم في عام ٢٠١٧ على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة موسكو، يعمل مترجما رسميا للخارجية المصرية في روسيا، وهو المترجم المعتمد للوفود والزيارات الحكومية المصرية إلى روسيا حتى تاريخ ترجمة هذا العمل. له إسهامات مشهود بدقتها في الترجمة الفورية بين اللغتين العربية والروسية.

٣ـ وائل فهيم

مدرس اللغة الروسية بكلية الألسن جامعة عين شمس. له إسهامات متنوعة في مجال البحث والترجمة من اللغة الروسية وإليها. حصل على الدكتوراه من جامعة عين شمس، وأمضى بعدها عاما أكاديميا للتدريب في معهد بوشكين للغة الروسية في موسكو.

هذا كتاب من تأليف أحد أشهر علماء الجغرافيا والتاريخ في روسيا خلال القرن العشرين، وهو مؤلف يتحلى برؤية شاملة تجمع التطور الحضاري الذي شهدته أوراسيا (أوروبا وآسيا) خلال رحلة ألفي عام من تتابع الشعوب التي حملت ما أسماه "دفعات من الطاقة الخلاقة" غيرت خريطة الدنيا. تبدأ قصة الكتاب مع الهون والقوط والصقالبة والمغول وعلاقة ذلك بنشأة روسيا الحديثة وتطورها من مجموعة قبائل بدائية وثنية هامشية إلى قوة عظمى في التاريخ.

وفقا لأطروحته التي أسماها "طاقة الشغف الخلّاق" المسؤولة عن تحريك الأعراق والشعوب، يأخذنا المؤلف في تحليل جغرافي وتاريخي وأنثروبولوجي جاد ومنهجي ومنظم عبر رحلة تبدأ مما قبل الميلاد وحتى العصر الحديث وتداعيات ذلك على عالمنا المعاصر، وفي نهاية الكتاب يضع رئيس الجمعية الجغرافية الروسية تعقيبًا يكشف به خبايا لم نكن نعرفها عن المؤلف الكبير وكتابه النادر.



تصميم الغلاف: نسرين كشك
لوحة الغلاف: رمزية لثالوث روسيا من ملصق أوائل القرن العشرين للفنان دميتري فيليبوفيتش